بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى

للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

على الرغم من طول المسافة بين مصر والحبشة في عصور لم تعرف من وسائل المواصلات سوى الدواب والسفن التى تسير بالشراع أو المجداف فإن هناك روابط عديدة قوية ربطت هذين البلدين منذ أقدم العصور .

ومهما تتعدد هذه الروابط في ضوء الاعتبارات الاقتصادية والدينية والإفريقية ، فإن ثمة رباط أزلى خالد ، ربط البلدين على مر عصور التاريخ ، ومازال يربط بينهما رباطاً قوياً متيناً ؛ أعنى رباط النيل الذى تنبع بعض روافده الأساسية من بلاد الحبشة ، فتجلب معها الحياة وماء الفيضان إلى البلاد التى يمر بها حتى يصب في البحر المتوسط . وإذا ذكرنا روافد نهر النيل ببلاد الحبشة وما يرتبط بها من مياه الفيضان ، فعلينا أن نذكر أن الحياة بمصر ظلت حتى العصور الحديثة تعتمد على فيضان النيل بالذات ؛ حيث أن مصر بوجهيها البحرى والقبلى لم تعرف حتى أوائل القرن التاسع عشر أسلوباً غير رى الحياض لاستثمار أراضيها الزراعية . فإذا جاء الفيضان من الحبشة طيباً ، أمكن رى جميع الأراضى الزراعية وزراعتها بالغلة الواحدة التى تعتمد عليها البلاد والعباد طيلة العام . أما إذا جاء فيضان النيل من الحبشة ضعيفاً ، فكان معنى ذلك كارثة ، أهم مظاهرها الغلاء والجوع وانتشار الوباء ، وسقوط آلاف الموتي في الطرق دون أن يجدوا أحياناً من يقوم بدفنهم وموارة أجسادهم في التراب . وكثيراً ما تكررت هذه الظاهرة في مصر طوال

العصور الوسطى ، فتعرضت البلاد لعديد من الشدائد ، بسبب نقص مياه الفيضان ، وهو الأمر الذى شرحه المقريزى في كتاب خاص[١] .

وقد أدرك الكتاب والمؤرخون في العصور الوسطى أهمية رابطة النيل بين مصر والحبشة . فذكر القلقشندى عن أهل الحبشة أنهم « يدعون أنهم يحفظون مجارى النيل المنحدر إلى مصر، ويساعدون على إصلاح سلوكه، تقرباً لصاحب مصر . » كذلك ذكر القلقشندى – نقلاً عن المؤرخ المسيحى ابن العميد – أنه لما انخفض النيل عدة سنوات وتعرضت البلاد للشدة المستنصرية العظمى أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ ، ١٠٣٦ – ١٠٩٤ م) ؛ بادر الخليفة بإرسال البطريرك إلى الحبشة لاستدراك الأمر وإصلاح مجارى النيل[٢] . وسواء كان هذا الأمر قد حدث فعلاً أو لم يحدث ، فالذى يعنينا هو إحساس المعاصرين بخطورة رابطة النيل بين مصر والحبشة ؛ وهى في حقيقة أمرها رابطة الحياة والبقاء . . .

أما الروابط الاقتصادية ، فكان من الطبيعى أن تحتل مكاناً هاماً بين بلدين ، يقع أحدهما عند الطرف الشمالى للبحر الأحمر، ويقع الآخر عند طرفه الجنوبي . وإذا ذكرنا البحر الأحمر ، فإنما نعنى ذلك الطريق التجارى الخطير الذى ظل طوال العصور التاريخية يربط بين بلاد شرق إفريقية وجنوب آسيا من ناحية ، وبلاد حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى. حقيقة إنه وجدت طرق أخرى تسلكها تجارة الشرق إلى الغرب ، مثل طريق الخليج والعراق فالشام أو آسيا الصغرى ، ومثل طريق الصين فتركستان فموانى البحر الأسود . . . ولكن مهما تتعدد هذه الطرق ، فإن التاريخ أثبت دائماً أن طريق البحر الأحمر هو أفضلها وأيسرها وأقصرها ، وأقلها نفقات وأكثرها أمناً ؛ وخاصة أن الطرق الآسيوية البرية تعرضت في كثير من عصور التاريخ للعبث وعدم الاستقرار نتيجة للهجرات البشرية أو الغزوات

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ؛ ج ٥ ص ٣٢٣

الحربية ، التى ما فتئت تنبعث بين حين وآخر من جوف القارة الآسيوية، وتنطلق لتهدد أمن الطرق التجارية البرية بين الشرق والغرب .

وإذا كانت حتشبسوت قد أرسلت بعثتها التجارية الشهيرة إلى بلاد بونت — وهى البلاد المعروفة اليوم تقريباً باسم الصومال — لتجلب البخور وغيره من الحاصلات إلى مصر ، فإن بلاد الصومال كانت في مختلف عصور التاريخ القديم والوسيط جزءاً متمماً لبلاد الحبشة ؛ خاصة وأن التوجيه الجغرافي للحبشة يتجه دائماً ناحية الشرق حيث البحر الأحمر والمحيط الهندى . وربما كان من أسباب ذلك أن انهار الحبشة — مع كثرتها واتجاهها في جريانها جهة الغرب — أى جهة بلاد السودان — فإن هذه الأنهار في جملتها لاتصلح للملاحة داخل بلاد الحبشة ذاتها ؛ مما جعلها عديمة القيمة تقريباً في تدعيم الروابط المختلفة بين الحبشة وبلاد السودان . وبالتالى فإن اتجاه الحبشة وأهلها ظل دائماً ناحية الشرق لا الغرب [1] .

وهكذا قامت علاقات تجارية بين مصر والحبشة منذ أقدم العصور ، فكانت مصر تستورد عن طريق الحبشة البخور والأبنوس والجلود والعاج والأخشاب ، فضلاً عن الحديد والذهب والفضة[2] وكانت بعض المدن الحبشية — مثل عدول ومكانها الحالى ميناء زولا جنوبي مصوع — مراكز تجارية هامة ، بحكم مالها من موقع متوسط بين بلاد جنوب آسيا وشرقها من ناحية وبلاد البحر الأحمر وخاصة مصر من ناحية أخرى[3] .وفي هذا الميناء بالذات كان يجتمع كثير من التجار الهنود والعرب وغيرهم ، ممن يقومون بعمليات التبادل التجارى في تلك المنطقة الحساسة . هذا فضلاً عن أن ميناء عدول كان يقع على طريق التجارة البرى الذى يربط داخلية بلاد الحبشة بشاطئ البحر ، وهو طريق دائرى يبدأ من عدول ، ويمر بعدوة

---

(١) محمد الصياد : السودان والحبشة ، ص ٢٣٤ ، ٢٤٣

(٢) المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ٣

Budge : Ethiopia, vol, 1, p. 132,

(٣) **D'Abbadie (A) : Douze Ans dans la Haute Ethiopie, Tome 1, p.p. 118-;**

وأكسوم وأسمرة ، ثم ينتهى من حيث يبدأ في عدول . وكانت القوافل تقطعه في بضعة أيام (١) .

وفي العصور الوسطى بالذات ، أسهمت في هذا النشاط التجارى على شواطئ بلاد الحبشة بعض الجاليات العربية ، التى نزحت إلى الشاطئ الشرقي لأفريقية من حضرموت وعمان واليمن ، والتى كونت سلطنات أو إمارات إسلامية على شاطئ الحبشة(٢) . وقد ذكر القلقشندى « ما بيد مسلمى الحبشة » من بلاد ، فقال إن هذه البلاد تقع على أعالى بحر القلزم (الأحمر) أى عند طرفه الجنوبي وما يتصل به من بحر الهند ، وذكر أن هذا الشريط الإسلامى من بلاد الحبشة يعبر عنه « بالطراز الإسلامى ، لأنه على جانب البحر كالطراز له » . وإذا كانت هذه البلاد قد عرفت في مصر والشام بإسم « بلاد الزيلع » ؛ فإن زيلع في حقيقة الأمر لم تكن إلا قرية من قراها غلب عليها إسمها . ثم عدد القلقشندى أهم قواعد المسلمين في الحبشة ، أى مدنهم وحواضرهم التى هى مراكز دويلاتهم ؛ فذكر منها سبع هى : أوفات — ويتبعها جبرة وزيلع — ، ودوارو ، وأرابينى ، وهدية ، وشرحا وبالى ، وداره(٣) .

ويهمنا من أمر هذه الدويلات الإسلامية ، التى قامت على ساحل بلاد الحبشة ، أنها احتكرت النشاط التجارى ، وقبضت على زمام الحركة التجارية بين داخلية بلاد الحبشة من ناحية وبلاد البحر الاحمر ويدخل فيها مصر من ناحية

---

(١) Bent : The Ancient Trade Route across Ethiopia, p. 140.
(J. R. A. S. ; 1893) &
Martin (V. de Saint) : Eclaircissements Geographiques et Historiques sur l'inctiption d'Adulis.
(J. Asiatiques, 6eme Serie, Tome 2, p.p. 328-401 ; 1863).

(٢) Trimingham : Islam in Ethiopia, p. 32 &
مراد كامل : فاسيلاداس نجاشي الحبشة ص ٢٩ ، الشاطر بصيلى : دويلات على الشاطىء الافريقى ، ص ١٧

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ؛ ج ٥ ص ٣٢٤ ، ٣٣١ . وقد استمد القلقشندى كثيرا مما كتبه من كتاب مسالك الأبصار للعمرى ، وكذلك كتاب التعريف .

أخرى ، بما في ذلك تجارة المرور الآتية من جنوب آسيا إلى البحر الأحمر عن طريق مواني الحبشة . ذلك أن سيطرة هذه الجماعات الإسلامية على مواني الحبشة مثل زيلع ومصوع وتاجوره وأمفيليا — ، أدت إلى سيطرتها على الطرق البرية الرئيسية التي تربط داخلية بلاد الحبشة بالبحر ، مثل طريق تاجوره أنكوبار ماراً ببلدة حوصا ، وطريق مصوع جندار ماراً ببلدة عدوة ، وغيرها من الطرق التي تبدأ من أمفيليا وسواكن وتنتهي داخل بلاد الحبشة[١].

وربما ساعد على النشاط التجارى لتلك الجاليات الإسلامية ، على سواحل الحبشة ما عرف عن المسلمين بوجه عام من نشاط تجارى ضخم واسع ، وحب للأسفار والرحلات طوال العصور الوسطى ، حتى أصبح « التاجر الغنى في القرن الرابع الهجرى (العاشر للميلاد) هو ممثل الحضارة الإسلامية . . . وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية . »[٢] فالنشاط التجارى الذى نهض به المسلمون في الحبشة في العصور الوسطى لم يكن إذاً أمراً غريباً ، وإنما كان في حقيقة أمره جزءاً من الصورة العامة للنشاط التجارى الضخم الذى نهض به المسلمون في تلك العصور ، من المحيط الأطلسى غرباً حتى المحيط الهادى شرقاً ، ومن بحر الهند جنوباً حتى سهول روسيا شمالاً .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن التجارة بالنسبة للجاليات الإسلامية على ساحل الحبشة كانت تمثل الأسلوب الرئيسى — إن لم يكن الوحيد — للكسب والحياة في تلك العصور ، نظراً لفقر البيئة من ناحية ، وعدم سماح الأحباش المسيحيين لإخوانهم المسلمين بتولى الوظائف العامة وممارسة كثير من الأعمال من ناحية أخرى ؛ أدركنا السر في تفوق تلك الجاليات الإسلامية في النشاط التجارى ، الأمر الذى مكنها من جمع ثروة طائلة ، دفعتهم في طريق التقدم

---

(١) James : Routes of Abyssinia, p.p. 2-11.

(٢) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥

الحضارى[١] . وهناك رأى يؤكد أن الأحباش أنفسهم يحتقرون — بحكم طبيعتهم — ممارسة النشاط التجارى ، الأمر الذى ساعد بدوره على احتكار المسلمين على سواحل الحبشة للتجارة[٢] . ونستطيع أن نقرر أن هذه الحقيقة الخاصة باحتكار مسلمى الحبشة للنشاط التجارى في العصور الوسطى كانت من العوامل المشجعة لزيادة الروابط الاقتصادية ، بين بلاد الحبشة من جهة ، وكثير من بلاد العالم الإسلامى — وعلى رأسها مصر — من جهة ثانية . وحسبنا ما يذكره القلقشندى من أن أوفات وأعمالها كانوا يستخدمون العملة المصرية « وليس بأوفات سكة تضرب ، بل معاملاتهم بدنانير مصر ودراهمها الواصلة إليها صحبة التجار »[٣] . وثمة إشارات متناثرة في المراجع إلى قيام السفن برحلات منتظمة بين مواني الحبشة وشرق أفريقيا من ناحية ، ومواني مصر على البحر الأحمر من ناحية أخرى . من ذلك — على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره يحى بن الحسين في كتاب غاية الأماني « . . . ثم أركبه سفينة سواكنية إلى مصر . . . »[٤] .

على أن علاقة مسلمى الحبشة بمصر في العصور الوسطى ، لم تقف عند حد الصلات الاقتصادية ، وإنما تبدو هذه العلاقة أشد وضوحاً في الجوانب الدينية والثقافية . ذلك أن مسلمى الحبشة كانوا يلتقون بإخوانهم المصريين في موسم الحج ، حيث يتم تبادل الأفكار والأخبار التى تعنى المسلمين جميعاً . ومن المعروف أن مصر احتلت مكانة خاصة في العالم الإسلامى منذ منتصف القرن الثالث عشر بالذات ، عندما تم إحياء الخلافة العباسية بمصر سنة ١٢٦١ م بعد سقوطها تحت حراب المغول في العراق . وترتب على ذلك أن جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها نظروا إلى القاهرة نظرة خاصة بوصفها قاعدة الخلافة الإسلامية . كذلك حرص كثير من ملوك المسلمين وأمرائهم

---

(١) Combe et Tamisier : Voyage en Abyssinie, T. 4, p.p. 63-65.

(٢) مراد كامل : فى بلاد النجاشى ، ص ١١٠

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٣١

(٤) يحيى بن الحسين بن القاسم : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، حوادث سنة ٥١٠ هـ (مخطوط) .

على الحصول على تفويض بالحكم من الخليفة العباسى ؛ وعلى استرضاء سلاطين المماليك في مصر بوصفهم القوة السياسية والحربية الكبرى في العالم الإسلامى ، المتمتعين ببيعة الخلافة العباسية والقائمين على حمايتها . ولا شك في أن أمراء المسلمين بالحبشة ساروا في نفس هذا التيار العام لبقية الدول الإسلامية ، بدليل مانجده من إشارات متناثرة في المراجع العربية المعاصرة عن الحبشة وأمرائها .

وإذا كانت القاهرة قد ورثت بغداد في مركزها الدينى في العالم الإسلامى ، فإنها ورثتها أيضاً في مكانتها الثقافية والعلمية ، فنزح إليها أساتذة العلم وطلابه ، لاعتقادهم أن العلم يوجد حيث توجد الخلافة . ومن بين طلاب العلم الذين وفدوا على القاهرة في ذلك العصر من مختلف أنحاء العالم الإسلامى كانت نسبة كبيرة من مسلمى الحبشة الذين صارت لهم أروقة خاصة بالأزهر(١) . واستمر نزوح الأحباش المسلمين إلى الأزهر لطلب العلم قروناً طويلة ، حتى أننا نعرف عن مؤرخ مصر الكبير « الجبرتي » ، أن جده السابع الشيخ عبد الرحمن رحل من الحبشه إلى مصر في أوائل القرن العاشر للهجرة ، وجاور بالأزهر ، وتولى مشيخة رواق الجبرتية(٢) . ومن أولئك الأحباش الذين جاوروا بالأزهر وبرزوا في ميدان العلم الشيخ الإمام الزيلعى فخر الدين عثمان بن على ، شارح الكنز والمتوفي سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) ؛ والمحدث الزيلعى جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد المتوفي سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) ؛ والعارف بالله

---

(١) Trimingham : op. cit., p. 62 .

(٢) الجبرتى : نسبة الى جبرة بفتح الجيم والباء الموحدة ، وقيل جبرت — وهو الاسم الذى يطلق على أوفات ، كبرى مدن المسلمين وأماراتهم بالشام .

(القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٢٥) .

وجدير بالذكر أن لقب « الجبرتى » ظهر أيضا فى كثير من البلاد العربية الاسلامية ، المطلة على البحر الأحمر ، مما يشير الى أن بعض المسلمين الأحباش — ومن جبرة أو جبرت بالذات — نزحوا الى تلك البلاد . من ذلك أنه كان من علماء عدن فى القرن التاسع الهجرى الشيخ اسماعيل الجبرتى ، وكذلك ظهر فيها فى القرن العاشر الشيخ عمر الجبرتى . انظر : يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ، حوادث سنة ٨٦١ هـ ، سنة ٩٢٣ هـ (مخطوط) .

الشيخ على الجبرتي الذى اعتقد السلطان قايتباى في صلاحه وولايته ، وتوفي سنة ٨٩٩ هـ (١٤٩٣ م)[١] . ومن الواضح أن كثيراً من الأحباش الذين تلقوا العلم بالأزهر ، عادوا إلى بلادهم بعد إتمام دراستهم ، وهناك نظر إليهم إخوانهم المسلمون نظرة إجلال واحترام ، فتقلدوا المناصب الكبرى في المجتمع الإسلامى بالحبشة ، مثل مناصب القضاء والإفتاء ، وغيرها[٢] .

ومهما يكن من أمر ، فإن العلاقات الرسمية بين مصر والحبشة في العصور الوسطى تطورت بصفة رئيسية في ظل المؤثرات المسيحية . ذلك أن انتشار المسيحية في الحبشة ارتبط ارتباطاً شديداً بالكنيسة المرقسية بالاسكندرية وذلك منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الرابع للميلاد ، وهو العصر الذى تم فيه الاعتراف بالمسيحية كديانة مشروعة مرخص لها بالحياة في العالم الروماني. وثمة قصة متواترة في المراجع خلاصتها أنه حدث في عهد أثناسيوس — وهو البطريرك العشرون للاسكندرية (٣١٨ — ٣٦٤ م) ، أن حضر من الحبشة إلى الاسكندرية رجل إسمه فرومنتيوس ، حكى لخليفة مار مرقس — أعنى البطريرك أثناسيوس — قصة طويلة ؛ جاء فيها أنه سافر أيام شبابه مع زميل له يسمه أديسون ، في ركاب قريب لهما هو الفيلسوف ميروبيوس . وعند شاطئ الحبشة ، جنحت بهم السفينة ، فخرج سكان الساحل إليهم وقتلوهم ، ولم يستطع النجاه سوى فرومنتيوس وزميله أديسيوس ، إذ هربا نحو شجرة كبيرة ، وركعا تحتها ، وأخذ يصليان إلى الله طالبين إلى الله أن يحميهما من الخطر المحدق بهما . وبعد أن فرغ الأهالى من قتل جميع من بالسفينة ونهب ما عليها ، لمحوا أثناء عودتهم الرجلين الشابين — فرومنتيوس وأديسيوس — راكعين يتعبدان ، فلمسوا فيهما الطيبة ، وأشفقوا عليهما ؛ وقدموهما هدية إلى ملك الحبشة الذى حررهما وعهد إليهما بتربية ولديه بعد أن أصبحا موضع ثقته . وعند وفاة ذلك الملك ، قام فرومنتيوس وزميله بالوصاية على ولديه ، وبإدارة شئون المملكة ، حتى أدرك الأميران سن الرشد ، فاستغل

---

(١) يوسف أحمد : الاسلام فى الحبشة ص ٦٨ ، أحمد القنائى : الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ١٠

(٢) مراد كامل : فى بلاد النجاشى ، ص ٣٥ ، ٩٢

الوصيان تلك الفرصة ، وعملا على نشر المسيحية في بلاد الحبشة بمختلف الوسائل . ولما بلغ الأميران رشدهما وتسلما مقاليد الحكم في البلاد ، أستأذن فرومنتيوس وزميله في العودة إلى بلادهما ، فعاد أديسيوس إلى صور ؛ وعاد فرومنتيوس إلى الاسكندرية مسقط رأسه ، ليروى قصته للبابا أثناسيوس بطريرك الاسكندرية ، ويطلب منه أن يُعين أسقفاً للحبشة يلتف حوله المسيحيون فيها(١) .

وكان أن استمع أثناسيوس إلى تلك القصة الغريبة ، فلم يجد أحق بشرف الرسامة أسقفاً على بلاد الحبشة من فرومنتيوس نفسه ، فعينه أسقفاً على الحبشه سنة ٣٢٦ م ، وودعه أثناسيوس عند سفره ، بعد أن زوده بالنصح والإرشادات(٢) . وعند وصول فرومنتيوس إلى الحبشة ، خرج الأحباش للقائه فرحين مهللين ، ولقبوه أبون سلامه — أى معلن النور — وهو اللقب الذى مازال يلقب به مطارنة الحبشة حتى اليوم . ومنذ ذلك الوقت أخذت المسيحية تنشر في الحبشة انتشاراً سريعاً وفق المذهب الأرثوذكسى ، وعلى هدى كنيسة مار مرقس بالاسكندرية ؛ الأمر الذى أوجد رباطاً متيناً قوياً بين مصر والحبشة في العصور الوسطى . ويقال إن فرومنتيوس شيد أول كنيسة في بلدة مصوع في القرن الرابع للميلاد مما أوجد للكنيسة الحبشية مركزاً يلتف حوله المسيحيون الأحباش في ذلك الدور المبكر(٣) .

وجدير بالذكر أن انتشار المسيحية بالحبشة لم يقم على أساس جهود الأقباط المصريين وحدهم ، وإنما وصل إلى الحبشة في النصف الثاني من

---

(١) ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ، ص ١٩٧
ويلاحظ أن قصة فرومنتيوس تشبه فى وجوه كثيرة قصة سوكات مؤسس الكنيسة الايرلندية . انظر :
Cambridge Med. Hist. vol. 1, p. 533.

(٢) ذكر بعض الكتاب أن مجمع نيقية المسكونى سنة ٣٢٥ أكد تبعية كنيسة الحبشة لبطريركية الاسكندرية . ومعنى هذا أن الاجراء الذى اتخذه أثناسيوس كان تأكيدا وتنفيذا لقرار مجمع نيقية المسكونى . انظر :
Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie, p. 179.

(٣) **Castonner : L'Abyssinie et les Italiens, p. 86.**

القرن الخامس للميلاد تسعة من الرهبان السوريين ، عرفهم الأحباش باسم القديسين ، وهؤلاء كان لجهودهم أثر كبير في تدعيم المسيحية ونشرها بالحبشة ، الأمر الذى تشهد عليه آثار الآداب اليونانية والأرامية في الأدب الحبشى (١) . على أن ذلك لم يقلل مطلقاً من جهود رجال الدين المصريين في النهوض بمهمة نشر المسيحية وتثبيت دعائمها بالحبشة ، وخاصة على أيدى الرهبان المصريين . ومن الثابت في التاريخ أن مصر كانت البلد المسيحى الأول الذى شهد مولد الرهبانية والديرية ومن مصر انتشرت تلك الحركة الخطيرة في جميع البلاد المسيحية الأخرى (٢) . وإذا كان الرهبان البندكتيين قد أخذوا على أنفسهم مهمة نشر المسيحية بين الشعوب الوثنية في شمال أوربا وغربها ، فإن الرهبان المصريين نهضوا بمهمة نشر المسيحية وإرساء قواعد المذهب الأرثوذكسى في بعض البلاد المجاورة لمصر، ومنها الحبشة بالذات . وهكذا أخذت الأديرة الباخومية التى عرفتها مصر منذ القرن الرابع تنتشر في الحبشة منذ القرن السادس فصاعداً ، نتيجة لانتقال بعض الرهبان المصريين إلى الحبشة (٣) . وكثير من هؤلاء الرهبان المصريين كانوا ينتقلون إلى الحبشة ومعهم بعض كتب الصلوات والطقوس الدينية ، فضلاً عن سير الآباء والقديسين ، فكانت هذه الكتب تترجم في الحبشة إلى لغة الأحباش ، وتصادف رواجاً كبيراً بينهم ، فلا تكاد تخلو كنيسة أو ديرمنها ، الأمر الذى أدى إلى تقوية الروابط الروحية بين مصر والحبشة ، بالإضافة إلى تدعيم الصلات بين الكنيستين المصرية والحبشية في ظل المذهب الأرثوذكسى (٤) .

---

(١) مراد كامل : الرهبنة فى الحبشة ، ص ٣٠

M. Kamel : Translations from Arabic in Ethiopian Literature, p. 21 (B. S. Arch. C. vol. 2 ; p.p. 61-71 — Le Caire, 1941).

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، الباب الثامن .

(٣) **Budge : Ethiopia, vol. 1, p. 153 &**

مراد كامل : الرهبنة فى الحبشة ، ص ٣٠ (مجلة رسالة مارمينا ، عدد ٣ ، مايو ١٩٤٨) .

(٤) **Geddes : Church Hist. of Ethiopia, p. 83.**

ويبدو أن هذه التراجم للنصوص القبطية والعربية كان ينقصها التوحيد والدقة ، الأمر الذى جعل أحد مطارنة الحبشة المصريين في القرن الثالث عشر ، وهو الأب سلامة — الملقب بالمترجم — يعمل على جمعها ومراجعتها وتصحيحها ؛ مما جعل بعض الكتاب ينسبون إلى الأب سلامة المصرى الفضل في وضع بذور المكتبة الدينية بالحبشة(١) .

وعلى هذا النحو ارتبطت مصر بالحبشة في العصور الوسطى برباط آخر هو رباط الكنيسة الأرثوذكسية ، فنظر الأحباش إلى كنيسة الاسكندرية نظرة تكبير وإجلال ، واعتبروها مصدر الإلهام الروحى لهم . وبانتشار المسيحية في الحبشة ازدادت مكانة المطران المصرى فيها أهمية ورسوخاً ، حتى لقد فاقت أهميته في بعض الأحيان مكانة ملوك الحبشة أنفسهم ، فكان أمره مطاعاً وحرمته وافرة ، ومقره حرماً يلجأ إليه المظلوم ، فلا يجرؤ كائناً من كان على الاقتراب منه أو مسه بسوء(٢) . ويهمنا في هذا المقام أن نؤكد أهمية الحقيقة الخاصة بأن مطران الحبشة كان دائماً أبداً من القبط ، وتتم قداسته في الكتدرائية المرقسية بمصر . وظل الوضع على ذلك من القرن الرابع للميلاد حتى منتصف القرن العشرين ، عندما سمح البطريرك للأحباش باختيار مطران من جنسهم ، وذلك عقب موت كيرلس آخر المطارنة المصريين سنة ١٩٤٦ ، ولو أن الرسامة لاتزال تتم على يدى البابا المرقسى(٣) . ويذكر بروشون مدى ترحيب أهل الحبشة — على اختلاف طبقاتهم — بكل مطران جديد موفد إليهم من مصر ، إذ كانوا يخرجون للقائه ، وعلى رأسهم الملك وكبار رجال الدولة ؛ وينتظرونه على مسيرة ثلاثة أيام من العاصمة ؛ فإذا رأوه ركعوا أمامه ونثروا فوق رأسه الذهب وأحرقوا حوله

(١) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse d'Abyssinie, T. 1, p. 297.

(٢) Castonnet (Des Foses) : L'Abyssinie et les Italiens, p. 99.

(٣) Budge : Book of the Saints of the Ethiopian Church, vol. 2, p. 388 & M. Kamel : La derniere phase des Relations entre L'Eglise Copte et celle d'Ethiopie, p.p. 8-9. (B. S. Arch. C. Tome 14 — Le Caire, 1958).

البخور ، ونشروا فوق رأسه مظلة من القماش الثمين الموشى بالذهب ، ومشوا خلفه حتى يصل إلى الكنيسة ليصلى بهم (١) .

وإذا كانت هذه هى مكانة المطران المصرى المرسم على الحبشة ، فمن باب أولى أن يكون بطريرك الإسكندرية — خليفة مار مرقس — أعظم مكانة عند ملوك الحبشة وشعبها ؛ فكانت كلمته مسموعة وأوامره مطاعة ومشيئته نافذة . ويروى القلقشندى كيف كان ملوك الحبشة يحترمون المكاتبات التى تصلهم من بطارقة الاسكندرية ؛ فيقول ما نصه : « ولأوامر البطريرك عنده (عند ملك الحبشة) ما لشريعته من الحرمة . وإذا كتب إليه كتاباً فأتي ذلك الكتاب إلى أول مملكته ؛ خرج عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس علم . ولا يزال يحمله بيده حتى يخرجه من أرضه ، وأرباب الدولة في تلك الأرض كالقسوس والشمامسه حوله مشاه بالأدخنة . فإذا خرجوا من حد أرضهم ، تلقاهم من يليهم أبداً كذلك ، في كل أرض بعد أرض ، حتى يصلوا إلى أمحرا(٢) ، فيخرج صاحبها بنفسه ويفعل مثل ذلك الفعل الأول ؛ إلا أن المطران هو الذى يحمل الكتاب لعظمته لا لتأبي الملك . ثم لايتصرف الملك في أمر ولا نهى ، ولا قليل ولا كثير ، حتى ينادى للكتاب ويجمع له يوم الأحد في الكنيسة ، ويُقرأ والملك واقف ، ثم لايجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمره به (بطريرك الإسكندرية) » (٣) .

وكانت العادة قد جرت في العصور الوسطى بأن يكتب بطارقة الاسكندرية إلى ملوك الحبشة مرتين في كل عام ؛ وإن كان هذا التقليد لم يستمر دائماً بصفة منتظمة ، إذ لجأ بعض حكام مصر إلى منع الاتصال بين بطارقة الاسكندرية وملوك الحبشة ؛ إما خلال موجات اضطهادهم لأهل الذمة — كما فعل الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٤) — ؛ وإما لتخوفهم من حدوث اتفاق

---

(١) Perruchon (M. Jules) : Extrait de la Vie d'Abba Jean. (Rev. Sem. Tome 6 ; p.p. 367-371. Paris ; 1898).

يحكم على أكثر الحبشة » (ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٣) .

(٢) امحرا : اقليم من أقاليم الحبشة « وهو الاقليم الأكبر ، وصاحبه

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ؛ ج ٥ ، ص ٣٠٨ — ٣٠٩

(٤) ابو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ، ص ٢٩٠

بين الأحباش المسيحيين من ناحية والقوى الأوربية الصليبية من ناحية أخرى وذلك للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين في مصر ، وقيام بطريرك الاسكندرية بدور الوساطة في إتمام مثل هذا الاتفاق . وقد ذكر السخاوى أن السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ — ١٤٥٣ م) عندما اشتبك مع القوى المسيحية في البحر المتوسط ، وأرسل عدة حملات لغزو رودس ، قبض على بطريرك النصارى في مصر ، « وأمر بكتابة شهادة عليه أنه لايكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ، ولا ظاهراً ولا باطناً ، ولا يولى أحداً في بلاد الحبشة ولا قسيساً ، ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقوفه على كتابته[1] بل لقد كان من النصائح التى يوجهها سلطان مصر إلى بطريرك الأقباط « أن يتوقي ما يأتيه سراً من تلقاء الحبشة حتى إذا قدر ، فلا يشم أنفاس الجنوب ولا يحفل بسؤدد السودان[2] » .

ويبدو لنا من الوثائق المعاصرة أن ركناً أساسياً من الاتصالات التى كانت تدور بين بطارقة مصر من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى — طوال العصور الوسطى — دارت حول موضوع رئيسى واحد هو ترسيم مطران جديد للحبشة عندما يخلو الكرسى الأسقفى فيها . والواقع إن الحبشة بعد انتشار المسيحية فيها صارت لاتستغنى أبداً عن وجود مطران فيها ، لامن أجل النهوض بالشعائر الدينية والإشراف على كنيستها فحسب ؛ بل بعد أن صارت للمطران المصرى في الحبشة مهام أساسية ، اجتماعية وسياسية . فمطران الحبشة هو الذى يقوم بتتويج كل ملك جديد ، ويرأس الحفل الكبير الذى يقام في تلك المناسبة ، ويمسح بيده على رأس الملك الجديد ليباركه[3] . ومطران الحبشة هو الذى يصحب ملكها في حروبه وغزواته ليبارك تحركاته ويضمن له النصر ، بالضبط مثلما كان يفعل سلاطين المماليك في مصر من اصطحاب الخليفة العباسى معهم في حروبهم الكبرى ، طلباً

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٢١٠
(٢) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ؛ ص ٤٨
(٣) أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧

للبركة وأملاً في النصر(١) . ومطران الحبشة هو الذى يضفى على القوانين الملكية صبغتها القانونية ، وعن طريقه كان يصدر قرار الحرمان ضد أى فرد يغضب عليه ملك الحبشة ، فيصير ذلك الفرد محروماً من الكنيسة مطروداً من رحمتها(٢) . وإلى المطارنة المصريين في بلاد الحبشة يرجع الفضل في إصلاح كثير من الأوضاع والعادات الذميمة التى سادت المجتمع الحبشى ، مثل عادة تعدد الزوجات دون حساب ، وهى العادة التى حاربها في غير هوادة المطران ساويرس تنفيذاً لتعليمات البطريرك كيرلس في القرن الثالث عشر(٣) . هذا كله بالإضافة إلى أثر المطارنة المصريين — لافي رسوم الكنيسة الحبشية وطقوسها فحسب — بل أيضاً في بعض المظاهر المتعلقة باستخدام الأجراس وتعليق بيض النعام في الكنائس الحبشية ، على نحو ما عرف في الكنائس المصرية(٤) . ويؤكد بعض الباحثين أن كثيراً من الكنائس التى شيدت بالحبشة في العصور الوسطى ، إنما تشبه في تصميمها وطرازها وهندستها وزخارفها وأسلوب بنائها الكنائس المصرية المعاصرة لها مما يشير إلى قيام مهندسين وعمال مصريين بإنشائها(٥) .

وبناء على هذا الدور الكبير الذى نهض به المطارنة المصريون في بلاد الحبشة في العصور الوسطى ، ازداد حرص ملوك الحبشة في تلك العصور على استحضار مطران جديد من مصر كلما تعرض منصب المطرانية في بلادهم للشغور ، لأنه كان في حقيقة الأمر ضرورة عاجلة لسد فراغ دينى وسياسى واجتماعى في البلاد . وهنا نشير إلى أن الأحباش في تلك العصور ألفوا المطارنة المصريين واعتادوا أساليبهم وارتاحوا إلى سلوكهم ومنهجهم ،

---

(١) René Basset : Etudes Sur l'Histoire d'Ethiopie (J. As. 1881). &
ابن اياس : بدائع الزهور ؛ حوادث سنة ٩٢٢ هـ .

(٢) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie, Tome 1, p.p. 160-161.

(٣) أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ؛ ص ٢٨٠ .

(٤) Budge : History of Ethiopia, vol. 1, p. 163.

(٥) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie vol. 2, p. 32.

فلم يرضوا عنهم بديلاً . حقيقة إنه حدث في بعض الفترات ، عندما تعذر عليهم جلب مطارنة من مصر لظروف معينة ، أن استحضر الأحباش مطارنة سوريين أو كاثوليك غربيين ؛ ولكن هذا كان يحدث لفترة محدودة جداً لايلبث الأحباش بعدها أن يظهروا نفورهم من أولئك المطارنة غير المصريين ويكررون محاولاتهم لاستحضار مطارنة من مصر(١) . ولا يخفى علينا أن وحدة الكنيسة بين مصر والحبشة جاءت مصحوبة بوحدة المذهب اليعقوبي في البلدين . ويؤكد هذه المعاني ما يرويه المقريزى من أن بعض الكاثوليك الذين كانوا يريدون دخول الحبشة حرصوا على إخفاء حقيقة مذهبهم ، والتظاهر بأنهم يعاقبة حتى لايتعرضون للأذى أو القتل(٢) .

وحول هذا الموضوع بالذات — وهو طلب تعيين مطران مصرى على الحبشة — دارت في العصور الوسطى كثير من المكاتبات بين ملوك الحبشة من ناحية وحكام مصر من ناحية أخرى . وترجع معظم هذه المكاتبات التى وصلت إلينا إلى عصر سلاطين المماليك بالذات ، إذ لانجد — للأسف سوى إشارات يسيرة في المراجع عن الاتصالات التى جرت قبل ذلك العصر بين مصر والحبشة . وقد يكون السبب في ذلك طبيعة عصر سلاطين المماليك في مصر ، وما اتصف به ذلك العصر من ازدهار ونشاط العلاقات الخارجية مع الدول الآسيوية والإفريقية والأوربية ، نتيجة قوة سلطنة المماليك في مصر ، وازدياد هيبتها ، مما جعل كافة الدول المجاورة ترسل قصادها ورسلها إلى القاهرة . هذا فضلاً عن نشاط حركة التأليف في عصر المماليك، الأمر الذى أمدنا بقسط ضخم من المعلومات التاريخية المعاصرة عن ذلك العصر بالذات . ولا ننسى بالإضافة إلى كل ذلك أن عصر سلاطين المماليك في مصر يمثل العصر الذى بلغت فيه نظم الإدارة والحكم درجة كبيرة من الكفاءة والتنظيم ، وأصبح ديوان الإنشاء — بالذات — جهازاً ضخماً

---

(١) Mecaire : Hist. de l'Eglise d'Alexandrie, p. 322.

(٢) المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ؛ ص ٣

يقوم بوظيفة وزارة الخارجية اليوم ، له أرشيف كبير تسجل به الرسائل الواردة من الخارج أو الصادرة إلى الخارج ، الأمر الذى مكننا من الوقوف على كثير من المعلومات الهامة عن علاقات مصر الخارجية في ذلك العصر .

ويفهم من المصادر المعاصرة أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة ، وأن هذه السفارة تأخرت في العودة إلى مصر ، مما جعل الظاهر بيبرس يغضب على ملك الحبشة[١] . وقبل أن نتكلم عن طبيعة الاتصالات بين ملك الحبشة والسلطان الظاهر بيبرس ، يصح أن نحاول معرفة السبب الذى دفع بيبرس إلى إرسال سفارته إلى الحبشة . والواقع إن المراجع المعاصرة صمتت صمتاً ملحوظاً ، حتى عن مجرد التلميح إلى هذا السبب . ولكن يبدو لنا أن بيبرس أراد — بوصفه حاكم أقوى دولة إسلامية في الشرق الأوسط وحامى حمى الخلافة العباسية بعد انتقالها إلى القاهرة — أن يستقصى أخبار المسلمين بالحبشة ، ويطمئن على مصائرهم ، بعد أن سمع باضطراب الأحوال في ذلك الدور ، وقيام كثير من الحروب الداخلية فيها ؛ فخشى أن تكون هذه الحروب موجهة من ملوك الحبشة المسيحيين ضد المسلمين هناك . وثمة إشارات في المراجع المعاصرة إلى أن « ملك الحبشة الكافر قتل ملوك الحبشة المسلمين واستولى على بلادهم[٢] » ويبدو لنا أن المسلمين في في الحبشة على أيام السلطان الظاهر بيبرس تعرضوا لشئ من الاضطهاد، مما جعل السلطان بيبرس يرسل سفارته للإطمئنان على أحوالهم واستجلاء حقيقة أمرهم . يؤيد هذا الرأى أن يجبأ صيون — الملقب سلمون — ملك الحبشة ، عندما أرسل بعد ذلك رسالة إلى السلطان المنصور قلاون سنة ١٢٩٠ م (٦٨٩ هـ) ، ذكر في رسالته أنه ليس مثل والده — المعاصر لبيبرس — وهو الملك يكونو أملاك (١٢٦٩ — ١٢٨٤) ؛ « وقال أنه ما هو مثل والده، وأنى أحفظ المسلمين في جميع مملكتى ! »[٣] وهذه العبارة في حد ذاتها نستشف منها أن ملك الحبشة المعاصر لبيبرس لم يحفظ المسلمين في بلاده .

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢١٩
(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ١١٧ — ١١٨
(٣) المرجع السابق ؛ ص ١٧٠

ومهما يكن من أمر ، فإن بيبرس غضب لتعويق سفارته ، وربما لعدم تمكينها من مقابلة « الحطى » ، وهو ملك الحبشة المسيحى . وأحس ملك الحبشة بغضب السلطان بيبرس عليه ، فلم يجرؤ على الاتصال به مباشرة عندما احتاج إلى مطران جديد لبلاده ، فأرسل كتابه إلى مصر عن طريق صاحب اليمن ، وكان ذلك سنة ١٢٧٣ (٦٧٢ هـ) ، راجياً من السلطان أن يطلب من بطريرك الاسكندرية — غبريال الثالث — أن يبعث إلى الحبشة « مطراناً رجلاً جيداً عالماً لايحب ذهباً ولا فضة »[١] وربما يفهم من هذه العبارة الأخيرة في رسالة ملك الحبشة ، أن بعض المطارنة المصريين الذين أرسلوا إلى الحبشة من قبل أظهروا تهالكاً على جمع المال . وثمة ناحية أخرى واضحة في رسالة ملك الحبشة إلى السلطان الظاهر بيبرس ، هى حرصه على تملق سلطان مصر ، والمبالغة في تصغير نفسه أمامه . فملك الحبشة يصف نفسه في رسالته للسلطان بيبرس بأنه « أقل المماليك » ؛ ويدعو للسلطان بيبرس ، فيقول « وهذه الخلق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر ، ويهلك الله عدوه . . » ثم إن ملك الحبشة يحرص في رسالته على أن يوضح للسلطان الظاهر بيبرس أنه يحسن معاملة المسلمين في بلاده ، وأن منهم في جيشه مائة ألف فارس مسلم ، « وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نحفظهم ونسفرهم كما يحبون »[٢] وربما كانت هذه العبارة الأخيرة دفاعاً عن النفس ، قصد به ملك الحبشة تبرأه نفسه من التهمة الموجهة إليه بإساءة معاملة المسلمين في بلاده .

ولكن السلطان بيبرس امتنع عن تلبية رغبة ملك الحبشة في إرسال مطران إليه ، ورد على رسالة الحطى الطويلة ، برسالة قصيرة مقتضبة ، يفهم منها استياء السلطان بيبرس لأن ملك الحبشة تغاضى عن قواعد البروتوكول ، ولم

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ورقة ٤٥ — ٤٦ (مخطوط) .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ٧ ص ٢٤ ، المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٦١٦

يتصل بسلطان مصر مباشرة ، وإنما أرسل رسوله إلى صاحب اليمن حيث أقام الرسول حتى يأتي الرد من مصر[١] . ويضيف جاستون فييت أنه لايستبعد أن يكون سبب استياء بيبرس هو أن ملك الحبشة لم يشفع طلبه الخاص بالمطران بالهدايا الثمينة من الذهب والرقيق ، وهى الهدايا التى جرى العرف على إرسالها عند طلب مطران جديد للحبشة[٢] .

وهنا نجد أنفسنا على خلاف في الرأى مع المقريزى الذى يقرر أن الحطى متملك الحبشة طلب من السلطان بيبرس « أن يجهز له مطران من عند البطريرك، فأجيب»[٣] ذلك أن تطور الأحداث التاريخية فيما بعد يتعارض مع رواية المقريزى ،لأن ملك الحبشة لم يلبث أن كرر طلبه في عهد السلطان منصور قلاون، واعتذر عما حدث من والده ، وأشار إلى أن الأحباش لم يرتاحوا إلى المطران السرياني الذى جلبوه من سوريا . ومعنى هذا كله واضح ، وهو أن الظاهر بيبرس لم يجب ملك الحبشه إلى طلبه ، الأمر الذى اضطر الملك إلى جلب مطران من السريان . ويضيف بعض الباحثين إلى ذلك أن ملك الحبشة — يكونو أملاك — عندما يئس من رد بيبرس اتجه إلى سوريا ، فاستحضر منها مطراناً سريانياً اسمه يوب Youb ؛ كما نزح إلى الحبشة في ذلك الدور جماعة من الرهبان الدومينكان[٤] .

وقد ذكر محى الدين بن عبد الظاهر نص الرسالتين اللتين أرسلهما الملك يجبأ صيون (صهيون) ملك الحبشة إلى السلطان المنصور قلاون . من

---

(١) « فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الفرض المطلوب ، وانما كتاب السلطان الملك المظفر صاحب اليمن ورد مضمونه ، وأنه وصل من جهة الملك (ملك الحبشة) كتاب وقاصد ، وأنه أقام عنده حتى يسير اليه الجواب » .

القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٤١

(٢) Wiet : Les Relations Egypto — Abyssines sous les Sultans Mamlouks, p. 119. (Le Caire, 1938).

وكذلك القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٢٣

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٦١٦

(٤) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie, Tome 1. p.p. 288-290.

ناحية وإلى يؤانس السابع بطريرك الأقباط في مصر (١٢٧١ — ١٢٩٣) من ناحية أخرى . ففى الرسالة الأولى يذكر ملك الحبشة لسلطان مصر أنه — أى ملك الحبشة — ليس مثل والده (يكونو أملاك) وأنه يحفظ المسلمين في مملكته ، وأن المطران السرياني الذى اضطروا إلى استحضاره « أتلف البلاد في زمان والدى ، وهو من أعداء المسلمين » . ثم يختتم ملك الحبشة رسالته بالإلحاح في إرسال مطران من مصر ؛ ويتعهد بإرسال العوائد — من هدايا وأحوال — « التى جرت العادة بها عند طلب المطران »[١] . وثمة عبارة لطيفة جاءت في رسالة ملك الحبشة إلى السلطان قلاون هى « السلام يامنصور (السلطان المنصور قلاون) . اسمع يا سلطان مصر — نصرك الله — اعطى البطرك الدستور يبعث لى أسقفاً ؛ فنحن وهم أمتنا واحدة من زمن مرقص وإلى اليوم . والرسم الذى لك والتقدمة أنا أعطيك إن سيرت لى أسقفاً . وإذا سيرته أنا أتقصى منه عن رسمك ، ومهما قلت فعلته . . . »[٢]

أما رسالة ملك الحبشة إلى بطريرك الأقباط في مصر ، فهى تكشف لنا الكثير عن العلاقة بين الكنيسة الحبشية والكنيسة القبطية ، وعن نظرة الأحباش إلى كنيسة مارمرقس وحرصهم على دوام الارتباط بها وإلحاحهم في التبعية لها ، ورفضهم مطراناً من غير المصريين . ونص هذه الرسالة الخطيرة — كما أوردها ابن الظاهر — هى : -

« أتوسل للبطرك — بطرك الاسكندرية — أبو يحنس (يؤانس السابع) ونسلم عليه بالسلام الذى سلم به على مرقص ، وأنذر يانون يكون عليك : اسمع كلامى ، واقض حاجتى ، وابعث لى مطراناً جيد صالح ، يعلمنى كل شى جيد ، ويكون ما ضرب داود عليه السلام المثل في الزبور من شأننا . وقال خلّوا رجالاً جياداً من قبط مصر يحضرون إلى بلاد الحبشة يعلمونكم العبادة والزهد . وقال في وصيته : لاتخلى يابنى خروفك يأكله الذئب . وهؤلاء

---

(١) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، ص ١٧٠

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٣

السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم . ولأجل محبتنا في بطركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردناهم . وما كانوا قعدوا عندنا إلا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك . والساعة لاتخرب مدينتك، وتسير إلينا مطراناً حتى يشكرك الرب المسيح . واذكر مرقص لاتخلينا بخطيئتنا . إن كنت وحدك تقدر تسير إلينا مطراناً فسيره ، وإن كنت ما تقدر فبمرسوم مولانا السلطان . وبعد هذا مهما اشتهيت نسيره إليك . وتخلى هؤلاء السريان في بلادنا ، ونخرجهم إذا قلت : اطردوهم . وإن قلت : خليهم ، خليناهم . وأنت أنكرت علينا بسببهم ، فاغفر لنا هذا الذنب، حتى لاتبقى علينا خطيئة . واغفر لكل من عندنا وتكون بركتك علينا في الحياة والموت . . .(١) »

وكان أن رق قلب السلطان منصور قلاون لموقف ملك الحبشة ، فوافق على إرسال مطران إليه ، وعندئذ طردت الحبشة المطران السرياني ومن معه من الرهبان الدومينكان ، وتمت مصادرة جميع ممتلكاتهم(٢) . وقد أدى ذلك إلى تحسن العلاقات بين مصر والحبشة ، فيذكر أبو المحاسن أن ملك الحبشة أرسل هداياه إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣١٠ م (٧١٠ هـ)(٣) ويؤكد هذه الحقيقة المقريزى في ترجمته للسلطان الناصر محمد بن قلاون(٤) . أما ابن إياس فيذكر أن الهدية التى أرسلها ملك الحبشة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) بلغت قيمتها مائة ألف دينار أو أكثر، « حتى عدت من النوادر »(٥) ولا شك في أن هذه الإشارات في مختلف المراجع المعاصرة تدل على حسن العلاقة بين مصر والحبشة طوال عصر الناصر

(١) المصدر السابق ص ١٧٢ ـ ١٧٣ ، ويلاحظ أن مؤلف هذا الكتاب ، وهو محيى الدين بن عبد الظاهر ، تولى وظيفة صاحب ديوان الانشاء فى عهود السلاطين الظاهر بيبرس والمنصور قلاون والأشرف خليل ، مما جعله محيطا بما لم يحط به غيره من الكتاب من أسرار عصره ومطلعا بحكم منصبه على جميع الرسائل المتبادلة بين سلاطين مصر السابق ذكرهم من ناحية وملوك وأمراء الدول المعاصرة من ناحية أخرى .

(٢) Coulbeaux : op. cit., Tome 1, p. 293.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٧١٠

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ق ٢ ص ٥٣٣

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ص ١٢ (نشر محمد مصطفى) .

محمد بن قلاون ، الذى حكم أكثر من اثنتين وثلاثين سنة . ثم إن هذه العلاقات الطيبة بين الطرفين استمرت حتى قيام سلطنة المماليك البرجية ، فقدمت رسل ملك الحبشة إلى مصر في عهد السلطان الظاهر برقوق سنة ١٣٨٢ م (٧٨٤هـ) « ومعهم هدية على أحد وعشرون جملاً ، فيها من طرائف بلادهم من جملتها قدور ملئت حمصاً صنع من ذهب ، إذا رآه الشخص يظنه حمصاً ؛ وغير ذلك »(١)

وهكذا استمر رسل الحبشة يفدون على القاهرة ، وخاصة عندما كان يخلو منصب المطرانية بالحبشة . وهناك إشارات في المراجع المعاصرة إلى أن رسل ملوك الحبشة وفدوا على مصر في سلطنة كل من برسباى وجقمق وقايتباى ، وكانوا يحضرون معهم هدايا ضخمة للسلاطين(٢) . وفي الوقت نفسه كان سلاطين المماليك يكرمون رسل الحبشة طالما أنه لايوجد ما يعكر صفو العلاقات الطيبة بين البلدين . وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك على أن لايسمحوا لأولئك الرسل بتجاوز قدرهم في حضرة السلاطين . من ذلك ما يرويه ابن إياس من وصول قاصد ملك الحبشة إلى السلطان الأشرف قايتباى سنة ١٤٨١ م (٨٨٦ هـ) « فأوكب له السلطان بالحوش موكباً حافلاً ، من غير شاش ولا قماش . فجلس السلطان على الدكة وحوله الأمراء . فلما دخل قاصد ملك الحبشة على السلطان كان بصحبته جماعة من الحبشة ومعهم كراسي يجلسون عليها بحضر ة السلطان ، فمنعوهم الرءوس النوبة من ذلك . ثم إن السلطان أكرم القاصد وأخلع عليه ، وأنزله في مكان عُد له ، ورتب له ما يكفيه في كل يوم إلى أن عاد إلى بلاده . وحضر صحبته تقدمه (هدية) حافلة للسلطان ، فأكرم ذلك القاصد جداً . وسبب حضوره أنه جاء يسأل البطرك بأن يولى شخصاً يكون نائباً عنه ببلادهم(٣) » .

على أنه ثمة سبب آخر أوجب تردد الأحباش على مصر في العصور الوسطى ، هو اتجاههم لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين والقيام بالحج.

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٤٦
المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٤٧١ (مخطوط) .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور .
(٣) المرجع السابق ، ج ٣ ص ١٧٩ — ١٨٠ (نشر محمد مصطفى) .

وكانوا في طريقهم من بلادهم إلى القدس يفضلون اجتياز الطريق البرى عبر مصر بحذاء ساحل البحر الاحمر ، وذلك خوفاً من البحر وغائلته . وقد ذكر بعض الكتاب في أوائل القرن السادس عشر أنه شاهد بنفسه قافلة كبيرة من الحجاج الأحباش تتألف من نحو ثلثمائة حبشى يخترقون الطريق البرى السابق الذكر في طريقهم إلى القدس(١) . وكان المفروض أن يدفع هؤلاء الحجاج ضريبة الخفر، وهى الضريبة التى يدفعها الحجاج المسيحيون أثناء مرورهم في البلاد الإسلامية ، مقابل حراسة أرواحهم وأموالهم . ولكن صلاح الدين الأيوبي استن سنة طيبة عقب استيلائه على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، هى إعفاء الحجاج المسيحيين من أية ضريبة يدفعونها مقابل زيارة أماكنهم المقدسة . وقد تمسك الأحباش بذلك الحق منذ صلاح الدين، فطالبوا خلفاءه من سلاطين الأيوبيين ، ثم سلاطين المماليك من بعدهم بإعفائهم من أى رسم مقابل السماح لهم بالتردد على الأماكن المقدسة في فلسطين. وهناك نص على جانب خطير من الأهمية ، اكتشف مكتوباً على باب من أبواب كنيسة القيامة في بيت المقدس ، ويرجع إلى سنة ٩١٩ هـ (١٥١٣ م) ؛ وهو عبارة عن مرسوم أصدره السلطان الأشرف الغورى بإعفاء الرهبان والراهبات من أى رسم يدفعونه مقابل السماح لهم بزيارة الأماكن المقدسة في القدس . وقد ورد في هذا المرسوم ذكر الحجاج الأحباش (الحبوش) بالذات ؛ فجاء فيه ما نصه : «المرسوم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطاني، الملكى ، الأشرفي ، السيفى . . . أن لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات ، الملكانيين واليعاقبة ، بموجب ولا بخفر ولا بظلم ، عند دخولهم قمامة القدس الشريف(٢) ، أسوة رهبان الكرج والحبوش . . . الوارد من الرهبان والرهبانيات المذكورين في البر والبحر وكل ناحية لزيارة بيت المقدس ؛ مستمر حكم ذلك من تقادم السنين، من غير إحداث حادث ولا تجديد مظلمة، ومنع من يتعرض إليهم بسبب ذلك. »(٣).

---

(١) Alvarez : Narrative of Portugeuse Embassy to Abyssinia (1520 - 1527), p.p. 243-244.

(٢) أى كنيسة القيامة .

(٣) Van Berchem : Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum (Syrie du Sud). p.p. 388-391.

والواقع إن أعداد الحجاج الأحباش الذين دأبوا على المرور بمصر في طريقهم إلى الأراضى المقدسة كانت كبيرة . وهؤلاء كان يحرص السلاطين دائماً على حمايتهم من أذى العامة وتعرضهم لهم ؛ وبخاصة في عصور اشتهرت بالحروب الصليبية وطفحت بروح العداء الدينى . ونستطيع أن نخرج بصورة واضحة عن أعداد الحجاج الأحباش من ناحية ، وما كانوا يصادفونه في طريقهم عبر مصر من ناحية ثانية ، ثم حرص الحكام على حمايتهم من العامة من ناحية ثالثة . . . من الوصف الذى أورده المؤرخ إياس في حوادث سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) — أى زمن السلطان الغورى — قال ابن إياس ما نصه :

« وفي يوم الخميس خامس عشرينه ، حضر قاصد من عند ملك الحبشة ... فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكباً بالحوش من غير شاش ولاقماش — كما تقدم للأشرف قايتباى . فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ، ونصب على رأسه السحابة الزركش ، واصطفت الأمراء عن يمينه وعن شماله وكل واحد منهم في منزلته . ثم طلع القاصد من الصليبة ، وصحبته الأمير أزدمر المهمندار وجماعة من الرءوس النوب والمماليك السلطانية وغير ذلك . وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار والبقية لبط(١) ، وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة بشعر ، ومنهم من في أذنه حلق ذهب قدر القرصة وفي أيديهم أساور ذهب . وأما القاصد الكبير . . . فكان على رأسه خوذه مخمل أحمر وفيها صفائح ذهب ومنهم بعض فصوص ، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثمنة ، وعليه شاياه حرير ملون ، وعلى بقية أعيان آمراء الحبشة شايات حرير ملون ، وعلى رءوسهم شدود حرير . . . فكان مجموع ذلك الحبشة الذين حضروا إلى مصر نحو ستمائة إنسان ، وأوساطهم مشدودة بحوايص كهيئة الزنانير . وكان معهم لما شقوا من الصليبة طبلين على جمل يضربون عليها . وكان صحبتهم البترك الكبير ، وعليه برنس حرير أزرق وخلفه طراز ذهب . واصطفت

---

(١) لبط به الأرض ، ضرب . ولبط به سقط وصرع . وتلبط فى أمره أى تحير واختلط عليه الأمر . والمقصود باللفظ فى المتن أن بقيتهم خليط من عامة الناس . (القاموس المحيط) .

جميع النصارى الذين في مصر للفرجة عليهم ، وكان أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة . فطلعوا إلى القلعة من سلم المدرج ، والبترك ماش قدامهم . . فلما وصل هذا القاصد إلى باب الحوش قبّل الأرض ، فلما وصل إلى أوائل البساط قبّل الأرض ومن معه من من أعيان الحبشة . ولم يدخل قدام السلطان غير سبعة أنفس ، والبقية لم يدخلوا . فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة . ثم قدموا كتاب ملك الحبشة ، قيل إنه في ضمن غلاف من الفضة ، وقيل من الذهب . فلما قرئ على السلطان وجد فيه ألفاظاً حسنة ونعتاً عظيماً للسلطان ، وأن قصادنا أتوا إلى مصر اليزوروا (كنيسة) القيامة التى بالقدس ، فلا تمنعوهم من ذلك . فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم ، ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة . فرسم لهم السلطان بأن يقيموا في ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع إلى أن يسافروا . وأرسل لهم خياماً ضربت لهم من داخل الميدان . ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل إليهم من العوام . فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالى والمهمندار وجماعة من الرءوس والنواب ، فوصلوهم إلى الميدان خوفاً عليهم من العوام أن يرجموهم ، فكان لهم يوم مشهود . . . » (١)

وإذا كانت جموع الأحباش القاصدة للحج وزيارة الأماكن المقدسة على هذه الدرجة من الكثرة ووفرة العدد ؛ فإنه كان لابد للأحباش من مقر في بيت المقدس يكون بمثابة مركز لهم ، ونقطة تجمع يلتفون حولها في تلك البلاد البعيدة عن أرضهم . وكان ذلك المقر للحجاج الأحباش هو دير في بيت المقدس نسب إليهم ، وله مقدم يعينه ملك الحبشة . ويقال إن صلاح الدين الأيوبي شمل ذلك الدير ورهبانه بعطفه ورعايته(٢) . وقد دأب ملوك الحبشة على إرسال الأموال والهدايا إلى ذلك الدير ، طالبين من رهبانه الدعاء لهم . من ذلك الرسالة التى أرسلها ملك الحبشة يجبأصيون (صهيون) على

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٠ — ١٢ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) Budge : Hist. of Ethiopia, vol. 1, p.p. 286-287.

عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى رهبان دير الأحباش في القدس الشريف ، ونصها : « السلام عليكم يارهبان الحبوش ، الذين صبروا على العبادة والزهد إلى هذه الأيام ، وصبرتم على الحر والبرد . وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ومائة شمعة ؛ وثيابي وهو زنارى[1] الذى تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان : ماهو كل يوم ، إلا من يوم العيد إلى يوم العيد[2] ولا يلبسه إلا القسبس الذى يعمل القربان . فعرفوني بوصول هذا ، واكتبوا أسماءهم ، واذكروني في صلواتكم ، واقبلوا ما سيرته فهو في سرير سلطاني وزنارى . ولا تنسوني كل يوم . . »[3] وعلى الرغم من أن مقدم دير الأحباش بالقدس لم تربطه رابطة التبعية ، بسلاطين مصر ، إلا أنه لابد — في نظرنا — وأن هذا الدير كان محوراً لاتصالات ودية بين ملوك الحبشة وحكام مصر في العصور الوسطى ، بحكم سيطرة هؤلاء الحكام السياسية على بيت المقدس طوال شطر كبير من تلك العصور ، وخاصة في عصر سلاطين المماليك .

على أنه لا ينبغى بأى حال أن نعتقد في استمرار العلاقات الطيبة بين سلاطين مصر وملوك الحبشة ، وخاصة في عصر الحروب الصليبية عندما تحكم العداء بين المسلمين والمسيحيين ، وهو العداء الذى كثيراً ما انعكست صورته واضحة في العلاقات بين سلطنة المماليك في مصر بوصفها أكبر قوة إسلامية في الشرق الأوسط حتى أواخر القرن الخامس عشر ، وبين غيرها من الدول المسيحية ، المجاورة وغير المجاورة . وثمة حقيقة لا نستطيع أن ننكرها ، هى أن المسيحيين في مصر تعرضوا في بعض الأحيان في العصور الوسطى لشيء من الإضطهاد ، وخاصة في عصر الحروب الصليبية . وكان سبب هذا الإضطهاد رغبة حكام مصر — وبصفة خاصة سلاطين المماليك —

---

(١) زنّار ، جمعه زنانير ، حزام أو وشاح تميز بلبسه أهل الذمة فى العصور الوسطى . انظر :

Dozy : Dict. Vet. Ar. :

(٢) أى اشترط عليهم أن لا يلبس هذا الزنار الا فى يوم العيد فقط من كل عام .

(٣) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ١٧٣

في الظهور بمظهر حماة الدين لتدعيم مركزهم في نظر المسلمين[١] . وهنا نجد ملوك الحبشة يفتحون أبواب بلادهم للأقباط النازحين من مصر فراراً من الإضطهاد . وقد حدث أن هاجر كثير من القبط من مصر إلى الحبشة في عصر الخليفة الحاكم بأمر الله ، ثم في عهد السلطان الكامل الأيوبي عندما حاصر الصليبيون دمياط سنة ١٢١٩ ، فرحب بهم ملوك الحبشة وأكرموهم[٢] .

على أنه كان من العسير على ملوك الدول المسيحية أن يسكتوا عن ذلك الوضع ، فنسمع عن ملوك الحبشة أنهم تدخلوا أكثر من مرة عند سلاطين مصر وحكامها لتخفيف حدة المتاعب التى كان يعانيها الأقباط بين فينة وأخرى . ولم يحجم ملوك الحبشة عن تهديد سلاطين المماليك بالإنتقام من المسلمين في بلادهم إذا استمرت الأمور على أوضاعها . من ذلك ما يرويه النويرى في حوادث سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) من أن ملك الحبشة أرسل رسلا إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون يطلب منه « إعادة ما خرب من كنائس النصارى ، ومعاملتهم بالإكرام والإحترام ، ويهدد بأنه يخرب ما عنده من مساجد المسلمين ، ويسد النيل حتى لا يعبر إلى مصر . فسخر السلطان منه ورد رسله ! »[٣] ويكرر المقريزى خبر وصول رسول ملك الحبشة بعد ذلك سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) لنفس السبب السابق[٤] .

ويبدو أن عدم استجابة سلاطين مصر لرجاء ملوك الحبشة وسخريتهم منهم — كما أشار المقريزى في النص السابق — جعل ملوك الحبشة ينفذون تهديداتهم على نطاق واسع . من ذلك أن ملك الحبشة جبرة مصقل — وإسمه الأصلى عمدة صيون (صهيون) — الذى امتد حكمه من سنة ١٣١٢ حتى سنة ١٣٤٢ م (٧١٢ — ٧٤٣ هـ) تطرف في اضطهاد المسلمين في بلاده ،

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٤٠ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ، ص ٤٤ — ٧٥

(٢) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie, Tome 1, p. 260.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣١ ورقة ٨٦ (مخطوط) .

(٤) المقريزى : السلوك ، ٢ ق ٢ ص ٤١٠ . وانظر أيضا حاشية ٥ فى نفس الصفحة .

وشن ضدهم حروباً كثيرة[١] . على أن المسلمين في الحبشة لم يرضوا عن اضطهاد ملوك الحبشة لهم ، بل أعلنوا الثورة والحرب أكثر من مرة . ومن ذلك ما يرويه المقريزى من أنه حدث سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) أن قام رجل بالحبشة يدعى أبو عبد الله محمد يدعو إلى الإسلام « فاجتمع عليه نحو المائتى ألف رجل وحارب الأمحرى (ملك الحبشة) في هذه السنة حروباً كثيرة[٢] ». ومن ناحية أخرى فإن المسلمين بالحبشة ظلوا دائماً يعتزون بأنفسهم ، ويأنفون من الخضوع لملك الحبشة المسيحى ، ويحاولون التحلل من تبعيتهم له ، مما أثار مصادمات عنيفة بين الطرفين . من ذلك ما يرويه المقريزى في سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) من أن طائفة الزيلع[٣] التى اعتادت أن تؤدى أموالاً في كل سنة إلى ملك الحبشة تحملها إليه « قام فيها عبد صالح ومنعهم من الحمل ، وشنع عليهم اعطاءهم الجزية — وهم مسلمون — لنصراني ، ورد رسول ملك الحبشة . فشق ذلك على ملك الحبشة ، وخرج بعساكره ليقتل الزيلع عن آخرهم ...[٤] » .

والواقع أنه كان من العسير أن تظل الحبشة بعيدة عن تيار الحركة الصليبية ، وهى الدولة المسيحية الكبرى التى تقع عند مدخل العالم الإسلامى من جهة الجنوب . والأخبار المقتضبة التى ذكرها المقريزى عن حدوث صدام بين مسلمى الحبشة وملوك الحبشة المسيحيين ، إنما كانت في حقيقة

---

(١) Budge : Hist. of Abyssinia, vol. 1, p. 288 et seq.

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩١٦

(٣) كانت الزيلع احدى الامارات الاسلامية التى تتبع ملوك الحبشة فى العصور الوسطى . انظر :

المقريزى : الالمام بأخبار من فى أرض الحبشة من ملوك الاسلام ص٦ـ٧ ، محمد مصطفى زيادة : حاشية ٢ ص ٨٦١ ج ٢ فى كتاب السلوك للمقريزى .

Trimingham : Islam in Ethiopia, p.p. 67-68.

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ق ٣ ص ٨٦١ . والمقصود به العبد الصالح الامام صا[illegible] . وهو ابن شريف من أشراف مكة . أما ملك الحبشة المقصود فى المتن فهو [illegible] سيف أرعد الذى حكم من سنة ١٣٤٤ حتى سنة ١٣٧٧ . انظر :

Budge : A Hist. of Ethiopia, vol. 1, p.p. 2[illegible]-299 &
Trimingham : Islam in Ethiopia, p.p. 7[illegible]-73.

أمرها مجرد إشارات إلى حروب طاحنة عنيفة تزعمها ملك الحبشة عمد صيون (صهيون) ومن ورائه الجانب المسيحى في الحبشة ؛ وفي الجانب الآخر حق الدين بن عمر حاكم أوفات ، ثم أخوه صبر الدين بن عمر ، ومن خلفهما بقية القوى الإسلامية بالحبشة(١) . وهذه الحرب الطاحنة التى استمرت سنوات طويلة كانت في روحها وطابعها حرباً صليبية ، ولا نستبعد مطلقاً أن تكون صدى من أصداء الروح الصليبية التى سادت حوض البحر المتوسط في ذلك الدور . وهنا نشير إلى عبارة ذكرها القلقشندى عند كلامه عن الممالك الإسلامية بالحبشة ، إذ يقول ما نصه « وتسلط الحطى سلطان أمحرا عليهم ، مع ما بينهم من عداوة للدين ، ومباينة ما بين النصارى والمسلمين (٢) » .

وعندما اشتدت وطأة ملك الحبشة على المسلمين في بلاده ، سعى الفقيه عبد الله الزيلعى رئيس وفد أوفات لدى السلطان الناصر محمد بن قلاون ليتدخل لمساعدة مسلمى الحبشة ، فوسط السلطان بطريرك الأرثوذكس بالأسكندرية في ذلك الأمر(٣) . ويقال إن بطريرك الإسكندرية أرسل رسالة إلى ملك الحبشة يطلب منه ترك محاربة المسلمين في بلاده ، ولكن تلك الجهود لم تثمر ، فاستمرت الحروب طويلاً بين المسلمين في الحبشة وملكها عمد صيون(٤) . وقد فسر القلقشندى هذه الوساطة في ضوء الرغبة في التخفيف عن مسلمى الحبشة ، فقال إن الفقيه عبد الله الزيلعى انتهز فرصة وصول رسول ملك الحبشة إلى مصر ليسعى لدى السلطان أن يطلب من البطريرك الكتابة إلى ملك الحبشة « بكف أذيته عمن في بلاده من المسامين وعن أخذ حريمهم . وبرزت المراسيم السلطانية للبطريرك بكتابة ذلك ، فكتب إليه عن

---

(١) Bruce : Travels to discover the Source of the Nile, vol. 3, p.p. 52-63 & Coulbeaux ; op. cit. Tome 2, p. 322.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٣٢

(٣) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار — ترجمة Demombynés (Tome 1, p. 2, N. I.).

(٤) Perruchon : Geurres d'Amda Syon p.p. 346-362. (J. A. S. & serie, Tome 14 ; Paris 1889).

نفسه كتاباً بليغاً شافياً ، فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال ، وأنه حرم هذا على من يفعله[١] » .

وهكذا استمر عدوان ملك الحبشة على المسلمين في بلاده ، الأمر الذى جعل السلطان الظاهر برقوق (١٣٨٢ – ١٣٨٨ م) يكرر الطلب في أوائل عهده – إما عن طريق رسله المباشرين أو عن طريق بطريرك الإسكندرية – على ملك الحبشة للكف عن التعرض للمسلمين في بلاده[٢] . ويبدو أن ثمة اتصالات في ذلك الدور قد تمت بين القوى المسيحية في أوربا ، وعلى رأسها البابوية من ناحية ، وملوك الحبشة المسيحيين من ناحية أخرى لوضع خطة مشتركة للإنتقام من المسلمين ، وتطويق بلادهم عن طريق الشمال والجنوب . ذلك أنه منذ استيلاء المسلمين على عكا سنة ١٢٩١ وطرد آخر البقايا الصليبية من الشام ، والغرب الأوربي المسيحى غير راض مطلقاً عن تلك النتيجة التى انتهت إليها الحروب الصليبية في بلاد الشام . وكان أن ظهر عديد من الدعاة وأصحاب المشاريع الصليبية في ذلك الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية ، يحاول كل منهم أن يضع مشروعاً يستهدف طعن المسلمين في مقتلهم . وليس هذا مجال تتبع هذه المشاريع الصليبية[٣] ؛ ولكن تكفى الإشارة إلى أن جزءاً كبيراً منها اتجه نحو حرمان دولة المماليك من المصدر الأساسى لقوتها وغناها وهو التجارة ، الأمر الذى يتطلب البحث عن حليف للصليبيين في جنوب البحر الأحمر لإغلاق مدخل ذلك البحر في وجه التجارة المماليكية من ناحية الجنوب ؛ في الوقت الذى أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم فيها على التجار الإيطاليين وغيرهم التجارة مع سلطنة المماليك والتردد بسفنهم على موانى تلك السلطنة المطلة على البحر المتوسط مثل دمياط والإسكندرية وطرابلس[٤].

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٣٣

(٢) المرجع السابق ، ج ٥ ص ٣٣٣

(٣) للوقوف على هذه المشاريع ، انظر :
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١١٩٢ وما بعدها .

(٤) Kammerer : Le Mer Rouge, Tome 1, partie 2, p. 151 &
Heyd : Hist. du Commerce du Levant, Tome 2, p. 26.

ولم يكن هناك أفضل من دولة الحبشة المسيحية ليحالفها الصليبيون ويعتمدون على مساعدتها في إغلاق المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، ومنع تجارة الشرق الأقصى من السير فيه إلى مواني مصر الشرقية . لذلك حرصت البابوية — منذ القرن الرابع عشر بالذات — على تقوية صلاتها بالحبشة ، فقام وليم آدم — وهو راهب دومينكاني اختاره البابا نيقولا الرابع سنة ١٣٠٥ للتبشير في الشرق — برحلة طويلة ، زار فيها دولة مغول فارس ، ومنها انتقل إلى عدن ، فشرق أفريقيا والحبشة ، ثم عاد إلى أوربا سنة ١٣١٦[١] . وفي هذه السنة الأخيرة — سنة ١٣١٦ — أرسل البابا يوحنا الثاني والعشرون سفارة من الدومينكان إلى الحبشة ، ولكن رجالها وقعوا في قبضة المماليك في مصر . كذلك كان مصير سفارة أخرى من الرهبان الدومينكان أرسلها ملك فرنسا إلى الحبشة سنة ١٣٣٨[٢] .

وإذا كانت بعض السفارات المتبادلة بين الغرب المسيحى من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى قد وقعت في قبضة سلاطين المماليك بمصر ، فإن هذا في حد ذاته جاء دليلاً على أن ثمة اتصالات دائمة جرت بين الطرفين في الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية لتطويق دولة المماليك من الشمال والجنوب . والواقع إنه كان من الصعب أن يظل ملوك الحبشة بعيدين عن تيار الحركة الصليبية ، وهم الذين اعتنقوا المسيحية منذ وقت مبكر ، وأثبتوا في كل مناسبة أنهم حماة المسيحية في ذلك الركن الشرقي من أركان القارة الإفريقية . ولو كانت الحبشة قريبة من قلب العالم الإسلامى ، أو لو كان بينها وبين مصر حدود مباشرة — مثل النوبة — لصار لها دور بارز أكثر وضوحاً في الحركة الصليبية . ولكن الملاحظ أن بعد الحبشة نسبياً عن المسرح الرئيسى للحركة الصليبية جعل دورها يبدو ثانوياً في تلك الحركة ، وإن كان لا ينبغى أن نقلل مطلقاً من شأن ذلك الدور في التاريخ[٣] .

---

(١) Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, p.p. 161-172.

(٢) Kammerer : op. cit., Tome 1, p. 294.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦

ومن المعروف أن الحركة الصليبية تمخضت في القرن الثاني عشر عن مولد مملكة جديدة في الشرق الأدنى ، هى مملكة آل لوزجنان في جزيرة قبرص . ويعنينا في بحثنا هذا من أمر هذه المملكة أن ملوكها في القرن الرابع عشر حملوا على عاتقهم عبء النهوض بالحرب الصليبية بعد طرد الصليبيين تماماً من أرض الشام ، فدأبوا على مهاجمة شواطىء المسلمين في آسيا الصغرى والشام ومصر[1] . ومن الحملات الصليبية الجريئة التى قام بها ملوك قبرص على بلاد المسلمين حملة بطرس لوزجنان على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ ، وهى الحملة التى يؤكد لابروكيير أن الإعداد لها تم على أساس قيام الصليبيين بزعامة بطرس لوزجنان بمهاجمة مصر من ناحية الشمال ، في الوقت الذى يهاجم ملك الحبشة مصر من ناحية الجنوب ، وبذلك تقع مصر — وهى مركز المقاومة الإسلامية — بين شقى الرحى . وتتصف رواية لابروكيير بنوع من المبالغة المألوفة في كتابات العصور الوسطى — شرقاً وغرباً — فيقول إن ملك الحبشة أعد جيشاً قوامه ثلاثة ملايين مقاتل ، واتجه على رأسه قاصداً حدود مصر الجنوبية ، لولا أن جاءته الأنباء بانسحاب بطرس من الإسكندرية بعد تدميرها ، وعندئذ قرر ملك الحبشة العودة إلى بلاده بعد أن خسر عدداً كبيراً من رجاله بسبب وعورة الطريق وصعوبة العملية الحربية التى شرع فيها[2] .

على أن عجز ملوك الحبشة عن التعبير عن حماستهم الصليبية عن طريق صدام مباشر مع مصر ، جعلهم يسلكون طريقاً آخر ، هو النيل من الإمارات الإسلامية التى كانت تسيطر على الثغور البحرية ، وبخاصة ثغر زيلع . وكان أن ظهر بين ملوك الحبشة في أوائل القرن الخامس عشر الملك اسحق بن داود (١٤١٢ — ١٤٢٧ م ، ٨١٥ — ٨٣٠ م) ، الذى دخل في صراع مرير مع إمارة عدل الإسلامية ، وهى الإمارة المسيطرة على ميناء زيلع ؛ حتى حلت الهزيمة بأميرها سعد الدين محمد بن أحمد ، فخر قتيلاً بعد جهاد طويل ، وعندئذ استولى الأحباش على زيلع سنة ١٤١٤ م (٨١٧ هـ)[3] . وعلى الرغم

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٥٤—٥٦

(٢) Kammerer : La Mer Rouge, Tome 1, p.p. 294-304.

(٣) Cerulli : La Storia Della Dinastia Dei Walasma Sovreni Dell Ifat ; p. 41. (Documenti Arabi — Roma, 1930).

من الجهود المتواصلة التى بذلها أبناء سعد الدين لاسترداد ميناء زيلع ، وهى الجهود التى أيدهم فيها ملك اليمن الناصر أحمد ، إلا أن الأحباش نجحوا في الإحتفاظ بذلك الثغر مما هيأ لهم نافذة طيبة يطلون منها على البحر الأحمر.

أما سلطنة المماليك في مصر ، فقد ردت عندئذ على سياسة ملوك الحبشة باضطهاد المسيحيين في مصر ، وفصل من كان يعمل منهم في الديوان السلطاني أو يشغل وظيفة رسمية في الدولة ؛ ففر بعضهم إلى بلاد الحبشة ، وعلى رأسهم فخر الدولة الكاتب — وهو كاتب قبطى — فرحب به اسحق ملك الحبشة وأدخله في خدمته . ولم يلبث فخر الدولة أن قام بتنظيم ديوان لملك الحبشة على نمط الديوان السلطاني بالقاهرة ، ووضع قواعد جديدة لجباية الأموال والضرائب . وبفضل هذه النظم التى انتقلت من مصر ، صار ملك الحبشة — على حد قول المقريزى — « ملكاً له سلطان وديوان ، بعد ما كانت مملكته ومملكة آبائه همجاً ، لا ديوان لها ولا ترتيب ولا قانون . فانضبطت عنده الأمور ، وتميز زيه عن رعيته بالملابس الفاخرة ، بعد ما كان (أبوه) داود بن يوسف بن أرعد يخرج عرياناً وقد عصب رأسه بعصابة خضراء ، فصار اسحق يمر في موكب جليل ... ! ! [١]» .

وجدير بالذكر أن الأمر لم يقتصر في ذلك الدور على فرار بعض الأقباط من مصر إلى الحبشة ، بل لجأ بعض أمراء المماليك المسلمين أيضاً إلى بلاد الحبشة ، ربما لخلافات داخلية بينهم وبين السلطان ، وخوفهم على أنفسهم من غائلته . وعلى رأس هؤلاء تذكر المراجع الأمير ألطنبغا حاكم قوص في عهد السلطان المؤيد شيخ (١٤١٢ — ١٤٢١) . وقد قام هذا الأمير بتدريب الأحباش على استخدام النار الإغريقية والرمى بالنشاب واللعب بالرمح والضرب بالسيف ، بعد أن كان الأحباش لا يعرفون غير استخدام الحراب[٢] . كذلك يشير المقريزى إلى أحد المماليك الزردكاشية[٣]

(١) المقريزى : الالمام ، ص ٤

(٢) العينى : عقد الجمان ، ج ٢٣ ورقة ٣٠٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٦٦٤ — ٦٦٥ (طبعة كاليفورنيا) .

(٣) الزردكاش ، هو الصانع الذى يعمل داخل السلاح خاناه فى صنع السلاح واصلاحه وتجديده (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٢) .

— ولم يذكر اسمه — فر من مصر في ذلك الدور ، فعهد إليه اسحق ملك الحبشة بعمل « زردخانات (خزائن للسلاح) عظيمة ، وكانوا من قديم إنما سلاحهم الحراب يرمون بها ... »(١) .

وهكذا استفادت الحبشة في الربع الأول من القرن الخامس عشر من خبرة المصريين وتقدمهم الحضارى — وخاصة في النواحى الحربية والإدارية — مما ساعد مملكة الحبشة على التطور والتقدم . وقد استغل اسحق ملك الحبشة تلك الطاقة التى أتيحت له في التنكيل بالمسلمين في بلاده ، فأنزل بهم أبشع ألوان الإضطهاد والإنتقام . وما كاد اسحق ملك الحبشة يعلم بأن سلطان مصر الأشرف برسباى (١٤٢٢ — ١٤٣٨) نجح في غزو جزيرة قبرص وأسر ملكها جانوس لوزجنان سنة ١٤٢٦ ، حتى استشاط غضباً وأرسل إلى زعماء القوى المسيحية في غرب أوربا يدعوهم إلى الإنتقام فوراً من سلطنة المماليك ، مبدياً استعداده للهجوم على مصر براً من ناحية الجنوب ، في الوقت الذى تقوم الجيوش الأوربية بغزوها من ناحية الشمال . ويتردد في المراجع — في ذلك الدور — اسم تاجر مسلم ، نرجح أن يكون شيعياً ، هو نور الدين على بن محمد بن يوسف التبريزى — الفارسى الأصل — نزح إلى بلاد الحبشة ، واستقرفيها حيث ازدهرت تجارته وصار موضع ثقة اسحق ملك الحبشة . ويقول أبو المحاسن أن على التبريزى قام بشراء كل ما احتاج إليه بلاط ملك الحبشة من نفائس مصر ، فضلاً عن أنه اشترى لملك الحبشة ما يحتاج إليه جيشه من أسلحة وخيول(٢) . ولم يجد ملك الحبشة أفضل من التبريزى رسولا يوفده إلى ملوك أوربا لوضع الخطة المشتركة لغزو مصر . وكان أن ترك التبريزى بلاد الحبشة إلى أوربا ماراً بمصر ، دون أن ينكشف أمره ، وهناك أبلغ ملوك أوربا رسالة ملك الحبشة ، فأقروا خطته ، بل إنهم شرعوا في صنع الزى الذى يرتديه المحاربون الصليبيون في هجومهم على مصر . وعند عودة التبريزى إلى الحبشة عن طريق مصر ، وشى به أحد

---

(١) المقريزى : الالمام ، ص ٤

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٦٣٧ — ٦٣٨ (طبعة كاليفورنيا) .

رفاقه فقبض عليه ، ولم يقبل منه مال مقابل إطلاق سراحه ، وبادر السلطان بتشهيره ثم تسميره (١).

وتؤيد المصادر الأوربية ما جاء في المراجع العربية عن الإتصالات بين ملوك الحبشة وملوك غرب أوربا في ذلك الدور ، إذ من الثابت أن هناك سفارة حبشية — من قبل الملك اسحق — وصلت فعلاً إلى بلاط ألفونس الخامس ملك أرغونة (١٤١٦ — ١٤٥٨) الذى تعهد بإعداد حملة بحرية تدهم مصر من ناحية الشمال ، في الوقت الذى يزحف عليها ملك الحبشة على رأس جيوشه من ناحية الجنوب . واختار الطرفان — الحبشة وأرغونة — أن يدعما هذه الإتفاقية برباط المصاهرة ، فيتزوج ملك الحبشة بأميرة أرغونية ، ويتزوج ولى عهد أرغونة بأميرة حبشية . ولهذا الغرض أرسل ملك أرغونة سفارة من قبله — رداً على سفارة ملك الحبشة — وصدرت التعليمات لهذه السفارة بأن تمر بمصر للوقوف على مدى قوتها وتحصيناتها وأوضاعها الحربية تمهيداً لتنفيذ مخطط الغزو(٢) .

ويبدو أن ملوك الحبشة في ذلك الدور وسعوا دائرة نشاطهم السياسى مع القوى المسيحية في أوربا ، بحيث أن ملك الحبشة لم يقف عند حد الإتصال بملك أرغونة ، وإنما اتصل أيضاً بملك فرنسا شارل السابع (١٤٢٢ — ١٤٦١) للمشاركة في خطة غزو مصر . وعلى الرغم من انشغال فرنسا وملكها بحرب المائة عام ضد انجلترا (١٣٣٧ — ١٤٥٣)(٣) ، إلا أن شارل السابع أبدى استعداده للمشاركة في الحرب الصليبية ضد مصر ، وأرسل سفارة إلى الحبشة لوضع الترتيبات الخاصة بالغزو . وقد مرت هذه السفارة بمصر ، وإن كان لم يصل منها سليماً إلى الحبشة سوى شخص اسمه بطرس . ولا توجد

---

(١) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ورقة ٢٥٣ (مخطوط) ، المرجع السابق ٦ ص ٦٣٧ — ٦٤٠ والتسمير هو دق أطراف الشخص بمسامير غلاظ فى لوح من الخشب حتى يموت .

(٢) Wiet : Relations Egypto — Abyssines, p.p. 128-129.

(٣) عن هذه الحرب انظر :

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى الجزء الأول ، الباب العاشر (الطبعة الرابعة) .

لدينا معلومات تاريخية واضحة عن هذه الإتصالات ، وإن كان لابروكيير قد حكى أنه صادف ذلك الشخص المسمى بطرس في القسطنطينية سنة ١٤٣١ ، ووصفه بأنه مواطن من مدينة نابلى ، وأنه كان يقوم بجمع الصناع اللازمين لبناء السفن المطلوبة للغزو المنتظر(١) . وإذا كانت حرب المائة عام — على ما يبدو — قد استأثرت بجهود ملك فرنسا وحالت دونه والمضى في اتخاذ الخطوات اللازمة لتنفيذ عملية القيام بحملة صليبية ضد مصر ، فإن ذلك لا ينفى وجود النية لتنفيذ ذلك المشروع . من ذلك التقرير الذى كتبه حنا دى لاستيك — مقدم هيئة الاسبتارية وبعث به إلى ملك فرنسا شارل الثامن (١٤٨٣ — ١٤٩٨) شارحاً له الضربات التى كالها ملك الحبشة للمسلمين في بلاده ، وبأن ملك الحبشة قد وجه إنذاراً نهائياً إلى سلطان مصر بأنه إن لم يحسن معاملة المسيحيين في بلاده ، فإنه — أى ملك الحبشة — سيقطع مجرى النيل عن مصر(٢) .

وهنا نسجل ملاحظتين : الأولى هى أن القوى الصليبية في شرق البحر المتوسط التى لم تستطع مدافعة سلاطين المماليك في مصر والتى تعرضت لضربات قوية من سلطنة المماليك في القرن الخامس عشر بالذات ، هذه القوى وجدت في موقف ملوك الحبشة شفاء لنفوسها وتنفيساً عن رغبة مكبوتة في الأخذ بالثأر . يدل على ذلك أن قبرص التى غزاها المماليك سنة ١٤٢٦ ورودس التى تعرضت هى الأخرى لغزو المماليك سنة ١٤٤٤ — والجزيرتان كانت بهما قوتان من بقايا القوى الصليبية بالشرق الأدنى هما دولة آل لوزجنان بقبرص والفرسان الإسبتارية برودس — أقول إن قبرص ورودس دخلتا دائرة الإتصالات بين ملوك الحبشة من ناحية وملوك غرب أوربا من ناحية أخرى ، بقصد ضرب دولة المماليك ضربة قاصمة . أما الملاحظة الثانية فهى أن اتساع دائرة الإتصالات بين الحبشة والقوى المسيحية في جنوب أوربا وغربها بهدف توحيد الجهود والقيام بعمل مشترك ضد سلطنة المماليك إنما يصور لنا الإتجاه الجديد الذى سلكته الحركة الصليبية في أواخر العصور

---

(١) Wiet : op. cit., p. 129.

(٢) Atiya : op. cit., p.p. 192-196.

الوسطى — بعد طرد الصليبيين من الشام في نهاية القرن الثالث عشر — وهو اتجاه اتخذ أساليب عديدة جديدة ، تختلف — كما يبدو لنا — كما وكيفاً عن الأسلوب التقليدى القديم للحركة الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد . وهذا الأسلوب الجديد امتزجت فيه عناصر الحرب الإقتصادية والحصار الإقتصادى من ناحية ، بالرغبة في مهاجمة المسلمين أينما وجدوا — على شوطىء آسيا الصغرى أو شواطىء شمال إفريقية وشواطىء الشام أو شواطىء الحبشة — من ناحية ثانية ، ثم بمحاولة استخدام سلاح جديد لإماتة مصر وأهلها بوصفهم حتى القرن الخامس عشر أكبر قوة إسلامية تنهض بعبء الجهاد ؛ وهذا السلاح هو تغيير مجرى نهر النيل وقطع مياهه عن مصر .

يؤيد وجهة نظرنا السابقة جواب ألفونس الخامس على ملك الحبشة في أواخر سنة ١٤٥٠ ؛ وفيه يؤكد ملك أرغونة رغبته في أن يعمل ملك الحبشة على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من ناحية الجنوب ، في الوقت الذى تتقدم أساطيل أرغونة وجيوشها لغزو فلسطين ودولة المماليك من ناحية الشمال (١) . وفي الوقت الذى كانت فكرة الغزو الحربي مسيطرة على عقول القوى المسيحية في القرن الخامس عشر ، كانت فكرة الحرب الإقتصادية تجد تأييداً قوياً من الدعاة وأصحاب المشاريع الصليبية ، حتى ذكر أحد هؤلاء الدعاة — وهو رامون لول — أن مقاطعة التجار الأوربيين لشراء التوابل من مصر لمدة ستة أشهر سيعرض دولة المماليك للإنهيار اقتصادياً وحربياً(٢) .

وثمة ملحوظة أخرى ثالثة هى أن ملوك الحبشة منذ أن أدركوا أهمية الرباط الدينى الذى يربطهم بالقوى الأوربية المسيحية ، أخذوا يغيرون نظرتهم إلى سلطنة المماليك في مصر ، فاستخفوا بها وازداد أسلوبهم في

---

(١) De La Ronciere : La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age, Tome 2, p. 119.

(٢) Heyd : Hist. du Commerce du Levant, Tome 2, p. 439 & Atiya : op. cit., p.p. 74-94.

مخاطبتها جرأة وجسارة . وإذا كان أقصى ما تستطيع أن تفعله بهم سلطنة المماليك هو منع بطريرك الإسكندرية من تعيين مطران للحبشة وقت الحاجة ، فإنه ليس كفراً أو خروجاً عن الدين أن تولى كنيسة الحبشة وجهها شطر روما والكنيسة الكاثوليكية ؛ فالكل مسيحيون تستظلهم تعاليم عيسى عليه السلام . وإذا كان أقصى ما تستطيع أن تفعله سلطنة المماليك هو اضطهاد المسيحيين في مصر ، فإن ملك الحبشة يستطيع أن يرد بنفس السلاح فيضطهد المسلمين في بلاده .

وهكذا دخلت العلاقات بين مصر والحبشة في القرن الخامس عشر دوراً عنيفاً ، يتصف بالتحدى والإستثارة من كلا الجانبين ، فأبطل اسحق بن داود ملك الحبشة إرسال الأموال والهدايا المعتادة إلى بطريرك الإسكندرية وسلطان مصر جميعاً(١) . وتطرف ملك الحبشة في تضييق الخناق على المسلمين في بلاده ، وخاصة في إمارة عدل الإسلامية التى اضطر بعض أمرائها إلى الفرار إلى اليمن حيث استنجدوا بملكها الناصر أحمد ، فأكرم الناصر أحمد وفادتهم ، وزودهم بالخيل والمال والمعدات الحربية(٢) . هذا في الوقت الذى أخذ مسلمو الحبشة يتطلعون إلى سلطنة المماليك ، ويطلبون مساعدتها ضد العدوان المسيحى الحبشى . على أن سلاطين المماليك في مصر لم يكونوا أقل عنفاً في الرد على ملك الحبشة بنفس أسلحته . ويبدو أنهم عملوا على قطع الصلة بين الكنيستين المصرية والحبشية ، الأمر الذى جعل ملك الحبشة يولى وجهه شطر روما . وقد أدركت كنيسة مار مرقس بالإسكندرية أنه خير للكنيسة الحبشية أن ترتبط بكنيسة روما من أن تضيع وتبقى وحيدة معلقة دون كنيسة أم تشرف عليها وتوجهها مما يعرض مصير العقيدة المسيحية نفسها في الحبشة للضياع . وهكذا أقر بطريرك الإسكندرية مشروع ربط الكنيسة الحبشية بكنيسة القديس بطرس في روما ، وخرجت من مصر إلى روما سفارتان سنة ١٤٤٠ ، إحداهما برآسة الراهب أندراوس الأنطوني

---

(١) Wiet : op. cit., p. 199.

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، ورقة ٢٩ (مخطوط) .

والأخرى برئاسة بطرس الشماس . وفي نفس الوقت حرص زرء يعقوب ملك الحبشة (١٤٣٤ — ١٤٦٨) على تكليف مقدم دير الأحباش بالقدس إرسال بعثة من الرهبان الأحباش للإشتراك في مجمع فلورنسا الدينى (١٤٣٨ — ١٤٣٩) . وليس أدل على التقارب بين ملك الحبشة والبابوية في ذلك الدور من سماح البابا إيو جنيوس الرابع للأحباش بإقامة دير لهم في روما(١) .

ونستطيع أن نستكشف الكثير عن طبيعة العلاقات بين مصر والحبشة أواسط القرن الخامس عشر من الرسالة التى أرسلها ملك الحبشة زرء يعقوب إلى السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ — ١٤٥٣) ، وقد وصلت هذه الرسالة مصر سنة ١٤٤٣ م (٨٤٧ هـ) ، وذكر السخاوى نصها بالكامل ، وفيما يلى بعض فقرات منها :

« المحب الصادق زرء يعقوب المكنى قنسطنطين ، من نسل أرعد ، من بنى سليمان بن داود عليه السلام . ملك سلاطين الحبشة ، وصاحب النواب بالمملكة النجاشية ؛ إلى الإمام الشريف العالى الأوحدى السلطان الملكى الظاهر جقمق ، سلطان المسلمين والإسلام بمصر والشام ، سيد الأنام ... قصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم ... ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف ، والإتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف ... وأنتم حفظكم الله عارفون ما يلزم الراعى من النظر في حال رعيته ، وأن الله يطالبه بذلك . وأبونا البطريرك وإخوتنا النصارى الذين هم تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة نفر قليل جداً ، ضعفاء الحال مساكين في كل الجهات ، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا . وأنتم حفظكم الله ليس يخفى عليكم ما في بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ، ونحن لهم ولملوكهم مالكون ، ولم نزل نحسن إليهم في كل وقت وحين ... وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب راكبون

---

(١) Budge : A Hist. of Ethiopia, I, p. 311 & Trimingham : Islam in Ethiopia, p. 67.

الخيل المسومة ... وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ، ولنا الإستطاعة على أن نمنع للزيادة التى تروى بلادكم ... ولا يمنعنا من ذلك إلا تقوى الله والمشقة على عباد الله . وقد عرضنا على مسامعكم ما ينبغى إعلامه ؛ فاعلموا أنتم بما يلزمكم ، وبما يلقى الله في قلوبكم ، ولم يبق لكم عذر تبدونه ...[١] » .

هذه هى رسالة ملك الحبشة إلى السلطان جقمق سنة ١٤٤٣ ؛ ومنها نستطيع أن نخرج بالمعاني الآتية : أولاً حرص ملوك الحبشة على عدم قطع علاقاتهم مع مصر قطعاً تاماً . ثانياً تعمد ملك الحبشة إظهار قوته وقدرته على إلحاق الأذى بالمسلمين في بلادهم ، وأنه إذا كان ممتنعاً عن ذلك ، فليس خوفاً من سلطان مصر ، وإنما رغبة في الاحتفاظ بحسن العلاقات معه . ثالثاً جمع ملك الحبشة في رسالته بين أسلوب التهديد وأسلوب الترغيب ، فلوح بقدرته على تحويل مجرى نهر النيل ، وذكر أن السلطان لم يبق له عذر بعد ذلك ، فإذا لم يحسن معاملة المسيحيين في بلاده فعليه أن يتحمل النتائج . . . وفي الوقت نفسه أرفق ملك الحبشة برسالته السابقة هدية للسلطان جقمق عبارة عن سبعين جارية وطشت وإبريق من ذهب وسيف مسقط من ذهب وحياصه وبناد ومهماز . وربما كانت هذه الهدية في حد ذاتها عاملاً مخففاً من عنف بعض عبارات الرسالة ، فاكتفى السلطان جقمق برفض طلبات ملك الحبشة ، وإن كان قد رد على هديته بهدية طيبة ، فيها سرجان من ذهب وشقق مذهبة ، وطائر مجوف مصنوع من البللور ، وقطع من الجوخ والصوف الملون ، وكمية من الزيت الطيب ... وحمل رسالة جقمق وهديته مبعوث خاص إلى ملك الحبشة هو يحى بن أحمد[٢] .

ويبدو أن ملك الحبشة استاء من رد جقمق ، فحجز رسوله عنده ، وأمر بقتل سلطان عدل الإسلامية — وهو شهاب الدين أحمد في حضرة رسول السلطان . ولما بلغ السلطان جقمق ذلك ، استحضر بطريرك الأقباط

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٦٧ — ٧١
(٢) المرجع السابق ، ص ٧١

فضربه وهدده بالقتل ، فأسرع البطريرك إلى كتابة رسالة إلى ملك الحبشة يحكى ما حل به من هوان ، ويطلب منه الإفراج فوراً عن رسول السلطان. فاستجاب ملك الحبشة أخيراً لذلك[١] .

ومن الواضح أن دولة المماليك كانت في ذلك الوقت — قرب منتصف القرن الخامس عشر للميلاد — تعاني كثيراً من المتاعب التى تعانيها كل دولة في خريف عمرها ؛ فانتاب الخلل جهاز الحكم ، وكثرت ثورات المماليك الجلبان ، واضطربت أطراف الدولة بالحركات الانفصالية ، وامتلأت أنحاء الدولة بالحركات الانفصالية ، وازداد خطر الإمارات التركمانية على حدودها الشمالية . . . كل ذلك في الوقت الذىما فتئت القوى الأوربية المسيحية تفكر في الثأر لنفسها[٢] . لذلك وقف السلطان جقمق موقفاً سلبياً من ملك الحبشة ، وخاصة لأن موقع الحبشة الجغرافي كان يجعل الحطى بعيداً عن متناول يد السلطان . وإذا كان المسلمون بالحبشة لم يكفوا عن طلب النجدة من سلطان المماليك في مصر، فإن الظاهر جقمق اكتفى بأن أرسل رسولاً — هو مثقال الحبشى— إلى سلطان عدل ينصحه بمصانعة ملك الحبشة والبعد عن التطرف في سياسته معه ، حرصاً على سلامة مملكته .

وهكذا دأب سلاطين المماليك في مصر في أواخر أيام دولتهم على غض النظر عما كان يأتيه ملوك الحبشة من أعمال استفزازية . من ذلك أنه حدث سنة ١٤٤٩ م (٨٥٣ هـ) أن حضر إلى مصر قاضى سواكن وأخبر السلطان جقمق أن زرء بن يعقوب أعد أسطولاً ضخماً من مائتى سفينة لغزو الحرمين والسيطرة على شواطئ الحجاز ، فضلاً عن تصميم ذلك الملك على قطع ماء النيل عن مصر . ومع ذلك استمر سلاطين المماليك في ذلك الدور يحسنون استقبال سفراء ملوك الحبشة وحجاجهم ، وهى السفارات التى تكرر وصولها، والتى أشرنا إلى بعضها في عهد السلطان الأشرف قايتباى والسلطان قانصوه الغورى .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٧٢

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٧٢ وما بعدها .

والواقع أنه بعد أن فشل ملوك الحبشة من ناحية وحكام القوى الأوربية المسيحية من ناحية أخرى في التغلب حربياً على دولة المماليك ، لم يبق أمامهم جميعاً سوى أمل واحد هو القضاء على تلك الدولة وإهلاك مصر وأهلها عن طريق حرمانهم من ماء النيل . ولم تكن هذه الفكرة — التى ازدادت رسوخاً في أواخر العصور الوسطى — جديدة ، وإنما ترجع جذورها إلى مدى عميق يمتد إلى عدة قرون سابقة(١) . وقد ورد في بعض الحوليات العربية التى ترجع إلى القرن الثالث عشر أن ملك الحبشة هو المسئول فعلاً عن الشدة المستنصرية العظمى التى ألمت بمصر زمن الخليفة المستنصر الفاطمى ، لأن ملك الحبشة هو الذى قطع ماء النيل عن مصر، ولم يعدل عن رأيه ويسمح بتدفق مياه النيل مرة أخرى إلا تحت ضغط البطريرك القبطى . وتردد هذا الرأى على نطاق أوسع في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، فذكر الراهب جور دانوس سنة ١٣٣٠ أن سلطان مصر كان يدفع إتاوة للأحباش حتى يسمحوا بجريان ماء النيل إلى مصر. وحوالى نفس الوقت ذكر ماريجونوللى أنه في استطاعة الأحباش أن يحبسوا ماء النيل عن مصر «وعندئذ تتعرض مصر للهلاك» . وفي سنة ١٣٨٤ ذكر سيمون سيجولى أنه إذا فتح ملك الحبشة مجرى نهر معين في بلاده ، فإنه « يغرق القاهرة والاسكندرية وجميع أرض مصر ...(٢) » .

وإذا كان طريق الاتصال بين الحبشة والغرب الأوربي ظل صعباً طوال العصور الوسطى ، مما حال دون قيام الطرفين بعمل مشترك ضد مصر ، فإن تلك الصعوبة بدت في طريقها إلى الزوال عندما توصل البرتغاليون إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . وفي الصدام الذى نشب بين البرتغاليين والمماليك عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، برزت الحبشة لتؤيد جهود البرتغاليين ، وتبدى استعدادها للوقوف إلى جانبهم ضد المسلمين. ويقال إن ملكة الحبشة في أوائل القرن

---

(١) Langer (W) : The Diplomacy of Imperialism, p. 103.

(٢) Idem ; p.p. 104-105.

السادس عشر — وهى الملكة هيلانة — بادرت بإرسال رسالة سنة ١٥١٠ م إلى عمانويل ملك البرتغال ، حملها إليه رجل أرمنى إسمه ماتيو ؛ جاء فيها :
« السلام على عمانويل سيد البحار وقاهر المسلمين الكفرة . . . وصلتنا رسالة من قائد اسطولكم في بحر الهند يطلب تزويده بالعمال والجند . ونحن على استعداد لإمداده بما يشاء ، حيث أنه يحارب في الهند ليدافع عن عقيدة المسيح . كذلك بلغنا أن سلطان مصر قد جهز جيشاً كبيراً لمحاربة قواتكم ؛ ونحن على استعداد لمنازلة أولئك الكفرة ، وإرسال أعداد كبيرة من جنودنا إلى البحر الأحمر ومكة وجدة والطور ، لنقضى قضاء تاماً على الكفار . . . ونبعث لكم مع رسولنا صليباً مصنوعاً من قطعة حقيقية من صليب الصلبوت الذى صلب عليه السيد المسيح ؛ كما أننا على استعداد لتقوية أواصر المحبة بيننا وبينكم عن طريق تزويج أبناءنا من بناتكم والعكس . . . إن بلادنا داخلية بعيدة على شاطئ البحر ، وليس لنا أساطيل ، ولكننا على استعداد لإمدادكم بالرجال والمؤن . وإذا جهزتم ألف سفينة حربية ، فإننا على استعداد لتقديم الرجال المقاتلين اللازمين لها . . .[١] »

وهكذا وجد الأحباش حليفاً قوياً في البرتغاليين الذين اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ، ووصلوا إلى بحر الهند ، وأجمع الحليفان على مواجهة العدو المشترك ، ممثلاً في دولة المماليك . ولم يلبث ألبوكرك — مؤسس قوة البرتغاليين في الشرق (١٤٥٣ — ١٥١٥) — أن أخذ يفكر جدياً في تحويل مجرى نهر النيل ، فأرسل إلى الملك عمانويل طالباً إمداده بعمال من ذوى الخبرة في قطع الصخور . وذكر ألبوكرك في رسالته إلى الملك عمانويل إن ملك الحبشة « شديد الرغبة في إنجاز هذا المشروع لولا افتقاره إلى وسائل التنفيذ ، وإذا تم ذلك فإن البلاد المصرية ستهلك تماماً[١] . . . ! ! » وإذا كان الموت لم يمهل ألبوكرك طويلاً ليواصل التفكير في مشروعه ، فإن خليفته سوارز أدرك أنه في حاجة إلى معونة ملك الحبشة للاستيلاء على جدة ،

(١) Kammerer : La Mer Rouge, Tomé 2, p.p. 254-255.

(٢) Langer : op. cit., p. 105.

بل للقضاء على دولة المماليك قضاءً تاماً . لذلك أرسل مبعوثاً إلى بلاد الحبشة طالباً معونتها لتنفيذ مشروعه الكبير ضد مصر[١] .

على أن الفتح العثماني لمصر ، وسقوط دولة البرين والبحرين — وهى دولة المماليك التى ملكت بر مصر وبر الشام وأطلت على البحرين المتوسط والأحمر — في قبضة السلطان سليم العثماني سنة ١٥١٧ ؛ جاء إيذاناً بمرحلة جديدة في التاريخ. ولعدة قرون تالية ، لم تعد لمصر سياسة خارجية مستقلة ، تتصرف بوحيها تجاه الحبشة أو غير الحبشة من القوى الخارجية ، وإنما كان عليها أن تسير في فلك السياسة العامة للدولة العثمانية .

---

(١) Kammerer : La Mer Rouge, 2, p. 265.

دور العرب فى نشر الحضارة
فى غرب أفريقية

للدكتور حسن أحمد محمود

استاذ التاريخ الاسلامى ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

المقدمة :

انتشار الثقافة العربية الإسلامية في افريقية فصل من قصة الحضارة الإسلامية عامة ، فقد خضعت لنفس الظروف والأحوال التى خضعت لها الحضارة الإسلامية ومرت بنفس التطورات ، وهى بذلك خليقة أن تدرس في ضوء القوانين العامة التى تدرس الحضارة الإسلامية في ضوئها .

فمثلاً واجهت الثقافة العربية في إفريقية نفس المشكلة العامة التى جابهتها الثقافة الإسلامية عامة في العصور الوسطى، وهي مشكلة أو ظاهرة الالتقاء الثقافي أو التماس الثقافي ، الالتقاء بين الثقافة العربية والثقافات القديمة الموروثة .

ففى مصر التقت الثقافة الإسلامية الوافدة بثقافة اغريقية نابعة من جامعة الاسكندرية ، كما التقت بثقافة مصرية قديمة ونظم بيزنطية . ومن هذا الالتقاء ظهر لون من الحضارة إسلامى الصورة متأثر في جوهره بهذه الثقافات القديمة ، أعنى أن الإسلام أخذ وأعطى ، ومن هذا الأخذ والعطاء ظهرت الحضارة الإسلامية في مصر .

وفي بلاد المغرب التقت نفس هذه الثقافة بثقافات إغريقية ولاتينية وفينيقية وبتقاليد ونظم عرفتها قبائل المغرب منذ عهد بعيد ، فلما نمت الحضارة الإسلامية في المغرب ووضحت قسماتها ، وضحت فيها هذه الصورة الإسلامية العامة مختلطة بتأثيرات وتقاليد مغربية صرفة .

الوطن الزنجى الصميم شهد هذه الظاهرة حينما دخل إليه الإسلام وثقافته العربية ، وأهل البلاد حينما أسلموا لم يهملوا تقاليدهم القديمة ، إنما قاموا بنوع من الملاءمة بين تقاليدهم المحلية الموروثة وثقافتهم الإسلامية المكتسبة . ونشأت بعد فترة من الوقت حضارة إسلامية الشكل زنجية الطابع . تتضح هذه الحقيقة إذا درسنا بعض مظاهر الحياة في السلطنات الإسلامية التى ظهرت في غرب إفريقية مثل سلطنة سنغى ومالى أو السلطنات الإسلامية التى ظهرت في سودان وادى النيل .

كان من نتيجة هذا الالتقاء الثقافي أن نشأت في إفريقية بيئات حضارية محلية لكل بيئة منها مقوماتها الخاصة ولكن تجمعها في إطار واحد صفات إسلامية مشتركة من وحدة اللغة والدين والمثل .

ثم بدأت الثقافة الإسلامية في الشرق الأدني وفي أفريقية مع ميلاد العصر الحديث تجابه مشكلة من نوع المشكلات التى واجهتها طوال العصور الوسطى ، فقد بدأت الدولة العثمانية التى كانت تحمى شمال أفريقية وتحفظ التوازن في البحرين الأبيض والأحمر تتجه إلى الضعف . وظهرت على مسرح الأحداث دول غرب أوروبا الكبرى التى اطردت نهضتها طوال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وبدأ الإنقلاب الصناعى وبدأت الثورة الصناعية تلفت أنظار أوروبا إلى أفريقية بحثاً عن أسواق الإستهلاك أو طلباً للمادة الخام .

وانتهى هذا التطور إلى غايته ، فاحتلت فرنسا مصر ثم جلت عنها ، واحتلت الجزائر ، وفرضت الحماية على تونس ومراكش ، واحتلت بريطانيا مصر والسودان وانتشر نفوذها في شرق أفريقية وغربها ، كما توطد النفوذ الفرنسى في السنغال والنيجر ومنطقة بحيرة شاد ، ووقع الإسلام في أفريقية في قبضة الدول الأوروبية الإستعمارية وجلبت معها ثقافة غربية ذات طابع خاص .

وبدأت هذه الثقافة الوافدة تلتقى بالثقافة الإسلامية في وقت غلب فيه المسلمون على أمرهم وضعفت وحدتهم السياسية . التقى العرب بالثقافات

القديمة وأخذوا منها مختارين ، والتقى المسلمون في القرن التاسع عشر بالثقافة الغربية مكرهين .

كانت الثقافة الغربية الوافدة ثقافة فتية متحررة من التقاليد البالية تظهر في كل يوم عن كشف جديد لمواطن القوة في الطبيعة ؛ والثقافة الإسلامية تعيش على الماضى .

وكان لابد للعالم الإسلامى في أفريقية أن يواجه هذه التطورات الجديدة التى وفدت على الحياة الإسلامية . وكانت الطبقة الواعية في العالم الإسلامى في موقفها من هذه المشكلة الثقافية فريقين : الفريق الأول أحس بما في الثقافة الغربية من خير قد يفيد جمهور المسلمين فسعوا إلى الإصلاح بالتقريب بين الثقافة الإسلامية القديمة والثقافة الغربية الوافدة ، وهذا الفريق يسمى فريق المجددين Modernist .

وهم كانوا يهدفون إلى محاربة البدع والعادات الضارة التى شاعت في حياة الناس والأخذ من عادات الغرب التى لا تسىء إلى الإسلام ، ثم إصلاح التعليم العالى وتطعيمه بالأفكار الجديدة والملاءمة بين الشريعة والفكر الحديث . ثم الدفاع عن الإسلام في وجه التأثيرات الأوروبية والهجمات المسيحية ، وذلك بدارسة الأفكار الغربية والرد عليها وإحداث ثورة في طريقة إدراك المعرفة ووسيلة اكتسابها . ونادى المجددون بضرورة تحرير الإسلام من جموده والقضاء على القيود التى يفرضها الفقهاء على المعرفة .

وامتدت آراء المجددين إلى موضوع الخلافة ونظامها ، فقد تغيرت نظرتهم إليها لتأثرهم بالمبادىء الغربية ، فهم لا ينكرون أن الإسلام يجمع بين الدين والدولة ، ولكنهم لا يعترفون بالخليفة إلا إذا كان منفذاً وممثلاً لشريعة الله . فلما ساءت حال الخلافة العثمانية أخذ المجددون يفكرون في وسائل جديدة تسد الفراغ الذى تتركه . وامتدت آفاقهم إلى ميدان الشريعة محاولين الملاءمة بين الأحوال الشخصية عند المسلمين وبين الآراء الجديدة .

تتمثل حركة التجديد هذه في مصر في الشيخ محمد عبده وبرنامجه في الإصلاح . وامتدت حركات المجددين فشملت العالم الإسلامى كله ، مثلها في الهند محمد إقبال ، وامتدت إلى تركيا كذلك .

واتخذت في بلاد المغرب التى خضعت للاحتلال الفرنسى المباشر صوراً أخرى، فقد بدأ التجديد من أعلا الطبقة العليا التى تقلد الحكام الفرنسيين ثم أخذ ينتقل هذا التقليد حتى يصل إلى قاع المجتمع . على أن الهوة بين أهل الجديد والقديم لم تكن تتجه إلى الاقتراب أو الاندماج كما حدث في مصر إنما كانت تتجه إلى العمق والتباعد ، فالمتمسكون بالتقاليد القديمة ازدادوا تمسكاً بها واشتدت مطالبتهم بالعودة إلى القديم شأنه ، على حين كانت الطبقة الأخرى من المجتمع يدفعها مركب النقص إلى استخدام أدوات أوروبا ووسائلها والتشبه بالأوربيين في كل شئ واستخدام اللغة الفرنسية في المعاملة والتخاطب

أما الفريق الآخر من المسلمين فقد رأى أنه لانجاة من آراء الغرب ولا مهرب من الضعف الذى شاع في الحياة الإسلامية في ظل الخلافة العثمانية المتداعية إلا بالحركات السلفية والعودة إلى ماضى الإسلام وأن هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ الإسلام وتطهيره .

وقد اتخذ هذا الاتجاه صورتين : صورة علمية هادئة تقوم على الدراسة والوعظ والتعليم وتنبيه الناس إلى ما في الإسلام من خير وما في حضارة الغرب من شر؛ تتمثل هذه النزعة في مدرسة الشيخ محمد رشيد رضا وجماعة المنار التى عملت على تقليد الحنابلة وابن تيمية والتمشى مع الوهابية الجديدة . وقد وجد هؤلاء استجابة لهم في العالم الإسلامى كله في المغرب والهند وأندونيسيا وقامت في الجزائر جمعية العلماء لمحاربة الصوفية ونشر تعاليم القرآن وامتد أثرها إلى تونس ومراكش .

أما الصورة الأخرى فهى أن قوماً رأوا أنه لايصلح الحال إلا بالسيف وإعلان الجهاد لتطهير الإسلام من البدع وتجنيد المسلمين لإنقاذ الإسلام مما أصابه على يد العثمانيين الضعفاء والاستعمار الغربى الوافد ، فقامت الحركة الوهابية في بلاد العرب فكانت حركة حنبلية مثل حركة ابن تيمية ، وأعلنت مبدأ الثورة على الحكومات الباغية وانتشرت دعوتها في البلاد التى خضعت للاحتلال الغربي .

وقد شارك مسلمو أفريقية العالم الإسلامى في اتجاهاته ، فالوهابية لقيت إستجابة سريعة في القارة الأفريقية فأثرت في السنوسية ، ورغم أن السنوسية طريقة صوفية إلا أنها تأثرت بتعاليم الدعوة الوهابية في مناهضة الاستعمار وثقافته . وامتد أثر الوهابية مخترقاً نطاق الصحراء إلى غرب إفريقية فاعتنقها عثمان بن نورى وأعلن الجهاد ضد قبائل الحوصه وقضى على إمارة غوبير في سنة ١٨٠٤ وأقام سلطنة سكت في شمال نيجيريا على أساس الدعوة الوهابية .

ونهج الحريصون على ثقافة الإسلام نهجاً آخر في الإصلاح السلفى فلجأوا إلى المهدوية . هذه الحركات التى تنبثق من نفوس المسلمين كلما ساء الحال وغضب الناس على أولياء الأمور ، فتؤمن الأكثرية بمهدى ينتظر قدومه ليخلص الناس مما هم فيه .

وظهرت انتفاضات مهدوية في إفريقية في القرن التاسع عشر . ظهرت هذه الحركة في سودان وادى النيل على يد محمد احمد المهدى . وانتشرت هذه الحركات المهدوية إلى غرب إفريقيا فظهرت حركة أحمدو بن محمد المعروف بأحمد ولوبو في منطقة ماسنة ، وشهد الصومال حركة مماثلة قام بها محمد بن عبد الله حسان وهى تشبه من وجوه كثيرة مهدية السودان .

وامتدت حركة الإصلاح إلى الطرق الصوفية فصحبتها نهضة شاملة ، فعادت الطرق الصوفية القديمة إلى الانتشار ، ونشأت طرق جديدة ، وازداد نشاط التيجانية والقادرية ، وانتشرت الميرغنية في شرق إفريقية . واتخذ بعضها طابعاً تبشيرياً صرفاً مثل القادرية والسنوسية واتخذ بعضها الآخر طابعاً حربياً مثل التيجانية .

واتحدت أهداف المصلحين مع أهداف الصوفية بسبب التقائهما في مقاومة الحضارة الغربية والنفوذ الأوروبي والنزعة المادية والتبشير المسيحى .

على كل حال انتهت انتفاضات القرن التاسع عشر وحركاته الإصلاحية ولم تستطع أن تنقذ العالم الإسلامى من المصير المحتوم ؛ واستسلم المسلمون ؛ ونشر الاستعمار نفوذه في القارة الأفريقية شمالها وغربها ووسطها وشرقها

وخضعت الثقافة الإسلامية منذ مطلع القرن العشرين للتأثيرات الغربية على نطاق واسع ، واختلفت مناهج المستعمرين وأساليبهم في معالجة أمور المسلمين في إفريقية والنظر إلى حضارتهم وثقافتهم .

في هدى هذه التطورات سنعرض لدور العرب في نشر الحضارة في غرب إفريقية ، منذ البداية حتى خضوع هذه البلاد للنفوذ الغربي .

١ ــ التحديد الجغرافي :

المقصود بغرب أفريقية تلك المنطقة الفسيحة التي تمتد من المحيط الأطلسي في الغرب حتى سودان وادى النيل في الشرق والتي تقع بين المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية في الشمال وبين نطاق الغابات الاستوائية في الجنوب .

أو بمعنى آخر نفس المفهوم الجغرافي الذى عرفه الرحالة والجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى باسم بلاد السودان ، فقد كانوا في الحقيقة يطلقون اسم بلاد السودان على هذه المناطق التي حددناها .

ومن الغريب أن هذه المناطق التي تقاسمتها اليوم المصالح والأهواء كانت تنعم في الفترة الممتدة من القرن السابع الميلادى حتى القرن التاسع عشر بوحدة بشرية وثقافية كبيرة عميقة الجذور ، وكانت في الحقيقة تخضع لمؤثرات بشرية وثقافية واحدة .

وكانت التأثيرات عادة تنطلق من الغرب متجهة صوب الشرق ، إما منطلقة من مصب السنغال أو من منحنى النيجر أو من المراكز الثقافية الهامة في المنطقة مثل تنبكت وجنى وكانو وغيرها .

وقل أن تجد تأثيرات بشرية ذات أثر واضح تخطت حدود سودان وادى النيل متجهة صوب الغرب لتترك أثراً واضحاً في تكوين المنطقة البشرى والحضارى . والقبائل العربية التي دخلت دارفور وقفت عند حدود السودان الغربية بل تعرضت دارفور نفسها لتأثيرات قادمة من الغرب ، حتى العناصر العربية التي تدفقت إلى غرب إفريقية إنما جاءت من بلاد المغرب منطلقة إلى مصب السنغال ثم متجهة صوب الشرق .

وكانت مناطق السافانا الفسيحة التى يحدها النطاق الصحراوى من الشمال والنطاق الغابي من الجنوب قلب الإقليم النابض ، مراكزها الثقافية حملت مشعل العروبة والإسلام وشعوبها تبنت الدعوة ولعبت الدور الأول في تاريخ الإسلام

٢ – دخول الاسلام والحضارة العربية الى غرب أفريقية :

تاريخ غرب إفريقية حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت توجهه ظاهرتان : هجرات وغارات متصلة لبعض قبائل البربر على الوطن الزنجى في الجنوب ؛ ثم شعوب بدائية من أهل البلاد تتعرض لهذه الهجرات وتحتك بها وتتأثر بها وتقتبس الكثير من نظمها الاجتماعية والعسكرية والثقافية .

هذه الهجرات والاتصالات كانت ظاهرة واضحة منذ القرن الأول الميلادى، غير أنها لم تكن تتجاوز مجرد الانتقالات الموسمية لقبائل المغرب عند أطراف الصحراء ثم الاحتكاك ببعض المراكز الأمامية التى أنشأتها الشعوب الزنجية أو مجرد غارات خاطفة على أوطان الزنوج لاقتناص العبيد ؛ هذا فضلاً عن الاتصال التجارى بين المغرب وأسواق إفريقية[١] .

غير أن هذه الهجرات اتخذت طابعاً آخر منذ بدأ العرب يبسطون نفوذهم على المغرب كله ، فقد أخذت هذه القبائل تتجه صوب الجنوب في حركات مستمرة للإقامة الدائمة ، وهذا التحول سببه أن الرومان لم يكن نفوذهم يتوغل إلى أبعد كثيراً من السهل الساحلى ، وأقاموا خطا من الحصون يحمى منطقة نفوذهم من القبائل البدوية ، أما العرب فقد أخضعوا قبائل البدو لسلطانهم وأصبح هؤلاء البدو جزء من عالم المغرب الإسلامى .

وكان المغرب كلما تعرض لأزمات سياسية كلما أوغلت القبائل في هجرتها إلى الجنوب وبدأت في أواخر القرن العاشر الميلادى تستقر في منطقة أدرار[٢] ، بل وصل بعضها إلى مشارف السنغال .

هذه القبائل المهاجرة كانت تحيا حياة مستقلة ذات طابع حربي ، محافظة على كيانها . وكانت تعتمد على الخيل والإبل وتوسع في مجال أعمالها العسكرية

---

(١) Fage : West Africa, pp. 10 — 10.

(٢) Palmer p. 7.

وينتهى أمرهم بأن يفرضوا نفوذهم بالقوة على طوائف مسالمة من الزنوج [١] ثم ينتشر نفوذهم في إقليم السافانا المكشوف شمال نطاق الغابات .

وتكتفى هذه الجماعات البدوية بإخضاع الشعوب الزنجية بقوة السلاح ثم تفرض الجزية ، ثم يتم الاختلاط التدريجى بين الغالب والمغلوب وتنشأ طبقة من المولدين تتولى مقاليد الأمور وتتعلم من سادة الأمس فنونهم العسكرية ونظمهم الاجتماعية والدينية .

ويعنينا من قبائل البربر التى كان لها هذا الأثر في تاريخ غرب إفريقية الطوارق أو الملثمين الذين قاموا بدور الوسيط بين المغرب الأقصى وغرب إفريقية،وحملوا الإسلام هناك،وكانوا العامل الموجه لتاريخ الإقليم وثقافته .

هذه القبائل كانت تنتشر في وطن متسع يمتد جنوب النطاق الجبلى الذى يخترق شمال إفريقية من الشرق إلى الغرب . ويمتد هذا الوطن من غد امس جنوب طرابلس حتى المحيط الأطلسى في المناطق الصحراوية التى تلى سلسلة الجبال المعروفة بجبال أطلس [٢] ، كما يمتد هذا الوطن جنوباً حتى مصب السنغال ومنحنى النيجر ويتخطى هذا النهر إلى الشرق حتى بلاد برنو .

ولكى تكمل الصورة نعرض للطرف الآخر ونعنى به الشعوب الزنجية المقيمة في هذا الجزء من القارة ، توزيعها الجغرافي شمال نطاق الغابات وفي أقصى الغرب ، وعلى الخصوص في بلاد فوتا .

فعلى طول ضفتى السنغال نزل شعب التكرور والسربر والولوف. أما في الشرق على الضفة اليسرى للنيجر فقد نزل شعب السنغى ويتألف من عشائر من الزراع أو صيادى الأسماك . وبين السنغى والتكرور أو في المنطقة الممتدة بين أعالى السنغال في الغرب وبحيرات النيجر في الشرق ونطاق الغابات في الجنوب تنزل الشعوب المتكلمة بلغة الماندى [٣] .

---

(١) De la chapelle : Hesperis 1930, T, X, p. 49.

(٢) البكرى : المغرب ص ١٦٤ .

(٣) Fage : West Africa pp. 10 — 10.

وقبل أن تؤدى هجرات البربر إلى قيام إمارات الحوصا في القرن العاشر الميلادى، كانت المنطقة الممتدة من النيجر في الغرب إلى بحيرة شاد في الشرق قد تسربت إليها عناصر حامية جاءت من الشرق متدفقة من هضبة الحبشة عبر أعالى النيل وامتد تأثيرها في الغرب حتى موطن اليوروبا .

كانت هذه الشعوب الزنجية تعيش على هيئة جماعات مسالمة يرأسها أكبر الرجال سناً ولكل منها كهنة ، وكانت تدين بالوثنية وكانت القرى تنتشر حول القرية الكبرى التى ينزل فيها الزعيم الأكبر . وقد وصلهم بصيص من الحضارة عبر الصحراء فعرفوا صناعة الذهب والحديد وبناء الزوارق وقطعوا مساحات واسعة من الغابات وهيئوها للزراعة بوسائلهم البدائية .

وقد استطاع شعب من هذه الشعوب قبل دخول العرب إلى المغرب بوقت طويل أن يؤسس دولة ،ونعنى به شعب الماندى بصفة عامة وفرع السوننكه بصفة خاصة ، واتخذت هذه الدولة إسم غانه[١] .

ويتفق كل من بارت ودى لافوس على أن قيام دولة غانة كان عام ٣٠٠ ميلادية وأن ذلك يعزى إلى تأثيرات وفدت من الخارج أو على الأقل إلى طبقة حاكمة وافدة احتكرت الزعامة وتزوج أفرادها من الوطنيين .

وقد استطاعت هذه الدولة في الفترة بين القرن الرابع الميلادى ومستهل القرن الثامن أن تتوسع توسعاً كبيراً . وفي آخر القرن الثامن استطاع شعب السوننكه أن يرث الدولة ، فقد استنفد المهاجرة أغراضهم واندمجوا في السكان وعلموا الناس نظمهم وتجاربهم واستغل السوننكه هذه المواهب للاستيلاء على الحكم في غانة سنة ٧٧٠ ميلادية .

وقد تتابع امتداد هذه الدولة، فاخضعت بلاد فوتا حيث التكرور والولوف والسربر ووصل هذا التوسع إلى غايته في مستهل القرن الحادى عشر[٢] ووصل نفوذ الدولة شرقاً حتى قرب تنبكت وإلى النيجر الأعلا وأعالى السنغال ، بل امتد هذا النفوذ شمالاً حتى المغرب الأقصى .

(١) انظر مادة غانة : دائرة المعارف الاسلامية .
Cooley : The Negroland of the Arabs p. 5, 8, 44-45.

(٢) Hogben : The Muhammadan Emirates of Nigeria

وكان دخول الإسلام إلى غرب إفريقية يتوقف على أمرين : إسلام شعب الطوارق من ناحية ثم ضعف مقاومة دول غانة من ناحية أخرى، وتسرب الإسلام إليها لتفسح الطريق للتيار الإسلامى لينطلق إلى الجنوب دون قيد . فكيف أسلم هؤلاء البربر ؟ وكيف خضعت غانة ثم تلاشت ؟

بدأت المحاولات الأولى لانتشار الإسلام بين الطوارق أثناء الفتوحات العربية في بلاد المغرب . فقد توغل عقبة بن نافع الفهرى في ديار الطوارق . وهناك روايات تذهب مذهب المغالاة فتقول أن عقبة دخل إلى غرب إفريقية وفتح بلاد التكرور وغانة . والرحالة بارت[١] يؤيد هذه الروايات بقوله إن بعض الأخبار المحلية تدعى أنه كانت بغانة جالية إسلامية سنة ٦٠ هجرية وأنه قد بنى بها عدد من المساجد .

مهما يكن الأمر فإن عقبة كان أول من حمل الطوارق على الإسلام وأول عربي ارتاد هذه الجهات[٢] ففتح الطريق أمام تجار العرب الذين بدأوا يخترقون الصحراء إلى مدينة أودغشت ؛ حتى إذا كان عهد الفاتح موسى ابن نصير نجده يتصل بموطن الطوارق ويردهم إلى الإسلام وينشىء مسجداً في مدينة أغمات التى ستغدو من أهم مراكز الإسلام والثقافة العربية في المغرب الأقصى .

ولا يبعد أن يكون موسى قد ولى زعماءهم بعض المناصب فازداد إقبالهم على الإسلام طمعاً في المشاركة فيما ينعم به الحكام العرب ، وقد اشترك فريق منهم في جيش فتح الأندلس[٣] ، ومن هنا تأكد إسلام الطوارق في ذلك الوقت .

وقد تابع خلفاء موسى نشر الدعوة إلى الإسلام بين البربر، خصوصاً في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى أرسل طائفة من التابعين انتشروا في البلاد يعلمون الناس أمور دينهم[٤] .

---

(١) Barth : Travels and discoveries p. 579, vol. V p. 27.

(٢) الادريسى : المغرب وأرض السودان ومصر ص ٦١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٥٩ .

(٤) الدباغ : معالم الايمان ج ١ ص ١٥٤ .

ثم قامت دولة الأدارسة العلويين في المغرب الأقصى ، وعملت على توحيد البلاد وإقرار السكينة ، وكان نسبهم العلوى سبباً في توحيد القبائل المختلفة . وقد نجح الأدارسة في إقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر وتوسعوا شرقاً حتى تلمسان(١) وبسطوا نفوذهم على إقليم الريف. كذلك بسطوا سلطانهم على النواحى الشمالية من ديار الطوارق وأصبحت هذه البلاد جزءاً من أملاكهم ؛ لذلك فإن إسلام الطوارق الذى بدأ في عهد عقبة تأكد في عهد الأدارسة في القرن الثالث الهجرى .

وكان إسلام الطوارق تماماً في القرن الثالث الهجرى ذا أثر بالغ في تاريخ غرب إفريقية ، إذ أدى إلى قيام حلف قوى يجمع الطوارق كلهم ، وأدى هذا التوحيد إلى مجموعة من التوسع صوب الجنوب لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية . ونجح الطوارق في ظل هذا الحلف في محاربة غانه وزحفوا حتى أودغشت واتخذوها حاضرة لهم . ولكن هذا الحلف تفرق سنة ٣٠٦ هـ ، واستعادت غانة ما فقدته ، وظلت طوال الخمسين سنة التالية أعظم قوة في غرب إفريقية .

غير أنه ترتب على هذا الاحتكاك المتصل بالتجارة أو الحرب أن تسربت الحضارة العربية إلى غانة نفسها ، فقد ذكر أحد الرحالة المسلمين الذين زاروا هذه البلاد سنة ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ ميلادية أن بمدينة غانة حيين واحد للمسلمين به إثنا عشر مسجداً وعدد من الفقهاء وأهل العلم .

وكان مضى الإسلام إلى أبعد من هذا يتوقف على مقدار مايحققه الطوارق من وحدة أو ما يقدمونه من جهاد أو يبذلون من جهد لمقاومة مملكة غانة ، ثم القضاء عليها ليفتحوا الباب أمام الإسلام لينطلق إلى الجنوب كما انطلق إلى السودان بعد سقوط ممالك النوبة المسيحية .

وقد تحقق ذلك كله بفضل دعوة المرابطين التى انبثقت بين هؤلاء الطوارق في أواخر القرن الخامس الهجرى على يد زعيمهم عبد الله بن ياسين

---

(١) Terrasse : Hist. de Maroc. p. 11.

الذى هاجر إلى جزيرة نائية في مصب السنغال وعاش هناك عيشة التصوف والزهد ، وكان الناس يسمعون أخباره فيرحلون إليه وينضمون لرباطه ومن هنا اتخذ أتباعه اسم المرابطين .

في هذه الجزيرة عمل على خلق جيل جديد من المسلمين وأعدهم لحياة شاقة من الجهاد وأعدهم للحرب ، ونمى في نفوسهم الإسلام الصحيح ، وخلق منهم طائفة فدائية تعمل على إحياء السنة ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتحقق الوحدة بين الطوارق على هذا الأساس الدينى الصرف .

ولما زاد عدد أنصاره من المرابطين خرج من رباطه لينفذ السياسة التى رسمها لنفسه ، وبدأ بالجهاد فاتجه إلى الشرق إلى منحنى النيجر(١) ودخل مدينة أودغشت وانتزعها من ملوك غانه ؛ واستبسل أنصاره استبسالاً لم يعرفه الطوارق من قبل ، ثم اتجه إلى الجنوب واستجاب له التكرور وحاربوا إلى جواره .

وفي الوقت الذى اندفع فيه المرابطون صوب المغرب والأندلس كانت جموعهم تتابع جهود عبد الله بن ياسين في غرب إفريقية . وكان أمير المرابطين أبو بكر بن عمر يقود المجاهدين في الجنوب ، واستطاع بعد جهاد دام أكثر من خمس عشرة سنة أن يستولى على القسم الأكبر من غانة وأن يضمه إلى دولة المرابطين(٢) .

وقد انكمش سلطان غانه واستقلت بعض أقاليمها ، ثم أسلم ملوكها وعملوا على متابعة الجهاد بوسائلهم وتحولت غالبية الشعب الغاني إلى الإسلام .

وكان دعاة المرابطين قد نشروا الإسلام في المنطقة الواقعة بين السنغال والنيجر ، وعلى ضفاف السنغال ، كما أسلم شعب التكرور . أما القبائل التى لم تعتنق الإسلام فقد بحثت لها عن أوطان أخرى ، هاجر السربر صوب الجنوب ، وهاجرت قبائل أخرى صوب الغرب وهاجر الفولبه إلى منطقة فوتاتورو.

---

(١) ابن أبى زرع : روضة القرطاس ص ٧٩ .
(٢) البكرى : المغرب ص ١٦٨ .

ومع المرابطين دخلت الثقافة العربية من مدارس المغرب والأندلس ، فقد وحدوا بين الأندلس والمغرب وغرب إفريقية في دولة واحدة ، وتم في عهدهم أعظم أثر في الميدان الثقافي حينما أسست مدينة تنبكت التي أصبحت حاضرة الثقافة العربية في غرب إفريقية .

تأسست هذه المدينة آخر القرن الخامس الهجرى . ويذكر السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان(١) أن قوماً من الطوارق اختطوا هذه المدينة ، وهم قوم من البدو قدموا هذه البلاد للرعى ، فكانوا يصيفون على ضفاف النيجر في موقع هذه المدينة ثم يرحلون في الخريف إلى أوطانهم . ثم استقر بهم المقام بسبب استقرار الحياة في عهد المرابطين فأنشئت المدينة وأصبحت سوقاً هاماً يفد إليها التجار بطريق النهر أو تأتيها القوافل عن طريق مراكش . ثم وفد إليها العلماء من المغرب والأندلس ومصر وطرابلس وبنى بها مسجد جامع ، وبنيت من حولها الأسوار وحلت المساكن المبنية من اللبن محل الأكواخ(٢) .

على كل حال انتهى الأمر بانتشار الإسلام على نطاق واسع وتوطنت الثقافة العربية في مركزين مشهورين في تنبكت وجنى ، وضعف ملك غانه ثم تلاشى أخيراً .

٣ ــ ظهور الأمارات الاسلامية المستقلة وازدهار الثقافة العربية :

أسلم أهل البلاد الأصليين وتأثروا بتقاليد الإسلام واقتبسوا من نظمه واستفادوا من خبرات البربر الذين خالطوهم واتصلوا بهم ، وهذا تطور طبيعى في تاريخ الإسلام في أى بلد من البلاد ، وهو نفس التطور الذى حدث في مصر أو في بلاد المغرب ، فكان طبيعياً أن تشهد غرب إفريقية دولاً إسلامية من أهل البلاد ذوى الدم الزنجى الخالص ، أو الذين اختلطت دماؤهم بدماء البربر .

---

(١) Meek : The northern tribes of Nigeria, vol. I p. 61.

(٢) السعدى : تاريخ السودان ص ٢١ .

وقد عرض فيدج Fage [1] في كتابه West Africa لهذه الإمارات محاولاً أن يفسر أسباب قيامها واتساعها ثم اضمحلالها ، وهو يرى أن هذه الإمارات تعتمد في تكوينها على قوات من الخيالة أو ركاب الإبل فتكتسب عنفاً وسرعة في الانتشار في منطقة السافانا الممتدة من الغرب إلى الشرق . وقد يصل نفوذها إلى مشارف الغابات ثم يتوقف ، لأن الخيل أو الإبل لاتقوى على اختراق هذا النطاق . والشعوب التى تدين لهذه الإمارة بالطاعة تحتفظ بتقاليدها المحلية ولغاتها ، لأن الحاكمين لايعنيهم إلا مجرد دفع الجزية . وتبقى الإمارة ويطول حكمها إذا استطاعت الاحتفاظ بجيشها سليما .

لكن ثمار النصر وتكدس الأموال يضعف الروح العسكرية ، وإذا تزوجوا من أهل البلاد الأصليين ضعفت فيهم روح العصبية ، وسرعان ما تتعرض الإمارة لغارات جديدة من البدو ثم تختفى .

والنشاط الإدارى لمثل هذه الدول لايتجاوز مجرد تحصيل الجزية ، وهذا الأمر يتوقف بدوره على قوة الدولة . وهذا المجال الواسع الذى تنتشر فيه هذه الإمارات يتطلب من الحاكم الاستبداد بالسلطة ثم التجول المستمر بصحبة الجيش للقضاء على الفتن .

والحكم في المناطق النائية يعهد به عادة إلى فريق من النواب أو القواد ، قد يغريهم البعد بالطمع في الاستقلال أو الثورة ، وفي بعض الأحيان يولى ولاة من أهل البلاد فيؤسسون إمارات تستقل عن الإمارة الكبرى .

هذه الدول بعد قيامها تتخذ مظهراً إسلامياً واضحاً يتمثل في خروج الأمراء المسلمين إلى الحج في مواكب حافلة ، واتصالهم بالدول الإسلامية المعاصرة ، والتشبه بهذه الدول في نظم الحكم ، واتخاذ اللغة العربية لغة الدولة ، واتخاذ الكتاب من أصحاب العلم والمعرفة ، والاستعانة بالعلماء والفقهاء ، وإنشاء المساجد وتشجيع الحركة العلمية وإيفاد الطلاب لمراكز العلم في البلاد الإسلامية ، والاشتراك في الجهاد في المناطق المجاورة لهم التى تنزل فيها الشعوب الوثنية . وإليك أهم الإمارات التى ظهرت في هذه المنطقة .

---

(١) Fage : West Africa, pp. 17 - 18.

سلطنة مـالى

هذه السلطنة أسسها شعب زنجى أصيل[١] هو شعب الماندنجو[٢] ، وإسم هذه السلطنة يؤيد هذا القول ، فكلمة مالى تحريف لكلمة ماندنجو ومعناها المتكلمين بلغة الماندى . فالفولانيون يطلقون عليهم إسم مالى ، والبربر إسم مل أو مليت . والمؤرخون العرب يخلعون عليهم لقب مليل ، على حين نجد الحوصة يسمونهم بالونجارة .

هذا الشعب الزنجى الخالص اعتنق الإسلام في آخر القرن الحادى عشر في الحركة الدافعة الكبرى التى صحبت قيام دولة المرابطين وعكوفهم على الجهاد في منطقة السودان الغربي .

وكان بعض هؤلاء الناس قد أنشأوا دويلة صغيرة انفصلت عن غانة ، وظفرت بنوع من الاستقلال الذاتي يطلق عليها المؤرخون اسم مملكة كانجابا .

هذه الدويلة التى أسلمت أرادت أن تشارك بنصيب في الحياة الإسلامية وأن تؤسس لها ملكاً إسلامياً خالصاً .

وكان توسع هذه الدولة يستجيب للأحداث السياسية المعاصرة ولنصيب الدول المحيطة بها من القوة أو الضعف .

مصداق ذلك أن توسعها واستهلالها لحركة دافعة من الفتح أو التوسع وقع في القرن الثالث عشر ، في الوقت الذى تفكك فيه ملك غانة بعد صراعها مع المرابطين[٣] ، وبعد أن تسرب الإسلام إلى صفوفها على نطاق واسع .

وفي نفس الوقت كانت دول المغرب الإسلامى قد شغلت بشئونها الخاصة وبأحداثها المحلية ، فدولة الموحدين كانت قد دهمها الانحلال والتفكك وانقسمت إلى دويلات صغرى متصارعة من أجل القوة والنفوذ .

---

(١) السعدى : تاريخ السودان ص ٩ .

(٢) Cooley, pp. 24.

(٣) Fage, p. 24.

وقد توفرت لهذه الدولة النامية القوة بامتلاكها ناصية القوة العسكرية وتعرفها على أساليب القتال وتجنيدها جيشاً قائماً من الخيالة والإبالة ثم تبنيها لحركة الجهاد في سبيل الإسلام .

وضح هذا التطور في عهد ملكها سندياتا ، وكان مظهر هذا التطور استطاعة هذا الملك عام ١٢٣٧ م أن يقهر مملكة صوصو القوية ، وأن يصرع صاحبها في ميدان المعركة ثم أن يلتهم ما بقى من شبح ملك غانة القديم[(١)] ، فانفسح المجال أمام هذه الدولة المتطلعة إلى النفوذ والقوة بعد تغلبها على غانة من ناحية وعلى صوصو من ناحية أخرى .

ومن مظاهر بروز هذه الدولة في سماء الحياة السياسية ، وتطورها اتخاذها حاضرة جديدة .

ويستفاد مما كتبه محمود كعت في كتابه « الفتاش » أن هؤلاء الملوك كانت لهم عاصمة قديمة تسمى جريبة جاوزوها إلى عاصمة جديدة اتخذت إسم « نباني » .

وقد أدت الحفريات التى أجريت في منطقة النيجر في السنوات الأخيرة إلى تأييد ماذكره هذا المؤرخ ، إذ تم الكشف عن موقع هذه المدن عند ملتقى النيجر بفرعه Sankaran[(١)] .

واستمرت هذه الحركة التوسعية في عهد سنديانا ، ثم بعد وفاته في عهد خليفته منسى ولى[(٣)] (١٢٥٥ – ١٢٧٠) ، فاستولى على مناجم الذهب في ونجارة ، كما استولى على بمبوك وبوندة .

ولم تتوقف الفتوح بعد منسى ولى ، إنما استمرت في عهد خلفائه حتى وصلت الغاية في عهد ملك ملى الشهير منسى موسى (١٣٠٧ – ١٣٢٢) .

فقد استولت جيوشه على ولاته ، ودخلت تنبكت ومنطقة جاو عند النيجر الأوسط .

---

(١) Hogben, pp. 30-34.

(٢) Hogben, pp. 30-34.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية : مادة ملى . (م١٦ ـ الاسلام فى أفريقية)

وامتدت هذه الدولة في آخر العهد به إلى بلاد التكرور في الغرب ، ثم إلى دندى في الشرق ، بل امتد نفوذها شمالاً إلى ولاتة ، وأروان ، وتادمكة في قلب الصحراء[١] ، وأوغل نفوذها جنوباً حتى فوتاجالون .

وقد عدد القلقشندى الأقاليم التي انضوت تحت لواء هذا الملك الواسع وذكر منها : ملى وصوصو وغانا وكوكو وتكرور .

بل يستفاد من رواية القلقشندى أن آمال منسى موسى لم تقف عند حدود البحر بل امتدت إلى ما وراءه ، وكأن هذا السلطان أراد أن يتبع توسعه البرى بتوسع بحرى باكتشاف معالم المحيط الأطلسى ، فأعد حملة مكونة من مائتى سفينة شحنها بالرجال والأزواد وأمرهم ألا يعودوا حتى يبلغوا نهاية البحر ، ولما لم يعودوا جهز حملة أخرى فكان نصيبها الإخفاق[٢] .

إذن استطاع هؤلاء السلاطين أن يبسطوا سلطانهم على سهل السافانا الفسيح من منطقة السنغال في الغرب حتى منطقة شاد في الشرق بعد امتلاكهم أعنة الخيل والإبل .

وقد نجم عن هذا كله تدفق الجزية في مبالغ ضخمة إلى خزانة الدولة . ثم احتكارها لسلع الملح والذهب وغيره من المعادن ، ثم سيطرتها على التجارة العالمية الرابحة المنطلقة من مدن السودان إلى مدن المغرب ، وما صحب هذا من الغنى الفاحش والثراء الجم الذى يلوح من وصف كل من ابن بطوطة[٣] وليو الإفريقى ، ثم إنشاء العلاقات التجارية مع بلاد المغرب ومع مصر .

وما كادت الدولة تبلغ الغاية من التوسع حتى بدت مظاهر الضعف فأغرق الملوك في الترف .

وفقد الملوك المتعاقبون روحهم العسكرية ، فبدأت الأقاليم الخاضعة تستقل الواحدة بعد الأخرى : استقلت جاو وأروان وولاته[٤] .

---

(١) Fage, p. 24.

(٢) Fage, p. 26.

(٣) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨٣ ، ٢٩٤ .

(٤) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٨٤ .
القلقشندى ج ٥ ص ٢٩٧ .

وبدأ الولوف والتكرور يغيرون من الغرب ودولة الكانم من الشرق . واستقلت إمارة سيكون لها شأن عظيم ، وهى إمارة سنغى[١] .

ولا يعنينا من سيرة هذه الدولة إلا أن نبين كيف انفعلت انفعالا إسلامياً وكيف ساهمت في بناء الحضارة العربية وكيف استطاعت أن تحقق من المظاهر الإسلامية ما سبق أن نوهنا عنه .

أول هذه المظاهر اتصالها بالقوى الإسلامية المختلفة وإظهارها لروح الأخوة الإسلامية . ظهر هذا من اتجاه هؤلاء السلاطين إلى الحج إلى مكة ثم زيارة مصر في الطريق .

وقد بدت هذه الظاهرة منذ فجر قيام الدولة ، إذ أشار القلقشندى إلى خروج منسى ولى بن مارى جاطه[٢] للحج في عهد السلطان بيبرس .

وكان هؤلاء الحجاج يجتازون الدرب الصحراوى المعروف بطريق غات ، والذى يمتد من هذه المدينة وينتهى عند أهرام مصر .

لكن هذه الصلات ظهرت في صورة واضحة قوية في عهد السلطان منسى موسى[٣] ، الذى يعتبر موكبه من أروع مشاهد مواكب الحاج التى وفدت على مصر في القرن الثامن الهجرى .

إذ بلغت عدة من جاء في ذلك الركب أكثر من عشرة آلاف شخص[٤] . وبرغم مافي هذا العدد من مبالغة إلا أن مجىء ذلك الوفد الضخم أتاح للمصريين فرصة طيبة لمعرفة الكثير من أحوال تلك البلاد .

ويبدو أن هذا الحج كان هدفه إظهار مظاهر البذخ واكساب شخصية منسى موسى من الهيبة والإحترام ما يمكن لملكه من البلاد ، ويبعث رعيته على الطاعة له . وقد مهد لمجيئه إلى مصر وتقربه من سلطانها ، بكتاب أمسك

---

(١) Fage : Op. cit., p. 26.

(٢) القلقشندى ج ٥ ص ٢٩٤ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) السعدى : تاريخ السودان ص ٧

فيه ناموساً لنفسه ، مع مراعاة قوانين الآداب . وخاطب فيه الناصر محمد بآيات التقدير والإخاء وبعث إليه بهدية مقدارها خمسة آلاف مثقال ذهب .

وفي هذا الكتاب وفي هذه العلاقات ما يدل على روح الأخوة الإسلامية بين مصر عاصمة الإسلام وبين السلطات الإسلامية الناشئة في غرب إفريقية .

وقد راسل ديوان الإنشاء بمصر ملوك تلك الجهات ، بدليل ما يوجد في التعريف وصبح الأعشى من نماذج لمكاتباتهم[١] .

وكان هذا استهلالا لعلاقات ثقافية وتجارية واسعة[٢] ، فقد انتهز هذا السلطان فرصة وجوده في مصر فابتاع جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل مملكته طرفاً من مناهل الثقافة المصرية .

وتبع هذا رحيل كثيرين من علماء مصر إلى تنبكت ، ورحيل علماء تنبكت إلى مصر . بل إن ابن بطوطة رأى هناك طبيباً مصرياً ، واشتملت حاشية السلطان منسى سليمان على ثلاثين مملوكاً من مماليك مصر .

كما وفد التجار المصريون إلى هذه البلاد ، ورحل تجار التكارنة إلى القاهرة ، بل استقرت طوائف من هؤلاء في مصر تشتغل بالتجارة أو العلم أو التصوف ، وهذا كله من مظاهر الأخوة الإسلامية الحقة .

وكما اتصل سلاطين ملى بمصر اتصلوا بملوك المغرب خصوصاً بالسلطان أبي الحسن على المرينى ، وانتهز منسى موسى فرصة استيلائه على تلمسان وبعث إليه بالتهنئة[٣] ، كما بعث بالسفراء الدائمين إلى مدينة فاس .

وتوطد العلاقات الثقافية مع المغرب ليس في حاجة إلى إيضاح ، ويكفى أن عرى هذه الصلات لم تنفصم بحكم وحدة اتباع مذهب مالك[٤] . فقد كان فقهاء هذه البلاد دائمى الإتصال بفقهاء السودان يتبادلون الفتاوى والتواليف والرحلات .

---

(١) حامد عمار : علاقات الدولة المملوكة بالدول الأفريقية ص ٥

(٢) Meek, vol. I, p. 62.

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٦

(٤) القلقشندى ج ٧ ص ٢٩٧

بل امتدت هذه العلاقات إلى الأندلس ، يدل على هذا ما يروى من استعانة منسى موسى بأحد أهل الأندلس[١] لبناء القصور والمساجد ، وبذلك شاع الفن العربي الأندلسى في هذه البلاد .

ومن المظاهر الإسلامية فوق الحج وتوطد صلات الأخوة إحاطة سلاطين ملى أنفسهم بالفقهاء والعلماء[٢] خصوصاً في عهد منسى سليمان الذى بنى المساجد والجوامع والمنارات ، وأقام بها الجمع والجماعات والآذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب مالك[٣] .

وقد اكتملت الحركة الإسلامية في عهدهم بسبب حركات الجهاد المتتابعة من ناحية ورحيل الفقهاء من ناحية أخرى .

حدث هذا كله في القرن الرابع عشر حينما زار ابن بطوطة هذه البلاد ورأى فيها حياة إسلامية أصيلة عريقة وعلماء من مصر ومراكش ، وطلبة للعلم وحفاظ للقرآن .

وقد زارها ليو الإفريقى في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، فوجد الحياة الإسلامية في غاية الإزدهار بفضل الجهود المتصلة التى بذلها هؤلاء الملوك لخدمة الإسلام ، ونشر الثقافة الإسلامية[٤] .

سلطنة سنغى

بدأت دولة صغيرة لا تكاد تختلف في ظروف قيامها عن دولة غانة ، هجرة من بربر لمطة تدفقت على منطقة النيجر في القرن السابع الميلادى واستطاعت أن تبسط نفوذها على الفلاحين من أهل سنغى الذين ينتشرون على ضفة النيجر الأوسط .

ثم بدأت هذه الدولة تنمو نمواً مطرداً في ظل أسرة حاكمة من هؤلاء البربر (أسرة زار أودبا) التى اختلطت دماؤهم بدماء أهل البلاد الأصليين

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة ملى
(٢) Dubois, p. 265.
(٣) القلقشندى ج ٥ ص ٢٩٧
(٤) دائرة المعارف الاسلامية : مادة ملى

وقد أفادت من علاقاتها التجارية مع غانة وتونس وبرقة ومصر ومن طرق القوافل المارة بتادمكة .

ثم بدأت المرحلة الحاسمة في تاريخ هذه الدولة في منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، حين اعتنق ملوكها الإسلام وتشربوا الحضارة العربية وبدأ هذا الدين يتسرب بين صفوف أهلها .

اعتنق شعب سنغى الإسلام في ظروف مشابهة لاعتناق أهل ملى ، اعتنقوه في الحركة الإسلامية الضخمة التى اضطلع بها المرابطون في ذلك الوقت .

وليس ببعيد أن تكون قد تلقت البلاد بعض التأثيرات الإسلامية الضخمة عن طريق هذه العلاقات التجارية التى نشأت بينها وبين المغرب الإسلامى (١).

ولعل انتشار الإسلام على هذا النحو أو إفادتها من التجار هى التى دفعت سنغى إلى التماس حاضرة جديدة . . إذ انتقلت الدولة إلى مدينة جاو على مقربة من طريق القوافل الرئيسية التى تصل المغرب بالسودان .

ولم تستطع هذه الدولة الناشئة أن تقاوم الحركة التوسعية الكبرى التى نمت في عهد منسى موسى سلطان ملى ، فخضعت لدولةملى ودانت لها بالطاعة ، وظلت على هذا الولاء حتى بدأت مظاهر الضعف تدهم ملك ملى مؤذنة بتفككه وانهياره .

وكان استرداد هذه الدولة لاستقلالها مؤذناً باندفاعة توسعية لاتقل عن اندفاعة ملى من قبل .

وقد وضح هذا التطور في عهد ملكها سنى على (١٤٦٤ — ١٤٩٢) ، الذى هيأ لدولته جيشاً قائماً منظماً ، ثم بدأ الزحف فاستولى على مدينة تنبكت وبدأ يبسط نفوذ دولته الناشئة في سهول غرب إفريقية(٢) .

---

(١) Fage, p. 29.

(٢) Fage, p. 27.

غير أن هذه الحركة التوسعية تظهر في صورة قوية واضحة في عهد اسكى محمد ، فقد استكملت الدولة استعدادها العسكرى الموفور ، وأفادت من الخبرات السابقة واتخذت هذه الحركة الجديدة مظهراً إسلامياً واضحاً حين اتجه هذا الفاتح إلى مملكة موسى الزنجية فأعلن الجهاد واستشار أهل العلم والورع [١] .

بدأ بأن طلب إلى ملوك هذه الدولة الدخول في الإسلام أو دفع الجزية فلما أبوا حاربهم في ديارهم ، قتل رجالهم وخرب أرضهم وسبا نساءهم .

ثم انساح فوق السهول لايكاد يعوقه عائق ، فانبسط نفوذه غرباً إلى بلاد الماندنجو والفولاني وشمالاً حتى (موطن) الطوارق ، وامتد نفوذه جنوباً بعد إخضاعه مملكة موسى الوثنية .

وتجاوز مد سنغى الآفاق التى وصل إليها سلاطين ملى ، إذ تسرب نفوذهم إلى شمال نيجريا .

فهوجمت إمارات الحوصة ، كشن (كتسينا) ، وغوبير وكانو ، وزنفرة وزاريا وخضعت كلها سنة ١٥١٣ .

وكان هذا الخضوع بداية لظهور الثقافة الإسلاميةفي هذه الجهات ، فظهرت مدن كانو وكاتسينا كمراكز للثقافة في هذا الجزء من نيجيريا .

وأشرف النفوذ الإسلامى المنتشر في ركاب سلاطين سنغى على منطقة بحيرة شاد[٢] . لهذا كله نرى السعدى ومحمود كعت التنبكتى وغيرهم يلونون هذا العهد بلون زاه ، ويكاد وصفهم لاسكى محمد—لفضائله وجهاده في سبيل الدين—يرقي به إلى مصاف الأولياء ، فنسبوا إليه الكرامات والخوارق ، ونسجوا حوله الأساطير .

ويحق لهم أن يفعلوا هذا ، فلم تصل دولة من دول غرب إفريقية إلى هذا القدر من سرعة الزحف وامتداد السلطان .

---

(١) السعدى ص ٧٤ — ٧٧

(٢) Meek, vol. I, p. 66.

فقد شمل نفوذ هذه الدولة منطقة السافانا كلها في امتدادها من الشرق إلى الغرب .

ومما أكسب هذه الفتوحات صفة القوة و الدوام أن اسكى محمد وضع نظماً إدارية صالحة مكنته من السيطرة على هذه الرقعة الفسيحة من الأرض .

فقد اتخذ أربعة من نواب الملك عهد إليهم بحكم الولايات مع منحهم السلطان المطلق : حاكم دندى ويشرف على المناطق الممتدة شرقاً حتى بحيرة شاد ، وحاكم بانكو الذى يتولى المنطقة الواقعة بين العاصمة جاو وبين مدينة تنبكت ، ثم حاكم بال ويسيطر على الأقاليم الشمالية الغربية ومواطن الطوارق ، أما الحاكم الرابع فيتولى النطاق الغربي الممتد إلى بلاد التكرور.

وجعل من قوات الجيش القائم المنظم عدته في الغزو والفتح والجهاد ، ضم إليه فرقاً من فرسان البربر ثم فرقاً أخرى من أبالة الطوارق ، وفرقاً من المشاة .

ولم تستطع دولة أخرى أن تبلغ هذا المبلغ من تنظيم الجيوش والتحكم في هذه القوى الهائلة . ولعل هذا القدر من القوة يفسر لنا سر هذا التوسع العظيم الذى لم نألفه من قبل(١) .

ثم ينقضى عهد الفاتحين المجاهدين المؤسسين ويأتي جيل من الخلفاء الذين ينقصهم هذا الإخلاص وهذه الرغبة في الجهاد بل يجنحون إلى الراحة والإغراق في الترف والنعيم .

والفترة التى تلت عزل أسكى محمد ثم وفاته لم تخل من بعض السلاطين الذين توفرت لهم بعض مواهب هذا الرجل الفذ إلا أنها حفلت بالمنازعات على العرش ، صراع متصل بين الأخوة ، وأعمال تتسم بالعنف، ومؤامرات واغتيالات وخوف متصل من المنافسين على العرش(٢) ، فجاءت النهاية على يد جيوش المغرب الأقصى التى تقدمت لفتح السودان سنة ١٥٩٠(٣) .

(١) Dubois, pp. 131 - 134.

(٢) Ibid, p. 136.

(٣) Fage, p. 30.

وقد اتصل النزاع بين سلاطين سنغى وسلاطين مراكش على مناجم الملح الغنية الواقعة عند تغزه .

وتطور هذا النزاع إلى عدوان متبادل واشتباك مسلح ، ورأى المنصور سلطان مراكش الذى كان قد أبطره انتصاره على البرتغاليين عند القصر الكبير أن يحسم هذا النزاع بفتح بلاد سنغى مستغلاً ما أصابها من ضعف وتفرق .

فأعد حملة مؤلفة من نحو أربعة آلاف من خيرة جند مراكش بقيادة جودر باشا ، وعبروا الصحراء وهزموا قوات سنغى قرب عاصمتهم جاو ، ثم قضوا على آخر رمق في مقاومة سلاطين سنغى .

وإذا كانت دولة سنغى قد شابهت دولة ملى من حيث تطورها العام ، فإنها قد شابهتها في اتخاذها مظهراً إسلامياً واضحاً ، بل فاقتها في هذه الناحية . وهذا تطور طبيعى فقد امتد سلطان سنغى إلى القرن السادس عشر ، واستطاع الإسلام بعد نحو أكثر من ثلاثة قرون أن يقطع خطوات واسعة في سبيل النمو والانتشار .

وقد سعى ملوك سنغى كما سعى ملوك ملى من قبل إلى الاتصال بالقوى الإسلامية المعاصرة تحقيقاً لروح الأخوة الإسلامية .

فقد خرج أسكى محمد إلى الحج ومر بمصر سنة ٨٩٩ هـ في موكب حافل لايقل عن موكب منسى موسى في روعته وأبهته وفخامته .

وأغدق أكثر مما أغدق سلفه ، فقد روى السعدى مثلاً أنه تصدق في الحرمين بمائة ألف مثقال من الذهب واشترى بساتين في المدينة المنورة حبسها على أهل تكرور .

واجتمع في موسم الحج بزعماء المسلمين وتأثر بما رآه في مصر من نظم في الحكم راقيةومن ثقافة عربية مزدهرة ، فاتصل بالإمام السيوطى وغيره من علماء العصر وتلقى تقليداً من الخليفة العباسى .

وعاد إلى بلده متأثراً بما رآه من روح إسلامية خالصة ، وعمل على تطبيق ما تعلمه من آراء وتجارب ، ويقال أنه استهدى في تنظيماته الإدارية بالنظم التي شهدها في مصر[١] .

وأمعن في إحاطة نفسه ببطانة من العلماء . وروى صاحب تاريخ السودان وصاحب تاريخ الفتاش تفاصيل كثيرة عن تقدير هذا السلطان للعلم وأهله ، فإذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم وأمر بألا يقف أحد إلا للعلماء أو الحجاج ، وأن لا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم ، وهو لايفتأ يسأل عن سنة الله ورسوله[٢] .

ويشير صاحب الفتاش إلى بعض الآراء الإصلاحية التي تنسب إلى هذا السلطان فقال : « وأبطل البدع والمنكر وسفك الدماء وأقام الدين أتم قيام وجدد الدين وأقام العقائد[٣] » وأولى جامعة تنبكت المزيد من عنايته فتفوقت في عهده ووصلت إلى ما لم تصل إليه من قبل .

وأصبحت هذه السياسة الإسلامية سياسة مقررة لخلفائه ، فاسكى اسحق يسير في نفس الطريق من تشجيع العلماء وإكرامهم والأخذ بيدهم[٤] ، وهذا اسكى داود يتخذ خزائن الكتب ، « وله نساخ ينسخون كتبه ، وربما[٥] هادى العلماء ، وقيل أنه حافظ للقرآن ، قرأ الرسالة فأتمها وله شيخ يعلمها ويأتيه الشيخ بعد الزوال ويقرئه إلى الظهر[٦] » .

فكأن دولة سنغى شهدت تمكن الإسلام من أهل غرب أفريقية وازدهارها الثقافة الإسلامية إلى أبعد الحدود .

٤ ـ انتشار الاسلام صوب الشرق :

واضح إذن أن تيار الحضارة العربية كان يتدفق من بلاد المغرب ويتجمع في منطقة السنغال والبلاد الواقعة بين منحنى النيجر في الشرق ونهر السنغال

(١) السعدى ص ٧٢
(٢) الفتاش ص ٥٩
(٣) المرجع السابق ص ٥٩
(٤) المرجع السابق ص ٨٧
(٥) المرجع السابق ص ٩٤
(٦) المرجع السابق ص ٩٤

في الغرب ، ويتركز على الخصوص في المراكز الإسلامية التى ظهرت في هذا الجزء من القارة .

من هذه المراكز كان الإسلام يتقدم صوب الشرق في حركات ملحة مطردة : إما على يد التجار الذين يوسعون أفق نشاطهم صوب الشرق أو في ركاب الفاتحين من سلاطين ملى وسنغى .

امارات الحوصة

وقد جاوز الإسلام منحنى النيجر متجهاً صوب الشرق إلى المنطقة الواقعة شمال نيجريا الحالية إلى حيث شعب الحوصة .

وهذا الشعب يمثل هجرة من هجرات البربر الذين كانوا لايكفون عن المضى صوب الجنوب كلما أتيحت لهم الفرص .

ذلك أن غارات الهلاليين منذ القرن الحادى عشر فصاعداً دفعت فريقاً من الملثمين إلى الهجرة إلى واحة أير ، كما دفعوا إلى الهجرة أيضاً بعض قبائل من البربر من غير الملثمين وقد عاش الفريقان جنباً لجنب فترة طويلة ، وتزاوجا ثم اندمجا[١] ، ومن هذا الاندماج نشأت شعوب الحوصة .

ولم تعد واحة أير تكفى هذا العدد من السكان ، فبدأ الحوصة يبحثون عن مهاجر جديدة ، فانطلقوا صوب الجنوب إلى الشمال نيجريا ، وكونوا لأنفسهم إمارات صغيرة بلغ عددها سبعا ، أقدمها إمارة بيرم ، وإمارة غوبير وكانو وكاتسينا وزاريا وزنفرة[٢] .

حتى جاء القرن الرابع عشر، فإذا بالحوصة لايزالون على وثنيتهم . يستفاد هذا من رواية ابن بطوطة الذى زار هذه البلاد سنة ١٣٥٣ م ، وعجب لأن أهلها لا زالوا على الوثنية .

---

(١) Hogben, p. 69.

(٢) Fage, p. 54.

ثم بدأ الإسلام يتدفق إلى هذه الإمارات من الغرب ، يدل على هذا ما يرويه تاريخ مدينة كانو من أن فريقاً من الفقهاء يزيدون على الأربعين رجلاً قد وفدوا على هذه المدينة فعلموا ملكها الإسلام ، وأسسوا مسجداً ، وأقاموا فيها يعلمون الإسلام ، ويطبقون الشريعة الإسلامية .

وليس ببعيد أن يكون سلاطين ملى قد بسطوا على الأقل نفوذهم الروحى في هذه البلاد .

ويبدو أن ثمة تأثيرات إسلامية أخرى دخلت البلاد من الشرق ، ويبدو أن فقهاء المغرب قد شاركوا في هذه الجهود السلمية لنشر الإسلام بين شعب الحوصة ، مثل تلك الجهود التى بذلها فقيه توات الشهير محمد بن عبد القادر المغيلى (١) .

وقام أهل برنو بجهود مماثلة في الفترة الواقعة بين سنتى ١٤٣٨ و ١٤٥٠(٢) ومضى الإسلام قدماً في البلاد ، حتى كان آخر القرن الخامس عشر حين بدأت كانو وكتسينا تبرزان في ميدان الثقافة الإسلامية .

ورحل علماء من تنبكت وجنى إلى هذه المدن وأقاموا بها يعلمون فقه مالك .

ومضت الحركة الإسلامية حينما استطاع اسكى محمد سلطان سنغى أن يبسط نفوذه على هذه الإمارات في القرن السادس عشر .

وبدأت مدن الحوصة تزداد تألقاً وسعة في النفوذ عن ذى قبل، خصوصاً بعد سقوط سنغى واحتلال المراكشيين لبعض بلادهم .

وتعرض علماء تنبكت وجنى للكثير من المظالم والمحن ، فاضطروا إلى الهجرة صوب الشرق التماساً لأوطان أكثر أمنا وطمأنينة .

---

(١) Meek, vol. I, p. 89.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : مادة حوصة

سلطنة كانم وبرنو

ولم يقف الإسلام عند حدود نيجيريا بل عاود انطلاقه صوب الشرق، فنفذ إلى منطقة بحيرة شاد حيث قامت سلطنات إسلامية هى سلطنة كانم وبرنو ، تشبه من وجوه كثيرة السلطنات التى حفل بها تاريخ ذلك العصر في السودان الغربي : مثل ملى وسنغى[١] .

وقد اتخذ تاريخها نفس المجرى ، وتعرضت لنفس الظروف ، ومرت بنفس الأدوار ، ومثلت دورها المرسوم في ميدان الحياة الإسلامية بنفس العمق والإصالة التى شهدناها في السلطنات السابقة .

تشابه حتى في البداية الأولى التى شغلت الفترة الواقعة بين سنتى ٨٠٠ و ١٢٥٠ م ، هجرات من البربر تتدفق إلى شرق بحيرة شاد وغربها ، كما تدفقت هجرات مماثلة إلى جميع أرجاء غرب إفريقية .

في هذه الفترة هاجر الزغاوة ، وهم شعب جمع بين المؤثرات الزنجية والحامية ، وانتشروا في مستهل هذه الفترة في مساحة رحبة تمتد من بلاد دارفور حتى بحيرة شاد[٢] .

ويبدو أن الزغاوة ظلوا على الوثنية حتى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، فالبكرى الذى كتب عن هذه البلاد في هذه الفترة يذكر أنهم لا زالوا على الوثنية .

حتى إذا مضى القرن الحادى عشر وبدأ القرن الثاني عشر تعرض الزغاوة لهجرة جديدة من الطوارق .. هجرة من التبو والتدا .

هذه الهجرة لم تكن شاملة بالصورة التى نتوقعها ، إنما كانت على هيئة أرستوقراطية حاكمة تملك مصادر القوة والنفوذ ، وتستطيع عن طريقها أن تخضع شعب الزغاوة لسلطانها[٣] .

---

(١) Fage, p. 54.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : مادة حوصة .

(٣) Plamer, p. 5.

هذه الأرستقراطية الحاكمة أنجبت أول أسرة مالكة تسيطر على المنطقة الواقعة شرق البحيرة ، وتؤسس سلطنة كانم التى كان لها شأن في تاريخ السودان.

ومما يلفت النظر أن ملوك هذه الأسرة يطلقون على أنفسهم اسم بنى سيف ويدعون نسباً حميرياً يصلهم بسيف بن ذى يزن .

وهذا النسب يؤكد لنا صحة إنحدارهم من أصل ملثمى ، لأن الملثمين جميعهم من صنهاجة الجنوب ينتسبون إلى الحميريين .

وكان طبيعياً أن يحتفظ بنو سيف بهذه القرابة الوثيقة ، وأن يحافظوا على هذا النسب التقليدى(١) .

ويبدو أن ظهور هذه السلطنة في ظل هذه الأسرة الحاكمة كان مرتبطاً بدخول الإسلام والحضارة العربية إلى أرض كانم . والذين عرضوا لتاريخ هذه السلطنة يختلفون في الوسيلة التى دخل بها الإسلام هذه النواحى ، فبالمر مثلاً(٢) يرى أن هجرة أموية دخلت هذه البلاد قادمة من مصر ، ويشير في مواضع أخرى إلى أن فريقاً من فقهاء المالكية فروا من مصر في عهد الخليفة الفاطمى الظاهر لإعزاز دين الله ، والتجأوا إلى بلاد كانم وعملوا على نشر الإسلام بين أهلها .

ونعتقد أن الإسلام دخل في ركاب هذه الأسرة الحاكمة ، وأن إدخال هذا الدين هو الذى مكن لها من السيطرة على البلاد والوثوب إلى كراسى الحكم .

وروایاتهم المحلية تؤيد هذا بقولها أن الهادى العثماني جد(٣) الأسرة الحاكمة هو الذى أدخل الإسلام إلى البلاد ، وإن كان صاحب كتاب الإستبصار يرد انتشار الإسلام في البلاد على نطاق واسع إلى سنة ٥٥٠ هـ (سنة ١١٠٦ م). وبعض الروايات الأخرى ترجع إدخال الإسلام إلى حكم الملك أومى(٤) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٩

(٢) Palmer, p. 6.

(٣) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨١

(٤) دائرة المعارف الاسلامية : مادة كانم Palmer, p. 14.

إذن دخل الإسلام في ظل الأسرة الحاكمة في آخر القرن الحادى عشر ثم ثبتت أقدامه وتوطد في القرن الثاني عشر . وهذا لا ينفى تدفق تيارات إسلامية أخرى من مصر أو المغرب[١] .

وكان اعتناق الأسرة للإسلام ثم انتشار الإسلام على نطاق واسع بين أهل البلاد إيذاناً بانطلاقهم نحو العلاقات الدولية والتوسع والغنى والشهرة .

ومن الغريب أن هذه الشعوب تظل مجهولة حتى تعتنق الإسلام فتظهر على مسرح الأحداث ، ويدخل تاريخها في عهد من النور والوضوح[٢] .

وقد انطلقت هذه الأسرة تتوسع في أواخر القرن الثالث عشر في عهد ملكها دونامة الأول وسليمان وخليفته ، فانتشر نفوذها حتى بلغ حدود مصر وطرابلس ونيجيريا في الغرب[٣] .

واتسعت تجارتها ، وتدفقت الثروات إلى خزائنها . وفي نفس الوقت تقريباً رسخت الحركة العلمية في البلاد ، وتوطدت اتصالاتها الثقافية بمصر والمغرب وغرب إفريقية .

ثم جدت ظروف أدت إلى انتقال السلطان إلى فرع آخر من هذه السلالة ثم انتقال مركز النفوذ من شرق البحيرة حيث بلاد كانم ، إلى غربها حيث بلاد برنو .

فقامت سلطنة برنو في حجر نفس الأسرة . ذلك أن قبائل البلالة[٤] من أهل البلاد الأصليين ثارت على استبداد الأسرة الحاكمة ، وأعلنت الحرب واقتحمت عاصمتهم جيمى[٥] ، وطردت الملوك من بلاد كانم ففرروا إلى غرب البحيرة على النحو الذى ذكرناه ، وتمت هذه النقلة في عهد السلطان عمر بن إدريس (١٣٩٤ — ١٣٩٨) .

---

(١) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨١

(٢) Barth, vol. II, p. 372.

(٣) Barth, vol. II, p. 372.

(٤) Hogben : op. cit., p. 37.

(٥) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨١

ثم عاودت سلطنة برنو ظهورها في سماء الحياة الإسلامية ، فقد استطاعت في عهد ملكها ماى على أن تخضع البلالة الثائرين وأن تبسط نفوذها على شرق البحيرة وأن تجمع كانم وبرنو في سلطنة موحدة(١) .

ثم بلغت أوج توسعها في القرن السادس عشر ، فقد تخلصت من متاعب البلالة ، ومكنت لها الأحوال الدولية المعاصرة من مواصلة سياسة التوسع؛ فالمغرب شهدت تسرب النفوذ العثماني إلى الجزائر وتونس ، وانشغل المغاربة بمدافعة الخطر الأسباني والبرتغالى .

ثم سقطت مملكة سنغى ، ووقعت هذه البلاد نهباً للفوضى والإضطراب في ظل الحكم المراكشى .

وقد نمت مراكز برنو الثقافية مزدهرة في ظل الأمن والطمأنينة ، والرحالة ليو الإفريقى زار هذه البلاد في ذلك العصر ، ورأى مبلغ ما نعمت به من شهرة واسعة ، ومن أدلة هذه الشهرة ظهور هذه السلطنة على الخرائط البرتغالية المعاصرة(٢) .

وامتد نفوذ برنو غرباً في عهد ماى على ، فناضل بقايا نفوذ سنغى وبسط نفوذه على إمارات الحوصة .

وبلغت هذه السلطنة أوج قوتها في عهد أدريس ألوما الذى استطاع بعد حصوله على الأسلحة النارية أن يقهر الشعوب الوثنية في الجنوب وأن يبسط نفوذه شمالاً حتى واحة اير (أهير) ومناطق التدا والتبو(٣) ، وهو يشبه من وجوه كثيرة اسكى محمد سلطان سنغى الشهير .

وقد مرت سلطنة برنو بفترات من الضعف والإنحلال في القرن السابع عشر ، ولكنها بقيت حتى القرن التاسع عشر ، وساعدها على البقاء اضطراب أحوال العالم الإسلامى ، وتفرق شعوب غرب السودان والمغرب .

---

(١) Meek, vol. p. 80.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : مادة برنو

(٣) Hogben, p. 40.

وقد قامت سلطنة كانم وبرنو في الحياة الإسلامية بنفس الدور الذى قامت به سلطنة ملى وسنغى من حيث اتصالها بالبيئات الإسلامية المجاورة والدول الإسلامية المعاصرة ، تأكيداً لروح الأخوة الإسلامية ، وأفادت من الخبرات الثقافية والعلمية .

فقد سعى هؤلاء السلاطين إلى مواسم الحج ، ومروا في طريقهم بمصر شأنهم شأن السلطنات الأخرى ، فالسلطان دوناما سلطان كانم خرج حاجاً في القرن الحادى عشر ، ومر بمصر في طريق السفر والعودة، ويقال أنه ترك بمصر نحواً من ثلاثمائة من العبيد(١) .

ولابد أن أمثال هذه الزيارات قد تكررت ، ولابد أن صلة كانم قد توطدت بمصر ، فقد كانت أقرب هذه السلطنات من الطرق التى تسلك الصحراء الغربية في طريقها إلى واحات مصر .

وأبلغ دليل على اتصال العلاقات الودية بين كانم وبين مصر ، أن طائفة من أهل كانم رحلوا إلى مصر ، وأقاموا بها واشتركوا بنصيب موفور في تجارتها الخارجية .

واشتغلت هذه الطائفة بتصريف المحاصيل السودانية ، وبتجارة الرقيق ومارسوا تجارة البهار من اليمن والهند والصين .

وقد اتخذت هذه الطائفة مدينة قوص مركزاً لها، فأصبحت سوقاً تجارياً حافلاً بمنتجات إفريقية الوسطى والمغرب واليمن والهند .

وكونوا لهم نقابة قوية هيمنت على التجارة واحتكرتها ، وأقاموا على نقابتهم رئيساً معترفاً به من قبل الحكومة .

وقد نمت ثروة بعضهم نمواً عظيماً بحيث أصبحوا يقومون في عالم التجارة بما تقوم به البنوك الحديثة ، ويقرضون السلاطين في مصر والبلاد المجاورة(٢) .

---

(١) Palmer : Bornu, Sahara and Sudan, p. 91.

(٢) حامد عمار ص ٥٨

ولم يرحل الكانميون إلى مصر تجاراً إنما رحلوا إليها طلاب علم ، التحقوا بالأزهر ، وأنشأوا في مصر مدرسة لتعليم مذهب مالك[١] بالفسطاط؛ وعادوا إلى بلادهم يتابعون نشاطهم الثقافي .

وقد اتصلوا بالمراكز الإسلامية الأخرى . اتصلوا بتونس[٢] في عهد بني حفص اتصالات تجارية وثقافية مختلفة ، واتصلوا بكانو وتنبكت وجنى وجاو ، وعملوا على تشجيع الحركة العلمية في بلادهم بتقريب العلماء والفقهاء والإغداق عليهم ، وأنشأوا المساجد وأوقفوا الأوقاف على طلبة العلم[٣] .

كذلك عملوا على نشر الإسلام والجهاد في سبيله ، واستخدموا الأسلحة النارية في السيطرة على القبائل الوثنية الواقعة إلى الجنوب منهم ، وأدخلوا الكثير منهم في الإسلام .

وإليهم يرجع الفضل في بسط لواء الإسلام في منطقة بحيرة شاد كلها ، وأسهموا في نشر الإسلام في بلاد الحوصة .

٥ ـ الحضارة العربية فى غرب أفريقية فى العصور الوسطى

١ ـ نظم الحكم :

هذا الدور من تاريخ الإسلام في غرب إفريقية يمتاز بطابع واضح كل الوضوح ، فقد تم فيه الإمتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية الوافدة وبين التقاليد الزنجية المحلية ، وتمت الملاءمة بين هذين العنصرين بعد انتهاء مرحلة الإنتقال السابقة ، وظهرت تقاليد إسلامية إفريقية ، إسلامية الشكل والطابع ، إفريقية الروح .

تتضح هذه الحقيقة من دراسة ما رواه الرحالة والجغرافيون الذين زاروا هذا الجزء من إفريقية مثل ابن بطوطة ، أو ما ذكره القلقشندى الذى عرض لنماذج من الحياة ولصور من نظم الحكم اقتبسها من الكتاب الذين سبقوه ، أو من أهل تلك البلاد الذين عاصروه .

---

(١) أسست هذه المدرسة بين سنتى (١٢٤٢ ـ ١٢٥٣) م .
دائرة المعارف الاسلامية مادة كانم ؛ القلقشندى ج ٥ ص ٢٨١

(٢) Hogben : op. cit. p. 36.

(٣) Palmer, p. 48.

وتتضح هذه الصور أيضاً من إشارات كثيرة وردت في ما كتبه مؤرخو السودان مثل السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان أو محمود كعت صاحب كتاب الفتاش ، وصاحب تذكرة النسيان أو تاريخ كانو .

هذه الروايات والأخبار المتعلقة بنظم الحكم وبعض أوجه الحياة الإجتماعية المعاصرة ، تشعر بأننا في مجتمع إفريقى صميم ، اكتسب الثوب الإسلامى أو الصبغة الإسلامية .

وهذه طبيعة الإسلام في أى بلد حل فيه ، يبقى من التقاليد ومن النظم ومن مظاهر الحياة مالا يتعارض مع تقاليد الإسلام أو روحه .

فالقلقشندى يتحدث عن تقاليد البلاط في سلطنة ملى،فيعطينا صورة إفريقية خالصة .

ثم أعطانا ابن بطوطة وصفاً لبلاط نفس هذه السلطنة لا ينقلك من هذا الجو الإفريقى الخالص .

ولم ينفرد سلاطين ملى بهذا اللون الفريد من الحياة ، إنما كانت ظاهرة شاعت في هذه البيئة الزنجية كلها ، فنلمح من رواية السعدى عن سلاطين سنغى وحياتهم ومواكبهم وعاداتهم واحتفالاتهم واحترام الناس لهم ما يوحى بأن ما رواه ابن بطوطة عن أهل ملى شاع عند أهل سنغى وعند غيرهم من شعوب غرب إفريقية(١) .

نلحظ نفس هذا النمط من التقاليد الإسلامية المختلطة بالتقاليد الإفريقية فيما يروى عن حياة الأمراء في إمارات الحوصة السبع في شمال نيجيريا .

ومن بلاد كانم وبرنو كتب القلقشندى مسجلاً صورة من هذه التقاليد المحلية غير المألوفة .

ومع هذا كله تحس من حياة الملوك والرعية أن هناك ثمة مظاهر إسلامية صرفة أو عربية خالصة .

---

(١) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨٣

كذلك نلمح في هذا المجتمع الطابع المعروف عند المتبعين لمذهب الإمام مالك من التزمت والشدة في الدين وتمسك الفقهاء بالتقاليد وعزوفهم عن مصاحبة السلطان ، وتولى الوظائف ، ثم تغلغلهم في صميم الحياة وتمتعهم بالزعامة الدينية الشعبية ، نفس الصورة التى نلحظها في المغرب الإسلامى .

ثم تقدير السلاطين لهؤلاء الفقهاء واحترامهم ، يزورونهم في بيوتهم ويستفتونهم ويأتمرون بأمرهم ، وجرت العادة على أن من يلجأ للمسجد أو دار الفقيه أو الخطيب أمن العقاب ، ولم يجرؤ أحد على التعرض له بسوء(١) .

هذه الروح المالكية تظهر من التشدد في الدين إلى أبعد الحدود . فقد لاحظ ابن بطوطة هذا الطابع في سلطنة ملى حينما استحسن منهم قلة الظلم « فهم أبعد الناس عنه والسلطان لا يسامح أحداً في شىء منه ، وعدم تعرضه لمال من يموت في بلادهم ، ومواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات . وضربهم أولادهم عليها ، وازدحام المساجد بالمصلين حتى إذا لم يبكر المرء بالذهاب إلى المسجد لم يجد موضعاً(٢) ، وفي حرصهم الشديد على حفظ القرآن وتعليم الدين » .

هذا الطابع من الحياة الدينية المطبوعة بطابع مذهب مالك نلحظها في تقاليد سلاطين سنغى ، وفي حرصهم على التقاليد وتمسكهم بالدين إلى أبعد الحدود .

وقد شاعت هذه التقاليد في غرب إفريقية كلها حيث يسود مذهب مالك ، وعلق القلقشندى على هذه الظاهرة عند أهل كانم بقوله « يتمذهبون بمذهب مالك الإمام ذووا اختصار في اللباس ، يابسون في الدين(٣) » .

ولا نكاد نجد أسرة حاكمة في هذا العصر إلا وقد اصطنعت لنفسها نسباً عربياً ، فسلاطين ملى يدعون الإنتساب إلى عبد الله بن صالح بن الحسن ابن على ، وانتسب سلاطين كانم وبرنو إلى حمير ، واتخذ سلاطين سنغى مثل

---

(١) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣
(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣
(٣) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨١

هذا النسب العربي ، هذا كله ليكتسبوا صبغة إسلامية كاملة وليفوزوا برضا الرعية وتقدير المعاصرين ، وليفسحوا لأنفسهم مجالاً في الحياة الإسلامية الدولية .

ولم يعدم الأمر أن يقتبسوا من التقاليد الشائعة في الحياة الإسلامية المعاصرة ، فهم في لباسهم يتشبهون بأهل المغرب « يرتدون عمائم بحنك مثل المغرب وملبسهم شبيه بلبس المغاربة : جباب ودراريع بلا تفريج وهم في ركوبهم كأنهم العرب[١] » .

وتأثر كل من منسى موسى واسكى محمد بأساليب الحياة في مصر المملوكية ، فاقتبسوا منها ما وافق طبيعة بلادهم ، فسلطان ملى مثلاً يتخذ حاشية من ثلاثين مملوكاً من الترك اشتراهم من مصر ، وكانت وثائقهم ومكاتباتهم الرسمية تكتب كلها باللغة العربية[٢] .

هذا عن بعض ألوان من نظم الحكم والحياة الإجتماعية .

٢ ـ الثقافة العربية :

أما عن الثقافة الإسلامية ، فإنه يمكننا أن نقول في اطمئنان أن هذه الثقافة كان طابعها عربياً صرفاً لم تداخله أية تأثيرات أخرى ، لسبب واضح هو أن هذه الشعوب الزنجية التى اعتنقت الإسلام وتشربت ثقافته العربية لم تكن لها تقاليد ثقافية مثل تقاليد الإيرانيين أو الإغريق التى أثرت في الثقافة العربية في بيئات الشرق الأدنى ، حملت هذه الثقافة إلى بلادهم وتقبلوها كما هي.

هذه الثقافة ذات طابع مغربي بحت واضح كل الوضوح ، وهذا طبيعى لأن الإسلام دخل هذه البلاد من المغرب،فحمل معه إلى غرب إفريقية تقاليد المغرب وثقافته . وقد تدفق الإسلام من بلاد المغرب إلى غرب إفريقية على نطاق واسع منذ القرن الخامس الهجرى فصاعداً .

---

(١) القلقشندى ج ٥ ص ٢٩٨

(٢) مراسلات سلاطين برنو مع مصر وكذلك وثائق برنو التى نشرها Palmer : Bornu, Sahara and Sudan.

وكانت ثقافته منذ القرن الخامس الهجرى قد غلبت عليها التقاليد المالكية الدينية ، وكانت كلها تقريباً تدور حول فقه مالك والعلوم المساعدة الأخرى التى تخدم هذا الفقه وتساعد على فهم هذه الثقافة المالكية التى وضحت في القيروان ، وانتقلت منها إلى المغرب الأقصى والأندلس . حملها البربر معهم إلى غرب إفريقية ، فغلبت على الثقافة فيها ، وقل أن تجد في السودان الغربي مذهباً إلا مذهب مالك وفقها إلا فقه مالك .

الفقهاء مالكيون في حياتهم وتقاليدهم وإنتاجهم وتأليفهم وتدريسهم ، والشعوب مالكية تتأثر بهؤلاء الفقهاء وتستهدى بهم . وتراجم العلماء والفقهاء التى وردت في كتاب نيل الإبتهاج أو في تاريخ السعدى أو الفتاش تعطينا هذه الصورة المالكية الصرفة .

وكادت مدارس الثقافة الإسلامية في غرب أفريقية أن تكون مدارس مغربية بحتة ، فكأننا في فاس أو أودغشت أو مراكش أو القيروان . نفس الأسلوب ونفس الحياة ، نفس المثل ونفس الوسائل ، حتى طريقة الكتابة نفسها تأثرت بالطابع المغربي ، فالقلم العربي المستخدم هو القلم المغربي .

ونفس المناهج والكتب المتداولة هى المناهج والكتب المالكية المغربية : كتب عياض ، وكتب سحنون ، وشروح ابن القاسم وخليل ، وكتب المغيلى والونشريشى ، وموطأ مالك ، والمدونة والخزرجية ، وتحفة الحكام والعباد(١)

كل هذه الكتب كانت تدرس في مدارس غرب إفريقية في جنى وتنبكت وكانو وكتسينا وبرنو ، وفي أى مكان تسرب إليه الإسلام أو فقه مالك .

حتى التأثيرات الأندلسية دخلت إلى مدارس المغرب من قبل في ظل المرابطين والموحدين ، وعلماء الأندلس الذين بارحوا هذه البلاد بعد سقوطها في يد الفرنجة رحلوا إلى غرب أفريقية ، وأقام كثير منهم في تنبكت(٢) ، كما أقاموا في فاس ومراكش وتونس والقيروان .

---

(١) السعدى صفحات ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦

(٢) Dubois : op. cit., p. 253.

ونماذج التأليف التي ظهرت ونشرت نماذج مغربية الصورة . وعنوان ذلك الفقيه المشهور أحمد بابا التنبكتي الذى ولد بوهران سنة ١٥٥٦ م من أصل صنهاجي ثم رحل إلى تنبكت ، وأقام فيها وشهد الاحتلال المراكشي ، وقد ظهرت مواهبه وارتفعت مكانته العلمية ، وانتشر ذكره حتى أدرك مراكش وبجاية . وقد حمل إلى مراكش أسيراً ولكنه عاد إلى تنبكت مرة أخرى حيث توفي بها سنة ١٦٢٧ ، وهو رجل واسع التأليف جم المعرفة ألف في كل الثقافة المألوفة في عصره ، وقد ذيل لابن فرحون في كتابه نيل الابتهاج ، بدأ من حيث انتهى ابن فرحون ، وعرض لتراجم من أغفلهم ، وأتم هذا الكتاب سنة ١٥٩٧ . وهو يعطينا صورة طريفة لتاريخ الحركة الفكرية ، ليس في مدينة تنبكت فقط ، بل في السودان الغربي كله .

وكذلك المؤرخ السعدى من رجال القرن السابع عشر، فقد بلغ مبلغ الرجال سنة ١٦٣٥ ، في الوقت الذى خضع فيه السودان الغربي للنفوذ المراكشي ، وتجول في بلاد النيجر ، وأقام بتنبكت وجنى ورحل للمغرب[١] وهو في أسلوبه وطريقة تناوله للموضوعات يشعر بأنه مغربي الثقافة مع كونه سوداني الموطن .

وكذلك شأن محمود كعت التنبكتي صاحب كتاب الفتاش ، فقد كان فقيهاً من فقهاء تنبكت صحب أسكى محمد الكبير[٢] ، وألف كتابه بنفس الأسلوب المغربي المألوف .

كانت الثقافة في غرب أفريقية ثقافة مغربية في أرض أفريقية ولا يعني هذا أن مدارس السودان الغربي لم تتأثر بإنتاج المدارس الإسلامية الأخرى. تأثرت على الخصوص بمدارس مصر المملوكية . ورحل أهل السودان إلى مصر وتعلموا فيها ، ورحل بعضهم إلى الشام والحجاز ، ووصلت تآليف المصريين إلى السودان الغربي .

وقد عرفنا كيف ابتاع منسى موسى الكتب وحملها معه ، كما أن مؤلفات السيوطي وغيره من علماء مصر شاعت في هذه البلاد . لكن هذا كله لاينتقص

(١) Dubois : op. cit., p. 352.

(٢) Dubois : op. cit., p. 352.

من الحقيقة التي وضحناها ، فكان الوافدون إلى الأزهر يتعلمون فقه المالكية ، وأنشأوا بمصر مدارس مالكية ، وتأثرهم بمصر لايختلف عن تأثير المغاربة أنفسهم .

وتأثر الثقافة الإسلامية في غرب أفريقية بثقافة بلاد المغرب لايعني أن هذه الثقافة أقل غزارة وعمقاً ، فنماذج العلماء والفقهاء الذين تعرضت لهم كتب التراجم لايقلون في مستواهم واستعدادهم وتحصيلهم عن إخوانهم المغاربة : تلقوا نفس التعليم وقرأوا نفس الكتب ، وعاشوا نفس الحياة[١] ، و عرفوا بالإخلاص الشديد والحرص على التعليم واقتنوا المكتبات العظيمة ووقفوها على المتعلمين .

وكانت مدينة تنبكت نفسها سوقاً عظيمة للكتب تنسخ فيها المخطوطات وتوزع في البلاد .

وفي رواية السعدى أن فقيهاً يدعى محمد بن محمود بن أبي بكر اقتنى نفائس الكتب العربية العزيزة ، أو ربما يأتي لبابه طالب يطلب كتباً فيعطيها له من غير معرفة .

ووصل علماء غرب إفريقية في علمهم إلى مستوى لايقل عن مستوى المدارس الإسلامية الأخرى ؛ إن لم يكن يزيد عنها في بعض النواحى. فقد روى السعدى أن فقيهاً اسمه عبد الرحمن التميمي جاء من الحجاز بصحبة السلطان موسى صاحب ملى حين عاد من الحج ، فأقام بتنبكت زمناً ، ولما رأى رجالها يتفوقون عليه غادرها[٢] إلى فاس .

كذلك رحل كثيرون من أهل هذه البلاد ومن علمائها إلى المغرب ودرسوا في مدارسه ، ووصل بعضهم إلى مصر وبرز في ميدان الثقافة .

وقد أورد ابن حجر ترجمة لفقيه تكرورى اسمه صبح بن عبد الله ، اشتراه سيده عقب مجيئه إلى مصر من بلاده ، ولشغفه بالعلم أقبل مع أبناء

---

(١) السعدى صفحات ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦
(٢) نفس المرجع والصفحات
نفس المرجع ص ٥١ ، ٦٢

هذا السيد على دروس النجيب وشمس الدين وغيرهما من علماء ذلك العصر ، ثم اشتغل بالصناعة حتى ادخر خمسمائة درهماً اشترى بها حريته ، ثم برع في العلم واشتغل بعلم الحديث وتدريسه في دمشق(١) .

ولا ندرى بالضبط مدى انتشار الثقافة العربية بين عامة الناس في ذلك العصر ، وإن كنا نلاحظ أن مكاتب تحفيظ القرآن قد انتشرت في كل مكان دخله الإسلام .

ونلمح في روايات الرحالة والمؤرخين حرص أهل البلاد جميعهم على حفظ القرآن والتزامهم للشدة في ذلك ، فقد روى ابن بطوطة « أن أهل ملى يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظون(٢) » .

ولكنهم رغم هذا لايتخذون اللغة العربية في حياتهم الخاصة ، إنما كانوا يستخدمون لغاتهم الأصلية ، ثم يصطنعون العربية في تعبيرهم الثقافي ، وفي صلواتهم ، فقد حضر ابن بطوطة صلاة الجمعة بأحد مساجد ملى ، فرأى رجلاً بيده رمح يقف(٣) ، ويبين للناس بلسانهم كلام الخطيب .

حدث هذا في القرن الرابع عشر ، ولازال يحدث حتى اليوم(٤) .

٣ ـ مراكز الثقافة :

هذا عن قيام الثقافة العربية في غرب إفريقية ، أما عن المراكز التى استقرت بها هذه الثقافة ، فإن أهمها مدينة تنبكت نفسها ، التى أصبحت مكانتها من هذه الثقافة لاتقل عن مكانة القيروان في أفريقيه أو فاس في المغرب الأقصى أو قرطبة في الأندلس أو القاهرة في مصر .

فقد ارتبط تاريخ الثقافة في هذا العالم الأفريقى بتاريخ هذه المدينة نفسها . بدأت يوم ولدت المدينة ، واشتد ساعدها باتساع أفق المدينة وتطورها .

---

(١) حامد عمار ص ٥٩
(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣
(٣) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣
(٤) أثناء رحلة عام ١٩٥٦

ثم خضعت لما تعرضت له هذه العاصمة الروحية من مظالم الاحتلال المراكشى ، ولما أعقبه من اضطرابات وتطورات ، حتى دخلت في النفوذ الفرنسى آخر الأمر .

كانت بحق مراكز الحياة الثقافية ، وقلب الحركة الفكرية النابض ، اجتمع فيها العلماء من كل جنس ولون : المغاربة والأندلسيون والمصريون والحجازيون ووفد إليها الناس من كافة بقاع غرب إفريقية من السنغال والنيجر ، ومن إمارات الحوصة وبرنو وكانم والسودان .

كل هذه الطوائف كانت تحج إلى هذه المدينة ، فتقيم بها زمناً ثم ترحل أو تقيم بها إقامة دائمة ، وقل أن تجد كتاباً لم يؤلف في تنبكت ، أو فقيهاً لم يتعلم فيها أو يقيم بها .

أقام بهذه المدينة واشتغل بالتدريس في جامعها الشهير الذى يشبه من وجوه كثيرة الجامع الأزهر في تراثه ومكانته العلمية ، حشد كبير من العلماء والفقهاء .

وبرزت منهم طائفة وصلوا إلى مرتبة الإمامة أشار إليهم السعدى في كتابه تاريخ السودان : منهم الحاج جد القاضى عبد الرحمن بن أبي بكر الذى تولى القضاء في عهد أسكى محمد ، وأبو عبد الله أندغمحمد بن عثمان ، وأبو جعفر عمر بن محمد أقيت الذى ترك أكثر من سبعمائة مجلد ، ومخلوف بن على بن صالح[1] .

كان هؤلاء العلماء يشتغلون بالتدريس في جامعة تنبكت الشهيرة ، وكانوا في الحقيقة بمثابة طبقة خاصة من سكان هذه المدينة ، لهم ظروفهم الخاصة وحياتهم الخاصة ، وكانوا يتوارثون حرفة العلم ويحتكرونها في أسرهم .

وكان الطلاب يفدون إلى هذه المدينة بعد أن يكونوا قد حفظوا اجزاء من القرآن في مدارسهم المحلية ، فإذا أتموا هذه الدراسة الابتدائية شدوا الرحال إلى تنبكت وأقاموا بها حتى يتم تعليمهم هؤلاء الطلاب ، وكانت حياتهم

---

(١) السعدى ص ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩

ميسرة ، يستضيفهم سراة المدينة وتجارها ووجهاؤها . كما أن مسجد سنكري كانت له أوقاف تنفق على الطلبة المنقطعين للعلم(١) .

ولم تكن الدراسة في عهد هذه الجامعة محدودة بزمن إنما كانت رهناً بفراغ الطالب من قراءة عدد معلوم من كتب الفقه والحديث والمنطق والنحو وعلوم اللغة .

وقد حدثنا السعدى أن بعض الطلبة ينفقون أكثر من ثلاث سنوات في قراءة موطأ الإمام مالك وحده .

كذلك أشار السعدى إلى نماذج من الكتب التى كانت تدرس في جامعة تنبكت منها : الشفاء للقاضي عياص ، والصحيحين وعلم الحديث ، والسير ، والتواريخ ، وأيام الناس ، والمدونة ، والرسالة ، ومختصر ، خليل والألفية والموطأ ، ورجز المغيلى في المنطق ، والخزرجية في العروض ، وشرح الشريف السبتى ، وتحفة الحكام لابن عاصم ، وكتاب المعيار (٢) للونشريشى .

فإذا أتم الطالب هذه الدراسة المتنوعة حصل على الإجازة المطلوبة ورحل من المدينة إلى حيث يشتغل بالأقراء أو الخطابة أو الإمامة أو القضاء .

وكانت مدينة تنبكت مركزاً لإشعاع فكرى بعيد المدى في بلاد السودان فكانت تحمل إليها الكتب من مختلف جهات العالم الإسلامى ثم تنسخ وتباع في أسواق المدينة ، وكانت تلقى إقبالاً منقطع النظير من الطلبة والمشتغلين بالعلم والسلاطين والأمراء .

وكان علماء المدينة يقبلون في شغف على إنشاء المكتبات الخاصة وبعضهم نيفت كتبه على الألفين(٣) ، كما اقتنى بعض السلاطين مثل هذه المكتبات مثل ماروى عن اسكى داود ، سلطان سنغى المعروف(٤) .

والأمر الذى كان يزيد الحركة الفكرية توقداً في تنبكت أنها لم تكن محلية الطابع ، وإنما كانت عالمية اتصلت بالبيئات العالمية المعاصرة .

---

(١) Dubois, p. 328.

(٢) السعدى : تاريخ السودان صفحات ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٥

(٣) Dubois, p. 337.

(٤) الفتاش ص ٩٤

اتصلت بالأزهر في العصر المملوكى ، ولا غرابة في هذا فقد أصبحت مصر موئل التفكير الإسلامى في الشرق والغرب بعد أن أصبحت مستقر الخلافة العباسية ، وتألقت ثقافتها الإسلامية تألقاً عظيماً .

ونلمح فيما كتبه السعدى هذه العلاقات التى توطدت بين الأزهر وتنبكت إلى أبعد الحدود . فهذا محمد بن أحمد التازختى رحل إلى الشرق واتصل بعلماء مصر مثل شيخ الإسلام زكريا والبرهانين والقلقشندى ، وابن أبي شريف ، وعبد الحق السنباطى ، وحضر دروس الأخوين اللقانيين ثم رحل للحجاز[١] ، وعاد إلى تنبكت يذيع ما حصله من علم ومعرفة[٢] .

وهنالك أمثلة كثيرة تؤيد هذه العلاقة الوثيقة . وممن ذاعت شهرته في السودان على وجه الخصوص الإمام السيوطى ، اتصل به طلاب العلم من تنبكت ، وكانت له صلات معروفة بسلطان سنغى اسكى محمد ، بل أشار السعدى إلى علماء من مصر جاءوا تنبكت[٣] .

ولسنا بحاجة إلى أن نشير إلى الصلة الوثيقة التى قامت بين تنبكت وبين جامعات المغرب الإسلامى ، فمدينة تنبكت مدينة في ثقافتها ونشأتها وفي تراثها كله إلى المغرب ، وكانت على اتصال وثيق غير منقطع بمراكش وتونس والجزائر وغدامس وطرابلس . كان علماء المغرب دائبي الرحلة إلى تنبكت ، كما كان علماء تنبكت كثيراً مايقيمون بفاس أومراكش يعلمون أو يتعلمون[٤]

ومن المراكز الأخرى التى تلى تنبكت في الأهمية أو تدانيها مدينة جنى .

وهى مدينة أسست قبل تنبكت بوقت بعيد ، غير أنها بدأت تدخل في دائرة النفوذ الإسلامى منذ القرن الخامس الهجرى ، أسلم أميرها سنة ١٠٥٠ م وبنى مسجدها العتيق على نظام المسجد الحرام في مكة[٥] .

---

(١) السعدى : ص ١ ، ١٢ ، ٥٧ — Dubois, pp. 134-135.

(٢) السعدى ص ٣٧

(٣) السعدى ص ٢١ (م ١٨ — الاسلام فى أفريقية)

(٤) السعدى ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٦١

(٥) Dubois, p. 175.

ويبدو أن الثقافة الإسلامية كانت قد تسربت إلى هذه المدينة قبل أن يدخل أميرها في الإسلام ، إذ يستفاد من رواية السعدى أن أميرها عندما تهيأ للدخول في الإسلام أمر بحشد جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة ، فجمع منهم أربعة آلاف ونيف ، وأسلم على يدهم[١] . وذلك بسبب علاقاتها التجارية مع بلاد المغرب وحوض السنغال ، فقد كانت سوقاً عظيماً لتجارة الملح والذهب وجنى أهلها من هذه التجارة أرباحاً طائلة .

وارتبطت تجارياً بتنبكت وبالواحات الواقعة على طريق القوافل . ثم خضعت لدولة سنغى كما خضعت تنبكت ، فنعمت بالطمأنينة والأمن ، وتضاعف نشاطها التجارى كما رسخت قدمها في الثقافة الإسلامية عن ذى قبل . وكان إسكى محمد أول من عين القضاة بهذه المدينة للفصل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية .

ثم تتابعت وثبتها من بعد ذلك . فنجد السعدى في تاريخه يتحدث بالتفصيل عمن أقام بها من العلماء والقضاة ورجال الدين[٢] .

ولكن رغم رسوخ قدمها في الثقافة الإسلامية على هذا النحو ، لم تستطع أن تبلغ ما بلغته تنبكت بسبب قرب هذه المدينة من الطرق المؤدية إلى بلاد المغرب وصلاتها المستمرة بمراكز الثقافة فيما وراء الصحراء .

ثم امتدت مراكز الثقافة إلى الشرق في المنطقة الواقعة شمال نيجيريا في أمارات الحوصة ، بعد أن دخلت هذه الإمارات في الإسلام وخضعت لنفوذ سنغى ، فظهرت مدن كانو وكتسينا كمراكز للثقافة الإسلامية منذ القرن الخامس عشر الميلادى فصاعداً .

وقد سبق أن أشرنا إلى رحيل بعض علماء تنبكت إلى مدينة كانو سنة ١٤٨٥ ، واتصال الرحلة إليها بعد ذلك ، كما نشطت كتسينا كذلك[٣] :

---

(١) السعدى ص ١١ — ١٢

(٢) السعدى ص ١١ — ٢٠

(٣) Meek, vol. I, p. 66.

وقد رأينا الجهود التى قام بها الإمام المغيلى في هذه المدينة حين أقام بها زمناً يعلم الناس الفقه ويقضى بينهم ، والرحالة بارت[١] في حديثه عن إمارات الحوصة يشير إلى علاقة نشأت بين جلال الدين السيوطى وبير أمير كاتسينا . ولا نستبعد نمو مثل هذه العلاقة ، فقد اتصل رجالات غرب إفريقية بهذا الإمام العظيم منذ رجوع إسكى محمد من الحج بعد زيارته الشهيرة لمصر ، بل هنالك ما يدل على أن السيوطى[٢] رحل إلى شمال نيجيريا وأقام في هذه المدينة زمناً يعلم الناس وعاد إلى مصر سنة ٨٧٦ هـ .

لكن مدينتى كانو وكتسينا تضاعفت شهرتهما العلمية بعد الأحداث التى أصابت مدينة تنبكت منذ القرن السادس عشر فصاعداً . ولا زالت مدينة كانو إلى اليوم ربما أهم مراكز الثقافة الإسلامية في غرب إفريقية وبها مدرسة للعلوم العربية ومدرسة للقضاء الشرعى .

ولم تقف الثقافة العربية عند حدود نيجيريا ، بل نفذت إلى منطقة بحيرة شاد ، وتوطدت في بلاد كانم وبرنو .

وقد كشفت الوثائق التى نشرها بالمر وترجمها إلى اللغة الإنجليزية عن علاقات هذه البلاد الثقافية بمصر ، وعن رحيل بعض العلماء إلى الجامع الأزهر وحجهم إلى مكة وزيارتهم بغداد ثم عودتهم إلى بلادهم واشتغالهم بتعليم الحديث والتفسير ، ومن هؤلاء عمر بن عثمان[٣] .

وتشير هذه الوثائق إلى تشجيع السلاطين للحركة العلمية وبنائهم المساجد .

وتكشف هذه الوثائق أيضاً عن تمتع رجال العلم في البلاد بمكانة ممتازة ، فقد درج السلاطين على إصدار مراسيم تجعل شخص العالم وولده وماله حراماً لا تمس بسوء طيلة حياته[٤] .

---

(١) Barth : vol. II, p. 74, Arberry Islam to day, p. 36.

(٢) آدم عبد الله الألورى : الاسلام فى نيجريا ص ١٠

(٣) Palmer : op. cit., p. 33.

(٤) Ibid : p. 44.

وامتدت هذه الهبات إلى المهاجرين من علماء المسلمين من الشمال أو الشرق ، وقد ظلت أسرتهم محتفظة بها مئات السنين[١] ، وأشارت بعض هذه الوثائق من ناحية أخرى إلى علماء ارتفع شأنهم مثل القاضى محمد بن الحاج أحمد ، والإمام طاهر بن إمام الحاج ، وعبد القادر بن الحاج وغيرهم ؛ وتفوقت مراكز الثقافة في برنو في القرن الثاني عشر على وجه الخصوص[٢] .

هذه المراكز الثقافية كانت تتأثر إلى حد بعيد بسياسة الدول الإسلامية التى قامت في السودان الغربي . فكانت الدولة كلما بسطت ظل الطمأنينة وسادها الأمن والرخاء ، ومدت يد العون إلى المشتغلين بالعلم ، كلما عملت على الأخذ بيد هذه الثقافة .

هذا القول يصدق على مدينة تنبكت بصفة خاصة ، فقد ظفرت من عناية منسى موسى[٣] ما دفعها في طريق الظهور ، فهو الذى بنى بها دار السلطنة ، وبنى صومعة الجامع الكبير .

وتدفق إليها رجال العلم لينعموا بهذه الطمأنينة ، ثم تأثرت تنبكت وثقافتها الإسلامية بما ذاقته في عهد سلطان سنغى سن على الذى غزا هذه المدينة سنة ٨٧٣[٤] هـ .

وفر منها العلماء بالآلاف خوفاً من بطشه وانتقامه . ثم عاودت هذه المدينة حياة الهدوء والطمأنينة والإنتاج في عهد إسكى محمد ، ولعل هذا يفسر المديح الذى كاله السعدى لهذا السلطان كيلاً ، ونعمت بهذه العناية في عهد إسكى داود اسحق[٥] .

ثم ذاقت من المراكشيين أكثر مما ذاقت من سن على من قبل ، وهذا أمر يؤسف له حقاً . فقد كان أخلق بهذا الفتح أن يزيد من عمق الصلة بين

---

(١) **Idem.**

(٢) **Islam to day, p. 137.**

(٣) السعدى ص ٧ ، ٩

(٤) السعدى ص ٧٥ ، ٧٧

(٥) الفتاش ص ٩٤ ، ١١٣

المغرب وغرب إفريقية ، وأن يدفع الثقافة الإسلامية في طريقها نحو التفوق والإزدهار (١) .

وكانت أوضاع المراكز الثقافية الأخرى تتأثر بالأحوال السياسية كما تأثرت بها تنبكت فقد امتدت النهضة إلى جنى في ظل نفوذ سنغى ، كما تفوقت كانو وكاتسينا بسبب اضمحلال تنبكت من ناحية ، وتشجيع أمراء الحوصة من ناحية أخرى . وقد رأينا كيف عمل سلاطين برنو على تشجيع الحركة العلمية في بلادهم .

٦ ـ الحضارة العربية فى غرب افريقيا فى القرن التاسع عشر

والعالم الإسلامى كما انتفض في القرن التاسع عشر وقامت في أكثر أقطاره محاولات مخلصة لإخراج المسلمين من رقدتهم وإيقاظ وعيهم ، وبعث النشاط فيهم ، وتجديد روح الحضارة العربية التى تألقت طوال العصور الوسطى ، إما عن طريق الدعوات السلمية أو الحركات التجديدية ، كذلك امتدت هذه اليقظة إلى غرب إفريقية . وشهدت محاولات من هذا القبيل للأخذ بيد المسلمين ، وإصلاح عقائدهم وأمورهم . وماكان لهذه البلاد أن تبقى بعيداً عما اعتمل في الأقطار الإسلامية الأخرى . فقد كانت صلاتها بالعالم الإسلامى صلات وثيقة ، تفكر وتتجاوب كما يتجاوب .

وكانت حركات الإصلاح التى شهدها غرب إفريقية في القرن التاسع عشر حركات سلفية كلها ، تدعو إلى العودة بالإسلام إلى ماضيه المشرق ، وتكوين مجتمع إسلامى صرف في نظمه وتقاليده وعاداته . هذه الحركات يمكن أن نعددها على النحو الآتي :

١ ـ الدعوة الوهابية ممثلة في حركة عثمان بن فودى في نيجيريا .

٢ ـ تجدد نشاط الطرق الصوفية بعد أن امتدت إليها يد البعث والإصلاح ، ممثلة في نشاط السنوسية والقادرية والتيجانية .

---

(١) Dubois, p. 351.

٣ – حركات مهدوية تمثلها حركة أحمد ولوبو وولده أحمدو شيخو.

قامت المحاولة الأولى في شمال نيجيريا بين إمارات الحوصة قام بها رجل من أفذاذ أهل البلاد في هذا العصر هو عثمان بن محمد فودى .

ومن حق هذا المصلح أن نترجم له وأن نعرف بمبادئه وأن نعرض لجهاده وللمكانة التى أحرزها بين مصلحى العلم الإسلامى ومفكريه .

ينتسب هذا المصلح إلى شعوب الفولاني التى رأيناها تخرج من أوطانها في منطقة السنغال ، وتتسرب تسرباً بطيئاً نحو الشرق منسابة في سهول السودان .

وهو ينحدر من أسرة من هؤلاء كان وطنها الأول في منطقة فوتاتورو ، ثم انطلقت في ركاب المهاجرين حتى دخلت سهول نيجيريا ، وأقامت في بلاد الحوصة .

في هذه البيئة ولد عثمان بن محمد فودى في قرية طفل بإمارة غوبير سنة ١١٦٩ هـ ، وكان بيته بيت علم وفتوى ، أسلم أجداده منذ دهر طويل وتفقه أبوه في الدين واشتغل بالعلم[١] ، واشتغل به بيته كله حتى زوجته وأولاده .

شب في هذه البيئة المتدينة فأولع بالعبادة والذكر ، ونشأ نشأة دينية خالصة ، ثم بدأ يخطو خطواته الأولى في طريق العلم والثقافة ، تلقى دروسه الأولى على يد أبيه محمد فودى وجدته رقية وأمه حواء[٢] . ثم أقبل على علوم العربية يستزيد منها . أخذ الإعراب عن الشيخ عبد الرحمن بن حمداء وسمع الفقه من محمد تبو بن عبد الله . ثم ارتحل إلى الشيخ جبريل بن عمر ولازمه ثم عاد إلى بلاده ، وسمع التفسير في زنفر ثم درس الصحيحين[٣] .

ولما بلغ مبلغ الشباب وأوتي حظه من النضوج العقلى والفكرى هاله حال المسلمين في بلاد الحوصة ، فهم يخالطون الوثنيين دون تحرج ، ويقلدهم

---

(١) آدم عبد الله الألورى ص ٣٥

(٢) نساء الطوارق والفولا يتمتعن بنصيب وافر من الحرية ويتعلمن كما يتعلم الرجال سواء بسواء

(٣) آدم عبد الله الألورى ص ٣٥

العامة ويتشبهون بهم(١) . وظهر الدين تشوبه البدعة وتجلله الخرافة ويقتله الجهل .

ثم رحل إلى بلاد الحجاز وذهب إلى مكة . وكانت الوهابية قد انتشرت في الحجاز ، ذاعت مبادؤها في الإصلاح وحققت قدراً كبيراً من النجاح بالتحالف الذى تم بينها وبين آل سعود . وقد خالط عثمان دعاة الوهابيين واستمع إليهم ، وتشرب مبادئهم وتحمس لها ، فأيقظت في نفسه الرغبة الملحة في أن يحارب البدع في بلاده كما حاربها الوهابيون في بلادهم . وأن يعلنها ثورة على أولى الأمر كما كانت الوهابية ثورة على السلطان والمفاسد . وقويت في نفسه الرغبة في إيقاظ مسلمى إفريقية من خمولهم ورقدتهم وحياتهم الدينية المقفرة(٢) .

حبه للوهابية واتخاذها ديناً وعقيدة يتبين من الخطة التى انتهجها في الإصلاح ، والمبادىء التى أعلنها .

هذه المبادىء تظهر واضحة جلية في مؤلفاته التى بلغت إثنا عشر مؤلفاً ، وفي مؤلفات أخيه عبد الله وإبنه محمد بل . كلاهما ألف في العقائد ، وفصل وشرح . كما تظهر هذه المبادىء مما رواه المعاصرون أو من في حكمهم عن أفعاله وخطواته ومنهجه — خصوصاً صاحب كتاب تذكرة النسيان — فقد أفرد ذيلا في كتابه للتاريخ للسلطان محمد بل بن عثمان ولبعض خلفائه .

وقد بدأ رسالته كما بدأها الوهابيون أول الأمر ، دعوة إلى الدين بالحسنى والموعظة ، فأخذ يدعو إلى الإسلام ويحض الناس على اعتناق مبادئه . وبدأت حلقات الطلاب الملتفين حوله تتسع بالتدريج . ثم حض على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتاب على يديه خلق كثير ، وتزايد عدد أنصاره ومريديه . ثم بدأ بالإتصال بالأمراء المعاصرين يريد أن يحضهم على إصلاح الأحوال ومحاربة البدع والإتحاد لنشر الإسلام بين من لم يسلم من الوثنيين .

---

(١) Hogben, p. 73.

(٢) ارنولد ص ٣٦٠

وتتضح من تعاليمه الرغبة السلفية الملحة في إعادة المجتمع الإسلامى إلى بساطته الأولى ونقائه الأول أيام الراشدين[١] .

كذلك نفى عن نفسه في قوة وصرامة عمله من أجل ملك أو أى عرض من أعراض الدنيا .

وكان يذكر دائماً أن العناية قد اختارته لإصلاح الدين وإعادة حكم الأمة والجماعة[٢] . فكان يشاور أصحابه في أعماله كلها ، والتزم خلفاؤه نظام البيعة الإسلامية .

وصاحب تذكرة النسيان[٣] في حديثه عن بيعة محمد بل بن عثمان بن فودى روى أن خطيب المسجد قرأ على الناس وثيقة الشيخ في استخلاف ولده ، وأتاه أهل الآفاق وبايعوه .

وكانت جيوش الفتح والجهاد قبل الزحف تقرأ آيات الجهاد وسورة براءة لتقوى الروح المعنوية[٤] . وظهر طابعهم في التقشف والزهد منذ اللحظة الأولى، فقد كان محمد بل الذى ولى السلطنة بعد أبيه يأكل من كسب يده ، ويأبي أن يقتات من أموال المسلمين[٥] وكان عثمان وخلفاؤه لايكفون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتحطيم دنان الخمر ، وكسر آلات الطرب ، ذهب أحد هؤلاء السلاطين إلى حد قتل ضارب الدف[٦] .

وبعد أن كثر اتباعه وكثرت شهرته انتقل إلى المرحلة التالية من دعوته ، وهى وعظ الأمراء وإرشادهم ، ولعله كان يريد أن يحقق ما حققه ابن عبد الوهاب من قبل ، وأن يتم تحالف بينه وبين أحد أمراء الحوصة كما تم التحالف بين الوهابية وآل سعود .

---

(١) Arberry, p. 138.

(٢) Barth : vol. II, p. 80.

(٣) تذكرة النسيان ص ١٨٩

(٤) تذكرة النسيان ص ١٩٢

(٥) تذكرة النسيان ص ١٩٢

(٦) تذكرة النسيان ص ٢٠١

فاتجه إلى أمير غوبير وبين له الحق والباطل ، وشرح له الإسلام الصحيح وطلب إليه أن يعاونه في إحياء الدين وإقامة العدل . ويبدو أن هذا الأمير استجاب أول الأمر ، فعهد إليه بالتقوى والإرشاد في مجلسه ، يفسر القرآن ويروى الحديث ، ويشرح آراءه الإصلاحية ، ويحاور العلماء ويناظرهم ويرد عليهم بالحجة ، فسعى العلماء الحاقدون إلى الوقيعة بينه وبين الأمير ، واتهموه أنه إنما اتصل بالأمير رياء ومنافقة وطلباً للرئاسة ، وحباً في عرض الدنيا(١) .

فاتجه إلى إمارة أخرى هى إمارتي زنفر وكب ، ينشر دعوته ومبادئه ، فأسلم على يديه عدد كبير من الوثنيين ، وزاد الناس له اتباعاً ، ورأى الأمراء فيه خطراً ملحاً يريد أن ينتقص من سيادتهم ، وأن يحد من نزواتهم ، ويؤلب عليهم رعيتهم فأمروه بالخروج من بلادهم ، وهددوه بإيذائه وإيذاء أعوانه والقضاء على دعوته .

فلما لم يستطع أن يحقق هدفه ، وأن يفوز بمعاونة أمير من أمراء الحوصة ، خرج في ٢١ فبراير سنة ١٨٠٦(٢) مهاجراً ومعه طائفة من أنصاره المخلصين إلى أطراف الصحراء ، فإذا بأمراء الحوصة يتعقبونه أينما ذهب ، يقطعون الطريق الموصل إليه ، وينهبون أمواله ويتهيأون لحربه .

فلم يجد أتباعه بدأً من أن يبايعوه على الجهاد أو الموت وطاعة الله ورسوله وبايعوه بإمرة المؤمنين . واستعدوا للحرب واستجاب له أنصاره في كل أنحاء نيجريا .

وجدت دعوته استجابة قوية سريعة بين عشائر الفولاني المنتشرين في البلاد ، إذ رأوا في انتصاره إعلاء لكلمتهم ، وارتفاعاً لشأنهم ومجداً لجنسهم فاتحدوا خلفه ، بعد أن كانوا قبائل مبعثرة تحيا حياة رعوية ، وقدموا إلى مهجره ينضمون لجيشه ويؤيدون دعوته(٣) .

---

(١) آدم عبد الله الألورى ص ٣٦

(٢) Meek, vol. p. 78.

(٣)

هذا التأييد الذى ظفر به عثمان بن فودى من أبناء جنسه يرى فيه هوجبين **Hogben** حركة قومية لقبائل الفولاني موجهة ضد أمير غوبير الذى أراد طردهم والقضاء عليهم ، وأن الوثنيين منهم (في زعمه) عادوا إلى حياتهم العادية بعد انتهاء الجهاد ، على حين تقاسم أصحابه المناصب والنفوذ .

وهذا القول لايستقيم مع ما رأيناه من بداية دعوة عثمان . فقد رأيناها محاولة مخلصة للإصلاح ، مجردة من شبهة الجنس أو الرغبة في الملك ، وأنه اضطر حين أعوزه الجند وحق الجهاد أن يستعين ببنى جنسه في هذا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإن كنا لاننكر أيضاً أن الحركة كانت إلى حد ما قومية ودينية إصلاحية في نفس الوقت .

ولما تزعم ملك غوبير المعارضين له وسار لحربه ، أعلن الجهاد رسمياً سنة ١٨٠٦ وابتدأ دور جديد في حركته الإصلاحية هو دور الفتح والجهاد ، فبدأ بمدينة كانو ، هاجمها وهزم أميرها هزيمة ساحقة[٣] وولى أحداً من الفقهاء من أتباعه أميراً عليها . ثم هاجم إمارة زاريا ،وتم له فتحها سنة ١٨٠٧ ، واستولى على منطقة سكت[٤] ، واتخذ هذه المدينة حاضرة لدعوته . وقد أعيد بناؤها في عهد السلطان محمد بل سنة ١٨١١ ، واستولى على إمارة زنفر وغوبير وكب .

وكانت الحماسة توحد بين صفوف أنصاره ، والرغبة الملحة في رفع لواء الدين تدفعهم إلى طلب الشهادة ، فاستطاع سنة ١٨١٠ أن يخضع إمارات الحوصة كلها لنفوذه ، بل أراد أن يمد رواق حركته الإصلاحية نحو بلاد برنو . وفي سنة ١٨٠٨ قسم الدولة بين إبنه محمد بل وأخيه عبد الله ، ولى ابنه على المنطقة الشرقية وأخاه على القسم الغربي ، وقنع هو بالزعامة الروحية متخذاً مدينة سكت مركزه الروحى[٥] .

---

(١) أرنولد ص ٣٦٠

(٢) **Fage, p. 35.** (م ١٩ — الاسلام فى أفريقية)

(٣) تذكرة النسيان ص ١٨٥

(٤) **Hogben, p. 113.**

(٥) **Fage, p. 35.**

وحركته الإصلاحية هذه كان شأنها شأن الوهابية ،لقيت تشجيعاً وتعضيداً من المخلصين الراغبين في الإصلاح ، كما لقيت معارضة ومحاربة من المحافظين الرجعيين .

فممن عارض هذه الدعوة محمد أمين الكانمى[١] صاحب برنو ، واتهم الشيخ عثمان بأنه يسعى لعرض الدنيا في الوقت الذى سعى فيه هذا الكانمى لعرض الدنيا حين تولى سلطنة برنو فيما بعد .

ولكن هذه الرغبة المخلصة صادفت إعجاباً واستجابة في نيجريا وفي خارج نيجريا . وممن أعجبهم منهجه في الإصلاح سلطان المغرب .

ولما توفي الشيخ عثمان سنة ١٨١٧ بويع إبنه محمد بل أميراً للمؤمنين وبقيت الإدارة مزدوجة في عهده : القسم الشرقي يدفع الجزية لسكت والقسم الغربي يدفعها لعبد الله بن فودى . ثم توفي محمد بل سنة ١٨٣٧ ، والرحالة كلبرتون الذى زار هذه البلاد في عهد هذا السلطان يتحدث عن الاستقرار والرواج والرخاء ، ولا تزال هذه السلطنة باقية حتى اليوم[٢] .

وقد ترك ظهور هذه الحركة الإصلاحية أثراً عظيماً في أحوال المسلمين في نيجريا ، وفي غرب إفريقية كله .

فلم يعتمد الفولانيون في نشر الإسلام على الجهاد وحده ، إنما قاموا بجهود مشكورة لنشر الإسلام بالطرق السلمية ، فالرحالة **Lander** رأى في إحدى جزر النيجر المعلمين الفولانيين ، أرسلهم أمير نوب لتعليم الوثنيين مبادئ الإسلام[٣] .

كذلك عمل السلاطين أنفسهم على دفع الحركة الإسلامية إلى الأمام[٤] ، إذ بفضلهم انتشر الإسلام في جنوب نيجريا ، وبهذه البلاد اليوم ملايين

---

(١) Fage, p. 35.

(٢) تذكرة النسيان ص ١٨٩

(٣) Meek, vol. II, p. 12.

(٤) تذكرة النسيان ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤

من المسلمين دخلوا في الدين على نطاق واسع بفضل هذه الحركة الإصلاحية العظمى .

وكانت هذه الحركة إعلاء للثقافة العربية في غرب إفريقية ، فلم تكن دعوة في الدين مبنية على صوفية إنما مبنية على حركة علمية وعلى دراسة أصيلة ؛ فإمامهم عثمان بن فودى نفسه ألف نحو عشرين كتاباً[١] ؛ هى :

أصول الولاية — إحياء السنة — بيان البدع — ترغيب العباد — التصوف — تمييز المسلمين — الجهاد — دالية المديح — سوق الصادقين — شفاء الغليل — علوم المعاملة — عمدة العلماء — عمدة البيان — العقل الأول — كف الطالبين — المهدى المنتظر — المسائل المهمة — نصائح الأمة — نور الألباب — الهجرة.

وكان أخوه عبد الله بن فودى يبارى العلماء في مقابلته لصحيح البخارى[٢] وعرف من مؤلفاته ثمانية عشر كتاباً : ألفية الأصول — بحر المحيط في النحو — تزيين الورقات — تخميس العشريات — تفسير ضياء التأويل — تفسير كفاية الضعفاء — الحصن الرصين في الصرف — دواء الوسواس — سبيل النجاة — ضوء المصلى — ضياء السياسة — ضياء الحكام — كتاب النبات — مصالح الإنسان — مفتاح التفسير — مفتاح الأصول — نيل المرام — نظم النقابة[٣] .

ولم يكن إبنه السلطان محمد بل أقل منهما شأناً في هذا الميدان ، فقد خمس في غزواته همزية البوصيرى ، وقصيدة بانت سعاد ، والبردية للبوصيرى . وروى صاحب تذكرة النسيان[٤] أنه كان كثير الاشتغال بالتأليف وكلما ألف تأليفاً أخرجه إلى الناس فيقرأه لهم ثم يشتغل بتأليف آخر . وقد انتقلت زعامة الحركة الفكرية من مدينة تنبكت وجنى إلى مدن كانو وشمال نيجريا .

ثم شهدت غرب إفريقية محاولات أخرى للأخذ بيد المجتمع الإسلامى والعمل في عزم وإصرار على نشر التقاليد الإسلامية .

---

(١) الألورى ص ٤١
(٢) تذكرة النسيان ص ١٩١
(٣) الألورى ص ٤١
(٤) ص ١٩٦

وكما انبعثت حركة عثمان بن فودى في أوساط الفولاني النازلين في إمارات الحوصة ، كذلك قامت حركة أخرى في فرع آخر من هذا الشعب الذى انتشر في بلاد غرب إفريقية على نطاق واسع .

وقد رأينا أن طائفة من الفولاني هاجرت إلى منطقة ما سنة بين السنغال والنيجر وخالطوا شعب البمبارة وعاشوا في كنفه ، وظلت غالبيتهم على الوثنية .

في هذا الوسط الوثني الخالص — إلا من بصيص من التأثيرات الإسلامية — نشأ فتى فولاني إسمه أحمد واوبو في أسرة مسلمة متمسكة بالتقاليد الإسلامية ، وما كاد يبلغ سن الشباب حتى دفع به أهله إلى مدينة جنى[1] التى كانت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في حوض النيجر ، حيث تعلم التفسير والفقه وتفقه في الدين . وعاش في هذه المدينة زمناً وغادرها بعد أن اكتملت ثقافته ، وفي ذهنه فكرة واضحة لبعث القوى الإسلامية ومحاربة الوثنية ، والقضاء على البدع وتحرير عشيرته من أهل ما سنه الفولانيين ومن أوهامهم ووثنيتهم .

ثم ظهر عثمان بن فودى في شمال نيجريا يدعو إلى الإسلام ، ويمهد الأذهان لإعلان الجهاد على النحو الذى رأيناه .

وقد اجتذبت هذه الدعوة الإصلاحية الفولانية أحمد ولوبو واستجابت لها رغبته الخالصة في الإصلاح وسخطه الشديد على الضعف والتخاذل الذى ساد المجتمع الإسلامى المعاصر ، وشارك في الجهاد في بلاد الحوصة حتى إذا ما انتهى الجهاد وحقق آمال المصلحين أراد أن يمضى إلى وطنه — ماسنه — وأن يصلح من شئونه كما أصلح عثمان من شئون إمارات الحوصة ، ولكنه اتخذ له منهجاً يختلف عن منهج عثمان .

كان عثمان صاحب رأى في الإصلاح حمله إلى مقعد الأمانة في المجتمع ، ولكن أحمد ولوبو اختط لنفسه طريقاً آخر ، فقد ادعى المهدية[2] وإنه

---

(١) Dubois, p. 184.

(٢) Dubois, p. 154.

مبعوث العناية لإنقاذ المجتمع الإسلامى في هذا الجزء من إفريقية ، ثم مجاهدة الوثنية بكل ما يملك من قوة .

فادعى الانتساب إلى البيت النبوى الكريم(١) وأشاع تنبؤات تبشر بظهور المهدى وتهيئ له الأذهان وتذكر صفته ونسبه وإسمه ، فساق على لسان السيوطى الإمام أحاديث دارت بينه وبين أسكى محمد الكبير يتنبأ فيها بظهور هذا المهدى بعد نحو أربعة قرون ، ثم سأل الشيخ السيوطى هل يخرج من صلبه من يقيم الدين ويصلح أمره . فقال له الشيخ « لا ولكن يأتي صالح عالم جليل تابع السنة إسمه أحمد يظهر في بعض جزائر ما سنة ، ولكن من قبل علماء سنقر (سنكرى)، وهو الذى يرثك في الخلافة والعدالة والصلاح والجود والنفى والزهد ، ويكون كثير التبسم دائم التحرك في جلوسه ويسبقك بكونه متبحراً في العلوم، وأنت لاتعلم إلا أحكام الصلاة والزكاة والاعتقادات. وهو آخر الخلفاء المذكورين» . ثم سأل أسكى الشيخ هل هذا الخليفة يجد الدين فيجدده أو يجده خامداً فيوقده . فقال له الشيخ بل يجد الدين خامداً فيكون كشرارة جمر وضعت في يابس الحشيش فينصره الله على جميع الكفار والمخالفين حتى تعم بركته الآفاق و الأقطار ،فمن رآه وتبعه كان كمن تبع النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن خالفه فكأنما خالف النبى صلى الله عليه وسلم. فتوسط الأدلاء في زمانه لكنهم لايزالون على الجهاد إلى فنائهم(٢) .

وقد انتشرت دعوته في ما سنة وصادفت قبولاً عظيماً ، ووجد فيها الفولانيون فرصة اتوحيد صفوفهم وارتفاع شأنهم كما ارتفع شأن إخوانهم في شمال نيجريا .

ثم تجاوز تفكيره حدود وطنه وتطلع إلى الوطن الإسلامى الكبير فيما وراء الصحراء الكبرى . كما تطلع محمد أحمد المهدى إلى هذه الآفاق فيما بعد .

فوجه أحمد ولوبو الكتب إلى المسلمين في إفريقية كلها ، إلى سلطان مراكش وإلى مسلمى الجزائر وتونس ومصر وغيرها من الأقطار الإسلامية

(١) Fage, p. 146.

(٢) تاريخ الفتاش ص ١٤

بأنه الإمام الثاني عشر ، وأنه المهدى الذى بعث لإنقاذ الدين والجهاد في سبيل الله ، ثم أعلن الجهاد سنة ١٨١٣ فهزم البمبارة الوثنيين(١) .

ثم دخل مدينة تنبكت سنة ١٨٢٧ ، وأنقذها من يد الرماة المراكشيين ، ثم دخل مدينة جنى وطهرها من البدع والمنكرات ، واتخذ له حاضرة على مقربة منها سماها (حمد الله) ، ونشأت إمارة إسلامية عظيمة الشأن في منطقة ماسنة . وقد توفي أحمدو هذا سنة ١٨٤٤(٢) .

وخلفه إبنه أحمدو شيخو ، ولم تعمر دولته طويلاً فقد توفي سنة ١٨٥٢ ، وأصبحت ماسنة هدفاً لحركة إصلاحية أخرى تنبعث من بلاد التكرور ، ورغم أن هذه الحركة كانت قصيرة العمر إلا أنها أتمت إسلام الفرع المغربي من الفولانيين ، ونشر الإسلام بين شعوب البمبارة .

ومن الغريب أن كلا الحركتين ، حركة عثمان بن فودى وأحمدو لوبو قد حالفتا طريقة القادرية ، وأيدتا إلى أبعد الحدود هذه الطريقة التى نفذت إلى إفريقية العربية في القرن الخامس عشر على يد أحد مهاجرى توات . ثم اتخذت من منطقة ولاتة مركزاً لها ، ثم تدفقت إلى تنبكت(٤) . وفي مستهل القرن التاسع عشر امتدت إليها النهضة الروحية الكبرى التى انتشرت في العالم الإسلامى كله فاندفعت القادرية إلى غرب إفريقية . وأفادوا من حركات ابن فودى ، وأحمدو لوبو . وانتشرت انتشاراً واسعاً من برنو شرقاً حتى منحنى النيجر غرباً ، وقاموا بنشاط عظيم في إنشاء الزوايا والربط والمدارس ، وإرسال البعوث والتبشير بين الوثنيين فكأنها اضطاعت بالجهود السلمية في نشر الدين تاركة أمر الجهاد لمن هو أقدر عيله(٥) .

ثم امتدت الحركات الإصلاحية التى استهلها عثمان بن فودى إمتداداً سريعاً صوب الغرب في سرعة وعنف ، ووجدت استجابة عميقة وسريعة

---

(١) Fage, p. 146.

(٢) Dubois, p. 155.

(٣) Dubois, p. 150.

(٤) ارنولد ص ٣٦٢

(٥) L'Islam Noir, p. 49.

في جميع أرجاء غرب إفريقية ، مما يدل على أن هذه البلاد كانت مفتحة الأذهان لنداء الجهاد ، مهيئة لتقبل هذه الدعوات الإصلاحية المنطلقة من شمال نيجيريا .

وقد رأينا امتداد هذه الحركات إلى منطقة ماسنة على يد أحمدو لوبو ، ولكنها انطلقت صوب المغرب إلى حوض السنغال نفسه ، ومنها إلى منطقة فوتا الواقعة إلى الجنوب من السنغال الأدنى . هذه المنطقة التى نزلها التكرور ، واستطاعوا قبل غزوات المرابطين أن يتخطوا السنغال ويتوسعوا شمالاً صوب المغرب . كذلك خضعت هذه المنطقة لملوك غانة أو صوصو أو ملى ومنها انبعثت هجرات الفولاني متجهة صوب الشرق فوق سهول السودان(١) .

كان الإسلام قد تأصل في بلاد التكرور ربما أكثر من تأصله في أية بيئة إفريقية أخرى . أسلموا منذ أيام عبد الله بن ياسين ، واشتركوا في جهاده وتشربوا الثقافة الإسلامية ، وتعمقوا في فهمها . وأخلصوا لها كل الإخلاص وكانوا ألزم أهل السودان لأحكام الدين وشعائره .

في هذه البيئة ولد عمر الفوتي التكروري سنة ١٧٨٨ في قرية حلوار من بلاد ديمار ، بأرض فوتة(٢) .

وكان أبوه من المرابطين المتفقهين في الدين ، شأنه شأن غالبية أهل البلاد فرباه تربية دينية(٣) وتعلم علوم العربية ، والفقه والحديث والتوحيد ، حتى إذ بلغ مبلغ الشباب ظهر كرمه وقوة شخصيته ووفرة مهابته .

ثم ارتحل صوب الشرق يطلب المزيد من العلم ، فنزل مصر سنة ١٨٢٠ ، وتلقى العلم بالأزهر ، ثم غادر مصر إلى البلاد المقدسة وتنقل بين مدنها وقتاً طويلا ، وكانت الحجاز في ذلك الوقت مركزاً لحركات السلفية والثورات الدينية .

وليس ببعيد أن يكون الحاج عمر الفوتي قد لقى دعاة الوهابية وخالطهم وتشرب مبادئهم . وليس من المعقول أن تطول إقامته بالحجاز على هذا النحو

---

(١) **Dubois, p. 157.**

(٢) أبوبكر خالد عمريا : ص ١٧

(٣) ارنولد ص ٣٦٧

ولا يتصل بالوهابية ، كما اتصل بشيوخ التيجانية وأعجبته مبادئهم التي تدعو إلى الشدة ، بعكس مبادىء القادرية التي تدعو إلى التساهل والتسامح .

ثم عاد إلى مصر مرة أخرى ، وغادرها إلى برنو ، ثم انتقل إلى بلاد الحوصة ، وكشف عن مبادئه ، فهو يبدو وهابياً متحمساً لمبادىء عثمان بن فودى محبذاً دعوته إلى الإصلاح(١) . يدل على ذلك أنه أخذ يعظ الناس ويحضهم على الرجوع إلى عقيدة السلف .

ثم مضى إلى مدينة سكت الحاضرة الروحية للدعوة الوهابية التي بثها عثمان بن فودى ، واتصل بالدعاة والزعماء ، وتزوج بنت السلطان محمد بل ابن عثمان . وجمعته بهم أواصر مودة وثيقة وتفاهم عميق(٢) .

وعاد إلى بلاد فوتا سنة ١٨٣١ وقد تشرب مبادىء الإصلاح واعتزم الجهاد . فلجأ إلى جبال فوتا جالون ، وأنشأ رباطاً للعبادة الروحية والتدريب على الحرب والإستعداد للجهاد ، مقلداً عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين.

وتوافد عليه المخلصون من أتباعه المستجيبين لدعوته ، وتسلح بأحدث الأسلحة ، التي اشتراها من التجار الأوربيين(٣) .

فلما شعر بقوته انحدر من رباطه سنة ١٨٤٨ ، وقد زاد أنصاره قوة في الروح وقوة في السلاح .

ولم تلق دعوته قبولاً من المتزمتين من التكرور الذين لم يألفوا الوهابية ونزعتها العنيفة في الإصلاح ، فهاجر كما هاجر عثمان بن فودى من قبل إلى مدينة دنكراى ، وبنى فيها قلعة حصينة ، ومنها أعلن الجهاد على الوثنية والبدعة والفساد .

استهل جهاده بغزو إمارة البمبارة في كارتة مركز الوثنية ، وهزم جيشها سنة ١٨٥٤(٤) ، واستولى على أهم مدنها ، وكان يريد أن تتعاون معه إمارة الفولاني في ماسنة لشن هجوم مزدوج على مدينة سيجو (سيقو) .

---

(١) أبوبكر خالد عمريا : ص ١٨

(٢) Fage, p. 138.

(٣) أبوبكر خالد عمريا : قوته السنغالية ص ١٧ — ١٨

(٤) Fage, p. 148.

فلما رفض ملوك ماسنة استدار عمر غرباً لمهاجمة مدن خاسو وجلام ، وهى إمارات صغيرة في السنغال الأوسط آوى إليها الفارون من جيش كارتة .

ولكن الفرنسيين كانوا قد بدأوا يتدخلون ، والتحم عمر بأول قوة فرنسية سنة ١٨٥٧[١] ، فاتجه صوب الشرق واحتل مملكة سيقو سنة ١٨٨١ وماسنة في نفس السنة ، ودخل تنبكت سنة ١٨٦٣ ، وأقام دولة سلفية ممتدة من بلاد التكرور حتى تنبكت ولكنه فشل سنة ١٨٦٤[٢] .

واستطاع إبنه أحمدو بن عمر (حفيد السلطان محمد بل) أن يعيد وحدة الدولة سنة ١٨٧٢ ، متخذاً مدينة سيقو عاصمة له .

وظل كذلك حتى تقدم الفرنسيون سنة ١٨٨١ ، فطردوه من ماسنة وهرب إلى بلاد الحوصة ومات بها سنة ١٨٩٨ .

فكانت دولته آخر الدول التى شهدها غرب إفريقية قبل خضوعه للفرنسيين . ولما كان عمر تيجانيا فقد انتشرت التيجانية في منطقة نفوذه كما انتشرت القادرية في منطقة نفوذ عثمان بن فودى وأحمدو لوبو[٣] .

وكانت سلطنة برنو بحكم ظروفها وموقعها هدفاً للحركات الإصلاحية التى ظهرت بين إمارات الحوصة أو في طرابلس ،أو في سودان وادى النيل .

فقد سعت إليها مظاهر الضعف منذ القرن السابع عشر بسبب ضعف السلاطين ، وقلة انصرافهم لأمور البلاد ، وإغراقهم في اللهو والترف ، وتعرضت البلاد لغارات متصلة من الطوارق القادمين من الشمال أو الغرب المتقدمين عبر دارفور وكردفان واضطربت أمور الزراعة واجتاحت البلاد المجاعات والأوبئة[٤] . وأظلها القرن التاسع عشر وهى غير مهيئة لمقاومة التيارات الوافدة إليها .

---

(١) Dubois, p. 157.

(٢) Fage : op. cit., p. 148.

(٣) أرنولد ص ٤٦٦

(٤) Hogben, p. 191.

وامتدت إليها بحكم موقعها حركات الإصلاح ، امتدت إليها حركة الإصلاح التى اضطلع بها عثمان بن فودى ، فغزت قوات الفولا والحوصة بلاد برنو في عهد سلطانها محمد بن على ، فهزمت جيوشه وسقطت العاصمة سنة ١٨١٨ .

وكان قد ظهر في ذلك الوقت مصلح من أهل برنو يدعى محمد الأمين الكانمى(١) . رحل هذا الرجل إلى مراكز الثقافة الإسلامية . رحل إلى الحجاز وأقام بالمدينة عامين ثم رحل إلى مصر وفاس وعاد إلى بلاده ينشر الحركة العلمية وذاع صيته لعلمه وتقواه .

وقد استنجد به ملوك برنو ، فتزعم حركة مضادة للفولانيين ، وطردهم من البلاد(٢) بعد قتال طويل ، ثم بايع نفسه بالسلطنة سنة ١٨٢٦ متخذاً مدينة كوكو عاصمة له ، وظلت أسرته تتعاقب على الحكم حتى خضعت للإحتلال البريطاني .

وتعرضت برنو لغارات رابح بن الزبير سنة ١٨٩٣ بعد طرده من واداى ، فاستولى على بلاد باجرمى وغزا برنو واستولى على عاصمتها ، وبقى فيها حتى طرده الفرنسيون منها سنة ١٩٠٠ . وخضعت برنو لحركات الإصلاح السنوسية ، فانتشرت بها زواياهم وكثر نشاطهم ، كما تعرضت للدعاية المهدية المنطلقة من سودان وادى النيل . وكان من الممكن أن تثمر هذه الحركات الإصلاحية التى اجتاحت غرب إفريقية ؛ فترد للإسلام نقاءه وقوته وروحه المبدعة ، وتوطد أواصر الوحدة بين المسلمين ، لولا تعرض هذه البلاد لغارات الإستعمار ، ودخولها في دائرة النفوذ الفرنسى والبريطاني .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة برنو — Palmer, p. 19.
(٢) تذكرة النسيان ص ١٩٥
(٣) نعوم شقير ص ١٢٧
(٤) نعوم شقير ج ٣ ص ٤٢٧
(٥) Hogben, p. 194.

مراجع البحث

(ا) ـ المراجع العربية :

ابن الأثير : الكامل في التاريخ .
ليدن ١٨٦٦ — ١٨٧٤

الأدريسى : محمد بن عبد العزيز الشريف الغاوى .
المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس— ليدن١٨٩٦

أرنولد : الدعوة إلى الإسلام .
الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٠٧

ابن أبي زرع : أبو الحسن على بن عبد الله .
الأنيس المطرب بروض القرطاس— أوبسالة ١٨٤٢

ابن بطوطة : الرحلة — القاهرة ١٢٨٧ هـ

ابن حوقل : أبو القاسم محمد .
المسالك والممالك .

ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، بولاق ١٢٨٤ هـ

دائرة المعارف الإسلامية : مواد
غانة — ملى — كانم — برنو — فولبه

الدمشقى : شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر— بطربورغ ١٨٢٠

الدباغ : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى
معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان—تونس ١٣٢٠ هـ

السعدى : عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران
تاريخ السودان — نشرة هوداس — باريس ١٨٩٨

القلقشندى : صبح الأعشى — القاهرة ١٩١٥

محمود كعت التمبكتى : تاريخ الفتاش في أخبار البندان والجيوش وأكابر الناس — باريس ١٩١٣

(ب) ـ المراجع الأفرنجية :

Barth : Travels and discoveries in north and central Africa, London 1858.

Cooley : The Negroland of Arabs, London 1841.

De la Chapelle : Esquisse d'une histoire de Sahara occidentale, Hesperis, 1930, TX1.

Dubois : Tombauctou la Mysterieuse, Paris 1897.

Fage : An introduction to the history of West Africa, Cambridge 1955.

Hogben : The Mohammadan Emirates of Nigeria, Oxford 1930.

Massignon : Annuaire du Monde Musulman, Pairs 1955.

Meek : The Northern tribes of Nigeria, London 1925.

Palmer : The Bornu, Sahara and Sudan, London 1936.

Terrasse : Hist. du Maroc, 1946.

Trimingham : Islam in West Africa, Oxford 1959.

الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية
فى مصر المملوكية

للدكتور أحمد السيد دراج

أفاض المقريزى في كتابه « إغاثة الأمّة بكشف الغمّة » في شرح أسباب الضائقة الاقتصادية الكبرى التى ألمت بمصر في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى . فقد شهدت مصر في الفترة الممتدة من سنة ٧٩٦ حتى سنة ٨٠٩ هـ مجاعة متقطعة صحبها انتشار الوباء ، الذى مات فيه ألوف مؤلفة من المصريين في السنوات الأخيرة منها ؛ أى منذ سنة ٨٠٦ هـ .

وفضلاً عن هذا السبب الذى أشار إليه المقريزى ، والذى كان سبب كتابته هذه الرسالة القصيرة ، فإن هذه الضائقة الاقتصادية ترجع — في رأيه — إلى ثلاثة أسباب لارابع لها ، وهى :

السبب الأول — وهو أصل هذا الفساد ، ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال، بحيث لايمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل .

السبب الثاني — غلاء إيجار الأطيان الزراعية .

السبب الثالث — رواج الفلوس النحاسية(١) .

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة . تحقيق الدكتور محمد مصطفى زياده ، والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ ، ص ٤١ وما يليها (فصل فى بيان الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن ...) .

ــ نبتت فكرة كتابة هذا البحث عن « الحسبة » بعد قرائة مقال للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زياده عنوانه : « دراسات فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى » ؛ وهذا المقال منشور فى الكتاب الذى أصدره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، والذى يحتوى على الكلمات والدراسات التى ألقيت فى الحلقة الدراسية الأولى « للتاريخ والآثار » التى أقيمت تحت اشراف المجلس فى المدة من ٤ ــ ٩ فبراير سنة ١٩٦١ . فهذه « الدراسات » تدور حول كتاب « اغاثة الأمة » للمقريزى ، وانى لأرجو أن

والمقريزى ، في شرحه للسبب الأول ، لم ينتقل من التعميم إلى التفصيل ، وإنما اكتفى بتبرير وجهة نظره العامة وإبراز النتائج العامة التى تترتب على تولية الوظائف بالرشوة . ففى هذا الصدد يقول :

(فتخطّى لأجل ذلك كل جاهلٍ ومفسدٍ وظالمٍ وباغٍ إلى ما لم يكن يؤمّله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة ... ... ويحتاج إلى أن يقرّر على حواشيه وأعوانه ضرائب ، ويتعجّل منهم أموالاً ، فيمدون هم أيضاً أيديهم إلى أموال الرعايا ، ويشرئبون لأخذها بحيث لايعفّون ولا يكفّون ، ثم ينساق البائس في جمع الأموال التى استدانها إذا أتته استدعاءات من الأمراء وحواشى السلطان ... ... ولايشعر مع ذلك إلا وغيره قد تقلّد ذلك العمل بمال التزم به ، وقد بقيت عليه جملة من الديون ، فيحاط على ما يوجد له من أثاث وحيوان وغيره ويَشْخَصُ في أخس حال ، وقد أُحيط كما ذكرنا بماله ، ويعاقب العقوبات المؤلمة ، فلا يجد بدأً من الالتزام بمال آخر ، ليقلّد العمل الأول أو غيره من الأعمال.[1])

ونحن في دراستنا لوظيفة الحسبة نحاول أن نضع رأى المقريزى موضع التطبيق ، لا لنثبت صحته ، وإنما لتتضح لنا الآثار التى ترتبت على تولى الوظائف العامة بالسعى والبذل ، ونتائج ذلك على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية منذ مطلع القرن التاسع الهجرى .

فوظيفة الحسبة يأتي ترتيبها في المرتبة الخامسة بين الوظائف الدينية[2] ، إلا أنها تعتبر أخطر الوظائف الديوانية والوظائف الدينية في مصر المملوكية

= أكون قد أسهمت بهذا البحث عن « الحسبة » فى ابراز قيمة هذا الكتيب فى ميدان الدراسات الاقتصادية الخاصة بمصر الاسلامية ، وفى ايضاح بعض جوانب الحياة الاقتصادية فى هذه الفترة من تاريخ مصر .

— هذا ومن المفيد أن نذكر أن الأستاذ WIET ترجم الى اللغة الفرنسية كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمة » وصدرت الترجمة بعنوان :

Le traité des famines de Maqrizi.

ونشرت فى : Journal of the Economic and Social history of the Orient, vol. V part I, Febr. 1962.

(١) اغاثة الأمة ، ص ٤٣ — ٤٥ .

(٢) صبح الأعشى ، الجزء الرابع ، ص ٣٧

نظراً لارتباطها أكثر من غيرها بحياة الناس اليومية ؛ عامتهم وتجارهم وصناعهم والمتسببة لقوت يومها . ومن ثم فإن توليها — على النحو الذى أشار إليه المقريزى — كانت له آثار بعيدة المدى على حياة البلاد الاقتصادية .

فالحسبة عند فقهاء المسلمين هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن هذا المفهوم العام يباشر المحتسب اختصاصاته وهى المحافظة على الآداب العامة والإشراف على الأسواق ودور الضرب ، وعلى أصحاب الحرف والصنائع[1] . غير أننا سنرى في هذه الدراسة كيف أصبحت الحسبة معولاً هداماً في يد المحتسبين الذين تولوها بالسعى والبذل .

ويتضح مدى هذا الدور المخرب لوظيفة الحسبة — في حياة البلاد الاقتصادية — إذا ما عرفنا مدى اتساع سلطة المحتسب . فمتولى حسبة القاهرة كان له نواب بالقاهرة والوجه البحرى إلى قطيا وبرقه ؛ خلا ثغر الاسكندرية فإن متولى الحسبة بها كان السلطان هو الذى يصدر قرار تعيينه ، ثم أضيفت فيما بعد إلى نائبها . وأما متولى حسبة مصر (الفسطاط) فله الأمر والاستنابة بقلعة الجبل والصليبية إلى قناطر السباع والعراقيين والوجه القبلى بكماله ؛ وربما أضيفت حسبة مصر إلى حسبة القاهرة[2] .

* * *

والحسبة فسد أمرها منذ أمد طويل سابق على زمن المقريزى . فالماوردى ، المتوفي سنة ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م ، يتحدث عن الحسبة في هذه الكلمات .

---

(١) عن الحسبة انظر :
— الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، نشر الدكتور السيد الباز العرينى ، ص ٦
— العرينى : كتاب عن الحسبة فى بيزنطة ، فصلة من مجلة كلية الآداب ، المجلد التاسع عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٧ ، ص ١٢٤
— حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، الجزء الثالث ، ص ١٠٢٧ وما يليها .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جزء ٤ ، ص ٣٧ ، جزء ١١ ص ٤١٤
— الخالدى : المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشا ، مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٤٤٣٩ ، ورقة ١٣٢ ا .

(والحسبة من قواعد الأمور الدينية ، وقد كان أئمّة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها ، ولكن لما أعرض عنها السلطان وندب لها من هان ، وصارت عرضة للتكسّب وقبول الرشا ، لأن أمرها وهان على الناس نظرها ، وليس إذا وقع الإخلال بقاعدة سقط حكمها.(١))

وإذا ما إنتقلنا إلى مصر — وعلى وجه التخصيص — مصر المملوكية فإننا نجد المصادر تمدنا بالشئ الكثير عن الحسبة وعن الدور الهدّام الذى كان يقوم به المحتسب في حياة البلاد الاقتصادية . وفي هذا المعنى يعبر أحد شيوخ القرن الثامن الهجرى — الرابع عشر الميلادى عما آل إليه أمر الحسبة في هذه الكلمات :

(وأما أمر الحسبة فاعلموا — رحمكم الله — أن أمرها قد فسد ، واستحكم فساده ، وكثر الطمع في أموال الناس بسببها ، وقد بقيت سيئة فلا يحل للسلطان أن يوليها أحداً ولا حاجة للناس بها .(٢))

ولكن على الرغم من وضوح الدلالة — من هذه النصوص السابقة — على فساد أمر الحسبة ، إلا أن هذا الفساد كان يمكن تداركه لولا ما انتهى إليه أمرها من انحلال تام في أوائل القرن التاسع الهجرى . وذلك أن ارتباط وظيفة الحسبة بالحياة الاقتصادية جعلها أكثر الوظائف تأثراً بحالة التدهور الاقتصادى الذى بدأت مصر تعاني من آثاره منذ الخمسينات من القرن الثامن الهجرى ، وما حدث بعد ذلك من مضاعفات عديدة في بداية القرن التالى دفعت بالبلاد ، وظلت تدفعها طوال ذلك القرن ، إلى حالة الانهيار الاقتصادى التام .

وليس هناك من دليل أبلغ في وصف حالة البلاد الإقتصادية من أن أضع أمام القارىء قائمة بما تعرضت له البلاد من قحط وجدب ومجاعات وأوبئة خلال هذه الفترة الزمنية التى تبلغ قرناً ونصف . ولا يخفى علينا جميعاً

---

(١) الأحكام السلطانية ، طبعة القاهرة ١٢٩٨ هـ ، ص ٢٤٥

(٢) ابن عزّ (ابراهيم بن على الطرسوسى) : تحفة الترك فى ما يجب أن يعمل فى الملك ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٢٤٤٥ ، ورقة ٣٧

أن النيل واهب الحياة في مصر ، وأن جميع مظاهر النشاط البشرى كانت تتأثر بمدى ما يجود به الله علينا من مياه الفيضان . فإلى القارىء هذه القائمة :

— ١٣٣٨/٧٣٩ — ١٣٣٩ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء .

— ١٣٣٩/٧٤٠ — ١٣٤٠ : جدب وغلاء شديد .

— ٧٤٧ — ١٣٤٦/٧٤٩ — ١٣٤٨ : الوباء الكبير (الوباء الأسود) .

— ١٣٥٠/٧٥١ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .

— ١٣٥٣/٧٥٤ : وباء .

— ١٣٦٣/٧٦٤ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .

— ٧٧٥ — ١٣٧٣/٧٧٧ — ١٣٧٥ : فيضان منخفض ؛ مجاعة ؛ وباء(١)

— ١٣٨١/٧٨٣ : وباء .

— ٧٩٦ — ١٣٩٣/٨٠١—١٣٩٨ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد (٢)

— ٨٠٦ — ١٤٠٣/٨٠٩—١٤٠٧(٣) : فيضان منخفض ؛ مجاعة ؛ وباء وفناء كبير

— ٨١٨ — ١٤١٥/٨١٩ — ١٤١٦ : وباء .

— ٨٢٢—١٤١٩/٨٢٣—١٤٢٠ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد ؛ وباء .

— ١٤٢٧/٨٣٠ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .

— ١٤٢٩/٨٣٢ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .

— ١٤٣٠/٨٣٣ : وباء .

---

(١) اغاثة الأمة : ص ٤١ — ٤٣ (لم يرد ذكر هذا الفيضان المنخفض وما ترتب عليه فى هذه القائمة التى ننقلها عن ڤيت WIET — انظر فيما بعد) .

(٢) اغاثة الأمة : ص ٤٠ — ٤١ (أعقب هذه المجاعة وباء) .

(٣) اغاثة الأمة ، ص ٤٢ — ٤٣ (تحدث المقريزى عن هذه المجاعة وما صحبها من وباء حتى أوائل سنة ٨٠٨هـ ، وهى الفترة التى كتب فيها كتابه المذكور — تحدث المقريزى ، قبل حديثه عما حدث فى سنة ٨٠٨ هـ ، عما حدث من غلاء شديد فى عهد السلطان كتبغا سنة ٦٩٦ هـ ، وفى عهد الناصر محمد سنة ٧٣٦ هـ ، وفى عهد الأشرف شعبان سنة ٧٧٦ هـ — انظر الكتاب المذكور ، ص ٣٢ — ٣٣ ، ٣٩ — ٤٠) .

— ٨٤١ — ١٤٣٧/٨٤٢ — ١٤٣٨ : وباء .
— ١٤٤٥/٨٤٩ : وباء .
— ١٤٤٩/٨٥٣ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .
— ١٤٥٢/٨٥٦ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .
— ١٤٥٩/٨٦٣ : وباء .
— ١٤٦٨/٨٧٣—١٤٦٩ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .
— ١٤٧٦/٨٨١ — ١٤٧٧ : وباء .
— ١٤٨٧/٨٩٢ : جدب وغلاء شديد(١) .

ويتضح من هذه القائمة أن انخفاض النيل ، وما ترتب عليه من جدب وغلاء شديد أحياناً ، ومجاعة ووباء أحياناً أخرى ، قد تكرر حدوثه في القرن التاسع أكثر من القرن الثامن . كما يتضح منها أن هذه الظاهرة قد تكرر حدوثها في فترات متقاربة خلال النصف الأول من القرن التاسع ، وترتب عليها أضرار كثيرة حاقت بالبلاد . ففضلاً عن الغلاء الشديد والمجاعة فقد تعرضت البلاد في هذه الفترة للوباء ست مرات .

وبالإضافة إلى هذه الكوارث الطبيعية ، فقد حلّت بمصر والشام في مطلع القرن التاسع محن وأحداث أخرى دفعت بهما إلى حالة التدهور الإقتصادى . فبلاد الشام تعرضت لغزو تيمورلنك وما صحبه من آثار مخرّبة ، وتبع ذلك تهديد مصر بالغزو . وإقتضى الأمر الإستعداد والتأهب لملاقاة تيمورلنك ، فلجأت السلطات إلى وسائل غير عادية لجمع الأموال من مختلف فئات الشعب . غير أن هذه الوسائل اقترنت بالمبالغة والشدة والعنف ، بل اتسمت بطابع السلب والنهب ، حتى أن المعاصرين يقارنون ما حل بالمصريين—في هذا الصدد— بما حل بأهل الشام على يد تيمورلنك(٢) .

---

(١) هذه القائمة نقلا عن :
WIET et HAUTECOEUR : Les Mosquées du Caire, I, p. 82.
(٢) المقريزى : السلوك ، المخطوطة رقم ١٧٢٨ بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة ٢٢ ب ، ٢٧ ب — ٢٨ ب .
— العينى : عقد الجمان ، المخطوطة رقم ١٥٤٤ بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة ٤٣ ا .
=

وكما يحدث عادةً في بداية عهد كل سلطان من أبناء السلاطين السابقين، فقد شهد عهد الناصر فرج منذ بدايته حركات التآمر والعصيان من جانب كبار الأمراء، استنكاراً منهم. لمبدأ توريث عرش السلطنة. كما أغراهم صغرسنه، وقت أن تولى السلطنة، على الإصرار على التخلص منه؛ هذا فضلاً عن أن ما عُرف به هذا السلطان من تعطّش لسفك الدماء جعل عهده كله يمتلىء بالإضطرابات الدموية. ويكفى للتدليل على الطابع الدموى لهذه الفترة، ما يذكره المؤرخون من أنه في سنة واحدة قتل ستمائة وعشرين أميراً من هؤلاء الأمراء المعارضين له[1]، وأنه خرج على رأس ثمان تجريدات عسكرية إلى الشام لقمع عصيان الأمراء الخارجين عليه، وأن كل تجريدة تكلفت ما يزيد عن مليون دينار جمعت من أفراد الشعب عن طريق المصادرات. وموجز القول، فإن الناصر فرج — كما يصفه لنا المقريزى — كان أشأم ملوك الإسلام، وأنه خرّب بسوء تدبيره جميع أراضى مصر والشام[2].

ويطول بنا القول إذا ما تتبعنا أسباب هذه الأزمة الإقتصادية الحادة ومظاهرها المختلفة. ويكفينا — في هذا الصدد — أن نذكر أن هذه المضاعفات العديدة التى صاحبت هذه الكوارث الطبيعية التى تعرضت لها البلاد في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع قد جعلت من المتعذّر التغلب على هذه الأزمة الإقتصادية الحادة، فظلت تخيّم على البلاد طوال بقية عصر المماليك.

والمتتبع لتطور وظيفة الحسبة منذ بداية القرن التاسع يلاحظ أن انهيارها جاء نتيجة لثلاثة أسباب مباشرة، وهى:

= ابن حجر: انباء الغمر، المخطوطة رقم ١٦٠١ بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة ١٧١ ب، ١٧٣ ب.
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، طبعة كاليفورنيا، الجزء السادس، ص ٤٧، ٦٩ — ٧٢

(١) WIET et HAUTECOEUR : Op. cit., I, p. 81.
WIET : L'Egypte arabe, pp. 521-524.

(٢) — السلوك، المخطوطة السابقة، ورقة ١٠٢ ا، ب.
— النجوم الزاهرة، الجزء السادس، ص ٢٥٧
WIET : L'Egypte arabe, pp. 534-540.

١ — تدخل كبار الأمراء ، أصحاب السلطة والنفوذ في الدولة ، في تولية أعوانهم في هذه الوظيفة خدمةً لمصالحهم ؛ ومن المعروف أن السلطان والأمراء كانوا يشتغلون بالمتجر .

٢ — أن الأمر لم يقتصر على تولى هذه الوظيفة بالرشوة وبالبراطيل(١) ، وإنما استقر الحال على توليها — حسب مصطلح العصر — عن طريق « البذل » ؛ أى شراء الوظيفة بمبلغ من المال يدفع مقدماً ، مع تعهد من يحصل عليها بأن يدفع للسلطان مبلغاً من المال مشاهرةً . وهذا أدى إلى كثرة الطامعين في هذه الوظيفة ، وإلى المزايدة فيما بينهم . وبالتالى لم يعد الأمر بالنسبة للمحتسب مجرد تناول رشوة مقنّعة أو خفية ، وإنما اتخذ صورة فرض مقرّرات شهرية على الباعة والتجار وأصحاب الحرف والصنائع .

٣ — لم يعد تولى هذه الوظيفة الدينية قاصراً على الفقهاء والمتعممين ، وإنما تعداها — منذ عهد السلطان المؤيّد شيخ — إلى الأمراء أصحاب السيوف ، ثم اقتصرت أخيراً عليهم . وعلى أيدى هؤلاء الأمراء انتهى أمر الحسبة .

* * *

فأمّا السبب الأول ، من هذه الأسباب ، فمن اليسير تتبعه في مصادر مؤرخى النصف الأول من القرن التاسع ؛ وعلى رأس هؤلاء المقريزى ، والعينى ، وابن حجر . فالثلاثة كانت تسيطر على قلوبهم عوامل الحسد والغيرة التى تطورت إلى عداء واضح صريح ، وذلك بسبب التنافس على تولى الوظائف الدينية الكبرى في الدولة المملوكية . فالمقريزى والعينى فرّق بينهما التنافس على تولى وظيفة الحسبة ، وأدى ذلك إلى اعتزال المقريزى لهذه الوظيفة وللحياة العامة كلها . والعينى وابن حجر تنافسا في طلب الحظوة لدى السلاطين ، وفي ميدان التأليف (٢) .

---

(١) البراطيل هى الأموال التى تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها ، وكان أول من تناولها — فى الدولة المملوكية — الأمير شيخون ، ثم أفحش فى تناولها الظاهر برقوق — انظر : الخطط ، طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ١١١ ؛ طبعة WIET ، الجزء الثانى ، ص ١١٠ .

(٢) انظر : الدكتور زياده ، المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ١٩ — ٢١ .

ففى ٧ ذى الحجة سنة ٨٠١ استقر العينى في وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى بدلاً من المقريزى . ويعلّق المقريزى على ذلك بقوله أنه بعد رجوع العينى من بلاده تردد إلى الأمراء ، فسعى له بعضهم ، وهو الأمير جكم ، فلم تتم معه سوى بقية الشهر[١] .

وفي ٢ محرم سنة ٨٠٢ صُرف العينى من الحسبة ، واستقر فيها جمال الدين محمد بن عمر الطنبدى ، وكان القائم في ذلك دويدار الأمير ايتمش ، القائم بأمر الناصر فرج[٢] .

وفي ١٤ ربيع الآخر ، من نفس العام ، أُعيد العينى إلى وظيفة الحسبة[٣].

وفي ٨ جمادى الأول[٤] ، أو في ١٦ منه ، أُعيد المقريزى إلى وظيفة الحسبة ، وصُرف منها العينى . ولنترك العينى يروى لنا أسباب صرفه منها ؛ ففى هذا الصدد يقول ، «في يوم الخميس ، ١٦ منه (جمادى الأول) عزل صاحب التاريخ نفسه عن حسبة القاهرة ، وذلك أن سودون الدوادار ، لما استقر في الدوادارية احتاط على موجود ايتمش الذى كان قائماً بأمر الناصر فرج ثم قُتل ؛ ومن جملة ما وُجد له في شونته ستة آلاف أردب قمحاً وألفى أردب حمصاً ، وألف أردب فول . وكان أردب القمح إذ ذاك يساوى خمسة وثلاثين درهماً ، فطلبنى المذكور وقال لى : بع هذا القمح الأردب بستين درهماً . فقلت له : العادة في هذا أن يُباع بقطع السعر من أرباب الجيزة . فلما سمع منى هذا الكلام اختبط خبط اللئام ، وركبه ظلام

---

(١) ــ السلوك ، ورقة ١٠ ب .
ــ عقد الجمان ، ورقة ٢٢ ب .
ــ أنباء الغمر ، ورقة ١٥٠ ا .
(٢) ــ السلوك ، ورقة ١١ ب .
ــ عقد الجمان ، ورقة ٢٥ ب .
ــ انباء الغمر ، ورقة ١٥٠ ا .
(٣) ــ السلوك ، ورقة ١٥ ب .
ــ عقد الجمان ، ورقة ٢٨ ا .
ــ انباء الغمر ، ورقة ١٥٠ ا .
(٤) ــ السلوك ، ورقة ١٦ ا .
ــ انباء الغمر ، ورقة ١٦١ ب .

الظلم والعسف وهزته اريحية الجور والعسف ، ولم يختر إلا ترويج أمره الفاسد . فلما رأيت امعانه على ذلك ، خرجت من عنده وفي خاطره أن أمره قد نفذ وتم . وجئت إلى الأمير جكم ، فإنه كان من أعز أصحابي ، وحكيت له ما جرى من الأمر العظيم ، وأشهدته على بأني عزلت نفسى من الوظيفة حتى لا أباشر الأمور السخيفة . فلما بلغ المذكور الخبر بذلك أخذه الحنق على ذلك ، وطلب مَنْ يوليه لأهل هذا الشأن ، فلم يجد أحداً يقبل هذا الظلم والخسران غير تقى الدين بن المقريزى الذى كان قد تولى الحسبة في أيام الظاهر من قبل ذلك ، فخُلع عليه بذلك في يوم الجمعة ١٧ من الشهر المذكور(١)

غير أن المقريزى لم يستمر طويلاً في وظيفة الحسبة ، ففى ١٠ شعبان من نفس العام صُرف منها ، واستقر فيها جمال الدين الطنبدى بسفارة الأمير سودون من زاده(٢) .

وفي ١٤ شوال من نفس العام أيضاً ، عُزل الطنبدى وأعيد إليها شمس الدين محمد البجاسى ؛ وهو أحد من تولوا هذه الوظيفة من قبل(٣) .

وفي ١٤ ربيع الأول سنة ٨٠٣ استقر العينى في حسبة القاهرة بسفارة الأمير جكم وعُزل منها البجاسى(٤) .

وفي ٧ جمادى الآخرة من نفس العام أُعيد البجاسى إلى وظيفة الحسبة ، وصُرف منها العينى ؛ وكان ذلك بسفارة يلبغا السالمى(٥) . وحدث هذا بعد عودة الناصر فرج من الشام فاراً أمام تيمورلنك ، وهى الفترة التى شهدت الاستعدادات لملاقاة تيمورلنك . ومن أجل ذلك أُطلقت يد يلبغا السالمى

---

(١) عقد الجمان ، ورقة ٢٩ ا .
(٢) ـ السلوك ، ورقة ١٩ ا (بمال وعد به) .
ـ عقد الجمان ، ورقة ٣٢ ا .
(٣) ـ السلوك ، ورقة ٢٠ ب .
ـ عقد الجمان ، ورقة ٣٣ ب
(٤) ـ السلوك ، ورقة ٢٤ ب .
ـ عقد الجمان ، ورقة ٤٢ ا .
(٥) ـ السلوك ، ورقة ٢٧ ب .
ـ عقد الجمان ، ورقة ٤٣ ب .
ـ انباء الغمر ، ورقة ١٧٤ ا .

الأستادار ، وقد أفاضت المصادر المعاصرة في ذكر ما لجأ إليه يلبغا السالمى من وسائل ومصادرات من أجل جمع المال [١] .

وعلى هذا النحو تستمر المصادر في الحديث عمن ولى وظيفة الحسبة ؛ فلم يكد يعين محتسب حتى يصرف ويستقر مكانه محتسب آخر بسفارة أقوى الأمراء نفوذاً . وهذا ما حدث في ٢٦ شعبان ٨٠٣ ، و١٨ ربيع الأول ٨٠٤ ، و١٠ رمضان ٨٠٥ ، ومحرم ٨٠٦ ، و٦ ربيع الأول ٨٠٦ ، و٧ ربيع الآخر ٨٠٦ ، وأول جمادى الأولى ٨٠٦ [٢] .

وفي شوال ٨٠٧ يذكر المقريزى أنه أُعيد إلى حسبة القاهرة مكرهاً بعد مراجعة السلطان ثلاث مرات [٣] . غير أن العينى لم يترك هذه الفرصة تمر دون أن يتشفّى من خصمه ، فيخبرنا بأنه سرعان ما خُلع منها في ٢١ ذى القعدة ، أى بعد أيام من توليته لها [٤] . وليس ثمة شك في أن تولية المقريزى الحسبة على النحو الذى أشار إليه — ونحن لانشك في صدق روايته — ثم مفاجأته بقرار العزل بعد أيام ، جعلته يزهد في تولى الوظائف العامه ، وكان هذا آخر عهده بها .

ويكفى لإبراز مدى ماآلت إليه وظيفة الحسبة من مهانة في ذلك الوقت أن أحد المحتسبين ، وهو محمد بن شعبان الذى تولى الحسبة في ١٠ رمضان ٨٠٥ ، بلغ حالة من الفساد لدرجة أن والى القاهرة ضربه بحضرة الناس في

---

(١) انظر :
ـ السلوك ، ورقة ٢٢ ب ، ٢٧ ب ـ ٢٨ ب .
ـ عقد الجمان ، ورقة ٤٣ ا .
ـ انباء الغمر ، ورقة ١٧١ ب ، ١٧٣ ب.
ـ النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص٤٧ ، ٦٩–٧٢
WIET : L'Egypte arabe, pp. 526-532.

(٢) انظر :
ـ السلوك ، ورقة ٢٩ ا ، ٣٣ ب ، ٣٨ ا ، ٤٠ ا ، ٤٠ ب .
ـ عقد الجمان ، ورقة ٥٣ ب .
ـ انباء الغمر ، ورقة ١٨٩ ب ، ٢٠٥ ب .

(٣) ـ السلوك ، ورقة ٤٨ ب .

(٤) ـ عقد الجمان ، ورقة ٧٠ ب .

دار الدوادار الكبير أربعين عصاً لسوء سيرته(١) . ولا يختلف مَنْ ترجم لحياة هذا المحتسب على سوء سيرته ؛ فيذكرون عنه أنه « كان عرياً من الفضائل ، وأنه ولى الحسبة زيادة على عشرين مرةٍ بالبذل ، بحيث كان يتبجح بذلك ويفتخر به ، مع أن المؤيد ضربه مرة (أخرى) على رجليه وألزمه بعدم السعى فيها(٢) . »

* * *

وشهدت الفترة بين عامى ٨٠٦ — ٨٠٩ أخطر سنوات المجاعة الطويلة المتقطعة التى حلت بمصر منذ سنة ٧٩٦ ؛ فقد صاحب هذه المجاعة انتشار الوباء .

في هذه السنوات الثلاث مرت الحسبة بتطور جديد انزلق بها نحو الهاوية ، فأصبح توليها لايتم إلا عن طريق البذل . ففى حديثه عن سنة ٧٠٩ يقول ابن حجر ، « ووقع في هذه السنة ، والتى بعدها ، والتى قبلها ، من تلاعب الجهلة بمنصب الحسبة ما يُتعجب من سماعه ، حتى أنه في الشهر الواحد ثلاثة أو أربعة . وسبب ذلك أنهم فرضوا على المنصب مالاً مقرراً ، فكان مَنْ قام في نفسه أن يليه يزن المبلغ المذكور ويُخلع عليه . ثم يقوم آخر يزن ويُصرف الذى قبله ، واستقر هذا الأمر في أكثر دولة الملك الناصر فرج(٣) . »

فإذا ما انتقلنا إلى سلطنة المؤيد شيخ ، نجد أن الظاهرة لم تتوقف بل نجد أنها أصبحت أمراً مقرراً طوال بقية عصر المماليك . وتسعفنا المراجع — طوال هذه الفترة — بعدد كبير من الأمثلة نذكر بعضها على سبيل المثال .

ففى ٢٨ ذى الحجة سنة ٨١٥ عُزل صدر الدين أحمد بن العجمى عن الحسبة بابن شعبان ، وقد وعد بخمسمائة دينار ليقوم بها ، كما التزم أن يحمل كل شهر مائة دينار(٤). غير أنه لم يستطع الوفاء بما التزم به ؛ ففى محرم من

(١) — السلوك ، ورقة ٣٨ ا .
(٢) — النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٢٧٤
— الضوء اللامع ، الجزء السابع ، رقم ٦٧٥
(٣) — انباء الغمر ، ورقة ٢٣٨
(٤) — السلوك ، ورقة ١٠٨ ا .
— انباء الغمر ، المخطوطة رقم ١٦٠٢ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ١٣٤ ا .

السنة التالية ، اشتد الأمر عليه ، وكان قد تأخر عليه مبلغ ألف دينار ، فباع موجوده وأورد نحو ثلثمائة دينار[١] .

واستقر الأمر على ذلك أيضاً في سلطنة الأشرف برسباى ، لدرجة أن العينى لم يسلم من ذلك . وكان العينى مقرباً لدى برسباى ، فقد كان يسامره ليلاً ليترجم له باللغة التركية ماكتبه في تاريخه « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، وليشرح له غوامض الفقه والشريعة . ففى شعبان ٨٢٥ أضيفت إلى العينى — وكان يلى نظر الأحباس — حسبة القاهرة ، عوضاً عن صدر الدين أحمد بن العجمى ، كما أضيف إليه أيضاً النظر في الأحكام الشرعية[٢] . والجديد في هذه الحالة أنها اقترنت ببذلٍ من جانب العينى لسلفه ابن العجمى ، كنوع من الترضية له وحتى لايتطلع إلى الحسبة بعد ذلك . فيذكر ابن حجر أن المحتسب كان يتقاضى دينارين في اليوم من مال الجوالى نظير القيام بمهام وظيفته ، فنزل العينى عن دينار منهما لابن العجمى ، واكتفى هو بالدينار الثاني[٣] .

ولم تختف هذه الظاهرة طوال الفترة المتبقية من عصر المماليك ؛ إذ نجد المراجع ظلت تشير إلى تولى وظيفة الحسبة عن طريق البذل . ومن أمثلة ذلك ما حدث في شوال ٨٥٢ في سلطنة الظاهر جقمق[٤] .

ومنها ما حدث في أوائل سلطنة الأشرف اينال . ففى ٦ ذى القعدة ٨٥٧ خُلع على الشيخ على الخراساني المحتسب خلعة الاستمرار . وسبب ذلك أن شخصاً من الأوباش سعى في الحسبة بثلاثة آلاف دينار ، ومال السلطان لتوليته ، فتكلم معه بعض أرباب الدولة باستمرار الشيخ على الخراساني على بذل الفين[٥] . غير أنه لم يمر على ذلك سوى ثلاثة أسابيع حتى قُبض على

---

(١) — السلوك ، ورقة ١٠٩ ا .
— انباء الغمر ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٣٩ ب .
(٢) — السلوك ، ورقة ٣٥٢ ا .
— عقد الجمان ، ورقة ١٥٤ ب .
(٣) انباء الغمر ، ورقة ١٢٠ ب .
(٤) — التبر المسبوك ، ص ٢٢٠
(٥) — حوادث الدهور ، ص ١٩٦

المحتسب وحُبس عند الخازندار بسبب مال طلبه السلطان منه . وبعد يومين عُزل الشيخ على ، واستقر مكانه آخر ببذل نحو ثلاثة آلاف دينار[١] .

ويبدو أن الشيخ على الخراساني نجح في أن يعود إلى وظيفة الحسبة ، بعد أن بذل مبلغاً من المـال يفوق ما بذله سلفه . ففى ١٥ جمادى الآخرة ٨٥٩ تعود المراجع إلى الحديث عن عزله منها مرةً أخرى ، وتولية أياها عبد العزيز بن محمد الصغير نقيب الجيش ، مضافةً لنقابة الجيش ، بمال بُذل في ذلك[٢] .

وإذا ما رجعنا إلى ترجمة حياة الشيخ على الخراساني لعرفنا منها مدى تهافته على تولى الحسبة ، ومدى ما آل إليه أمرها بما استحدث فيها من مظالم. ففى هذه الكلمات يُترجم له أبو المحاسن ، « في سنة ٨٦١ توفي يار على بن نصر الله العجمى الخراساني الطويل محتسب القاهرة بطّالاً . . . فإنه لما ولى حسبة القاهرة سار فيها أقبح سيرة وفتح له أبواب الظلم والأخذ ، فما عفّ ولاكفّ وجدّد في الحسبة مظالم تُذكر به ، وإثمها وإثم من يعمل بها عليه إلى يوم القيامة . وصار يأخذ من هذه المظالم ويخدم الملوك بها ، فانظر إلى حال هذا المسكين الذى ظلم نفسه وظلم الناس. . . .[٣] »

ومنها مايذكره لنا أبو المحاسن بتاريخ ٦ صفر ٨٦٥ . ففى هذا اليوم استقر على بن اسكندر والياً للقاهرة ، واستقر تنم من بخشابش الظاهرى الخاصّكى ، المعروف برصاص ، في حسبة القاهرة عوضاً عن على بن اسكندر وكلاهما ولى بالبذل . ثم يعلّق على ذلك بقوله ، « أن تنم هذا أول تركى ولى الحسبة بالبذل ، ولم نسمع ذلك قبل تاريخه لا قديماً ولا حديثاً[٤] »

ويعفينا ابن إياس من تتبّع أخبار المحتسبين فيما ورد عنهم في المصادر المعاصرة من إشارات متفرقة ، أو في تراجم حياتهم . فيذكر لنا ما استقر

(١) ـ حوادث الدهور ، ص ١٩٨
(٢) ـ حوادث الدهور ، ص ٢٣٠
(٣) ـ النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، ص ٦١٠ ـ ٦١١
(٤) ـ النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، ص ٣٥٢

عليه أمر الحسبة بمناسبة تولية قايتباى عرش السلطنة ، فيقول : « في شهر رجب سنة ٨٧٢ نُودى من قبل السلطان بإبطال المشاهرة التى تتعلق بالمحتسب، وهى نحواً من ألف دينار في كل شهر. فبطُل ذلك مدةً يسيرةً ، ثم عاد بعد ذلك كل شئ على حاله[١] . »

وأما في عهد الغورى فقد ارتفع المبلغ المقرّر مشاهرةً على مَن ولى وظيفة الحسبة إلى خمسة عشر ألف درهم[٢] .

وفيما يختص بالاسكندرية نجد أن المبلغ المقرّر على الباعة لجهة الحسبة بها ، في كل شهر ، بلغ في سنة ٨٣٩ ثلاثين ألف درهم . وكان ذلك المبلغ يُحمل إلى ديوان النيابة ؛ وذلك أن حسبة المدينة أُضيفت إلى نائبها منذ أن تولى النيابة بها في نفس هذا العام الأمير غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى صاحب كتاب « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك »[٣] . وعلى الرغم من أن الأمير غرس الدين قد أمر بإبطال ذلك المقرّر، ونَقَشَ المرسوم الخاص بذلك في رخامات ثبّتها على أبواب البلد[٤] ، فقد ظل الأمر معمولاً به حتى السنوات الأخيرة من عصر المماليك.

ففى سنة ٩٢٢ أصدر السلطان طومان باى ، آخر سلاطين المماليك ، مرسوماً يقضى بإبطال مقرّر الحسبة بثغر الاسكندرية ؛ وهو — كما جاء في المرسوم — في كل شهر سبعة آلاف وخمسمائة درهم[٥] .

وتناقص المقرّر مشاهرةً من ثلاثين ألف درهم في سنة ٨٣٩ إلى سبعة آلاف وخمسمائة درهم في سنة ٩٢٢ له دلالته الكبرى . فهذا التناقص يفسر

---

(١) — بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الثانى ، ص ٩٣

(٢) — بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الثالث ، ص ١٨

(٣) — المقصد الرفيع ، ورقة ١٣٢ ا .

— فى سنة ٨٣٩ تولى الأمير غرس الدين خليل بن شاهين وظيفة النائب والحاجب والمشد بالاسكندرية ، ويرجع ذلك الى أنه كان حمأ للسلطان برسباى — انظر :

الدكتور زياده : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٢٤

(٤) — انباء الغمر ، ورقة ٢١٢ ب .

(٥) — انظر المراسيم المرفقة بهذا البحث ، المرسوم رقم ١

ما آلت إليه الحالة الاقتصادية بثغر الاسكندرية في الفترة الأخيرة من عصر المماليك ، وخاصةً تلك التى أعقبت تحول تجارة البهار وغيرها من سلع الشرق الأقصى من أسواق مصر والشام إلى أسواق لشبونة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . فالمؤرخ ابن إياس يصف لنا الحالة بالمدينة بمناسبة زيارة السلطان الغورى لها في سنة ٩٢٠ بقوله ، « لم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ أحدٌ من أعيان التجار ، لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وَجورْ القبّاض ، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العُشر عشرة أمثال فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب(١) »

* * *

وأما الظاهرة الثالثة التى أدت إلى اختلال أمر الحسبة وانهيارها فهى تولى أمراء المماليك لهذه الوظيفة الدينية .

ففى شهر ربيع الآخر سنة ٨١٦ ولى الحسبة الأمير منكلى بغا الحاجب ، الملقّب بالفقيه ، مضافاً إلى الحجوبية(٢) . وربما كان لهذا اللقب صفة من الحقيقة ؛ الأمر الذى دعا المؤيّد شيخ إلى الخروج عن التقليد المتّبع حتى ذلك العام وهو أن يتولى الحسبة أحد الفقهاء المتعممين .

غير أن هذا الأمير لم يستمر في الجمع بين الوظيفتين سوى ثلاث سنوات ، ففى المحرم سنة ٨١٩ صُرف عن الحسبة وأُعيد العينى إليها(٣) . وكانت البلاد قد حل بها الوباء في العام الماضى واستمر حتى هذا العام (٨١٨ — ٨١٩) ، وأدى هذا الوباء — فضلاً عن كثرة الموتى — إلى ارتفاع الأسعار والغلاء الشديد . وربما يكون هذا الأمير قد فشل في أداء مهام وظيفته في هذه الظروف غير العادية .

---

(١) — بدائع الزهور ، طبعة استانبول ، الجزء الرابع ، ص ٤٢٣ — ٤٢٤

(٢) — صبح الأعشى ، جزء ١١ ، ص ٢١٠

— انباء الغمر ، ورقة ٤٠ ب .

(٣) — السلوك ، المخطوطة رقم ١٧٢٧ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ٢٩٨ ا .

— انباء الغمر ، ورقة ٦٢ ا .

— عقد الجمان ، ورقة ١١٥ ا .

وفي عهد برسباى تولى أرباب السيوف هذه الوظيفة مرتين . ففى المرة الأولى صُرف العينى عن الحسبة وعلى كره منه ، بل على كره من السلطان أيضاً ؛ وذلك أن الأمر اقتضى تعيين أحد الأمراء بدلاً منه . فقد تجمهرت العامة حول العينى بسبب قلة الخبز في الأسواق يوم ٧ ذى الحجة سنة ٨٢٨ وصاحت عليه ، فبادر بالصعود إلى القلعة وهو خائف من رجم العامة له وشكاهم للسلطان ، وكان يختص به . فحنق السلطان على العامة وأمر بالقبض على عدد منهم . ولم يكتف بذلك ، إنما أمر بقطع أناملهم وآذانهم وسجنهم ليلة بالقلعة ، ثم أفرج عنهم في اليوم التالى ؛ وكان عددهم ٢٢ رجلاً (١) .

ويبدو أن هذا الإجراء العنيف من جانب السلطان لم يؤدى إلى زجر العامة ، ولذلك فإنه في يوم ٥ محرم من السنة التالية خلع على الأمير إينال الششماني ، أحد أمراء العشرات ، في حسبة القاهرة عوضاً عن العينى (٢) .

ولكن السلطان لم يتخذ أى إجراءٍ لتوفير الغلال ، كما أن الأمراء من جانبهم استغلوا الفرصة وخاصةً بعد أن بلغهم شدة الغلاء ببلاد الصعيد ، وأنها لا يكاد يوجد بها قمح ولا خبز . فرفض الأمراء فتح شونهم لبيع الغلال لكى يرتفع السعر ، كما أن السلطان منع أن يُباع من حواصله قمحٌ طمعاً في زيادة السعر ، أو كما قال المقريزى ، « أمسك خزّان القمح ما عندهم منه ، وأمّلوا أن يبيعو البُرّ بالدُرّ (٣) » .

وكان ذلك بوادر أزمة حادة من تلك الأزمات التى تعودتها مصر نتيجة انخفاض فيضان النيل وما يترتب عليه من جدب ومجاعة ووباء . ففى سنة

---

(١) ــ السلوك ، ورقة ٣٦٩ ا .

ــ انباء الغمر ، ورقة ١٤٤ ب .

ــ كانت هذه هى الحادثة الثالثة التى تجمهر فيها الشعب وعبر عن احتجاجه بسبب قلة الخبز فى الأسواق . وقد ساق المقريزى فى كتابه « اغاثة الأمة » حادثتين مماثلتين ، أولهما فى سنة ٣٣٨ فى عهد الدولة الأخشيدية ، وثانيهما أثناء الغلاء الشديد فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى ــ انظر اغاثة الأمة ، ص . و . (المقدمة) ص ١١ ، ٢٥ ــ ٢٦

(٢) ــ النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٥٩٥

WIET : Les biographies du Manhal Safi, Le Caire 1932, No. 616.

(٣) ــ السلوك ، ورقة ٣٧١ ب .

٨٣٠ جاء الفيضان منخفضاً الأمر الذى أدى إلى حدوث القحط والجدب والغلاء . وبعد ذلك بسنتين (سنة ٨٣٢) تكررت نفس الظاهرة بنتائجها المعروفة ؛ غير أنه زيد عليها انتشار الوباء في السنة التالية (٨٣٣)[١] .

ولننظر ما فعل هذا الأمير في هذه الظروف ؛ ظروف المجاعة والوباء الذى يحصد المئات من أفراد الشعب كل يوم . إنه لم يفعل شيئاً سوى المحافظة على مصالح سيده وسلطانه . فقد منع كل مَنْ ورد بغلّة إلى ساحل مصر وبولاق من بيعها وتشدد في ذلك فامتنعوا ، ثم أخذ في بيع الغلال السلطانية كل أردب منها بثلثمائة وستين درهماً . وبعد أن انتهى من ذلك أذن لهم في بيع غلالهم ، وكان الطحانون قد تكفّوا بغلال السلطان ، ولذلك انحطّ سعر الغلال[٢] .

وما أن انحسر الوباء وعادت الأحوال الطبيعية إلى البلاد حتى بادر السلطان بإعادة العينى إلى الحسبة مضافاً لما بيده من نظر الأحباس[٣] .

وفي ظروف مماثلة لجأ برسباى ، للمرة الثانية ، إلى تعيين أحد الأمراء في هذه الوظيفة . وكان ذلك في سنة ٨٤١ عندما تعرضت البلاد ، للمرة الثانية في عهده ، للوباء . ففى رمضان من ذلك العام خلع السلطان على الأمير دولات خجا بن عبد الله الظاهرى وولاه الحسبة عوضاً عن أحد المتعممين . وكان دولات خجا قد عُرف بقسوته وشدته أثناء توليه وظيفة والى القاهرة . إذ يُروى عنه أنه أطلق عدة من المحابيس أرباب الجرائم ، وهدّد من أمسكه منهم ثانياً بالتوسيط ، فوسّط جماعةً منهم عندما ظفر بهم . غير أنه لما كثر ظلمه عزله السلطان من ولاية القاهرة . ولما حل الوباء بالبلاد في هذه السنة ، رأى السلطان أنه في حاجة إليه ، فخلع عليه في وظيفة الحسبة . إلا أن أيامه فيها لم تطل ، إذ أنه لم يكن يخشى الله ، فأخذه الموت بالطاعون في أول ذى القعدة من نفس العام[٤] .

---

(١) انظر القائمة السابقة .
(٢) السلوك ، ورقة ٣٩٦ ا .
(٣) المرجع السابق ، والورقة المشار اليها سابقا .
(٤) ــ النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٧٦١
ــ الضوء اللامع ، الجزء الثالث ، رقم ٨٣٠

ويبدو أن هذا الإستثناء الذى لجأ إليه المؤيّد وبرسباى في ظروف غير عادية ما لبث أن أخذ يزداد شيئاً فشيئاً حتى أصبح هو القاعدة . وفي ذلك يقول الخالدى ، « وكانت ولاية الحسبة منحصرةً في المتعممين ، ثم صار يتولاها أرباب السيوف غالباً[١] »

فابتداءً من سنة ٨٦٥ لم يعد يعين في هذه الوظيفة إلا أحد الأمراء . وانطبق على الأمراء ما كان ينطبق على المتعممين ، ممّن كانوا يتولون هذه الوظيفة من قبل ؛ أى أنهم لم يكونوا يتولونها إلا بالبذل . ففى هذه السنة تولى وظيفة الحسبة الأمير تنم من نخشابش الظاهرى ، وهو أول تركى تولى الحسبة بالبذل[٢].

وما استقر عليه الأمر أخيراً بالنسبة لوظيفة الحسبة لا يعدو أن يكون مظهراً من مظاهر الصراع الطبقى الذى شهدته مصر المملوكية . فالمماليك في تكالبهم على جمع المال ، قد درجوا على منافسة العلماء ورجال الدين في تولى الوظائف الدينية ، وخاصة تلك التى تمكنهم من الثراء ، مثل وظيفة الحسبة ، ووظيفة ناظر الوقف . ولولا ماهم عليه من جهل بالشريعة لنافسوهم في تولى وظيفة القضاء[٣] . وقد عبّر السبكى ، عن هذه الحالة ، بقوله ، « من قبائح الأمراء استكثارهم الأرزاق وإن قلّت على العلماء ، واستقلالهم الأرزاق وإن كثرت على أنفسهم . ورأيت كثيراً منهم يعيبون على الفقهاء ركوب الخيل ولبس الثياب الفاخرة . ولو اعتبر واحد منهم رزق أكبر فقيه لوجده دون رزق أقل مملوك عنده . أفما يستحى هذا الأمير المسكين من الله[٤] » .

---

(١) — المقصد الرفيع ، ورقة ١٣٢ ا .
— هذه الملاحظة التى أبداها الخالدى عن وظيفة الحسبة ، تجعلنا نشك فى أنه ألف كتابه فى منتصف عهد برسباى تقريبا ، أو بعد سنة ١٤٣٢ ، كما يرجح الدكتور زياده (المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٢٤ — ٢٥) . اذ أنه حتى عهد برسباى لم تكن الحسبة يتولاها أرباب السيوف غالبا .

(٢) — النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة ، الجزء السابع ، ص ٣٥٢ ، ٧٨٨ (كان هذا الأمير قد سبق له أن تولى وظيفة الحسبة فى أوائل سلطنة الظاهر جقمق ، ولكن ليس عن طريق البذل) .

(٣) **DARRAG : L'acte de Waqf de Barsbay, éd. Inst. Fr. Arch. Or. du Caire, Le Caire 1963, p. 20 et suiv.**

(٤) — معيد النعم ومبيد النقم ، طبعة **Myhrman** ، ليدن ١٩٠٨ ، ص ٦٨ — ٦٩

وفي الفترة الأخيرة من عصر المماليك دخل الصراع الطبقي بين المماليك والفقهاء مرحلة نهائية ؛ كان الإنتصار فيها لطبقة المماليك . وهذا ما نلمسه فيما تذكره المصادر المعاصرة من إشارات تبرز ذلك الصراع . ففي سنة ٨٥٤ قام المماليك الجلبان بمنع المتعممين من ركوب الخيل وركوب البغال والحمير ، ما عدا كاتب السر ونائبه ، وناظر الجيش وناظر الخاص ، وناظر الإسطبل ، والوزير ، والاستادار ، وكاتب المماليك[١] .

وفي سنة ٨٥٧ كثر إلحاح المماليك على السلطان في طلب اقطاعات الفقهاء والمتعممين[٢] .

وفي السنة التالية ثار المماليك على الفقهاء والمتعممين فضربوا منهم خلائق وأخذوا خيولهم . وبذلك أشاعوا جواً من الإرهاب ضدهم ، فلم يبق بالقاهرة متعممٌ إلا وتحاشى ركوب الخيل[٣] . وما حدث في هذه السنة تكرر حدوثه في سنة ٨٦٠[٤] .

وكانت هذه الظاهرة موضع ملاحظة الرحالة الأجانب ؛ ومن هؤلاء الذين سجلوا ما رأوه — في هذا الصدد — الرحالة الألماني فيلكس فابر Felix Faber أثناء إقامته بالقاهرة في سنة ١٤٨٣[٥] .

* * *

وكانت وظيفة الحسبة في بلاد الشام من الوظائف الدينية الرئيسية . وكان تعيين المحتسب في النيابات الكبرى ، كنيابة دمشق ، ونيابة حلب من قبل السلطان ، وفي النيابات الصغرى من قبل النواب[٦] .

---

(١) — النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، ص ١٩٨
— حوادث الدهور ، ص ٦٨
— التبر المسبوك ، ص ٣١٤
(٢) حوادث الدهور ، ص ١٦٧
(٣) حوادث الدهور ، ص ٢٠٥
(٤) حوادث الدهور ، ص ٢٧٨
(٥) THENAUD : Le voyage d'outre-mer ; éd. Schefer, Paris 1884, Introduction, p. XXXXIV.
(٦) — صبح الأعشى ، جزء ٩ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ ، جزء ١٢ ص ٧
— المقصد الرفيع ، ورقة ١٤٥ ا .

ومرت وظيفة الحسبة في نيابات الشام بنفس الأدوار التى مرت بها هذه الوظيفة في مصر منذ بداية القرن التاسع ، وانتهت هناك إلى ما انتهت إليه في مصر من فساد أمرها نهائياً . فقد أصبح لا يتولاها أحدٌ إلا عن طريق البذل، والإلتزام بدفع مقرّر شهرى أثناء مدة ولايته لها ، كما أصبحت ولايتها قاصرةً على أرباب السيوف(١) .

وإذا كانت المصادر المعاصرة لا نجد فيها عن أحوال بلاد الشام إلا الشيء اليسير ، الذى لا يساعدنا على تتبع دراسة الحسبة في بلاد الشام كما فعلنا بالنسبة لمصر ؛ فإن بلاد الشام قد حفظت لنا — نظراً لطبيعتها الجبلية — الكثير من المراسيم المملوكية التى تتعلق بمختلف أنواع النشاط البشرى(٢) . ومن هذه المراسيم استطعنا أن نستخرج عدداً لا بأس به يوضح لنا ما آلت إليه وظيفة الحسبة في نيابات الشام . بل إن هذه المراسيم توضح أكثر من جميع النصوص التاريخية التى سقناها فيما يختص بمصر مدى ما وصلت إليه الحسبة من فساد ، والدور الذى لعبته — بعد أن فسد أمرها — في هدم الحياة الإقتصادية في بلاد الشام .

وسيجد القارئ في نهاية هذا البحث مجموعة من المراسيم الخاصة بالحسبة، أُستخرجت نصوصها من المصادر الأصلية التى نُشرت بها ، ومن هذه المراسيم مرسوم واحد خاص بالاسكندرية (سنة ٩٢٢) ، ومرسوم واحد

---

(١) المقصد الرفيع ، ورقة ١٤٥ ا .
— يذكر الخالدى فى حديثه عن أرباب الوظائف الدينية بنيابة دمشق ، ومن بينها المحتسب ، أنه صار يتولاها فى زمانه جماعة من أرباب السيوف ، وولايته من الأبواب الشريفة .

(٢) عن مجموعة المراسيم المملوكية بالشام انظر :

WIET : Repertoire des decrets mamlouks de Syrie, dans Mélanges Réne Dussaud, T. I, Paris 1939.

——— : Décrets de date indéterminée, dans Mélanges Réne Dussaud, II, Paris 1939.

JANINE SOURDEL - THOMINE : Inscriptions Arabes de KARAK NUH, BEO, T. XIII, Damas 1951.

——— : Deeux decrets mamlouks de MARQAB, BEO, XIV, Damas 1954.

— الظاهرة العامة التى نخرج بها من دراسة هذه المجموعة الكبيرة من المراسيم هى أن تاريخ اصدارها يرجع — فى معظم الأحيان — الى بداية ونهاية عهود معظم سلاطين المماليك استجلابا لرضاء الله والناس . كما أنها تنتهى بصيغة تقليدية عامة ، وهى تقرير أبطال هذه المظلمة أو تلك ابطالا مستمرا على الدوام باقيا على مر الدهور والأيام ، وتنزل لعنة الله والناس أجمعين على كل من يجددها أو يسعى فى تجديدها .

خاص ببيروت (سنة ٨٠٦ أوسنة ٨٦٠) ، ومرسومان خاصان ببعلبك (سنة ٨٢٤ ، وسنة ٨٤٠) ، وأربعة مراسيم خاصة بدمشق (سنة ٨٠٢ أو سنة ٨٠٣ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٨) ومرسوم واحد خاص بطرابلس (سنة ٨٢١) .

وهذه المراسيم تقرر إبطال المشاهرة ، أو حق الشهر الذى كان يجبى لصالح المحتسب من بعض التجار وأصحاب الحرف والصنائع كالخبّازين ، والطحّانين ، وأرباب المعايش ، والصنائعية ، والدبّاغين ، والمغسلين والحمّالين لأموات المسلمين ، وعلى سكان وقف الجوامع والتجار والمتسبّبه ، وعلى الأسواق عامة[١] . وما من شك أن ماورد في هذه المراسيم ، وإن كان لايشمل جميع التجار وأصحاب الحرف والصنائع ، إلا أنه يعطينا صورة كافية عما آل إليه أمر الحسبة ، وكيف أنها أصبحت قيداً كبيراً على النشاط التجارى والصناعى .

وإذا ما أضفنا إلى هذه الصورة العامة التى خرجنا بها من دراسة الحسبة أنه كان لكل محتسب أعوان أو نواب[٢] يعاونونه أو ينوبون عنه في أداء مهام وظيفته التى تشمل القطر كله أحياناً (كما هو الحال في مصر) ، والنيابة كلها (كما هو الحال في الشام) ، لأدركنا مدى الضرر الذى نجم عن فساد أمرها على هذا النحو ، ومدى نتائج ذلك على الحياة الاقتصادية بالبلاد .

وإذا كان هذا هو حال المحتسب ونوابه ، فمن المؤكد أن الفساد قد امتد إلى كل من له صلة بالإشراف على الأسواق وعلى أصحاب الحرف والصنائع . ومن هؤلاء « شادّ الأسواق[٣] » و « ناظر الأسواق[٤] » و « معلّم الأسواق[٥] » و « والدّلالين وكبير الدّلالين[٦] » و « العريف[٧] »

(١) انظر مجموعة المراسيم المرفقة بهذا البحث .

(٢) يعرف هؤلاء الأعوان فى بلاد الشام باسم « نظّار الحسبة » ـ انظر مرسوم بعلبك المؤرخ فى سنة ٨٤٠ هـ ـ المرسوم رقم ٨

(٣) زبدة كشف الممالك ، طبعة راقيس ، ص ١١٥

(٤) **GAUDEFROY-DEMOMMYNES : La Syrie à l'epoque des Mamlouks, Paris 1923, p. LXXIII, n. 5.**

(٥) ورد هذا المصطلح فى ترجمة حياة الأمير قائم المؤيدى (انظر المنهل الصافى ، المخطوطة رقم ٢٠٧٢ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ٣ ب ـ ٤ ١) .

(٦) ورد هذا المصطلح فى ترجمة الأمير خير الذهبى (انظر الضوء اللامع ، الجزء الثالث ، رقم ٧٨٨) .

(٧) اغاثة الأمة ، ص ١٨ (وكان فى كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم) .

مراسيم الحسبة

(١)

الاسكندرية[1]

(١) برز المرسوم من المقام الش[ر]ي[ف]
(٢) السلطان المالك الملك [الأشرف]
(٣) ابو النصر طومان باى سلطان
(٤) الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة
(٥) والمشركين محيي العدل في
(٦) العالمين عز نصره ان يبطل
(٧) ما على مقرر الحسبة بثغر الاسكندرية
(٨) المحروسة ما هو في كل شهر
(٩) سبعة آلاف وخمسمائة درهم
(١٠) بتا [ريخ] سنة اثنين وعشرين وتسعمائة

(١) Halil Etem Eldem : Melik Tumanbay, p. 6.

(٢)

دمشق (الجامع الأموي)[١]

(١) بسمله : رُسم بالأمر العالىّ

(٢) المولوىّ الأميرىّ الكبيرىّ المالكىّ المخدومىّ

(٣) السيفىّ سودون الدوادار نائب السلطنة الشريفة

(٤) بالشام المحروس أعزّ الله أنصاره

(٥) أن يُنقش بإبطال ما كان على المغسّلين

(٦) والحمّالين لأمو[ا]ت المسلمين لنائب الحسبة الشريفة .

(٧) من الجهة المذكورة حسب المرسوم الشريف

(٨) السلطانيّ الملكىّ الظاهرىّ تغمده

(٩ — ١١) [الله برحمته ورضوانه ومن سعى بإعادتها أو أعان عليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وسطرت هذه الحسنة في صحائف مولانا السلطان خلّد الله ملكه وجعل الأرض ملكه وآله ؟ ؟ ؟]

---

(١) Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. XII, no. 37, pp. 5-6, 7.
— يرجح سوفاجيه أن هذا المرسوم صدر فى سنة ٨٠٢ أو فى سنة ٨٠٣هـ

(٣)

دمشق (الجامع الأموى)[1]

(١) بسم الله الرحمن الرحيم

(٢) لما كان بتاريخ نهار الجمعة المبارك ثامن عشرين

(٣) شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثمان مائة برز المرسوم

(٤) الكريم العالى المولوى الكافلى السيفى قانباى

(٥) الحمزاوى الاشرفي كافل المملكة الشريفة

(٦) الشامية أعزّ الله انصاره بابطال المقرّر للحسبة

(٧) على الاسواق والطواحين وغيرها بدمشق

(٨) من التجار والوصائفية والصنائعية والمتسببة وغيرهم

(٩) وأن لايؤخذ منهم درهم الفرد لامشاهرة

(١٠) ولا قدوم وملعون من يجدده

(١١) او يسعا في تجديده وعليه لعنة الله والملائكة

(١٢) والناس اجمعين والحمد لله وصلّى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

---

(١) Sobernheim : Inschriftliche wiirtschafts und verwaltung — Verordnungen der mamluken - sultane aus Damaskus. Oppenheim Festschrift, Berlin 1923, p. 121, no. VIII.

(٤)

دمشق (الجامع الأموى)[١]

(١) بسملة . لما كان بتأريخ نهار [ا] لجمعة عشرين

(٢) ربيع الآخرة سنة اربع وستين وثمانمائة رسم المقر الكريم

(٣) العالى المولوى السيفى جانم الأشرفي كافل المملكة الشريفة الشامية

(٤) أعز الله انصاره بإبطال هذه المظلمة المعروفة بمشاهر [ة] الحسبة ومشاهرة

(٥) الدباغة التى يرسم البشمقدارية[٢] عن المسلمين وأهل الذمة القاطنين

(٦) بدمشق المحروسة وضواحيها وأرباب المعائش والحرصاى (هكذا) وأن

(٧) لا . . . شئ وذلك ما قيمته درهم فرد حسب ما رسم واستمرار ذلك

(٨) على ممر الليالى والأيام رغبة فيما قاله الصادق المصدّق

(٩) عليه أفضل الصلاة والسلام من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من

---

(١) Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. II, no. 12, pp. 41-42.

(٢) البَشْمَقْدارية أو البَجْمَقْدارية ومعناها المماليك من خاصة السلطان المكلفين بحمل حذائه اذا ماخلعه وحفظ أحذيته . وكان يوجد من بين أصحاب الوظائف أربعة من الخاصّكية مكلفين بهذه المهمة . وهذا المصطلح مشتق من الكلمة التركية « بَشْمَق » ومعناها : صندل ، والكلمة الفارسية « دار » . انظر :

Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes, I, p. 51.

خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٦

(١٠) عمل بها إلى يوم القيامة ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر [من]

(١١) عمل بها إلى يوم القيامة فليمتثل ما رُسم به كل من يتولا الحسبة والبشمقدارية

(١٢) ومن خالف ذلك أو أعاده فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين

(١٣) وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

(٥)

دمشق (الجامع الأموى)[١]

(١) بسمله . بتأريخ شهر شعبان المكرّم سنة ثمان وستين وثمانمائة برزت

(٢) المراسيم السلطانية الملكية الظاهرية أبو سعيد خشقدم أعزّ الله سلطانه

(٣) ونصره الى مولانا ملك الأمرآء كافل المملكة الشامية المحروسة والأمير

(٤) حاجب الحجاب بها و[ا]لا سادة القضاة والأمرآء أعز الله بهم الدين بأن يتقدموا

(٥) بازالت (هكذا) المنكرات وإبطال المحرمات والقاذورات ومحو آثارها وابطال

(٦) الخمامير واراقت (هكذا) الخمور وإخراج بنات الخطأ من دمشق الحصينة وابطال

(٧) ما على الحسبة الشريفة من المال المقرر الذى يُسمّا (هكذا) مشاهرة وما [أ] حدث على البضائع المجلوبة

(٨) إلى دمشق من التحجير والكلف وتمكين أرباب البضائع من بيع بضائعهم اين شاءوا

(٩) واستمرار ابطال المكوس وفروعها التى ابطلت في الايام الظاهرية

(١٠) جقمق طيب الله ثراه بأجمعها ومنع مقدم المكارية واتباعه من

(١١) التعرض إلى أبّان[٢] فلاحى القرا (هكذا) والمزارع المجاورة بدمشق المحروسة وتطهير دمشق من سائر

---

(١) Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. XII, no. 42, pp. 18, 23.

(٢) — أى قبانى .

(١٢) المنكرات والمحرمات و(هكذا) ابتغا (هكذا) أجر هذا النداء
بذلك (هكذا) في كل وقت ونقش ما

(١٣) رَسم به من ذلك في رخامة بباب الأمير حاجب الحجاب وتُحمل
ببريديه إلى الجسا

(١٤) مع الأموى وتلصق على دعامة من دعائمه ليُعدّى بالعمل به
(عن) سائر مكوس

(١٥) الاسلام وتكون هذه الحسنة جارية في [أل] صحائف الشريفة
على الدوام فقو[ب] ل ذلك

(١٦) والحمدلله وحده وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

(٦)

بيروت (الجامع الكبير)[١]

(١) بتاريخ سنة ستة (أو ستين) وثمان مائة رسم الجناب العالى الجمالى أمير كو نائب السلطنة الشريفة ببيروت المحروسة

(٢) أعزّ الله تعالى أنصاره بإبطال ماكان استحدث على الخبّازين ببيروت لنائب الحسبة الشريفة وهو في كل شهر على كل فرن خمسة دراهم وكان الخبا[زون]

(٣) [طلبوا منه] إبطال ذلك وأن لايؤخذ ... ... ولا... ... ولايجدّد مظلمة وملعون بن ملعون من يعود[ها] [أو] يجدد ... ...

(٤) أو يأخذ منهم شيئاً ولا يأخذ المحتسب إلا جامكيّته لاغير ومن يأخذ شيئاً غير جامكيّته تكون عليه لعنة الله واجبة الا (هكذا) [يوم الدين] .

---

١) Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. XII, no. 47, p. 32, 33-35.

(٧)

بعلبك (الجامع الكبير)[1]

(١) لما كان بتاريخ شهر جمادى الآخر من سنة أربع وعشرين
وثمانمائة حضر سيدنا الشيخ الصالح الزاهد العابد سعد (؟)
الله حسن بن

(٢) شمس الدين محمد الملكى (هكذا) بن أبو الحجّاج الأقصرى
المصرى[ى] المعروف بشيخ السحيمية ناظر الحسبة الشريفة
وعلى يده مرسوم

(٣) بإبطال حق الشهر الذى جدّد على الطحانين والخبازين والسوقة
وغيرهم وألا يجدّد عليهم مظلمة وملعون ابن ملعون

(٤) من يجدّد عليهم مظلمة وذلك في أيام النائب خش قدم المظفّرى

(١) Sobernheim : Baalbek in Islamischen Zeit, Ergebnisse der ausgrabungen und untersuchungen in den yahren 1898 bis 1905, Band III, Berlin 1922, no. 30.

(٨)

بعلبك (الجامع الكبير)[١]

(١) الحمد لله ورد وقبّل بالحمد مرسوم شريف إلى دمشق المحروسة يتضمن بابطال ما كانوا يتسادّونه نظّار

(٢) الحسبة الشريفة بالشام واعمالها من السوقة وارباب المعايش من معلوم وغيره وأشهر وقوبل المرسوم

(٣) الشريف المشار اليه شرفه الله تعـ بالامتثال ثم ورد مرسوم مولانا ملك الأمراء أعزّ الله انصاره

(٤) الى بعلبك يتضمن ما ورد المرسوم الشريف المشار اليه بابطال جميع ما كان يتسادّونه

(٥) نظار الحسبة الشريفة من حق الشهر وقطع المصانعات[٢] عن بيان الظنون لما جاءت به المراسيم الشريفة

(٦) وذلك بتاريخ شهر ربيع الاول سنة اربعين وثمان مائة

(١) Sobernheim : Baalbek in Islamischen Zeit, no. 31.

(٢) يتردد ذكر مصطلح « قطع المصانعة » فى المراسيم المملوكية الخاصة بالشام ، ومعناه جباية أتاوة مالية نظير السماح بالقيام بعمل معين من الأعمال التى من المفروض أن يقوم بها أحد من أصحاب الحرف والصنائع — انظر :

Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. XII, no. 39, pp. 4-5, 8 et note.

(٩)

طرابلس (مدرسة السلطان المؤيد شيخ)[١]

(١) لما كانت بتاريخ العشر الأول من ربيع الأول سنة احد وعشرين [و] ثمان مائة ورد المرسوم الشريف السلطان الملك المؤيد أبو (هكذا) النصر شيخ بأن لا يؤخذ من سكان وقف جامع

(٢) العطّار للمحتسبين من قدوم ولا شهر ولا اذا مكروه استجلاب أدعية المصلّين ومن عمل به له أجره ومن خالف عليه غضب الله ولعنة الملائكة والناس أجمعين آمين .

(١) Sobernheim : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Syrie du Nord, T. I, in MIFAO. XXV. Le Caire 1909, no. 47, p. 105.

مواقف سياسـية
لأبى الثنـاء محمود الآلوسى

١٨٠٢ م / ١٢١٧ هـ — ١٨٥٥ م / ١٢٧٠

للدكتور عبد العزيز سليمان نوار

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس

كان عراق العباسيين مركز الزعامة في السياسة والأدب ، ثم فقدت بغداد تلك الزعامة في أعقاب نكبة المغول لها ولعلمائها . ولم تستطع دمشق أو القاهرة أن تتسلم تلك الزعامة من بغداد حيث أن الآداب العربية كانت تتدهور فيها كذلك . واستمر هذا الركود خلال العهد العثماني حتى القرن الثامن عشر الميلادى ، ذلك القرن الذى يمكن أن نطلق عليه « قرن الحركة » حيث بدأت خلاله تطورات ثقافية وسياسية هامة في الوطن العربي ، وهو أيضاً قرن استطاعت أثناءه العصبيات والأسرات المحلية أن تستبد بالحكم في معظم ولايات الدولة العثمانية . وقد ظهرت في العراق عصبية المماليك التى حكمته من ١٧٤٩ إلى ١٨٣١ م .

عاش العراق تحت الحكم المملوكى فترة قلقة مليئة بالثورات العشائرية وبالأوبئة والفيضانات المخربة والغزوات الفارسية . ولكن منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر هبت على العراق رياح التغيير والتطور ، حيث وصلت إليه بعض التيارات التى اجتاحت منطقة الشرق الأدنى في أعقاب نزول الحملة الفرنسية في مصر ، وبعد انتشار الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية ، حتى لقد اعتنق سليمان باشا الصغير — الذى حكم العراق بين ١٨٠٧ و ١٨١٠ — الفكرة الوهابية . هذا فضلاً عن أنه كان قد حصل على منصب باشوية بغداد بفضل وساطة المسيو سباستياني Sebastiani السفير الفرنسى المشهور لدى

الباب العالى[١] . وبدا واضحاً أن العراق بدأ يدخل في مجال السياسات الدولية . ولقد أصبح العراق ذا أهمية دولية خلال عهد الوالى داود باشا آخر ولاة المماليك الذى حكم من ١٨١٧ إلى ١٨٣١ . فلقد حاول الرجل أن يوّحد العراق بمختلف ولاياته تحت حكمه[٢] . وأن يقتبس من حضارة الغرب ما يستطيع به أن يدعم قوى العراق الإقتصادية والعسكرية[٣] . ولكن صادف ذلك الوقت اتجاه السلطان العثماني نحو القضاء على العصبيات المحلية الحاكمة على اعتبار أنها من عوامل تدهور الدولة العثمانية ، وأن إعادة الحكم المركزى إلى مختلف ولايات الدولة كفيل بخلق إمبراطورية عثمانية متماسكة قادرة على الوقوف في وجه الإمبراطوريات الكبرى الأوربية الإستعمارية الطامعة في الدولة العثمانية . فشن السلطان العثماني حملة كبيرة على العراق ١٨٣٠ — ١٨٣١ بقيادة على باشا رضا فاستولى عليه وأعاد إليه الحكم المركزى العثمانى الذى استمر حتى ١٩١٧

وكان للأدباء في عصر بعض الوزراء المماليك دولة . ويعتبر عهد داود باشا ذروة ما بلغه العراق من تطور أدبي في عهد المماليك . وكان هذا التطور في ذلك العهد منطلقاً لتقدم أدبي كبير خلال القرن التاسع عشر ، بدأه أبو الثناء الآلوسى وعبد الغفار الأخرس وصالح التميمى وغيرهم من أدباء ذلك العهد . وكانت رعاية مماليك العراق للآداب العربية ترجع إلى عوامل عديدة . فلا شك أن اللغة العربية والإسلام هما اللذين أخذا بيد هؤلاء المماليك عندما كانوا مجرد عبيد أرقاء في بيوتات بغداد الكبرى . ولما تولى المماليك الحكم — وكان احتكاراً لهم منذ منتصف القرن الثامن عشر — عنوا باللغة العربية وآدابها وبالعلوم الدينية

---

(١) عبد العزيز نوار : داود والى بغداد (١٨١٦ — ١٨٣١) . دار الكاتب العربى . القاهرة ١٩٦٨ الفصل الأول .

(٢) كان العـراق مقسما الى ولايتين هما بغـداد والموصل ، وكانت البصرة تابعة لبغداد أما العشائر والمدن الكردية فكانت تحت حكم أسرات حاكمة تحت نفوذ والى بغداد .

(٣) ع. نوار : داود باشا : الفصل السابع والثامن .

وبالشيوخ والعلماء ، فقربوهم إليهم ، وعقدوا لهم المجالس الأدبية ، وأنشأوا العديد من المدارس ، وأعدوا المكتبات لطلاب العلم[١] .

ولقد كان الحكام المماليك في حاجة إلى كسب صداقة وود العلماء والأدباء لأن المماليك كانوا يفرضون أنفسهم في حكم العراق على غير رغبة من السلطان العثماني وبابه العالى وفي وجه معارضة قوية من بعض الزعماء العرب والأكراد . هذا إلى جانب ما كان يوجهه المماليك من تمردات داخلية خطيرة تهدف إلى إبعادهم عن الحكم . فأملت هذه الظروف عليهم أن يكسبوا إلى جانبهم العلماء والأدباء ، خاصة وان حكومة المماليك كانت في طريق التحول نحو حكومة محلية عراقية في الثلث الأول من القرن التاسع عشر . وجاء هذا التحول في وقت نمت فيه الحركة الفكرية . ولقد فطن الحكام المماليك إلى ذلك ، وبخاصة داود باشا ، ولهذا نجده يحيط البراعم الأدبية الناشئة برعايته ، فأعان على بزوغ نجم كل من أبي الثناء محمود الآلوسى (مفسر العراق) ، وعبد الغفار الأخرس (شاعره الأول)[٢] .

وظهرت في أيام داود باشا حركة أدبية كبيرة ، فقد كانت مجالس الأدب والأدباء متعددة ، وتعيد لنا المساجلات والمطارحات الشعرية حينذاك ذكرى ما كان بين جرير والفرزدق . وكانت الأبيات القيمة — بمقياس ذلك العصر — تطير من مجلس إلى مجلس ، كما كانت القصيدة الممتازة لا يتناقلها الناس فحسب بل كان الأدباء يتسابقون إلى شرحها أو تشطيرها أو تخميسها ، فيذيع صيتها ويرتقى خلال هذا وذاك الإنتاج الأدبي العربي[٣] .

ومما زاد من نمو الفكر الأدبي العربي في العراق في ذلك الوقت أن العراق قد أخذ يشق طريقه إلى المجالات الدولية منذ أن استعاد طريق العراق بين

---

(١) هم فى ذلك يتشبهون بخلفاء بغداد العظام . وقد كانت لبغداد قوة روحية طاغية تدفع حكامها الى العمل على استعادة مجدها ما استطاعو الى ذلك سبيلا .

(٢) انظر عبد العزيز نوار : داود باشا . دار الكاتب العربى . القاهرة ١٩٦٨ الفصل الثامن ..

(٣) أكب بعض العلماء على الأشعار والأعمال الأدبية فظهرت عدة دواوين وجدت طريقها الى المطابع المصرية ، ومن ذلك ديوان عبد الباقى العمرى المسمى « الترياق الفاروقى » .

الشرق والغرب بعض أهميته في العشرينات من القرن التاسع عشر ، خاصة عندما ازدادت أهمية العراق الدولية مع بداية التوسع المصرى في الشام (١٨٣١ — ١٨٤٠) ، وظهور المشروعات الملاحية البخارية الإنجليزية في أنهار العراق متمثلة في « بعثة الفرات » بقيادة فرانسيس راودن جسنى F. Rowden Chesney التى مهدت لجعل العراق قاعدة إنجليزية ضد التوسع المصرى في الشام وفي شبه الجزيرة العربية[١] .

إن مثل هذه الأحداث الكبرى كفيلة بأن تشحذ الأذهان وتطلق طاقات أدباء العراق وعلمائه ، وفعلاً ظهر عدد من الشعراء ملأوا الأسماع ببعض روائعهم ، حقيقة كان الشاعر عبد الغفار الأخرس يتكسب بشعره مادحاً الولاة والأثرياء[٢] . ولكن في نفس الوقت ظهرت اتجاهات وطنية في شعره وكذلك في نثر محمود الآلوسى . ويجدر بنا قبل أن نتعرض لهذه الإتجاهات الوطنية أن نلقى نظرة سريعة على نشأة وتاريخ حياة محمود الآلوسى الذى اشتهر بأبي الثناء .

ولد أبو الثناء محمود الآلوسى في ١٨٠٢ م / ١٢١٧ هـ ، وهو ينتسب إلى الشجرة النبوية الكريمة [٣] ، ومن بيت علم حيث كان أبوه من مدرسى بغداد المعروفين ، وقد تلقى على يديه الكثير من علوم الدين واللغة والأدب[٤]

(١) منذ أواخر العشرنيات من القـــرن التاسع عشر كان الانجليز يفاضلون بين طريقى البحر الأحمر ونهر الفرات من حيث استخدام البواخر فى أى منهما لانشاء خطوط ملاحية سريعة بين الشرق الأقصى وأوربا لتحل محل طريق رأس الرجاء الصالح الذى لم يعد قادرا على مواجهة متطلبات الانقلاب الصناعى الكبير فى انجلترا وأوربا من حيث سرعة نقل كميات هائلة من البضائع الى الشرق الأقصى بأرخص الأثمان ، وعندما استولت القوات المصرية على الشام وجد الانجليز أن من الخير لهم الاسراع فى تنفيذ مشروع خط بواخر الفرات لربط الشرق بالغرب بواسطته ، ولتمهيد الطريق أمام ارسال بواخر مسلحة الى العراق تكون قادرة على منع أى اتجاه عراقى نحو مصر أو اتجاه مصرى نحو العراق . انظر عبد العزيز نوار : المصالح البريطانية فى أنهار العراق . مكتبة الأنجلو القاهرة ١٩٦٨

(٢) انظر ديوانه « الطراز الأنفس » استانبول ١٣٠٤ هـ .

(٣) عبد الفتاح الشواف : حديقة الورود . جـ ١ : ورقة ١٤

(٤) محمود الآلوسى : غرائب الاغتراب ونزهة الألباب . بغداد ١٣٢٧ هـ ص ٥ — ٧

وقد تلقى العلم كذلك على عدد من المدرسين والعلماء ، وتحدث عن بعض هؤلاء حديثاً كشف لنا عن المتاعب التي كان يعاني منها طلاب العلم على يد المدرسين حينذاك ، فبعضهم كان يقول مالا يفهم ، ورغم هذا كان يسعى إلى أعلى المراتب ، وبيّن لنا كذلك كيف أن بعض علماء ومدرسى بغداد كان يستجدى بعلمه . ولكن كانت حرية الطالب في أن ينتقل من عالم إلى آخر ومن مدرسة إلى أخرى تخفف من حدة مثل هذه المشكلات[١] .

وكان من بين العلماء الذين درس عليهم أبو الثناء الآلوسى من لعب أدواراً خطيرة في تاريخ العراق . ونقصد بذلك الشيخ خالد النقشبندى ، وعلى أفندى السويدى . وكان الأول شيخ الطريقة النقشبندية ، وكان يسعى إلى تصفية الأحقاد بين الزعماء الأكراد وإلى توجيه قلوب الناس نحو حياة دينية أفضل . ولقد استطاع أن يكوّن لنفسه جماعة كبيرة من المريدين على مختلف المستويات . ويبدو أن السلطات العثمانية خشيت من النمو المطرد لعدد مريدى الشيخ خالد النقشبندى فعملت على مطاردته وتشريده[٢] .

أما على السويدى فكان مدبر أمر الوزير سليمان باشا الصغير الذى حكم العراق من ١٨٠٧ حتى ١٨١٠ ، وقد قام هذا الوزير بتمرد كبير ضد السلطان العثماني بتحريض من على أفندى السويدى وكانت خطورة هذه الحركة تكمن في أن على السويدى هذا كان ذا اتجاهات سلفية قوية ثورية ، حتى لقد قيل عنه أنه كان وهابياً ، وأنه استطاع أن يقنع الوزير سليمان الصغير بالفكرة الوهابية[٣] .

ولا شك أن تلقى محمود الآلوسى العلم على يد أمثال هؤلاء العلماء كان له تأثير كبير في التكوين السياسى لأبي الثناء الآلوسى . بل يمكن القول أن اتجاهات أبي الثناء الآلوسى السياسية امتداداً لاتجاهات بعض أساتذته[٤] .

---

(١) المرجع نفسه : ص ٦ ، ٩

(٢) غرائب الاغتراب : ص ١٧ — ١٨ ، كلاوديوس ج. ريج : رحلة ريج فى العراق ١٨٢٠ . ترجمة بهاء الدين نورى . بغداد ١٩٥١ ص : ٢٢٧ — ٢٢٨

(٣) جودت : تاريخ جودت . استانبول ١٢٩١ هـ . جـ ٨ : ص ٤٣ — ٤٤ ، ١٧٠ ، غرائب الاغتراب : ص ١٦

(٤) الملاحظ أن أبا الثناء الآلوسى لم يقتصر فى تحصيله العلم والمعرفة =

وبعد أن حصّل أبو الثناء من العلم والمعرفة مقداراً مناسباً ، فتح له أبوه مجال العمل بأن جعله محافظ كتب مدرسة الشهيد على باشا التى كان يقوم والده بالتدريس فيها . ولا شك أن الفترة التى قضاها أبو الثناء أميناً لمكتبة تلك المدرسة كانت فترة إعداد أخرى له فتحت له آفاقاً جديدة ومنحته فرصة واسعة للإستزادة من مختلف نواحى العلوم . وبعد ذلك بوقت قصير عينه داود باشا مدرساً في مدرسة الحاج أمين الباجهجى . فكان ذلك بداية لظهور أبي الثناء الآلوسى(١) .

وبمرور الوقت توثقت الصلة بين أبي الثناء الألوسى وداود باشا والى بغداد ، ولكن جاءت هذه الروابط الوطيدة بين الرجلين في وقت كان فيه السلطان العثماني محمود الثاني يعد حملة كبيرة لطرد داود من بغداد وللقضاء قضاء تاماً على المماليك . وفعلاً جرد السلطان العثماني جيشاً بقيادة « على رضا باشا » لتنفيذ تلك الأهداف . فاستعد داود باشا بجيشه المدرب لمقاومة جيش على رضا ، ووقف أبو الثناء الآلوسى إلى جانب داود في هذه الأزمة(٢) .

أن وقفة أبي الثناء الآلوسى هذه إلى جانب داود باشا الثائر على السلطان والخارج على طاعة خليفة المسلمين لاتعنى أن تلك الثورة كانت من أجل فصل العراق عن دولة الخلافة العثمانية . فتلك كانت وجهة نظر السلطان وبابه العالى في ثورة داود باشا . أما داود نفسه ومن معه من المماليك والعلماء من أمثال أبي الثناء الآلوسى فكانوا يرون أن داود هو الأكفأ لحكم العراق من غيره من « ولاة الخارج » الذين كان يبعث بهم السلطان العثماني لحكم ولايات الدولة العثمانية حكماً مركزياً . فالمماليك — من وجهة نظر أبي الثناء الآلوسى — أحق من غيرهم في حكم البلاد لأنهم كانوا يعيشون

=على مدرسى وعلماء بغداد فقط بل اتصل بعدد من كبار شيوخ وعلماء الشام فحصل على اجازة من الشيخ عبد الرحمن الكزبرى مفتى دمشق ، وكان الحصول على اجازة من هذا العالم الجليل أمر يفتخر به علماء ذلك العهد . انظر محمود الآلوسى : غرائب الاغتراب : ص ١٩

(١) المصدر نفسه : ص ٢١

(٢) عبد الفتاح الشواف : حديقة الورود . ج ١ : ورقة ١٢

بين أهل العراق وعلمائه ، ويعرفون أساليب حكم هذه البلاد ، بعكس الحال بالنسبة « لولاة الخارج » — من أمثال « على رضا » — الذين كانوا يفدون إلى العراق دون سابق معرفة به أو بأهله ، فلا يراعون مكانة علمائه ولا يدبرون أموره بمشورتهم. ولهذا « أبي » على حد تعبير مترجم حياة أبي الثناء الآلوسى « أن يطيعه جميع من في العراق وقامت الحرب فيما بين الطرفين . »[١]، علما بأنهم في نفس الوقت كانوا يعلنون الطاعة للسلطان العثماني وأنهم يدافعون فقط عن العراق ضد جيش على باشا رضا[٢] .

وأغلب الظن أن أبا الثناء الآلوسى وغيره من علماء العراق كانوا يعتقدون أن جيش المماليك — وكان قد أعدّ إعداداً حديثا ـ قادر على رد هجوم جيش على رضا . وكانت كل المقدمات توحي بأن داود سيخرج من المعركة المنتظرة منتصراً . ولكن حدث أن تفشى الطاعون في جيش داود فأباد غالبيته العظمى ، ثم انقض نهر دجله بفيضانه على بغداد ، فكان أن أجهز على المدينة ، ولم يجد داود من وسيلة أمامه سوى الاستسلام ، ودخل « على رضا باشا » في أعقاب ذلك المدينة ودبّر مذبحة مروعة لمماليك بغداد فقضى عليهم قضاء مبرماً[٣] .

كان طبيعياً أن يتوقع أبو الثناء الآلوسى عقاباً صارماً على يد الباشا المنتصر على رضا ، خاصة وأن منافسى وخصوم أبي الثناء كانوا قد وشوا به إلى الباشا الجديد « وأغلظوا قلب الوزير عليه »[٤] ، ولهذا اختفى أبو الثناء الألوسى عن الأنظار حتى تهدأ الأمور . « فجاور مختفياً في محلة الشيخ عبد القادر الكيلاني[٥] وظل على هذا الحال حتى عاد من الشام « عبد الغنى جميل[٦] » الذى كان من كبار رجالات بغداد والذى تولى منصب الإفتاء . وكانت تربطه بأبي الثناء الآلوسى أوثق الروابط ، ولذلك عزم أبو الثناء الآلوسى

(١) المصدر السابق : ورقة ١٢
(٢) سليمان فائق : تاريخ بغداد . مطبعة المعارف . بغداد — ١٩٦٢ ص ٨٢ ، ٨٩ ، ٩٠ .
(٣) المصدر السابق : ص ١١٤
(٤) عبد الفتاح الشواف : حديقة الورود . ج ١ : ورقة ١٢
(٥) المصدر نفسه .
(٦) كان عبد الغنى جميل قد غادر العراق الى الشام ليتجنب ويلات الحرب بين داود وعلى رضا وليتجنب كذلك أخطار الطاعون والفيضان .

على أن يلجأ إلى حماه ، ليدفع عنه انتقام على باشا رضا ، وليسعى في العفو عنه .

أقام أبو الثناء في بيت عبد الغنى جميل فترة من الزمان ، واستطاع بمعاونته أن يخرج مرة أخرى إلى مجالات الحياة العامة . ولكن الظروف قاسية ، والتقلبات كانت سريعة ، فلا يكاد أبو الثناء يجد طريقه إلى الحياة العامة حتى وقعت في بغداد ثورة كبيرة « ضد على باشا رضا » تزعمها عبد الغنى جميل مفتى بغداد . وكان السبب المباشر لتلك الثورة هو القسوة البالغة التى كان يعامل بها رجال « على رضا » نساء بغداد ، حيث كانوا يعذبوهن لإرغامهن على إبراز مالديهن من أموال مخبأة[1] . والواقع أن تعذيب النسوة لمن الأمور التى لاتقرها شهامة أى رجل ، فكان طبيعياً أن تثير مثل هذه الاعتداءات غير الإنسانية ثائرة مفتى بغداد عبد الغنى جميل لما عرف عنه من روح عربية أصيلة . ولكن كانت هناك أسباب أخرى هامة ساعدت على نشوب ثورة بغداد (١٨٣٢) ، ومنها أن انتقال الحكم من أيدى المماليك إلى أيدى الأتراك العثمانيين كان دموياً ، وبينما كان الناس يتوقعون من الحكم التركى الجديد أن يقدم الإعانات والإسعافات للمدينة المنكوبة إذا بهم يرون رجال الوالى الجديد يعملون على سلب كل قرش من جيوب أهل المدينة وبشكل وحشى .

ومما ساعد على نشوب ثورة بغداد أن السلطات المصرية بعثت برسائل إلى أهالى كبريات المدن العراقية تحثهم فيها على أن يأخذوا جانب القضية المصرية ضد السلطان العثماني[2]. ففى ١٨٣١ بدأت القوات المصرية زحفها إلى الشام وأحرزت عدة انتصارات كبيرة خلال ١٨٣١ ، ١٨٣٢ وعلى رأسها سقوط عكا في يد القوات المصرية .

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين . بغداد ١٩٥٥ : جـ ٧ : ص ١٥

(٢) Intelligence from Bagded Contained in Report from Wood, August 2, 1832, F. O. 78/210.

والواقع ، لم تكن بغداد هى الثائرة وحدها ضد « على باشا رضا » ، فلقد ألهب سقوط عكا حماس كثير من القوى الوطنية العراقية للعمل ضد الأتراك العثمانيين ،[١] فلقد أعلنت الموصل انضمامها إلى المصريين[٢] ، وظهر في البصرة حزب عربي قوى يعمل ضد على رضا [٣]، وأعلن صنوق - شيخ عشائر شمر الجربا التى كانت أقوى عشائر العراق البدوية - انضمامها إلى جانب الثوار في بغداد ، وكان مستعداً للتعاون مع القوات المصرية إلى حدود بعيدة[٤] . كما قيل أن أمير راوندور « محمد باشا ميركور » - الذى كاد أن يسيطر على معظم كردستان - كان مستعداً للهبوط على بغداد متعاوناً مع القيادة المصرية في الشام[٥]. وهكذا كان عام ١٨٣٢ أخطر عام مر بالوالى الجديد « على باشا رضا » حيث أن معظم العراق بدا وكأنه قد خرج عن طاعته ولكن الرجل كان – رغم كل هذا – قادراً على مواجهة تلك الأزمات الطاحنة . فقد ركز جهده أولاً في إخماد ثورة بغداد حتى يتفرغ لبقية القوى المناهضة له . ولقد استطاع فعلاً أن يخمد الثورة فيها بعد أن أصلاها بوابل من قنابل مدافعه . واضطر عبد الغنى جميل في نهاية الأمر إلى أن يغادر العراق[٦]

كان الدور الذى لعبه أبو الثناء الآلوسى خلال تلك الثورة خطيراً ، حيث أنه تزعم ثورة الكرخ ، فلما باءت الثورة بالفشل أضحى مركزه غاية في

(١) Taylor to Political Department July 25, 1832 No. 55.
(India Office Records, Factory Records, Persia and Pessian Gul. vol. 49. pp. 207).

(٢) محفظة ٢١٣ عابدين وثيقة ٢٣٩ فى ٩ جمادى الأولى ١٢٤٨ هـ – ٤ أكتوبر ١٨٣٢

Taylor to Secret Committe. August 15, 1832 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gul. vol. 49 pp. 212.

(٣) Ibid., Vol. 49 pp. 207, 253, 303-305.

(٤) محفظة ٢٣٩ عابدين وثيقة ٩ فى جمادى الأولى ١٢٤٨هـ – ٤ اكتوبر ١٨٣٢ م .

Taylor to Secret Committee. October 26, 1833 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf. vol. 49, pp. 785-792) ; Taylor to Political Department. July 22, 1835. (Ibid. p. 541-543).

(٥) على سيدو الكورانى : من عمان الى العمادية . أو جولة فى كردستان الجنوبية . مطبعة السعادة . القاهرة ١٩٣٩ : ص ١٣٢ – ١٣٣

(٦) Intelligence from Bagdad Contained in Report from Wood. August 2, 1832. F. O. 78/210.

وانظر عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : جـ ٧ : ص ١٤–١٥

الحروجة ، حيث نسب إليه أعداؤه « ما هو أعظم من الأول »(١) حتى لقد قيل أن الوزير « عزم على قتله (٢) » . وظل أبو الثناء مدة ليست بالقصيرة تحت سيف الانتقام حتى شفع له عدد من شيوخ الطريقة النقشبندية لدى« على باشا رضا » فقبل شفاعتهم ، والملاحظ بصفة عامة أن « على رضا » كان خفيف الوطأة على العلماء والأدباء الذين ثاروا عليه ، وكان يبذل جهده من أجل استرضائهم وجمعهم حوله ، وكسب تأييدهم له : فلقد كان « على رضا » في حاجة ماسة إلى تأييد هؤلاء العلماء والأدباء لمواجهة الأزمات الداخلية المتتالية وللصمود أمام تيار الانتصارات المصرية القوية التى هزت ثقة الناس في جيوش السلطان العثماني . وهذا يفسر لنا عدم مطاردته لأبي الثناء إلا لفترة قصيرة عاد بعدها إلى مجالات الحياة العادية . واستطاع بذلك أن يصبح واعظاً في « الحضرة القادرية »

وفي ليلة من ليالى شهر رمضان ، كان أبو الثناء الآلوسى يقوم بالوعظ في « الحضرة القادرية » وتصادف أن جاءها الوزير على رضا باشا واستمع إليه فشغف بوعظه ، وأسف على ما أصاب الرجل من اضطهادات ، « فوصله بعطيته وبجائزة سنية .... وارجع إليه جميع وظائفه ... وأمره ألا ينقطع عن حضرته العلية .... وأن يشرح البرهان في طاعة السلطان »(٣).

لقد قدّر « على رضا » قيمة أبي الثناء الآلوسى في خدمة مصالح السلطان العثماني في تلك الظروف الحرجة التى تحتاج إلى رجل علم يستطيع أن يثبّت قلوب الناس على الولاء للسلطان . وقرّ رأى على رضا على أن يستغل علم وذكاء أبي الثناء الآلوسى في تنفيذ أهدافه في العراق وخارج العراق ، وخاصة في مقاومة تيار التوسع المصرى . ولا شك أن تكليف « على رضا » لأبي الثناء الآلوسى « بشرح البرهان في طاعة السلطان » في تلك الظروف كان جزءاً

---

(١) عبد الفتاح الشواف : حديقة الورود : جـ ١ : ورقة ١٣
(٢) المرجع نفسه :
(٣) المرجع نفسه : جـ ١ : ورقة ١٢

من مخطط عام وضعه « على رضا » لجعل العراق قاعدة فكرية وعسكرية تعمل ضد التوسع المصرى في المشرق العربي (١) .

والملاحظ أن أبا الثناء الآلوسى لم يقم فقط بشرح البرهان في طاعة السلطان بل تولى كذلك تحرير رسائل تدعو الشريف محمد بن عون — حاكم مكة المكرمة — إلى نصرة الدولة العلية العثمانية ضد مصر (٢) . كما شن أبو الثناء هجوماً شديداً على « محمد على » والى مصر بسبب ما أقدم عليه الأخير من استيلاء بالقوة على ولايات الشام التابعة للسلطان (٣) ومن إعمال السيف في جيوش الدولة . وهنا يقول أبو الثناء الآلوسى ، إن للسلطان في مثل هذه الظروف أن يترك قتال الكفار والجهاد في سبيل الله إلى إخماد تلك الفتنة على أساس أن بعض العلماء يرى « أن قتال البغاة أفضل من جهاد الكفار (٤) » .

وهنا نلاحظ أن أبا الثناء الذى أيّد ثورة داود المسلحة ضد جيش السلطان وثورة عبد الغنى جميل ضد على باشا رضا يقف موقف العداء الشديد من حركة محمد على باشا ، تلك الحركة التى وصفها أبو الثناء الآلوسى بأنها بمثابة « الفصل بين الشجر ولحائه . » (٥) هذا مع العلم بأن الفارق الزمنى بين ثورة داود باشا وثورة محمد على باشا لايزيد على العام الواحد . فما هو السر وراء اختلاف موقف أبي الثناء من كل من الثورتين ؟

الواقع أن أبا الثناء الآلوسى حين وقف إلى جانب داود كان ذلك لأنه كان يدافع عن قضية واضحة أمامه ويؤمن بعدالتها ، وكان داود من ناحية أخرى يقف موقف المدافع إزاء هجوم جيش السلطان عليه ، أما محمد على فكان هو الذى هاجم ولايات الشام . هذا إلى أن أهداف حكومة مصر في أن تتوسع في الشام وشبه الجزيرة العربية لم تكن واضحة في أذهان أهل

---

(١) تجدر الاشارة هنا الي أن الانجليز فى نفس الوقت كانوا يفكرون فى نفس الاتجاه وهو جعل العراق قوة معاكسة للحركة المصرية انظر :
Canning to Campbell : August 2, 1832. No. 60.
Enclosure of a letter from Canning to Palmerston F. O. 78/211.

(٢) حديقة الورود : جـ ٢ : ص ١٧١

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق : جـ ٢ : ص ١٧١ — ١٧٢

(٥) المصدر السابق .

العراق إن لم تكن مشوشة . ثم إن خبرات أبي الثناء خلال الفترة القصيرة التي سبقت الزحف المصرى على الشام كانت معظمها تؤكد أن جيش السلطان هو الذى ينتصر في النهاية ، فلقد رأى بعيني رأسه كيف تلاشي جيش داود في أيام معدودات (١٨٣١) ، وكيف انهالت القنابل على بغداد عندما ثارت (١٨٣٢) وخرج من كل هذا أن جيش السلطان العثماني وخليفة المسلمين لاشك هو المنتصر على جيش مصر إن آجلاً أو عاجلاً .

لقد أدى هذا التفاهم الكبير بين أبي الثناء الآلوسى وعلى باشا رضا إلى أن يخدم كل منهما الآخر خدمات جليلة . فبينما كان الآلوسى قد جنّد قلمه وعلمه لخدمة مصالح السلطان العثماني كان على رضا يمنحه المراتب والمناصب بسخاء . فقد ولاه على رضا أوقاف مدرسة مرجان ، وهى مشروطة لأعلم أهل بغداد ، وجلب له رتبة (تدريس الآستانه) من السلطان ، ثم نصبه مفتياً للحنفية[1] . (١٢٤٩ هـ — ١٨٣٣) .

ويجب أن نؤكد هنا أن تفوق أبي الثناء الألوسى في مجالات العلوم الدينية هو الذى رفع مكانته بين جماعات العلماء من أقرانه ، وكان قيامه بتفسير القرآن الكريم من العوامل الرئيسية التى أسهمت في ارتفاع نجمه . وكان خلال قيامه بتفسير القرآن الكريم — الذى عرف باسم « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني[2] » يبعث بكل جزء ينتهى منه إلى السلطان العثماني ، فكان يحصل هو من وراء ذلك على تقدير السلطان ومكافأته له ، وحصل من وراء ذلك على نيشان ، كل أول نيشان منحه السلطان العثماني لعربي من العراق . كذلك منحه السلطان قضاء أزمير[3] .

ثم حدث أن وردت إلى أبي الثناء الآلوسى بعض الأسئلة الدينية العويصة التى كتبها بعض علماء إيران من الشيعة . وكان في إيران حينذاك اتجاه عام

---

(١) محمد بهجت الأثرى : اعلام العراق . المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٥ هـ : ص ٢٣
وانظر كذلك حديقة الورود : جـ ١ : ورقة ١٥
(٢) طبع فى القاهرة مرتين وهو فىعدة أجزاء من كتب التفسير الهامة .
(٣) حديقة الورود : جـ ١ : ورقة ٧٦ ؛ غرائب الاغتراب : ص ٢٤

بأن العراق بعد نكبات الحرب والفيضان والطاعون والثورة أضحى خلواً من العلماء والمدرسين والشيوخ . ولكى يتأكد علماء إيران من حقيقة الوضع في العراق بعثوا بأسئلة دينية عويصة لامتحان علماء العراق بها لمعرفة مدى جهدهم وعلمهم . وعرض أبو الثناء الآلوسى هذه الأسئلة على علماء بغداد فلم يستطع واحد منهم أن يقوم بالرد عليها رداً حاسماً ، فتصدى لها أبو الثناء الآلوسى وبعث إلى علماء إيران بردود مفحمة ، لقيت استحسان أهل العراق، والسلطات العثمانية الحاكمة في بغداد وفي الآستانة[١] .

ومع أن رده أفحم علماء الشيعة في إيران فإن علاقاته مع علماء الشيعة في العراق كانت وطيدة وقوية ، ومن ذلك أن العالم الشيعى المعروف كاظم الرشتى كان من أصدق أصدقائه . وكان كاظم الرشتى يؤسس حينذاك فرقة جديدة شيعية عرفت باسم (الكشفية) ، وقيل عنه أنه كان يتوقع ظهور المهدى « المنتظر » ، ويبدوأن اتباع الحركة البابية انتهزوا هذه التوقعات التى كانت لدى كاظم الرشتى وأتباعه من الكشفية ، وصرحوا بأن كاظم الرشتى هو الذى بشر بقرب ظهور « الباب» على محمد[٢] . ومن ناحية أخرى كان محمود الآلوسى معتدلاً عند التعرض للاتجاهات الشيعية ، بل كان يبدى تعاطفاً واضحاً نحو الأئمة الإثنى عشر وهذا واضح في شرحه لقصيدة عبد الباقي العمرى التى عرفت باسم « الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب ».

ولقد كان طابع الاعتدال من صفاته عندما يتعرض للمذاهب والأديان ، ففى الوقت الذى كان فيه عطوفاً على أفكار الشيعة الإمامية ، كان متمسكاً

(١) حديقة الورود : جـ ١ : ورقة ٤٦

(٢) مؤسس الحركة البابية ، وعن كاظم الرشتى والكشفية انظر عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٧ : ص ٦٥ — ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٢ — ٧٥ . وقد توفى كاظم الرشتى فى ١٢٥٩ هـ — ١٨٤٤ وانظر عنه فى :
J. Lorimen : Gazetteer of the Persian Gulf. Superintendent Government Printing India. 1915. Vol. I, Part I, pp. 1349-1351. Extract of a letter to Her Majeaty's Envoy at Tehran. Bagdad. January 17, 1843. (India Office Records, Political and Secret Department Records, letters from Agent at Bagdad. Vol. 13, pp. 127-128).

بأفكار سلفية واضحة . ولكنها ليست متطرفة مثل أفكار الوهابيين ، فلقد برأ أستاذه على أفندى السويدى من أن يكون قد « اسودّ قلبه بعقائد جهلة الوهابية وإنما عقده على العقائد السلفية الأحمدية[١] » .

وأغلب الظن أن أبا الثناء الآلوسى كان يهدف إلى تحقيق مشروع كبير هو توحيد قلوب أهل العراق خاصة والمسلمين عامة ، سنتهم وشيعتهم ، وفض الخلافات بينهم عن طريق التقريب بين المذاهب ، ولعله أراد أن يجعل من نفسه نموذجاً لهذه المحاولة ، ولعل هذا يفسر لنا اتجاهاته في بعض الأحيان نحو المفاهيم الشيعية مع تمسكه بالسلفية ، ويفسر لنا اعتداله إزاء الحركة البابية .

فلقد كانت للحركة البهائية والبابية ضجة كبرى في كل من إيران والعراق خاصة في الأربعينات من القرن التاسع عشر ، ولقد بعث على محمد (الباب) برسالة إلى أبي الثناء يدعوه فيها إلى الإيمان به[٢] . ولقد كان «الباب» يدرك أنه لوكسب إلى جانبه أبا الثناء الآلوسى لحصل على تأييد معظم أهل العراق له .

حقيقة لم نعثر على رد من جانب أبي الثناء الآلوسى يفند به معتقدات «الباب» وأتباعه ، وأنه تعرض في اعتدال إلى تلك المعتقدات حين كتب عن قرة العين الداعية البابية[٣] . ولكن يبدو أنه أعطى لخصومه سلاحاً قوياً لمحاربته به عندما أفسح مكاناً لكاظم الرشتي في مقدمة كتابه « روح المعاني» ليكتب فيه تقريظاً كان بأسلوب الفكر الشيعي بله الفكر البابي[٤] .

وجاء هذا كله في وقت كانت فيه الظروف مواتية لأعداد أبي الثناء الآلوسى للوشاية به لدى المسئولين العثمانيين سواء في بغداد أو في الآستانة . فلقد كثر

---

(١) غرائب الاغتراب : ص ١٦

(٢) محمد مهدى : مفتاح باب الأبواب : مصر ١٩٢٢ : ص ٣٠٢ — ٣٠٨

(٣) عبد الحسين اداراه : الكواكب الدرية فى مآثر البهائية . ترجمه من الفارسية الى العربية أحمد فائق . ج ١ : ص ١١٥

(٤) انظر مقدمة روح المعانى : ج ١ : ص ٧ — ٨

حساده بسبب ما حصل عليه من مكانة وشهرة ، ثم إن شعبية أبي الثناء الآلوسي وسيطه كان قد بلغ درجة كبيرة أثارت مخاوف السلطات العثمانية منه . وكان من عادة السلطات التركية العثمانية الحاكمة أن تمنع من ظهور زعامات دينية أو سياسية يمكن أن تشكل يوماً ما جبهة داخلية قوية تستطيع أن تنادد السلطات العثمانية . ولقد كانت للحكومة العثمانية خبرات طويلة ومريرة مع رجال الدين الذين أثاروا أزمات طاحنة في وجه الدولة العثمانية . وما ترتب عن الحركة الوهابية ليس ببعيد . هذا إلى أن سياسة الحكومة العثمانية — بعد أزمة التوسع المصرى في المشرق العربي — اتجهت إلى إحلال البيروقراطية التركية محل نظم الحكم القديمة التى كانت تعتمد إلى حد كبير على تعاون العلماء والأدباء مع الوالى . أو بمعنى آخر أن الحكم البيروقراطى التركى الجديد لم يكن في مسيس الحاجة إلى أولئك العلماء والأدباء ، ومن ثم كان ارتفاع نجم أبي الثناء الآلوسي في العراق وخارجه على غير هوى السلطات العثمانية . وهكذا كانت كل الظروف مهيأة لأن يوجه محمد نجيب باشا والى العراق الجديد (١٨٤٢— ١٨٤٧) ضربات متتالية لأبي الثناء الآلوسي .

والملاحظ أن محمد نجيب باشا هذا جاء إلى العراق لينفذ سياسة الباب العالى الهادفة إلى تقوية قبضة الأتراك العثمانيين على مختلف ولايات الدولة والقضاء على الزعامات المحلية التى تهدد الوجود العثماني في المنطقة . ولقد نفذ نجيب باشا هذا سلسلة من مؤامرات الاغتيال لعدد من زعماء العراق من عرب وأكراد . فلقد دبر مؤامرة أدت إلى مصرع صفوق شيخ عشائر شمر[١] ودبر أخرى أدت إلى مصرع سليمان الغنام شيخ عشيرة العقيل[٢] ، وانقض على كربلاء[٣] انقضاضاً دموياً وطارد اتباع « الباب » في العراق[٤] .

---

(١) H. Ross : Letters from the East (Eduted by his Wife) London 1902 pp. 49-50.

(٢) Taylor to Secret Committee : November 24, -842 F. O. 195/204 & Political and Secret Department Records, Letters from the Political Agent at Bagdad .Vol. 13 pp. 115-117.

(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : جـ ٧ : ص ٦٤ وما بعدها .

(٤) المرجع نفسه : ص ٧٢ وما بعدها .

كان أبو الثناء الآلوسى من أولئك الذين عدّهم محمد نجيب باشا خطراً على الحكم العثماني في العراق . فناصبه العداء منذ البداية ، فكان طبيعياً أن ينتهز أعداء ومنافسو أبي الثناء الآلوسى هذه الفرصة لإبعاده عن مناصب ورواتب يطمعون هم فيها . فاتهموا أبا الثناء الآلوسى بأنه يدّبر « فتنة خرقاء »[١] . وكان مثل هذا القول كفيل بأن يثير والى بغداد نجيب باشا الذى كان مستعداً لأن يستمع إلى مثل هذه الوشايات في أبي الثناء الآلوسى . هذا إلى أن ذلك الاتهام لرجل في مكانة الآلوسى كفيل بأن يشغل بال الحكام . وكان أمام نجيب باشا أمراً من اثنين :

١ ـ أما أن يحدّ من نشاط أبي الثناء قليلاً وفي هدوء حتى لا تثار أزمة .

٢ ـ وإما أن يوجه إليه ضربات قاسيات تقضى على مكانته .

ولقد اختار نجيب باشا الطريق القاسى الثاني . وأغلب الظن أن الذى شجع نجيب باشا على ذلك أن أبا الثناء الآلوسى لم تكن له عصبية قوية تذود عنه عند الشدائد ، فإن سياسة الاعتدال التى سلكها أبو الثناء الآلوسى كانت تكسبه تقدير عقلاء القوم وكبرائهم ، ولكنها لا تمكنه من تشكيل جبهة داخلية تقف وراءه . ولهذا كان الأمر أمام نجيب باشا سهلاً ميسراً . فبدأ بآن عزله من منصب الإفتاء ، وتم ذلك دون ضجة ما ، بل أن أبا الثناء الآلوسى نفسه رحب بتخليه عن ذلك المنصب حتى يتفرغ لإتمام تفسيره الكبير « روح المعاني »[٢] . ولكن محمد نجيب لم يكتف بتلك الخطوة وإنما أصر على التضييق على أبي الثناء الآلوسى إلى أقصى درجة ممكنة . فجرده من جميع وظائفه وأبعده عن جميع الأوقاف التى كانت تحت إدارته والتى كانت تدرّ عليه دخلاً وفيراً ، بل سلبه من الموارد التى يمكن أن تكفل له قوته وقوت أسرته اليومى . ويصف لنا أبو الثناء شدة العوز الذى وقع فريسة له قائلاً :

---

(١) محمد مهدى البصير : نهضة العراق الأدبية فى القرن التاسع عشر . مطبعة المعارف ـ بغداد : ص ٢٢٣

(٢) غرائب الاغتراب : ص ٢٤

« فأسبل علىّ بذلك سجف الأحزان وقطع منى بشفرة إعراضه نياط قلبي فصرت عنيئة أثاثي وفويرة كتبي حتى كدت آكل الحصير وأشرب عليه مداد التفسير »[١] .

ونلاحظ أن أبا الثناء الآلوسى — رغم مؤلفاته المتعددة — لم يتعرض بالإسهاب للأسباب التى أدت إلى وقوعه في تلك الأزمة الطاحنة ، وكان إذا تحدث عن تلك الأزمة اتخذ طريق الإبهام والرمز ، وأغلب الظن أنه ما لجأ إلى الإبهام والرمز إلا لخشيته من بطش رجال الدولة العثمانية به ، أو لعله كان يخشى من أن يستغل أعداؤه الموضوع إن عرفت تفاصيله . فلقد كان أعداء أبي الثناء الآلوسي يتسقطون له الهفوات . وكل ما ذكره أبو الثناء الآلوسى عن أسباب اضطهاد السلطات العثمانية الحاكمة له قوله أنهم اتهموه بالربوبية[٢] والملاحظ أن أبا الثناء الآلوسى نفسه اتهم علماء ومدرسى الآستانة بنفس هذه التهمة[٣] . ويبدو أن بعض مدرسى الآستانة وعدد من علماء بغداد حاولوا استخدام أسلوبه في تفسير القرآن الكريم وسيلة للنيل منه[٤] . وأيا كان الأمر فقد كانت التهم الموجهة إلى أبي الثناء الآلوسى من الخطورة لدرجة أنه وجد أن من الخير له عدم ذكرها بالمرة[٥] .

وخلال تلك الأزمة الطاحنة التى كان يعاني منها أبو الثناء ، وردت إليه من الآستانة دعوة لحضور حفل أقامه السلطان العثماني عبد المجيد بمناسبة ختان ولديه . ويفهم من هذا أن سلطات الباب العالى لم تكن على علم بما وقع بين والى بغداد ومفتيها . والحق أنه في تلك الأيام كانت سلطات الولاة لاتزال واسعة ، فيستطيع الوالى أن يعزل مفتى مدينة كبيرة كبغداد دون الحصول على موافقة مسبقة من الباب العالى . ولكن وجد نجيب باشا في وصول هذه الدعوة إلى أبي الثناء الآلوسي صورة من صور التشريف له . أو بمعنى آخر أن السلطان العثماني يكرِّم أبا الثناء الآلوسى في الوقت الذى يخفض فيه والى

---

(١) المرجع نفسه : ص ٢٤ — ٢٥
(٢) غرائب الاغتراب : ص ٤٤٠
(٣) غرائب الاغتراب : ص ١٧٣
(٤) المصدر نفسه : ص ١٦٨
(٥) المصدر نفسه : ص ٤٤٠

العراق نجيب باشا من قدره ، ومن ثم رأى نجيب باشا أنه لابد من منع أبي الثناء الآلوسي من السفر إلى الآستانة بوسيلة أو بأخرى .

أوعز نجيب باشا إلى أبي الثناء أن يعتذر عن السفر إلى الآستانة بحجة « بعد الدار مع الاشتغال بالتفسير والقيام بمصالح الوزير »(١) وهدد نجيب باشا أبا الثناء بالبطش به إن لم ينفذ رغبته هذه . ولم يكن في وسع أبي الثناء الآلوسي أن يقاوم هذا الاضطهاد حيث لم تكن لديه القدرة على ذلك فضلا عما عرف به ذلك الوزير من شدة بطش .

آثر أبو الثناء أن يكتب رسالة اعتذار إلى المسئولين في الآستانة ، وبعد أن دبجها سلمها إلى محمد نجيب باشا ليقوم هذا بدوره برفعها إلى الباب العالى حسب القواعد المتعارف عليها حينذاك . وما أن وقعت هذه الرسالة في يد نجيب باشا حتى تحولت إلى سلاح جديد ضد أبي الثناء الآلوسي . فقد بعث محمد نجيب باشا بتلك الرسالة إلى الباب العالى بواسطة « الباليوز الإفرنساوى(٢) »

لقد كان معروفاً في ذلك الوقت أن القناصل الأجانب يعملون على تقويض الدولة العثمانية عن طريق تشجيع الجماعات المعادية للحكم العثماني ، ولهذا كان معنى إرسال تلك المكاتبة على يد القنصل الفرنسي أن أبا الثناء متصل بالقناصل الأجانب متعامل معهم وبالتالى يمكن القول عنه أنه يعمل ضد الدولة العثمانية والسلطان العثماني .

ولقد كانت المؤامرة محبوكة فقد أصابت أبا الثناء في الصميم وغيرت عليه قلوب السلطات العثمانية في الآستانة ، وضاقت الحلقة على أبي الثناء الآلوسي ولم يعد قادراً على أن يعيش مرتاح البال بسبب غضبة السلطات الحاكمة عليه وبسبب الفقر المدقع الذى كان يعانيه . وفكر أبو الثناء الآلوسي في طريقة يخلص بها نفسه من هذه الأزمة ويبرىء ساحته أمام المسئولين ، ووجد أن من الخير له أن يذهب بنفسه إلى الآستانة ليعرض هناك قضية وليقدم في نفس الوقت إلى السلطان العثماني موسوعته الكبرى « روح المعاني »

(١) المصدر نفسه : ص ٢٥
(٢) المصدر نفسه : ص ٢٥ والباليوز هو القنصل .

التى قضى عدة سنوات في تأليفها . فشد الرحال إلى الآستانة في أواخر حكم نجيب في بغداد(١) .

بعد أن استقر أبو الثناء في الآستانة حاول أن يقابل كبار المسئولين وأن يتشرف بمقابلة السلطان العثماني ، ولكن كانت معظم مقابلاته واجتماعاته بشيخ الإسلام عارف حكمت الذى أكرم وفادته وطيب خاطره ، ولكن شيخ الإسلام كان يرى أن أبا الثناء الآلوسى لم يعد جديراً — من وجهة نظر الحكومة العثمانية — بمنصب الإفتاء فلم يفكر في إعادته إلى ذلك المنصب وعرض عليه واحداً من ثلاثة :

١ — أن يبقى في الآستانة فيحصل على معاش مناسب .

٢ — أن يحصل على منصب قاضى أرضروم وينال من وراء ذلك ثلاثين ألف قرش رومية .

٣ — أن يعود إلى بغداد على أن يحصل على نصف وقف مرجان فقط .

وكان طبيعياً أن يرفض أبو الثناء الآلوسى فكرة الإقامة في الآستانة ، فهو بذلك سيضيع في زحمة مدرسى وعلماء الآستانة من الأتراك الذين لن يتركوا له فرصة أخرى للظهور والتفوق ، ومعنى هذا أنه سيصبح كمن يعيش في قفص من ذهب في الآستانة . هذا إلى أن حنين أبي الثناء للعراق كان قوياً جداً ولم يكن يستطيع أن يفارقه إلا لفترات محدودة جداً ، حتى ولو كانت حياته في العراق أشد عليه من حياته خارجه . وكان الرجل يفضل أن يحصل على وقف بكامله دون أن يشاركه فيه أحد حتى لا تثار حوله الأزمات . ولكن المسئولين في الآستانة أبوا أن يحققوا رغبته فقبل قضاء أرضروم على مضض(٢)

وخلال وجوده في الآستانة تكشفت لنا كوامن عواطفه الوطنية العربية نتيجة لأنه لمس عن قرب مدى ما كان في قلوب علماء وأدباء ومدرسى

(١) الف ابو الثناء كتابين عن رحلة الذهاب الى الآستانة والاياب منها هما نشوة الشمول فى السفر الى استانبول بغداد ١٢٩١ هـ . ونشوة المرام فى العود من مدينة السلام . بغداد ١٢٩٣ هـ .

(٢) غرائب الاغتراب : ١٢٧ — ١٢٨ ، ١٣١ — ١٣٢

الآستانة من كراهية دفينة للعرب بصفة عامة ، فهو يقول عن مدرسى الآستانة أنهم :

« في غاية الإستكبار والأنانية ، ولولا خوف قطع وظائفهم لأعلنوا بدعوى الربوبية ... وقد استمعت كثيراً منهم فرأيت سدا وعظهم ولحمته هذيان ، وعلى ذلك تجمع لهم الدراهم »(١) ويقول رأيت معظم مشايخ إسلامبول يبيعون المنصب للمعزول »(٢) ويقول « وعلماء القسطنطينية أجهل الناس بالفنون الأدبية ... وأما الشعر العربي فطريقه بينهم بالكلية غير مسلوك ولا بدع فالعربي بين الترك من قديم متروك ... »(٣) .

وقد أبدى أبو الثناء الآلوسى تألمه من أن أولئك العلماء الأتراك — الذين لا يقفون على نفس المستوى العلمى للعلماء العرب — يتمتعون بالمرتبات العالية. ويبدو أن هؤلاء العلماء الأتراك عملوا على أن يحتكروا لأنفسهم المناصب والمرتبات بحيث لا يشاركهم فيها بقية علماء الدولة ، وبوجه خاص العرب . ويرى الآلوسى أن مجرد كون العالم عربي كفيل بأن يجلب على نفسه نقمة علماء الآستانة من الأتراك فيقول في هذا الصدد :

« إنهم لم يزالوا يجمعون حجر الباطل ويرمون به بريأ ، ويبغضون لا در درهم كل من يرد على بلدهم من الأفاضل ولو كان نبياً ، وإن رؤية العالم العربي في أعينهم الموت الأحمر ، وان صحبته ولو مقدار ذرة في اعتقادهم الذنب الأكبر والشرك الذى لا يغفر ... فلا تقرب مأواهم ... وابعد عنهم ما استطعت ، وإياك وإياهم ، وعليك إن أردت مصاحبة بمصاحبة الدوام ، فإنك تقوم وتقعد معهم في أمان الله عز وجل والسلام »(٤) .

---

(١) المصدر السابق : ١٧٣
(٢) المصدر السابق : ١٨٨
(٣) المصدر نفسه : ٣١٣
(٤) المصدر نفسه : ١٦٩

إن النقد الشديد من جانب أبي الثناء الآلوسى لعلماء ومدرسى الآستانة من الأتراك ، والمؤامرات التى حاكها المدرسون الأتراك له في الآستانة ، هى في اعتقادنا الإرهاصات الأولى للصدام الفكرى بين العرب والترك . فلقد كان أساس وجود العرب في الدولة العثمانية هو المشاركة على قدم المساواة مع الأتراك في هذه الدولة الإسلامية القائمة على أساس الذود عن حياض المسلمين . ولكن في القرن التاسع عشر فقد العثمانيون قدرتهم على الحفاظ على أجزاء هامة من الوطن العربي في وجه العدوان الإستعمارى الأوربي . كذلك عجزت قوات السلطان العثماني عن الصمود أمام جيش مصر ولم تقف القوات العثمانية أمام القوات المصرية إلا بمساعدة القوى الأوربية الكبرى ، ورغم كل هذا أصبح واضحاً أن الأتراك أصبحوا أكثر احتكاراً لمناصب الحكم والإدارة ، وزاد الأتراك في منع العرب من الوصول إلى المناصب العليا .

تجلت تلك الروح العربية المعادية للترك في المراسلات المتبادلة بين كل من أبي الثناء الآلوسى وعبد الغفار الأخرس وعبد الغنى جميل . فأثناء وجود أبي الثناء الآلوسى في الآستانة جاءته من بغداد أنباء أثارت فيه كوامن الهموم . وعندما أراد أبو الثناء أن يعبر عما كان يجيش في نفسه لجأ إلى الشعر رغم أنه لم يكن متضلعاً في النظم . ولقد صرح هو بذلك حيث أشار إلى أن قصيدته التى أولها (١) :

أبيت ولى وجد حرارته تعلو ... ودمع له في عارضى عارض هطل

قليل منها من عنده وأكثرها من شعر جده . وسواء أكانت الأبيات — التى سنستشهد بها على اتجاهاته الوطنية العربية من نظمه هو أو من نظم جده فإنها على أى حال تعبر عن وجهة نظره .

جاء في تلك القصيدة سالفة الذكر عدة أبيات تكشف عن دعوته إلى اليقظة العربية بوضوح فيقول في بغداد :

فهل روضها يخضر بعد ذبولها ... ويهمى على أوراقها الوبل والطل
وهل أنا في يوم العروبة قاصد ... لحضرة باز شأنه الفصل والوصل

---

(١) غرائب الاغتراب : ٢١٠

وعندما وصلت هذه القصيدة إلى العراق تناولها عبد الغني جميل بكل جوارحه ، حيث أنها أثارت فيه روح العروبة حين قام بالرد على تلك القصيدة بقصيدة مليئة بالبكاء على بغداد التي اقفرت من أهلها والتي ساد فيها من ليس منها[١] . إلا أن عبد الغفار الأخرس في تخميسه لشعر عبد الغني جميل كان أكثر وضوحاً من حيث الكشف عن تلك التيارات الوطنية العربية . وكان الأخرس في الحقيقة يعبر لا عما كان يجيش في صدره فقط بل كذلك عما كان يعتمل في صدر كل من عبد الغني جميل وأبي الثناء الآلوسى . وقد ردد في شعره الإشارة إلى (معد) ،و (يعرب) ، و (عامر) ، وهو خلال ذلك يمجد شجاعة العرب في الحرب مذكراً بأيامهم البطولية الأولى ، ونجده في نفس الوقت حزيناً كل الحزن لأنه مضطر إلى أن يعيش تحت حكم جيل (يافث) ، والمعروف أن يافث كان أبو الترك والعجم بصفة عامة[٢] .

---

(١) يقول عبد الغنى جميل فى ذلك :

لهفى على بغداد من بلدة   قد عشعش العز بها ثم طار
. . . .
واليوم قد حل بهـا من ترى   فانفـر والا بيـديك الخيـار
. . . .
والكرخ قد اقفـر من اهـله   من بعد ما كانوا كورد النهـار
. . . .
أيا شهاب الدين يا سـيدى   قد هجم النـذل علينـا وغار
. . . .
بغـدادكم اخنى عليهـا الذى   من أسره لا يسـتطاع الفرار

وقوله :

الا مبلغ عنى سراة بنى الوغى   واقيال عرب كيف صبرهم عنا

وقوله :

فأين سراة بنى هاشم   ومن لعظـام الأعادى هشـم

(٢) جاء فى أشعار الأخرس ما يؤكد تلك الاتجاهات الوطنية العربية ومنها قوله :

فكيف بها أن سادها غير جنسها   ويسطو على آسادها ابن عرسها
ويرقى على هام السـماك ضئيلها
. . . .

إن هذه الدعوات الصريحة إلى حث أقيال العرب على النهوض في وجه جيل يافث رد فعل طبيعي لاحتكار الأتراك لمجالات التفوق في الحكم والإدارة والأدب . حقيقة لا ترقى تلك الإتجاهات إلى فكرة الإستقلال الكامل عن الدولة العثمانية حفاظاً على وحدة دولة الخلافة . ولكن أفاد العرب والعروبة من تلك الإتجاهات الوطنية العربية المبكرة فوائد كبرى .

حيث أن الأتراك تحولوا في أوائل القرن العشرين من مجرد محتكرين للحكم والإدارة في المشرق العربي إلى قوميين يعملون على صبغ كل الدولة العثمانية بالصبغة التركية ، أو بمعنى آخر كان على العرب أن يغادروا حضارتهم ولغتهم وأن يصبحوا أتراكاً إذا أرادوا التمتع بحق المواطنة في الدولة التركية الجديدة إلا أن سياسة التتريك هذه جاءت في وقت كانت فيه الآداب العربية في العراق قد نهضت وارتقت إلى الدرجة التي لا يمكن أن تتغلب عليها اللغة التركية وآدابها وتلك هي القيمة الكبرى لتلك البدايات المبكرة للحركة العربية في العراق .

= فيا ليت شعرى هل ارانى بموكب وحولى رجال من معد ويعرب
مصاليت للحـرب العوان قبولها

. . . .

لها السبق فى ميدان كل مخاطر بكل نزارى على الموت صـابر
عوادى الى أقصى على ومفاخر عليها رجال من معـد وعامر
مطاعين فى الهيجـا كريم قتيلهـا

. . . .

فلم لا نعـانى حزننا واكتئابنا كفى حـزنا انا نعـانى ركابنا
الى معشر من جيـل يافث جيلها
انظر غرائب الاغتراب : ص ٢١٨ — ٢٢٤

المراجـــع

(أ) الوثائق العربية والتركية :

دار الوثائق الأهلية بعابدين :

محفظة ٢١٣ عابدين .

محفظة ٢٣٩ عابدين .

(ب) الوثائق الأوربية :

— F. O. 78/210 - 211.
— F. O. 195/204.
— India Office Records Factory Records Persia and Persian Gulf. Vol. 49.
— India Office Records, Political and Secret Department Records. Vol. 13.

المؤلفات العربية

– الأثرى (محمد بهجة) : أعلام العراق . المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٥ هـ .

– الآلوسى (محمود) : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . القاهرة .

– الآلوسى (محمود) : الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب

– الآلوسى (محمود) : نزهة الألباب وغرائب الإغ اب في الذهاب والإقامة .

والإقامة والإياب . بغداد ١٣١٧ هـ .

– الآلوسى (محمود) : نشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول بغداد ١٢٩١ هـ .

– الآلوسى (محمود) : نشوة المدام في العود من مدينة السلام . بغداد ١٢٩٣ هـ .

— أواراه (عبد الحسين) : الكواكب الدرية في مآثر البهائية ترجمة أحمد فايق :

— الأخرس (عبد الغفار) ق الطراز الأنفس : استانبول ١٣٠٤ هـ .

— البصير (محمد مهدى) ق نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر مطبعة المعارف . بغداد .

— جودت باشا : تاريخ جودت. الجزء الثامن استامبول ١٢٩١هـ.

— ربج (ك. ج.) : رحلة ربج في العراق ١٨٢٠ . ترجمة بهاء الدين نورى . بغداد .

— الشواف (عبد الفتاح) : حديقة الورود . مخطوطة في جزءين (إحداهما في المكتبة التيمورية والثاني في مكتبة طلعت بدار الكتب) .

— العزاوى (عباس) : تاريخ العراق بين احتلالين . بغداد ١٩٥٥ الجزء السابع .

— العمرى (عبد الباقي) : الترياق الفاروقي . طبعة عثمان الموصلي ١٣١٦

— الكوراني (على سيدو) : من عمان إلى العمادية . أو جولة في كردستان الجنوبية . مطبعة السعادة . مصر ١٩٣٩

— مهدى (محمد) : مفتاح باب الأبواب . مصر ١٩٢٢

— نوار (عبد العزيز) : داود باشا والى بغداد ١٨١٦ — ١٨٣١ . دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٨

— نو ر (عبد العزيز) : المصالح البريطانية في أنهار العراق ١٦٠٠ — ١٩١٤ . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨

— نوار (عبد العزيز) : تاريخ العراق الحديث ١٨٣١ — ١٨٧٢ . تحت الطبع .

المؤلفات الأوربية

— J. Lorimer :
Gazetter of the Persian Gul. Supermitendent Government Printing India 1915.

— H. Ross :
Letters from the East (Edited by his Wife) London 1902.

المصادر العربية لتاريخ شرق إفريقيا

للدكتور جمال زكريا قاسم

تقتضى دراستنا للمصادر العربية التى تعرضت لتاريخ شرق إفريقيا أن نقسمها إلى المصادر العربية العامة ، والمصادر المحلية ، كما يقتضى تسهيل الدراسة تقسيم شرق إفريقيا إلى العصور التاريخية التى مر بها والتى يمكن استجلاء بعض معالمها بقدر مانجده متوافراً أمامنا من المادة المستقاة من هذه المصادر بنوعيها . وسوف نقتصر في تعرضنا للمصادر التاريخية العربية عن شرق إفريقيا على منطقة ساحل شرق إفريقيا التى يمكن تحديدها بخليج دلجادو في الجنوب إلى رأس جردفون في الشمال ، وهى المنطقة الساحلية التى كان يطلق عليها العرب بر الزنج ، وما يليها من الداخل ، أما منطقة شرق إفريقية الواقعة شمال رأس جردفون فنرجئها إلى دراسة تالية بدأنا في إعدادها . والسبب في ذلك التقسيم يرجع في الدرجة الأولى إلى أن المنطقة الشمالية مرت بتطورات تاريخية تختلف عن التطورات التاريخية التى شهدتها المنطقة الساحلية الجنوبية من شرق إفريقيا وهى موضوع الدراسة .

وقد تميزت هذه المنطقة من الساحل باصطدامها مع البرتغاليين ، ثم بقيام دولة عربية استطاعت أن تجمع تحت لوائها جميع إمارات الساحل ، ونرى أن نقسم التاريخ الذى مرت به هذه المنطقة إلى : العصر القديم — العصر الإسلامى — العصر البرتغالى — العصر العماني ، ثم نختتم هذه الدراسة بخضوع المنطقة للسيطرة الاستعمارية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، غير أن ما يلاحظ أن الفترة التى سبقت مجئ البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر لاتزال تلفت أنظار الباحثين وتدفعهم إلى استجلاء الكثير من معالمها ، لأن هذه الفترة كانت فيها المنطقة بعيدة عن مجال الاحتكاكات الأوربية ، ولذلك لاتوجد بطبيعة الحال مصادر أوربية أصيلة إلا منذ أن وصل البرتغاليون إلى المنطقة وبدأت تظهر المؤلفات عنها

ابتداء من القرن السادس عشر والتى بدأت بما كتبه الرحالة البرتغاليون من رواد حركة الكشف الجغرافي من أمثال فاسكودى غاما Gama وكاستنهيدا وجويز وباربوسا وغيرهم كثيرون . وإذا كان يسهل على المؤلف الكتابة في تاريخ شرق إفريقيا الحديث فإن الصعوبة لاتزال تواجه الباحثين عند تصديهم لدراسة بعض جوانب من تاريخ الشرق الأفريقى القديم أو الوسيط ، فالتاريخ القديم لاتزال حتى الآن تتشكل ملامحه وفقاً على النتائج التى تتوصل إليها بعثات الكشف والتنقيب التى بدأت تمارس نشاطها في السنوات الأخيرة في محاولات مطردة لاستجلاء ماغمض من تاريخ هذه المنطقة ، ثم هناك أيضاً ذلك التراث الأغريقى النادر المعروف بالدليل الملاحى للبحر الأرتيرى الذى كتبه أحد الأغارقة في النصف الثاني من القرن الأول الميلادى(١) . أما التاريخ الوسيط لشرق إفريقيا فيطلق عليه بالعصر الإسلامى ، ويمكن تحديده من القرن السابع الميلادى إلى وصول البرتغاليين إلى شرق إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، ففى خلال هذه الفترة سيطر المسلمون من العرب على هذه المنطقة ، ومعلوماتنا عن هذه الفترة لاتزال تحتاج إلى مزيد من الاتساع . ونحن نعتمد في معلوماتنا عن تاريخ هذه المنطقة على المصادر المحلية وأقصد بها المؤلفات التى كتبها أناس عاشوا في المنطقة وهى مدونه باللغتين السواحلية والعربية ، ويبرز منها كتاب السلوة في أخبار كلوة ، المأخوذ عن سنة الكلاوية ، ويتعرض هذا الكتاب لتاريخ المنطقة من القرن العاشر الميلادى إلى وصول البرتغاليين إلى كلوة في أوائل القرن السادس عشر الميلادى وسوف نتعرض لذلك الكتاب فيما بعد .

أما المصنفات العربية العامة فإنها كثيرة ومتنوعة وهى تشكل مادة أساسية يمكن التعرف بها على تاريخ هذه المنطقة على الرغم من أن القليل منها هو الذى يلقى الضوء على الساحل .

وسوف نتعرض في هذه الدراسة للمصادر العربية التى يمكن الاستدلال منها على تاريخ شرق إفريقيا سواء العام منها أو المحلى مع ملاحظة أنه لاتوجد

---

(١) انظر دكتور جمال زكريا قاسم : استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا العدد العاشر من حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس .

لدينا مصادر عربية تعرضت لتاريخ المنطقة قبل القرن التاسع الميلادى ولكن ابتداء من هذا القرن تطرد المعلومات التى يمكن تجميعها من هذه المصادر التى أشرنا إليها بنوعيها .

وقد يكون من المناسب أن نبدأ بالمصادر العربية العامة التى تكون سلسلة متصلة الحلقات تبدأ من القرن التاسع الميلادي وتنتهى في القرن الخامس عشر الميلادى، ويمكن أن نتتبع من خلالها تقدم معلوماتنا واتساعها من قرن إلى آخر ولكن الذى يستوجب الأسف حقيقة أن تقدمنا في جمع المعلومات ليس مطرداً بالنسبة لتوالى السنين فهذه المصنفات ، باستثناء القليل منها ، ليست موفية بالحاجة في حين أن واضعيها العرب كانوا أولى من غيرهم بأن يزودونا بمعلومات وافية عن بلاد كانت تشكل جزءاً من العالم الإسلامى . ولكن قد يكون ذلك راجعاً في تقديرنا إلى أن هذه المناطق ، عدت في ذلك الوقت متطرفة عن مركز العالم الإسلامى ، ومن ثم فلم تحظ بشئ كبير من اهتمام هؤلاء المصنفين . ومن ناحية أخرى فإن كثيراً مما كتبه العرب في هذه الفترة كانت تخالطه الأسطورة أو الخيال إذ كانت منطقة شرق إفريقيا من المصادر الهامة لأساطير الجغرافية في الأدب العربي[١]، ولكن ذلك لايمنع من استخلاص بعض الحقائق والصور الحية عن تاريخ المنطقة اعتماداً على هذه المؤلفات .

وعلى الرغم مما يأخذه المستشرقون على هذه المصنفات من قصور واضح بالنسبة لمعالجتها منطقةشرق إفريقيا فإن هذه المصنفات مع ذلك،وفي تقديرى، ذات أهمية بالغة،ويكفى أن نقول أنها حاولت إلقاء بعض الضوء على شرق إفريقيا في الوقت الذى لم تذكر فيه المصادر الأوربية شيئاً عن هذه المنطقة باستثناء ماذكره ماركوبولو **Marcopolo** الذى قام برحلاته في عام ١٢٩٥ وأورد بعض المعلومات الطفيفة عن مقديشيو وزنجبار وتجارة الأخيرة بالعاج على وجه خاص[٢] .

---

(١) كراتشكوفسكى (اغناطيوس بوليانوفتش) تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب (مترجم) القسم الأول ص ١٤١

(٢) Cf. Travels of Marco Polo Trans A. Ricci, pp. 341-345.

ويمكن أن نعرض للمصنفات العربية التى أشارت إلى شرق إفريقيا ابتداء من القرن التاسع الميلادى وهى أول ما يمكننا الوصول إليه من هذه المصنفات. ويبرز أمامنا في منتصف ذلك القرن سليمان التاجر، وكتاباته من النوع الذى نسميه أدب المغامرات أو القصص البحرى، وقد ترك التاجر سليمان وصفاً حياً للسواحل والجزر والموانى المختلفة والمدن وسكانها والمحاصيل والمنتجات وسلع التجارة، كما نجد في كتاباته وصفاً شيقاً لأخبار الملاحة في المحيط الهندى وقد وصف بلاد الزنج بقوله «وبلادهم واسعة الأرجاء ونباتاتهم لاتنمو إلا سوداء في لون بشرتهم»، ونظراً لعدم وجود معلومات عن سليمان نفسه فإن البعض قد تشكك في نسبة القصص إليه إلى أن أكد المستشرق الفرنسى جبرييل فراند Ferrand صحة نسبة هذه القصص إليه. وقد لقيت هذه القصص عناية خاصة من العلاّمة رينو Reinaud في منتصف القرن التاسع عشر كما أخرج سوفاجيه آخر دراسة لها في السنوات الأخيرة(١).

وفي عام ٨٨٦ أشار ابن خرداذبه لبلاد الزنج(٢). والمعروف كما يقرر كراتشكوفسكى أن جميع مؤلفات ابن خرداذبه وأشهرها كتاب المسالك والممالك لانعرفها إلا من أسمائها فقط، ومن المقتطفات الموجودة لدى المؤلفين المتأخرين أو الإشارات إليها في المراجع المختلفة(٣).

وفي أوائل القرن العاشر الميلادى يسترعينا كتاب البلدان لابن الفقيه الهمدانى ٢٩٠ - ٩٠٣م، ثم الجغرافي الفارسى أبو على بن رسته في كتابه الأعلاق النفيسة، الذى كتبه بعد عشر سنوات من ابن الفقيه ٣٠٠ - ٩١٣ والذى لم يبق منه سوى الجزء السابع في الفلك والجغرافية، ولكن هذين المصدرين أو المادة المتبقية لنا منهما على الأقل لم يتعرضا إلا بإشارات بسيطة إلى بلاد الزنج التى اعتبرها ابن رسته إحدى حدود العالم الذى كان معروفاً في ذلك الوقت.

---

(١) كراتشكوفسكى تاريخ الأدب الجغرافى القسم الأول ص ١٤١

(٢) دافيدسون، افريقيا تحت أضواء جديدة ترجمه جمال أحمد ص ٢١٨

(٣) كراتشكوفسكى — تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب القسم الأول ١٥٥ — ١٥٦

ثم تبدأ المعلومات تتضح بصورة أكبر حينما نطالع ما كتبه أبو زيد السيرافي[١] (٨٧٧ — ٩١٥) الذى يعتبر أول من قدم لنا معلومات متصلة عن المنطقة .

وكان السيرافي يعاصر المسعودى ولكنه مات قبل أن يبدأ المسعودى رحلاته في شرق إفريقيا . ولم يكن أبازيد السيرافي ، وينسب إلى سيراف على الساحل الشرقي للخليج العربي ، رحالة أو جواب آفاق وإنما كان مؤلفاً اقتصر على جمع وتدوين قصص التاجر سليمان[٢] ، وأضاف عليها ماعرفه من روايات نقلها عن التجار الذين جابوا البحار الشرقية بعد أن غير وبدل من كيانها ، ولذلك تبدو كتاباته على أنها نوع من أساطير البحار . ومع ذلك فإن السيرافي يمكن اعتباره من أول المصنفين الذين كتبوا باللغة العربية يؤكد اتصال العرب بالساحل الشرقي لأفريقيا وهو يورد لنا ذلك في حديثه عن بلاد الزنج فقد ذكر عنها بالإضافة إلى ما نقله عن التاجر سليمان أن بها ملوك يغزو بعضهم بعضا وأن أهل الزنج يحترمون العرب الذين لهم في قلوبهم هيبة عظيمة فإذا عاينوا رجلاً سجدوا له وقالوا هذا من مملكة ينبت بها شجر التمر لجلال التمر عندهم وفي قلوبهم[٣] . والواقع أن جانباً كبيراً من المعلومات المتعلقة بشرق إفريقية في هذا العصر كانت مادة طيبة لمغامرات السندباد البحرى ولقصص ألف ليله التى كانت تتجمع في ذلك الحين ، إذ من المؤكد أن تكون بعض هذه القصص استوحيت من رحلات العرب في شرق إفريقية[٤] ، بل إنه يوجد في ماليندة صخرة يسميها الأهالى هناك بصخرة السندباد .

---

(١) انظر سليمان التاجر وأبو زيد السيرافى .

Gabriel Ferrand, Relation de Voyage Tome I p. 35 FF.

(٢) راجع رينو Reinand عن أبى زيد السيرافى وسليمان التاجر

Cf. Relation de Voyages fait par les Arabes et Persans a l'inde et de la Chine, Tome I pp. LV FF.

(٣) انظر سلسلة التواريخ — دار الطباعة السلطانية بباريس ١٨١١ ويوجد هذا الكتاب ملحقا بكتاب رينو

Cf. Reinand, Relation de voyages Tome II pp. 131 ff.
Texete Arabes imprime en 1811 par le soin de jeu lanqlès.

(٤) انظر عن الرحلات العربية فى المحيط الهندى

Reinand, Relation des Voyages fait par les Arabes et Persans dans l'inde et de la Chine 2 Tomes Paris 1845.

وتطرد معلوماتنا عن القرن العاشر بظهور المسعودى الذى بدأ رحلاته في شرق إفريقيا بعد وفاة السيرافي مباشرة،فالمعروف أن المسعودى تردد على المنطقة في الفترة من ٩١٦ إلى ٩٢٦ إذ كان له أكثر من رحلة في المنطقة ويصفه بعض المستشرقين بهيردوت العرب(١). ولكن للأسف أننا لا نملك من آثار المسعودى إلا كتابين لاسبيل إلى التعرف على دنيا العرب التجارية في عهدها الزاهر الا بهما خاصة ما اتصل منها بساحل إفريقيا الشرقي،وأشهر هذين السفرين كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر،أسماه هكذا ليثير رغبة القراء في الاطلاع على ماكتبه . ويبدو أن هذا السفر الخالد انتهى من تصنيفه في عام ٩٤٧ وليس هذا الكتاب مرجعاً للحقائق وتفاصيلها الدقيقة فحسب وإنما هو ولا ريب خير ماكتب رحالة العصور الوسطى .

ولكن ما يؤخذ على المسعودى أنه على الرغم من إفاضته بالحديث عن شعوب الزنج إلا أنه لايتحدث عن اتصالات مباشرة وقعت بينه وبين سكان المناطق التى زارها مما يجعلنا نذهب إلى القول أن معظم المعلومات التى أطلعنا عليها المسعودى،إن لم تكن كلها،ربما يكون قد أخذها من أحاديثه مع البحارة الذين سافر معهم في رحلاته . ومع ذلك فإن المسعودى بكتاباته قد أضاء الطريق أمام الباحثين في تاريخ هذه المنطقة(٢) .

تحدث المسعودى عن بحر الزنج ووصفه بالخطورة في عبارة شهيرة قال المسعودى « ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن وأصابنى فيها من الأهوال مالا أحصيه كثرة فلم أجد أهول من بحر الزنج . . . فموجه عظيم كالجبال الشواهق وهو موج أعمى يريدون بذلك أنه يرتفع ارتفاع الجبال وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية لاينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد » وقدوصل المسعودى إلى شرق إفريقيا بصحبة بحارة من عمان وسيراف ، يقول المسعودى وقد ركبت هذا البحر من مدينة سنجار

---

(١) Freeman — Grenville The Mediveal History of the Coast of Tanganiyka p. 40 Berlin 1962.

(٢) بازل دافيدســون (مترجم) افريقيا تحت أضــواء جديدة ص ٢٢٠ — ٢٢٥

(صحار) من بلاد عمان ، وسنجار قصبة بلاد عمان في جماعة من نواخذه السيرافيين وهم أرباب المراكب ، وركبت فيهسنة أربع وثلثمائة من جزيرة قنبلو إلى عمان وذلك ني مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم بن جعفر السيرافي »(١) .

وعلى الرغم من أن القرن العاشر الميلادى شهد تأسيس كثير من المدن والإمارات العربية التى قامت في ساحل شرق إفريقيا فإن المسعودى لا يحدثنا عنها وإنما اقتصر في حديثه عن الزنج وأنهم كانوا مجموعات من الشعوب وليسوا شعباً واحداً يعيشون في إقليم يمتد مسافة ٢٥٠٠ ميل على الساحل صوب الجنوب في المنطقة الممتدة فيما يعرف حالياً بالقرن الإفريقى شمالا إلى موزنبيق جنوباً، وفيما يبدو أن المسعودى قد وصل إلى أقصى منطقة وصل إليها العرب فقد ذكر أنه وصل إلى أقاصى بلاد الزنج وإليها تقصد المراكب العمانية والسيرافية وهى غاية مقاصدهم في أسافل بحر الزنج ، وذكر أن أقاصى بحر الزنج هو بلاد سفالية وأقاصيه بلاد واق الواق وهى أرض كثيرة الذهب كثيرة العجائب خصبة حارة،ولم يذهب أحد من قبله ولا من بعده من الرحالة العرب وراء هذه المنطقة . والأرجح الذى يقول به المؤرخون العرب هو أن العرب لم يجدوا ما يسافرون من أجله فلم يكلفوا أنفسهم مشقة بعد هذه المنطقة إذ كانت سفالية تمدهم بكل ما تستطيع مراكبهم أن تحمل من عاج أو ذهب .

وقد بدأ المسعودى قصته عن شرق إفريقيا بالأسطورة القديمة عن الهجرات التى تحدثنا عن أبناء كوش وكيف اتجهوا يميناً بين الشرق والغرب وسكنوا الجزء الشرقي في أفريقيا والجنوب الشرقي وكونوا شعوب النوبة والبجة ، والزنج وحدهم هم الذين ثابروا سيرهم جنوباً وراء النيل الأعلى وهم الذين فيما يقول المسعودى اتخذوا دار مملكة وملكوا عليهم ملكاً سموه وقليمن وهى سمة لملوكهم في سائر الأمصار ويركب وقليمن — وهو يملك ملوك سائر الزنج— في ٣٠٠ فارس ودوابهم البقر وليس في أرضهم خيل

(١) انظر المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، نشر دار الرجاء بالقاهرة جـ ١ ص ٣٢٨ — ٣٣٣

ولا إبل ولا يعرفونها وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد . ولعل أهم وأمتع ما كتبه المسعودى هو حديثه عن هذه المملكة وأشار إلى غناها بالذهب وأن الزنج بنوا عاصمتهم في أقصى الجنوب لتكون على مقربة من المناطق التى يستخرج منها الذهب الذى يصدرونه بكميات وافرة ، ولعل المسعودى يكون بذلك أول من أشار إلى مناجم الذهب في روديسيا . ولكن المسعودى لايخبرنا أين كانت عاصمة الوقليمن ولا في أى سنة أنشأت غير أنه من المستبعد أن تكون هذه العاصمة في سفالية لإنها كانت محط تجار العرب في ذلك الحين . وقدذكر ابن سعيد أن عاصمة وقليمن كانت في سنا وربما هى نفسها التى اكتشفها البرتغاليون على بعد ١٥٠ كيلو مترا من الساحل على نهر الزمبيرى وبنوا بها قلعة من أهم قلاعهم . وذكر المسعودى عن الزنوج بأنهم مهرة في أشغال المعادن وفي التجارة وفي الزراعة أيضاً حيث ذكر بعض محصولاتهم ، وفي صيد الأفيال لعاجها النفيس ، وأنهم يحرصون على الحديد أكثر من حرصهم على الذهب ، ولعل ذلك لكثرة إنتاجهم من الذهب ، وأن الزنوج يقتلون ملكهم حينما يجور عليهم وأن ملكهم يدعى وقليمن ومعناه ابن الرب الكبير الذى عندهم مالك السموات والأرض ويسمونه مكلنجلو ، وأنهم أهل خطابة وفصاحة بلغاء في أحاديثهم .

يقول المسعودى في اختصار جامع والزنج مع كثرة اصطيادها من الفيلة وجمعها لعاجه غير منتفعة بشيء من ذلك في آلاتها وإنما تتحلى الزنج بالحديد بدلا من الذهب والفضة ، ثم يذكر المسعودى ما يزرع الزنج وما يأكلون فيقول والغالب على أقوات الزنج الذرة ونبات يقال له الكلارى ويشبه القلقاس ومن غذائهم أيضاً العسل واللحم ، وللزنج جزر عدة قريبة من الساحل ينتفعون بما تنتج من فواكه ويحبون الخطابة وفن الكلام ولغتهم تعين على ذلك . ويقوم في القوم منهم رجل تقى يحثهم على طاعة الله والإمتثال بأوامره وينذرهم العقاب الأليم إن لم يخضعوا له ويذكرهم أكثر الأحيان بما حل بأسلافهم من خراب حين نسوا كلمة الله[١] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٣٣٣

وركز المسعودى في رحلاته في شرق إفريقيا على جزيرة قنبلو ذكر عنها أنها جزيرة حارة فيها قوم من المسلمين بين كفار الزنوج وكلهم في حكم أمير مسلم إلا أن لغتهم زنجية وتتردد عليها المراكب العمانية . وقد ذكر أنه وصل إلى قنبلو في رحلته من مدينة سنجار في جماعة من البحارة السيرافيين ثم عاد في عام ٣٠٤ من جزيرة قنبلو إلى عمان . ويبدو من كتابات المسعودى أن العرب كانوا قابضين على زمام الملاحة في المحيط الهندى خاصة الجزء الملامس لساحل إفريقيا الشرقي(١) .

وقد حدد المسعودى تاريخ استقرار المسلمين في قنبلو بقرن ونصف قرن من رحلته إذ قال إن المسلمين غلبوا على هذه الجزيرة وسبوا من كان فيها من الزنوج وذلك في بدأ الدولة العباسية . ولكن التاريخ الذى ذكره المسعودى لانكاد نطالع له أى ذكر لتأسيس أية إمارة عربية أو هجرة ملحوظة إلى شرق إفريقيا ، ولعل المسعودى تجاوز في تحديده نزول العرب بهذه الجزيرة بضع سنوات عن هجرة الزيديين وإذا صح هذا التجاوز وهو لايتعدى سنوات قليلة على أية حال نستطيع إذن أن نرجع نزول العرب في جزيرة قنبلو بأنه كان نتيجة لهجرة الزيديين إلى الساحل الشرقي لأفريقيا .

ولكن الموضوع الذى أثار الجدل هو أية جزيرة يعنيها المسعودى بقنبلو ؟ حقيقة أن المسعودى وضع بعض التحديدات الجغرافية الخاصة بموقع هذه الجزيرة ، ولكن نظراً لكثرة عدد الجزر الموجودة على ساحل شرق إفريقيا فإننا لانستطيع أن نحدد بالضبط واحدة منها .

وهنالك بعض الباحثين من أمثال رينو **Reinaud** يميلون أن تكون مدغشقر هى الجزيرة المقصودة فإن التحديدات التى أشار إليها المسعودى تكاد تنطبق على جزيرة مدغشقر إلى حد كبير ، وإن كنا نعجب لماذا لم يتحدث المسعودى عن كبر مساحة هذه الجزيرة إذا صح أن تكون قنبلو هى جزيرة مدغشقر التى كان يعنيها .

---

(١) راجع فى ذلك حورانى — الملاحة البحرية فى المحيط الهندى وكذلك آدم متز الحضارة الاسلامية (مترجم) ج ٢ ص ٤٢٩ — ٤٣٠

(٢) **Cf. Reinaud, Relation de voyages Tome I pp. 131-133.**

أما القبطان جيان **Guillain** فيميل إلى اعتبار هذه الجزيرة إحدى جزر القمر ويحددها بالجزيرة الكبرى على وجه خاص وهى جزيرة ياقوت أو الأنجزيجة ، كما كانت تعرف في ذلك الحين ، والتى سيطلق عليها الأدريسى فيما بعد بجزيرة الزانج ولكن التحديدات التى أشار إليها المسعودى تختلف مع موقع الجزيرة خاصة من حيث تحديده أنها تقع على مسافة خمسمائة فرسخ من عمان إذ أنها في الواقع تقع إلى مسافة أبعد من ذلك(١) .

ويرى البعض اعتبار جزيرة قنبلو هى جزيرة زنجبار وعلى الرغم مما يستدل عليه من التاريخ المحلى لسلطنة كلوة أن العرب المسلمين وصلوا إلى هذه الجزيرة قبل زمن من رحلة المسعودى إلا أننا لا نستطيع مع ذلك أن نزعم أن تكون قنبلو هى إحدى جزر بمبا أو مافيا أو زنجبار لأننا نصطدم مرة أخرى بالتحديدات التى أوردها المسعودى بالنسبة لموقع جزيرة قنبلو التى أكد فيها أن الجزيرة تبعد عن القارة بمسيرة يوم أو يومين بينما هذه الجزر التى أشرنا إليها ترى من الشاطىء ولا تبعد عنه سوى ساعات قليلة ، على أن الاعتراض الأهم ما أكده المسعودى أن هذه الجزيرة يحكمها مسلمون يتكلمون لغة الزنوج ولما كنا نعرف أن العرب هم الذين تغلبوا على هذه الجزر فبطبيعة الحال كانوا يتحدثون اللغة العربية ، ولهذه الأسباب لايمكن أن نعتبر واحدة من هذه الجزر الصغيرة ما عناها المسعودى بجزيرة قنبلو . أما فراندفلم يقطع برأيه في جزيرة قنبلو واكتفى بأن اعتبرها إحدى الجزر التى تقع في جنوب المحيط الهندى(٢) .

وعلى الرغم مما أوضحه رينو أن تكون جزيرة قنبلو هى المقصودة بجزيرة مدغشقر إلا أننا لانميل إلى الأخذ برأيه ونميل إلى الأخذ برأى جيان في أن تكون قنبلو هى إحدى جزر القمر . ونستند في ذلك على أن جيان ، وهو ربان سفينة ،على علم بالملاحة بطبيعة الحال قد أكد أنه لايمكن الوصول إلى جزيرة مدغشقر في زمن المسعودى إلا بالوصول أولا إلى جزيرة القمر فكيف

---

(١) جيان — وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقية ص ٩٣

(٢) **Ferrand, op. cit., Tome I p. 91.**

لم يحدثنا المسعودى عن تلك الجزيرة ؟ ومن ناحية أخرى أن جزيرة مدغشقر كان لها لغة خاصة تختلف عن لغة الزنوج وذلك اعتماداً على أبحاث جبرييل فراند Ferrand ، ثم أنه لايمكن التسليم بفتح المسلمين لجزيرة كبيرة كهذه وتغلبهم عليها في وقت بدء هجراتهم إلى المنطقة .

وأخيراً فإن المسعودى على الرغم من أنه قدم معلومات هامة عن شرق إفريقيا إلا أنه ، وهذا مما يستوجب الدهشة حقاً ، لم يذكر لنا شيئاً عن أحوال المناطق التى حدث بها احتكاك مباشر بين العرب ومناطق الساحل التى رحل إليها . ومما لايقبله المنطق بطبيعة الحال أن يكون المسعودى قد قام برحلاته بقصد مشاهدة جزيرة قنبلو دون سواها ، وأن السفن التى كانت تحمله لم ترس على جهة من الجهات غيرها واكتفى بإيراد الروايات التى سمعها من البحارة من البلاد الداخلية ، إذ أننا لانعتقد أن يكون المسعودى قد تعمق في الداخل ويمكن أن نسلم أن المسعودى ، لعدم اتجاهه إلى دراسة الجهات التى مر بها لم يذكر المراكز التى أسسها العرب أو التى أستكشفوها على الساحل منذ عهد بعيد قبل رحلة المسعودى إلى هذه المنطقة ، وإن كان ذلك مما يستدعى الأسف لأن الزمن الذى جاء فيه المسعودى هذه المناطق كان عهد تأسيس عدة مدن صارت فيما بعد من أهم مراكز هذه الشواطىء وأرفعها شأناً .

وفي تقديرى أن المسعودى لم يحاول لسوء الحظ أن يضع لنا صورة عما شاهده بنفسه إذ أنه لو فعل ذلك لكان من المؤكد أن يأتي لنا بأخبار أوفي وإنما اكتفى المسعودى ، كما سبق أن أشرنا ، بذكر ما توارد إليه من أحاديث البحارة الذين كانوا يصلون إلى تلك المناطق[١]. ولو لم يذكر المسعودى صراحة أنه شاهد بعض مناطق شرق إفريقيا لجاز لنا أن نتشكك في أنه لم يشاهد هذه البلاد مشاهدة عيان . ومع ذلك فإن شخصية المسعودى ربما تكون أكثر جلاء لو أن مؤلفاته الكبرى لم تمسسها يد الضياع ونخص منها بالذكر كتابيه الكبيرين أخبار الزمان ومن أباده الحدثان الذى يقع في ثلاثين جزءاً والكتاب الأوسط ، غير أن هذه المؤلفات مع الأسف لم تعرف إلا من خلال اقتباسات

---

(١) Freeman grenville, op. cit., p. 40.

ضئيلة ليست بذات أهمية فضلاً عن أن الشك يعتور صحة نسبتها إليه . ولا يوجد لدينا حالياً إلا مروج الذهب السابق إشارتنا إليه والذى اعتمدنا عليه في المادة التى ذكرناها هنا متعلقة بشرق إفريقية وهو أكثر مؤلفات المسعودى انتشاراً وإيجازاً . كما يوجد من تراثه المتبقى كتاباً آخر بعنوان التنبيه والإشراف ومادته جغرافية في معظمها[١] .

ومن القدر المتيسر لدينا من كتابات المسعودى في القرن العاشر تجدب معلوماتنا عن منطقة شرق إفريقيا حتى القرن الثاني عشر إلى ما يقرب من مائتى عام لاتطالنا في أثنائها من المصادر العربية الهامة سوى عدة كتب أغفلت إلى حد كبير الحديث عن شرق إفريقيا ، فهنالك كتاب المسالك والممالك أو صورة الأرض لابن حوقل الذى وضعه في منتصف القرن التاسع الميلادى ، وعلى الرغم من أنه أورد بعض المعلومات التفصيلية عن القسم الشمالى من شرق إفريقيا خاصة مناطق الحبشة والنوبة إلا أنه لم يتعرض للقسم الجنوبي إلا بإشارات ضئيله ، فقد ذكر أنه من المستحيل السفر إلى بلاد الزنج لحرارتها الشديدة ولكننا مع ذلك نلحظ شيئاً هاماً وهو إشارته إلى بعض الشعوب البيضاء التى تتاجر معهم ولكنه اكتفى عند حد الإشارة إلى ذلك وهذا مما يستوجب الأسف أيضاً .

وبعد كتاب ابن حوقل لم يقدم لنا المقدسى (٣٣٥هـ/٩٤٦/٩٤٧م) في كتابه أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم شيئاً يمكن أن نضيفه إلى معلوماتنا عن شرق إفريقيا في خلال هذه الفترة ، فالمقدسى لم يذكر أكثر من أن الجزء الغربي من المحيط الهندى يبدأ بعدن وينتهى ببلاد الزنج وهم غير الزنوج الذين عرفناهم في الهند[٢] .

وفي القرن الحادى عشر وقبل أن نصل إلى الإدريسى ، وهو مصدر هام عن شرق إفريقيا ، لانجد سوى الخوارزمى البيرونى ١٠٣٠ (٤٤٠ هـ) في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخاليه الذى ذكر أن ساحل القارة الشرقي

(١) كراتشكوفسكى — الأدب الجغرافى عند العرب القسم الأول ص ١٧٨

(٢) Cf. Ferrand, Documents Historiques et geogrophiques relatifs al'indochine, Relation de voyages et Textes geographiques Arabes, Persans et Turks relatif a l'Exterme Orient de VIIIe au XVIIIe Siecles Tome I p. 117 Paris 1913.

والجزر الجنوبية منها تسكنها قبائل متفرقة من الزنج وأشار البيروني إلى جزيرة واق الواق وقد اعتبرها إحدى جزر القمر ، وذكر أن سكانها سود يغلب عليهم البياض ولكنهم يعتنقون عقيدة الهنود(١) ، كما تحدث البيروني عن شئون التجارة التي كانت قائمة بين سفالية والهند والصين ولكنه لم يعطينا معلومات مفصلة عن دور العرب في تلك التجارة وإن كان قد أشار إلى الجزء الغربي من المحيط الهندى الذى أطلق عليه بحر البربر ويمتد من عدن إلى سفالية الزنج لايتجاوزها مركب لعظم المخاطرة فيها(٢)، وفيما يبدو أنه قد توفرت للعرب قرب ذلك العصر معلومات عن ساحل إفريقية الشرقي إلى خط عرض ٢٠° جنوباً أما عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من ذلك فقد كانت فكرتهم بصفة عامة تستند على الظن والتخمين ولو أن علمهم بالكوارث(٣) التي كانت تتعرض لها السفن تشير إلى معرفتهم بطريق غير مباشرة بمضيق موزنبيق (جبل الندامة)، وهنالك كتاب وضعه أحد الفرس ويدعى برزج بن شهريار في منتصف القرن الحادى عشر باللغة العربية ويتضمن رحلته إلى بلاد الزنج وفيما يبدو أنه كان يقصد ببلاد الزنج بلاد الهند وليس زنوج شرق إفريقيا لما يتضح من تسميته الكتاب بعجائب الهند، وتتضح لنا تلك الحقيقة في أن بعض المصادر العربية كانت تطلق على الهنود اسم الزنوج ولذلك لايمكن أن نعتبر هذا الكتاب من المصادر التي تعنينا في هذه الدراسة على الرغم من أنه أورد بعض المعلومات البسيطة عن جزيرة واق الواق وسفالية(٤) .

وتصمت المصنفات العربية حتى ينقطع هذا الصمت فجأة على أيدى جغرافي عربي أقام في صقلية في الفترة من ١١٠٠ إلى ١١٦٦ في بلاط الملك روجر الثاني Roger أحد ملوك النورمان وقد عرف الكتاب الذى وضعه بكتاب روجر وأسماه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق(٥) . ويتضح من كتاباته

---

(١) انظر البيرونى نقلا عن :
Gabriel Ferrand, op. cit., Tome I p. 163.
(٢) كراتشكوفسكى — القسم الأول ص ١٤١
(٣) المصدر السابق القسم الأول ص ٢٤٩
(٤) كتاب عجائب الهند لبرزج بن شهريار
Cf. Gabriel Ferrand, op. cit., Tome II p. 574.
(٥) انظر مادة الادريسى فى دائرة المعارف الاسلامية

عن شرق إفريقيا أن الأدريسى كان يأخذ مادته من الكتب الجغرافية السابقة عليه وكذلك من التقارير التى كان يتلقاها من المسافرين ومع ذلك فهو لايوضح لنا مصادره المباشرة عن المعلومات التى أوردها عن شرق إفريقيا ، وعلى الرغم من أنه كان يعرف المسعودى وأخذ عنه بعض الجوانب ، إلا أنه لم يشر إلى ذلك إشارة صريحة .

وأهمية كتاب الإدريسى أنه أول المصادر التى تتحدث عن مدن الساحل وجزره من ذلك كلوة التى لها تجارة هامة مع سفالية ، ومالينده وهى مدينة كبيرة ، ومع ذلك فإن الإدريسى لم يورد لنا معلومات وافية عن هذه المدن ويبدو أنه لم يهتم اهتماماً كافياً بالاستعلام عن تلك البلاد .

وإلى جانب كتاب الأدريسى عن تخطيط البلدان فقد وضع لنا أول خريطة عربية كانت أدق وأشمل من الخريطة التى وضعها بطلميوس وتعزز الخريطة كتابات كثيرة عن تعدين الذهب والحديد في سفالية وبعض مراكز في الداخل .

على أن الإدريسى لم يرحل إلى شرق إفريقيا كما فعل المسعودى ولكنه استمع أكثر وقرأ كثيراً فاتي بدقائق هامة عن هذا الإقليم . وقد انتهى الإدريسى من كتابه نزهة المشتاق في عام ١١٥٤ ولاشك أن الفترة التى كتب فيها الإدريسى هذا الكتاب كانت تجارة العرب متسعة في المنطقة اتساعاً كبيراً على أنه من الملاحظ أن الأدريسى لم يعن بتجارة العرب في الذهب والعاج والرقيق لأن هذه التجارة كانت معروفة في العالم العربي التجارى وإنما انصرف الإدريسى إلى الحديث عن تجارة جديدة هى تجارة الحديد، ويلاحظ أيضاً تغير أوجه الحياة من رحلة المسعودى إلى كتابات الأدريسى ما لينده التى لم تحظ من المسعودى حتى بذكر إسمها ، لأنها لم تكن تعنيه في شئ لعدم أهميتها، أصبحت في زمن الإدريسى مدينة الزنج ، ويحدثنا الإدريسى عنها فيقول إن الزنوج فيها يمتلكون مناجم الحديد ويستخرجونه منها ويتاجرون في الحديد المطاوع منه ويربحون من تجارتهم هذه أرباحاً كثيرة . وكذلك يتحدث

عن منبسة التى يشتغل أهلها في تجارة الحديد أيضاً مما يدل على الصلات التى كانت قائمة بين شعوب الداخل ومن يفد على الساحل من التجار العرب وغيرهم خاصة من الهنود حيث كانت السيوف تصنع في بلاد الهند من حديد شرق إفريقيا .

ويلاحظ أن الأماكن التى ذكرها الإدريسى منها ما لايزال موجوداً على الخرائط الحالية ولو بالتقريب كبراوة ومالينده ومنبسه ومنها ما اندرست معالمها ولاتزال تحت الكشف . وقد أكد لنا الإدريسى العلاقة بين العرب وساحل شرق إفريقيا ولكنه قصر هذه العلاقة عند حدود التعامل التجارى دون أن يعنى بدراسة المراكز التى أوجدها العرب على الساحل . ويقول الإدريسى بصدد ذلك أن جميع بلاد الزنج بضائعهم الحديد وجلود النمور الزنجيه وهى جلود حمر لينة جداً ينقلون أمتعتهم على رؤوسهم وعلى ظهورهم إلى مدينتى منبسة ومالينده فيبيعون هناك ويشترون ، وليس للزنج مراكب يسافرون فيها وإنما تدخل إليها المراكب من عمان وغيرها إلى جزائر الزنج فيبيعون بها هناك ويشترون متاع الزنج ،وأهل جزاير الرانج (الهند) يسافرون إلى الزنج في زوارق ومراكب صغيرة فيجلبون منها أمتعتها لأنهم يفهم بعضهم كلام بعض(١) .

إن المعلومات التى أوردها الإدريسى غير وافيه فضلاً عن أنه أخطأ عند ذكره مدينة براوة فذكر أنها لاتزال على وثنيتها إذ قال أنها واقعة بطرف بلاد الكفرة والمعروف أن براوة قد انتقل إليها الإسلام في زمن أسبق من كتابات الإدريسى وناحية أخرى أنه لم يشر إلى كلوة إلا إشارة عابرة مع أنها تأسست قبل مائتى سنة من الإدريسى وبلغت في زمنه إلى أقصى درجة من ازدهارها وكانت جزر بمبا ومافيا وزنجبار تابعة لها ، وهذه الجزر أيضاً لم يذكرها الأدريسى كما أنه لم يعرض لمدينة مقديشو في حين أنه ذكر بعض المدن التى كانت تابعة لها كبراوه ومركة . ومن هنا يتبين لنا أن الأدريسى كان على عدم

---

(١) دافيدسون ـ افريقية تحت اضواء جديدة (مترجم) ص ١٢ ـ ١٣

دراية بتلك الأماكن ويبدو أنه كما سبق أن أشرنا لم يهتم بالاستعلام عنها اهتماماً كافياً ومع ذلك فإن الإدريسى يكاد يكون هو الجغرافي الوحيد الذى ذكر أسماء مدن وجزر شرق إفريقيا في حين لم يذكرها غيره إلا باعتبار أنها مجموعة جزر[١] .

وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادى صنف ياقوت الحموى كتابه المعروف معجم البلدان . وكان ياقوت رحالة وتاجراً ويعتبر هذا المصنف من أهم ما صنفه العرب في هذا الموضوع ويوجد بهذا المعجم بعض أسماء مدن شرق إفريقيا كمقديشو وجب وكلوة ولعل ياقوت أول من أشار إلى الشعب السواحلى ويفهم ذلك من حديثه عنهم إذ أسما هم البربر « وهم غير البربر الذين بالمغرب هؤلاء سود يشبهون الزنوج ، جنس متوسط بين الحبش والزنوج » ، وأشار ياقوت إلى مقديشو فذكر عنها أنها « مدينة في أول بلاد الزنج وأهلها كلهم غرباء ليسوا بسودان ولا ملك لهم وإنما يدير أمورهم المتقدمون على اصطلاح لهم وإذا قصدهم التاجر له أن ينزل على واحد منهم ويستجير به فيقوم بأمره ومنها يجلب الصندل والأبنوس والعاج . . . هذا أكثر أمتعتهم وقد يكون عندهم غير ذلك مجلوب إليهم » . كما تحدث ياقوت عن كل من مدينة الجب وكلوة وسفالية ، ولكن كل ما أورده عنها لم يكن إلا شذرات فقد ذكر عن الجب أنها مدينة قرب بلاد الزنج في أرض بربرة يجلب منها الزرافة وجلودها يتخذها أهل فارس نعالاً ، ولم يذكر عن كلوة إلا أنها موضع بأرض الزنج ، ولم يذكر عن الجهات الأخرى التى تقع على ساحل شرق إفريقيا أكثر مما أورده الإدريسى عنها . ومع ذلك فإن ما ذكره ياقوت مهم رغم قلته ؛ ويبدو أن هذه المعلومات قد استقاها من التجار العرب الذين كانوا يذهبون إلى هذه الأقاليم لصلتهم بهؤلاء التجار وبرؤساء عمان بوجه خاص ، كما أشار ياقوت إلى جزيرة مدغشقر وأطلق عليها جزيرة القمر[٢]

---

(١) Freeman — grenville, op. cit., p. 41.

(٢) لا يتفق الجغرافيون العرب على كتابة اسم هذه الجزيرة ولا على أصل اشتقاقها فقد كتبه البعض ومنهم الادريسى القمر بضم القاف والميم =

يتحدث عن اختلاف أجناسها وتعدد لغاتها وعن غنى سواحلها بالعنبر وأنه ليس هناك في بحر الزنج جزيرة أكبر منها(١) . وقد يكون من المناسب أن نشير هنا أن جزيرة مدغشقر وجزر القمر الأربعة كانت نادراً ما تذكر في المصنفات العربية ، وحتى المصادر المحلية التى تناولت تاريخ مدغشقر غير وافية وقد أورد لنا جيان بعض تواريخ عن مدغشقر وجزر القمر نقلا عن كتاب عربى مخطوط ذكر أنه عثر عليه في مايوت إحدى جزر القمر وكذلك تحدث فراند(٢) عن عدة مخطوطات عربية قديمة ذكر أنه عثر عليها في مدغشقر وأهداها إلى المكتبة الأهلية بباريس **Bibliotheque Nationale** ؛ وفراند من أهم المختصين بالدراسات العربية الأفريقية والآسيوية وقد أمضى حياته في الخدمة الدبلوماسية بالمستعمرات العربية بالمحيط الهندى من مدغشقر إلى الهند الصينية وقد وضع مؤلفاً ضخماً جمع فيه المادة العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالجغرافية التاريخية للهند والشرق الأقصى بعنوان قصص الرحلات والجغرافية العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالشرق الأقصى من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر ترجمها وألف بينها وعلق عليها(٣) ويستدل من هذه المخطوطات على أن العرب اختلطوا بإحدى القبائل في مدغشقر وتكون منهم شعب الأنتيمرونا الذى يخضع من الوجهة الدينية والتنظيمية إلى قبيلة الانكارا وقد عرفت قبيلة الأنتيميرونا الكتابة العربية بعد الإسلام بينما بقى شعب الهوفا أكبر شعوب مدغشقر لايعرف الكتابة إلى فترة متأخرة وذكر فراند أن الأنتيمرونا يحتفظون بكتب خطية عربية متناهية القدم يزعمون فيها انتسابهم

= وكتبه غيرهم ومنهم ياقوت وابن سعيد بسكون الميم ونسبوا اسم الجزيرة الى قوم القمر الذين هاجروا اليها أما ابن الوردى والبقوى فسموا الجزيرة باسم القمر بفتح القاف والميم . ويبدو أن العرب كانوا يقصدون بها جزيرة مدغشقر وان كان هناك من يعتقد أنهم كانوا يعنون بها احدى جزر القمر خاصة وأن وصف كل من الادريسى وابن سعيد لجزائر القمر من حيث طبيعة الأرض وعادات السكان لا يتيسر تطبيقه على جزيرة مدغشقر .

انظر جيان — وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقيا ص ١٦١ — ١٦٢

١) راجع ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، فى التعرف على الأماكن التى أشرنا اليها .

(٢) **Gabriel Ferrand, Les Musulumanes de Madagascar et l'iles de Commores 2 Tomes, Tome I**

(٣) **Cf. Ferrand, Relation de Voyages et Texetes Geographiques Arabes, Persans et Turk relatif a l'Extreme Orient.**

إلى مكة ولكن يجب أن تأخذ هذه الروايات بحذر فإن دعوى الانتساب إلى مكه والبيت النبوى تكاد تكون ظاهرة متفشية في تلك المناطق . وقد أسلمت قبيلة أنتيمرونا في زمن لانستطيع أن نحبده تحديداً صحيحاً وإن كان إسلام تلك القبيلة إسلاماً ضعيفاً إذ لم تلبث أن عادت إلى عقائدها من جديد فاختلط الإسلام بالوثنية . وربما يمكن أن نستفيد بالتاريخ الذى أورده المسعودى في تحديده فتح المسلمين لجزيرة قنبلو في عام ٧٥٠ م إذ ليس من المستبعد أن يكون الإسلام قد انتقل إلى مدغشقر بعد ذلك التاريخ مباشرة .

وقد ذكر فراند استناداً على المخطوطات التى عثر عليها أن الصراع كان حادثاً بين الكهنة الذين يعبدون إلها واحداً والعامة الذين تتعدد آلهتهم وكان مجىء العرب بالتوحيد معناه انتصار لحزب الكهنة ، ولكن كما سبق أن ذكرنا أن الإسلام في مدغشقر لم يكن قوياً ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى شدة احتفاظ أهالى مدغشقر بتقاليدهم ومعتقداتهم ويلاحظ أن الميشرين الأوربيين اصطدموا هم أيضاً بهذه التقاليد[١] .

وجاء من بعد ياقوت الحموى ابن سعيد[٢] ١٢١٤ـ١٢٨٦م وهو مؤلف جغرافي من غرناطة درس جغرافية بطلميوس وصنف كتابه حول منتصف القرن الثالث عشر حيث وضع موسوعته التى أسماها جغرافية الأقاليم السبعة أورد فيها سواحل شرق إفريقيا مع ذكر لبعض مدنها كما ليندة ومنبسه وركز على مقديشيو بصفة خاصة ، وقد تحدث عن هذه المدن مراعياً ترتيبها بحسب موقعها من الشمال إلى الجنوب[٣] . وقد وضع كتابه هذا على نهج الإدريسى في كتابه نزهة المشتاق . وأهم مافي كتاب ابن سعيد ما ذكره من أن ملاحاً عربياً يدعى ابن فاطمة دار حول إفريقيا من الغرب إلى الشرق ووصف سواحل السنغال والقمر وذكر عن وجود جاليات هندية تعيش في جزيرة القمر

(١) ارجع الى لوثروب ستودارد ـ حاضر العالم الاسلامى وتعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتابات جبريل فراند ج ١ ص ٣٦٩ وما بعدها .

(٢) انظر ابن سعيد فى المجلد الثانى من فراند ص ٣١٦ وما بعدها .

(٣) جيان ـ وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقية ص ١٣٨

وأورد ابن سعيد تفاصيل عن هذه الجزيرة تطابق جزيرة مدغشقر مثل كونها عريضة طويلة طولها مسيرة أربعة أشهر وعرضها مسيرة عشرين يوماً وأنها تحت حكم المسلمين(١)، وعلى الرغم من أن الفاصل الزمنى بين كتابات الإدريسى وابن سعيد لا يتجاوز مائة عام فإن التناقض واضح بينهما إذ نلاحظ بعض تغييرات من حيث أسماء المدن ولا نستطيع أن ننسب هذا الخلاف إلى التغيير الذى حدث للساحل في مدة قصيرة كهذه ومع ذلك ففى كتابات ابن سعيد مواقع كثيرة ورد ذكرها في الأدريسى .

وبعد وفاة ابن سعيد يظهر أمامنا مصنف جديد في تخطيط البلدان لزكريا بن محمد المعروف بالقزوينى ويتضمن هذا المصنف بعض البيانات عن الشاطىء الشرقي لأفريقيا غير أنه يتميز باتجاهه إلى العجائب ويتضح من اسمه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ١٣٢٥ . كما له كتاباً آخر بعنوان آثار البلاد وأخبار العباد ، وقد اقتصر فيه على ما نقله من المسعودى بالنسبة لحديثه عن زنوج شرق إفريقية(٢) .

ثم يظهر لنا بعد ذلك كتاب « تقويم البلدان » لأبي الفدا إسماعيل سلطان حماة الذى يعد من أبرز المصنفين العرب في القرن الرابع عشر(٣) ، ولكنه اقتصر فيما أورده لنا من معلومات على النقل عن ابن سعيد وأوضح ما ذكره أبو الفدا حديثه عن الثلوج على قمة كلمنجارو وقال إنه سمع بهذا ولا يكاد يصدقه ،وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن العرب عرفوا مناطق في أفريقيا لم يصل إليها الأوربيون إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولم يقتصر أبو الفدا في حديثه عن زنوج شرق إفريقيا بل ذكر أخباراً عن الزنوج الذين كانوا في البلاد العربية فقد ذكر أنه في عام ٢٥٦ هـ أغارت عصابة من زنوج زنجبار على الجزء الجنوبي من العراق وأنهم استولوا على مدينة البصرة ونهبوها كما أكد

(١) لوثروب ستودارد — حاضر العالم الاسلامى — تعليق شكيب أرسلان ص ٣٧١ — ٣٧٢

(٢) زكريا القزويني — آثار البلاد وأخبار العباد بيروت ١٩٦٠.

(٣) انظر مادة أبو الفدا فى دائرة المعارف الاسلامية .

النويرى أن جزءاً من جيش الخلفاء العباسيين ببغداد كان مؤلفاً في القرن التاسع من الميلاد من زنوج زنجبار[١] .

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر انصرف العرب عن الجغرافية ووجهوا اهتمامهم إلى الحديث عن العجائب وفي وصف الغريب من حيوان البر والبحر وظواهره . ومن أهم الذين كتبوا عن العجائب شمس الدين أبو عبد الله الدمشقي في كتابه « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » وقد نقل الدمشقي بعض رواياته عن المسعودى ، وفي فصل له عن بحر الزنج ذكر الدمشقي جزائر عديدة منها جزيرة قنبلو ولكنه عنى بها جزيرة مدغشقر[٢] . ثم يأتي بعد الدمشقي عبد الرشيد بن صالح الملقب باليقوى نسبة إلى باكو من ثغور بحر قزوين وله كتاب عجائب القدرة تحدث فيه فيما ذكره عن شرق إفريقيا عن جزيرة زنجبار ولكنه أسماها ينجويه ، ذكر عنها أنها جزيرة كبيرة من بلاد الزنج وجميع السفن التي تتاجر مع هذه البلاد ترسو إليها وبذلك يمكن أن نعتبر جزيرة زنجبار من عداد الأمكنة التي ذكرها المصنفون العرب في مصنفاتهم الجغرافية .

وفي منتصف القرن الثاني عشر يبرز أمامنا سراج الدين أبي حفص عمر ابن الوردى في كتاب له بعنوان « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » وقد نقل هو الآخر عن المسعودى وذكر ابن الوردى أنه كلف من نائب السلطنة قائد قلعة حلب شاهين المؤيد[٣] أن يضع له دائرة مشتملة على دائرة الأرض توضح ما اشتملت عليه فوضع هذا الكتاب[٤] . وقد وصف ابن الوردى ساحل شرق إفريقيا من جردفون إلى موزنبيق وذكر أن سكانه جميعهم من المسلمين فيهم القاضي والإمام ونقل ما أورده المسعودى

---

(١) انظر ما كتبه ابو الفدا عن تاريخ البصرة في :
Reinand, op. cit., Tome II pp. 44.
وكذلك جيان ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقية ص ٧٣

(٢) لوثروب ستودارد ــ حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣

(٣) كراتشكوفسكى ــ المصدر السابق القسم الثانى ص ٥٠٠

(٤) راجع ابن الوردى ــ فريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ٤٨ و ٨٠

عن بلاد واق الواق وعجب لكثرة ما بها من ذهب حتى أن الزنوج يتخذون سلاسل كلابهم ودوابهم منه ، وأما أكابرهم فيصنعون لبنا من الذهب يبنون بها بيوتهم . وفي الواقع أنه يوجد اختلاط عن سمى آخر لابن الوردى ظهر في منتصف القرن الرابع عشر ١٣٤٦ - ١٤٥٧ ويدعى زين الدين أبي حفص بن الوردى[١] وقد ظل كتاب الخريدة ينسب خطئاً إليه لما كان يشتهر به في الأدب والفقه واللغة[٢] .

على أن أهم أثر في القرن الرابع عشر هو كتاب رحالة عربي يدعى ابن بطوطة سجل فيه رحلاته وأسماه « تحفه النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وقد بدأ ابن بطوطة رحلاته في عام ٧٢٥ ﻫ قاصداً الحج ويقال إن أوراقه التى سجل فيها رحلاته قد فقدت منه فأملاها من الذاكرة وقد صاغ رحلات ابن بطوطة محمد بن جزى الغرناطى بأمر من السلطان أبي عنان أحد ملوك بنى مرين بالمغرب[٣] ، والظروف التى تم فيها تدوين رحلات ابن بطوطة تجعلنا إذا ما قسونا في حكمنا على ابن بطوطة من خيال أو عدم دقة فيما كان يرويه ، أن كثيراً من اللوم الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئاً عن ابن جزى وأغلب الظن أن ابن بطوطة لم يدون مذكرات منتظمة وإن كان قد دوّن شيئاً فلا ريب في أنه قد أضاعه خلال تجواله[٤] . وابن بطوطة ارتحل إلى مناطق كثيرة في إفريقيا وتعنينا في هذا المجال رحلته إلى شرق إفريقيا والتى سافر فيها من زيلع إلى مقديشيو ، منبسة ، كلوة ، والثابت أنه قام بهذه الرحلة في عام ١٣٣١ ولعله يكون أول المصنفين العرب الذى يحدثنا بإفاضة عن الإمارات الإسلامية الهامة في شرق إفريقيا الشمالية منها والجنوبية ، وقد يكون هو الوحيد الذى يقدم لنا معلومات متصلة يمكن الاعتماد عليها عن تاريخ الساحل .

---

(١) راجع فراند Ferrand فى نسبته الكتاب الى زين الدين بن الوردى وكراتشكوفسكى فى نسبته الكتاب الى سراج الدين بن الوردى .

(٢) Cf. Ferrand, op. cit., Tome II p. 408.

(٣) كراتشكوفسكى — المصدر السابق — القسم الأول ص ٤٢٦ — ٤٢٧

(٤) راجع مادة ابن بطوطة — دائرة المعارف الاسلامية .

ورحلات ابن بطوطة على الرغم من عدم دقتها إلا أنه لاغنى عنها بالنظر لاحتوائها على بيانات وافية منها ما يمكن الاعتماد عليه . وقد أورد ابن بطوطة بتفصيل ثلاث مراكز على الساحل الشرقي هى مقديشيو ، كلوة ، منبسة ذكر عن مقديشيو أن المسافة بينها وبين زيلع خمسة عشر يوماً وهى مدينة متناهية في الكبر أفاض في الحديث عن نشاطها الاقتصادى ،وأكد اتصالها تجارياً بمصر إذ تصنع فيها الثياب الرفيعة المنسوبة إليها والتى لانظير لها ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها ، وذكر أن القاضى الذى استضافه في داره أثناء إقامته إسمه ابن البرهان ذكرعنه أنه مصرى الأصل ،ويظهر من روايات ابن بطوطة مدى تحضر مقديشيو وأن سلطانها يعرف اللغة العربية وإن كان يتكلم اللغة المقديشية ،ويبدو أن مقديشيو عندما زارها ابن بطوطة كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من التطور ،ويبدو من وصفه لها أنه كان لها أنظمة وتقاليد خاصة بها يظهر ذلك فيما أورده من التقاليد المتبعة في جلوس السلطان وما يحيط به من وزراء وأمراء ووجوه أجناد كل حسب مرتبته وأن الأطبال والأنفار والأبواق كانت تضرب عند جلوس السلطان ، ثم يتحدث ابن بطوطة عن جلوس الفقهاء وذوى الرأى وكيفية نظرهم في شكاوى الناس وتطبيقهم للشريعة الإسلامية ، ثم يمضى في وصف الحياة الاقتصادية ومدى ما وصلت إليه هذه السلطنة من اتساع في النفوذ ونمو في التجارة .

كما ذكر ابن بطوطة منبسة ولكن يبدو أن المدة التى قضاها بها وهى ليلة واحدة لم تكن كافية بطبيعة الحال للتعرف عليها أو الإطناب في وصفها فلم يذكر عنها إلا أنها شافعية المذهب مساجدها من الخشب أما عن كلوه — وذكرها ابن بطوطه بكلوة بضم الكاف ، في حين ذكرها ياقوت بكسر الكاف والأرجح أن تكون تسمية ياقوت هى الأرجح إذ سميت كذلك لأن الجزيرة تشبه كلوة الإنسان(١)، فقد وصفها ابن بطوطة بأنها مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها زنوج وهى من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها مبنية من الخشب

(١) Freeman — grenville, op. cit., p. 47.

وأهلها أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج ولكنه أشار إلى إسلام بعض الزنوج وأن هؤلاء يغلب عليهم الدين والصلاح وينتمون إلى المذهب الشافعي ، كما تحدث ابن بطوطة عن سلطان كلوة ويفهم من حديثه عنه أن السلطنة كانت متصلة ببعض البلدان الإسلامية كالعراق والحجاز ويظهر ذلك من حديثه عن السلطان أبو المظهر حسن وكان يكنى بأبي المواهب لكثرة مواهبه وكرمه وقد قال عنه أنه كان كثير الغزوات على أرض الزنوج الكفار يغير عليهم ويأخذ منهم الغنائم حيث يخرج خمسها ويصرفه في الأوجه المعينة في كتاب الله ويجعل نصيب ذوى القربي في خزانة على حده فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها .

وذكر ابن بطوطة عن امتداد نفوذ كلوة إلى منبسه إثر مصاهرة تمت بين البيتين الحاكمين في كل من كلوة ومنبسة ، وعلى الرغم من أن ابن بطوطة قد وصف لنا كلوة بطريقة لم يصفها أحد من قبله فإن ما يدعو للأسف أن ابن بطوطة لم يتوسع في الحديث عن علاقات سلطنة كلوه من الناحيتين السياسية والتجارية بغيرها من المناطق خاصة وأنها كانت في زمن ابن بطوطة أهم مركز إسلامى على الساحل الشرقي لأفريقيا ، وكانت حركة الاستيطان الإسلامى بالغة مبلغها الأقصى شدة واتساعاً . ولقد كان باستطاعة ابن بطوطة أن يوافينا ببيانات أكثر مما ذكره عنها ولكنه لم يذكر سوى القليل مع أنه أقام بالمدينة فترة كانت كافية للتعرف عليها[١] .

والجدير بالذكر أن الزمن الذى وصل فيه ابن بطوطة إلى ساحل شرق إفريقيا وهو نهاية الثلث الأول من القرن الرابع عشر كانت معظم مناطق الساحل تنتمى إلى العرب حين جاءت موجة كبيرة من مهاجرى العرب في القرن الثالث عشر الميلادى وقت اجتياح المغول دار الإسلام حتى الفرات ولحق هؤلاء ببنى جلدتهم على الساحل الشرقي لأفريقيا وجاءوا بدم جديد دافق ظهرت آثاره في عماراتهم الزاهرة وأسواقهم الفائقة التى بهرت ابن بطوطة

---

(١) راجع ابن بطوطة ـ تحفة النظار فى عجائب الأمصار جـ ١ ذكر سلطان كلوة ومقديشيو .

حين جاء الإقليم . واستطاعت هذه المجتمعات بعد أن تنوعت مصادر الثروات فيها أن تصل إلى درجة تقرب من الخيال من حيث الغنى والترف والرفاهية. ويظهر ذلك في وصف ابن بطوطة لمدن الساحل الشرقي لأفريقيا وهذا الرحالة كان على معرفة وثيقة بمستوى الحياة العربية في البلاد الواقعة في حوض البحر المتوسط في هذا العصر فعجب للثراء الكبير والحياة المترفة التى رآها ، فحديثه عن مدينة كلوة يوحى بأنها من أجمل بقاع العالم وأكثرها بهاءاً وكذلك حديثه عن منبسه ومقديشيو يعطى فيه صوراً حية لمجتمعات مترفة غنية(١) .

وفي نهاية القرن الرابع عشر يبرز لدينا كتاب أبي المحاسن بعنوان المنهل الصافي والمستوفي بالوافي (١٣٨٣) وقد نقل عنه المقريزى ترجمة لأحد قضاة مدينة لامو التقى به في مكه (٨٣٩) ذكر عنها أنها بلدة من بلاد الزنج على مقربة من مقديشيو ، ويستنتج من قول المقريزى وأبي المحاسن أن مدينة لامو كانت موجودة سنة ١٣٨٣ ولابد أنها تكون قد تأسست في عهد أقدم من ذلك لأنه كان بها في سنة ١٣٨٣ سكان مسلمون وكان لهم قاضياً عالم بالشرع الإسلامى(٢) .

وبعد هذه الرواية التى ذكرناها عن المقريزى لاتوجد لدينا مصنفات عربية عامة تعرضت لشرق إفريقيا ، وبذلك نكون قد استخرجنا كل ماتحتويه المصنفات العربية من وصف ساحل شرق إفريقيا في الفترة من القرن التاسع إلى نهاية القرن الخامس عشر وهى الفترة التى يمكن أن نسميها بالعهد الإسلامى لأنها الفترة التى كان المسلمون في خلالها على اتصال دون غيرهم بتلك المناطق التى كان لهم فيها النفوذ التام والسيادة على أطرافها والسيطرة على تجارتها .

وبوصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر تبدأ المصادر البرتغالية تتوالى علينا كما بدأت المصادر الأوربية عموماً تعرض لشرق إفريقيا .

(١) جيان — وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية فى شرق افريقية ص ١٩٥

(٢) حسن أحمد محمود — انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا .

وقد عاصر مقدم البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا ربان عربي يدعى شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى أو النجدى عاش في النصف الثاني من القرن الخامس عشر والسنوات الأولى من القرن السادس عشر وخلف تراثاً في فنون البحار والملاحة الفلكية يشتمل على ما يقرب من تسعة عشر مؤلفاً ضمنت في مخطوط كبير باللغة العربية أزيل ما علق به من تراب في أوائل القرن الحالى . والفضل في ذلك إلى المستشرق الفرنسى جبرييل فراند الذى اكتشف هذا المخطوط في مكتبة المخطوطات بالمكتبة الأهلية في باريس ، وكانت المكتبة قد حصلت على هذا المخطوط من أستاذ جزائرى يدعى سليمان تولى التدريس في مدرسة اللغات الشرقية بباريس في عام ١٨٦٠ ، وظل المخطوط يكاد يكون مهملاً في أرشيف المكتبة تحت رقم ٢٢٩٢ باستثناء بعض الإشارات السريعة العابرة عنه إلى أن قام المستشرق فراند بالتحقق من قيمته العلمية ونشره بين عامى ١٩٢١ و١٩٢٣ بعد أن عكف على دراسته ما يقرب من عشرة أعوام أو يزيد(١) .

وتنحصر أهمية هذا المخطوط في أنه أقدم وثيقة عربية دونت عن الملاحة وفنون البحار في البحار الجنوبية بين الساحل الشرقي لأفريقيا في المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربي وبحر الصين الغربي وأرخبيل الملايو وبلاد الصين ، وفي عام ١٩١٩ عثر في دمشق على نسخة أخري من هذا المخطوط وقد نسخت بمكة في ١٥٩٢ تولى فران مطابقتها على النسخة الباريسية ، وأخيراً عثر المستشرق الروسى كراتشكوفسكى بالمتحف الأسيوى على ثلاثة أراجيز تتعلق أولاها بالإبحار عن طريق البحر الأحمر والثانية بالإبحار عن طريق المحيط الهندى والثالثة وصف الطريق من المحيط الهندى إلى إفريقيا الشرقية(٢) . وقد نشرت هذه الأراجيز في عام ١٩٥٧ ، قام بنشرها معهد الإستشراق

---

(١) انور عبد العليم — أحمد بن ماجد ص ٦ انظر أيضا مادة شهاب الدين أحمد بن ماجد فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) لقيت مؤلفات أحمد بن ماجد عناية خاصة من المستشرق المعروف سيلفستردى ساسى **Silvstre de Sacy** فى عام ١٨٩٥
وتوجد نسخة زنكوغرافية فى دار الكتب المصرية نقلا عن المكتبة الأهلية بباريس لكل من مؤلفات أحمد بن ماجد وسليمان المهرى .

السوفيتي بمدينة لينينجراد بعد أن عكف فيودور شوموفسكي – أحد تلامذة كراتشكوفسكي – على دراستها والتعليق عليها وقد نشرها باسم ثلاث راهمانجات المجهولة[١] ، كما عثر على مخطوطة لأحمد بن ماجد بالموصل لا تزال تحتاج إلى تحقيق[٢] . وعلى الرغم مما يكاد يتفق عليه على أن أحمد بن ماجد هو الذى أرشد فاسكودى غاما في رحلته إلى الهند إلا أن المطلع على مؤلفات أحمد بن ماجد لا يجد بها أية إشارة عن ذلك ، وإذا كان ابن ماجد قد وضع بعض هذه المؤلفات قبل مقدم البرتغاليين فإن هناك مؤلفات أخرى كتبها بعد وصول البرتغاليين وبالتحديد بين عامى ١٥١١ و ١٥١٢ لم يتعرض فيها إلى ذلك الحادث .

أما المصادر البرتغالية المعاصرة والتى كتبها كل من كويز وباروس وكاستهنيدا فعلى الرغم من أنها أشارت إلى أن ملاحاً عربياً قاد سفينة فاسكودى غاما إلى الهند إلا أنها لا تذكر الإسم صراحة وإنما تردد أسماء غير واضحة لهذا الملاح مثل معليمو كاناكا أو كانا أو عربى من الكجرات صحب فاسكودى غاما في عام ١٤٩٨ في رحلته من مالندى إلى كاليقوط[٣] .

وقد أثبت فيران أن اسم معليمو ليس إلا تحريفاً سواحلياً للكلمة العربية معلم . وكذلك برجوعنا إلى مؤلفات سليمان المهرى وهو ملاح عربي عاش بعد ابن ماجد بسبعين سنة لا نجد في كتاباته أية إشارة إلى هذا الحادث .

أما الذى أكد على حادثة إرشاد أحمد بن ماجد للبرتغاليين فهو جبرييل فراند حينما وقع على مخطوط باللغة العربية لقطب الدين النهرواني يرجع تاريخه إلى عام ١٥٧٧ بعنوان البرق اليماني في الفتح العثماني الذى ذكر تحت باب انتقال الدولة باليمن من بنى طاهر إلى الأمير حسين من الجراكسة أنه

---

(١) نشر هذا الكتاب فى عام ١٩٥٧ عن معهد الاستشراق السوفيتى بلينجراد وبه الثلاثة مرشدات البحرية نقلا عن أصولها المحفوظة فى مكتبة معهد الاستشراق . وقد نشرت هذه المرشدات بأصولها العربية وبترجمتها والتعليق عليها باللغة الروسية .

(٢) كراتشكوفسكى – القسم الثانى ص ٥٧٤

(٣) كراتشوفسكى – مع المخطوطات العربية ص ١٨٠ – ١٨٣

وقع في أول القرن العاشر الهجرى من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند وأنهم كانوا يتعرضون لأخطار إلى أن دلهم أحمد بن ماجد إلى الطريق وقد عقد زعيم الفرنجة أواصر الصداقة بينه وبين هذا الملاح الذى كان يعب الخمر مع أمير البحر البرتغالى فلما لعبت الخمر برأس الملاح أرشد أمير البحر إلى الطريق قائلاً للبرتغاليين لا تقربوا الشاطىء عند هذا الجزء إلى الشاطىء الشرقي لإفريقية إلى الشمال من مالندى بل أديروا الدفة رأساً صوب البحر المفتوح فتبلغا شاطىء الهند وتكونوا في حمى من الأمواج ، فلما اتبعوا هذه الإرشادات نجا كثير من السفن البرتغالية من الغرق » .

وقد تكون أهمية كتابات قطب الدين أنه عاصر أحمد بن ماجد فضلاً عن أن بعض المصادر البرتغالية قد أشارت إلى إرشاد بعض الأدلاء لفاسكودى غاما إلى الطريق ، وقد حدث ذلك بتكليف من ملك مالينده الذى حالف البرتغاليين عند وصولهم إلى مالينده ضد منافسه شيخ منبسه ولكن المؤرخ البرتغالى باروس نسب قصة الإرشاد إلى ملاح مسلم من أهل كجرات ، أما الحكومة البرتغالية فإنها قد اعترفت أخيراً بفضل أحمد بن ماجد فأقامت له نصباً تذكارياً في مدينة مالينده[١] .

ولكن التشكك في أن يكون أحمد بن ماجد هو الذى أرشد البرتغاليين إلى الهند يقوم على الإعتبارات الآتية :

(أولا) أن ابن ماجد لم يشر إلى ذلك بل أنه أبدى عداء للبرتغاليين في أشعاره وأراجيزه .

(ثانياً) أن سليمان المهرى الذى ظهر بعد ابن ماجد لم يشر هو الآخر إلى هذه الحادثة ، أما سيدى على ريس في كتابه المحيط الذى كتبه باللغة التركية ورجع فيه إلى أسفار ابن ماجد وسليمان المهرى فقد ذكر أن الربابنة الأجانب كانوا لا يعرفون كيف يبحرون في المحيط الهندى دون الإستعانة بربان يرشدهم ولكنه لم يورد اسم هذا الربان . ويرى البعض أن ما ذكر عن ابن ماجد

---

(١) انور عبد العليم ــ أحمد بن ماجد ص ٦١

أنه كان في حالة سكر أمر لا يرقي إلى المنطق إذ كيف يترك له فاسكودى غاما قيادة سفينته وهو في هذه الحالة فضلاً عما تبين من كتاباته وأراجيزه شدة ورعه وحجه إلى مكة ، وربما تعنينا مؤلفات أحمد بن ماجد في تاريخ شرق إفريقيا في ناحيتين :

(أولاهما) ما جاء بها من إشارات عن وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا .

(والثانية) ذكره لبعض المناطق والمدن والجزر الموجودة على ساحل شرق إفريقيا .

ومن أهم مؤلفات أحمد بن ماجد كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، وحاوية الإختصار في أصول علم البحار ، وقد ذكر في الفائدة العاشرة من كتاب الفوائد وصفاً لبعض الجزر الكبيرة المشهورة يعنينا منها وصفه لجزيرة القمر والتى ذكر عنها أنه يحكم عليها سلاطين الإسلام وبها أربعين خطبة ويقصد بذلك أربعين مسجداً .

وإلى جانب هذه المؤلفات هنالك أراجيز لا تخرج في جملتها ، وكما سبق أن ذكرنا ، أن تكون مرشدات ملاحية لبيان طرق الملاحة . ويهمنا من هذه الأراجيز الأرجوزة السفالية نسبة إلى سفالية في جنوب شرق إفريقيا وهى قصيدة طويلة تقع في أكثر من سبعمائة بيت ، وأهمية هذه الأرجوزة أنها تكاد تكون الأرجوزة الوحيدة التى يرد فيها ذكر البرتغاليين فبالإضافة إلى ما جاء بها من وصف للمجارى والقياسات من مليبار والسند إلى نواحى السواحل والزنج وأرض السفال وجزره ، نجد فيها بيانات عن وصول البرتغاليين إلى جزيرة مدغشقر بقوله :

وخشب الإفرنج قد جاءوها ‏ ‏ ‏ ‏ وملكوها بعد أن غازوها

ويعاصر الغزو البرتغالى لشرق إفريقيا مخطوطة عربية قديمة كتبت في ذلك الوقت ولكنها فقدت ولم تصل إلينا إلا مقتطفات منها كتبت في عام ١٨٧٧ وقدمها السيد برغش بن سعيد هدية إلى السير جون كيرك القنصل البريطاني في زنجبار وهذه المخطوطة تشتمل على ١٧ ورقة فقط مكتوبة بخط منسق

واضح وإن كان بها الكثير من الأخطاء اللغوية ، وقد أهدى كيرك بدوره هذه المخطوطة التى اعتبرت فريدة في نوعها إلى المتحف البريطاني حيث حملت رقم ٢٦٦٦ وتشتمل على حوادث من وصول فرس شيراز إلى ساحل شرق إفريقيا في القرن العاشر إلى الغزو البرتغالى لكلوة في أوائل القرن السادس عشر . وقد نسخت هذه المخطوطة نقلاً عن أوراق الشيخ محيي الدين الزنجبارى قاضي زنجبار ١٨٦٢ وربما يكون هو نفس القاضى الذى تقابل معه الرحالة بيرتون Burton والذى حدثنا عنه في كتابه عن زنجبار ، وقد ذكر كيرك في تدوينه معلومات عن هذه المخطوطة أنها مأخوذة من سنة الكلاوية أما المخطوطة نفسها فتحمل اسم السلوة في أخبار كلوة التى إذا صح ما ذكره كيرك ليست إلا جزءاً من سنة الكلاوية .

وعلى هذا الأساس فإن محيي الدين الزنجبارى لا يكون مؤلف المخطوطة وإنما مجمعها خاصة وأن المخطوطة كما ذكرنا مليئة بأخطاء لغوية لا تطابق ما ذهب إليه بيرتون من فصاحة الشيخ محيي الدين وبلاغته في اللغة العربية إذا كان محيي الدين هو واضع هذه المخطوطة فعلاً . وكتاب السلوة على ذلك ليس إلا تجميعاً حديثاً على حد ما ذكره السير أرثر سترونج Strong عند نشره لكتاب السلوة وتقديمه له نقلاً عن الملاحظات التى أبداها جون كيرك .

وإذا كنا لم نعثر على السجل القديم لسنة الكلاوية فإن جرنفيل فريمان Freeman ، وهو أحد المعنيين بدراسة تاريخ شرق إفريقيا الوسيط ، لا يزال يراوده الأمل في العثور على ذلك الكتاب ويؤكد أنه عند زيارته لساحل تنجانيقا أن هنالك كثير من المخطوطات العربية والسواحلية توجد في أيدى عرب زنجبار وبمبا وقد قام المكتب الثقافي بشرق إفريقيا في عام ١٩٥٥ بتنظيم معرض للكتب الخطية ، وبالإضافة إلى ما عرض في هذا المعرض من عدد كبير من النسخ الخطية النادرة للقرآن فقد عرضت أيضاً الكثير من المخطوطات الخاصة بشرق إفريقيا ولكن لم تتوافر الظروف لتصوير هذه المخطوطات أو حتى تصنيفها[٢] .

---

(١) Cf. Richard Burton, Zanzibar, City, Island and Coast 2 vols. London.

(٢) Freeman — grenville, The Mediveal History of Tanganiyka Coast p. 47.

وقد أكد Ingrams هو الآخر في كتابه عن زنجبار وجود كثير من المخطوطات في حوزة الأهالي ولكنهم يحجمون عن تقديمها للباحثين ومن المؤكد أن تكشف هذه المخطوطات جوانب غامضة من تاريخ شرق إفريقية عند تسليط أضواء البحث عليها(١) .

وعلى الرغم من أننا لا نعرف اسم مؤلف كتاب سنة الكلاوية فقد وردت في الجزء المأخوذ عن هذا الكتاب بعض إشارات عنه والتاريخ الذى وضعه فيه ، ففى الفصل الرابع من السلوة نجد مايشير إلى أن المؤلف ولد في ٢ شوال سنة ٩٠٤ ﻫ أى في ١٣ مايو سنة ١٤٩٩ وأنه عاصر عهد السلطان فاضل والأمير إبراهيم ، ولكن الشيخ محيي الدين الزنجبارى قد أهمل عند نسخه الكتاب إسم المؤلف ولا ندرى إذا كان ذلك عن إغفال منه أو عدم معرفته إسم المؤلف .

وطبقاً للتاريخ الذى ذكر في كتاب السلوة يكون المؤرخ قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره عند حصار البرتغاليين لقلعة كلوة في عام ١٥١٢ ومن المعتقد أن يكون مؤلف سنة الكلاوية من الأسرة الحاكمة في كلوة فقد تحدث عن بعثة شكلت لمفاوضة البرتغاليين ضمنها إثنين من أقاربه .

وكتاب السلوة يتألف من مقدمة وعشرة فصول وقد نشر السير أرثر سترونج هذا الكتاب في عام ١٨٩٥ بعنوان تاريخ كلوة :

History of Kilwa (٢)

بترجمته الإنجليزية وبأصله العربى الذى نسخه الشيخ عبد الله بن مصبح ، أحد العاملين في بلاط السيد برغش ، وقد ذكر في مقدمته للكتاب أنه وقعت يده على أوراق الشيخ محيي الدين الزنجبارى ووجد ضمنها هذا التاريخ فحرص قبل أن يعيدها للسلطان أن يكتب لنفسه نسخة من هذا التاريخ(٣) .

ومقدمة كتاب السلوة مقدمة فلسفية تتناول تعطش الإنسان إلى المعرفة وأسباب ذلك ، وإن الله يميز بين العلماء والجهلاء ، وذكر أنه سيعرض في الفصل الأول لتأسيس مدينة كلوة وعن أول من وفد إليها .

(١) Cf. Ingrams, Arabia & The Isles.

(٢) Cf. History of Kilwa, Journal of the Royal Asiatic Society, April 1895.

(٣) Zôe March, East Africa Through Contemporary Records p. 214.

والفصل الثاني سيتعرض فيه عن اضطرابات الأمور في كلوة وحكومة إحدى القبائل التى اجتاحت كلوة ، والفصل الثالث عهد أبو المواهب (وهو السلطان الذى زاره ابن بطوطة) ، والفصل الرابع عن الملك العادل ، والفصل الخامس عودة أسرة أبي المواهب ، والفصل السادس حكم الحسن بن وزير ، والسابع عهد السلطان فاضل بن سلطان ، والثامن عهد حاج محمد بن ركن الدين ، والتاسع عهد السلطان محمد مكدات ، والعاشر عهد الملك سلطان بن سلطان .

وبتتبعنا لكتاب السلوة لانجد سوى المقدمة وسبعةفصول فقط ، بينما سقطت الفصول الثلاثة ، الثامن والتاسع والعاشر ، والمخطوطة على هذا الأساس تتناول عهد إمبراطورية الزنج في الفترة من وصول على بن الحسن الشيرازى إلى كلوة سنة ٩٧٥ إلى سقوطها سنة ١٥١٢ وقد يكون من المناسب أن نشير هنا إلى أن امبراطورية الزنج التى نعنيها في هذا المجال هى غير مملكة الزنج الداخلية القديمة التى تحدث عنها المسعودى في القرن العاشر الميلادى وإنما نقصد بامبراطورية الزنج الساحلية التى كان مركزها كلوة التى احتلت مكاناً بارزاً بين إمارات الساحل الشرقي لأفريقيا فيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر الميلادى .

وإذا كانت الفصول السابقة تتناول هذه الفترة فإن الفصول الثلاثة التى لم تذكر في المخطوطة يبدو أنها كانت تتناول تاريخ كلوة بعد سيطرة البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر والسنوات التالية . ومن المؤكد أن يكون مؤلف الكتاب قد تعمد إسقاط هذه الفصول فإن آخر عبارة وردت في الفصل السابع « ولم أجد بعد ذلك شيئاً » ، وقدذكرت هذه العبارة بعدحديث المؤلف عن البعثة التى ذهبت لمفاوضة فاسكو دى غاما في ٨ جمادى الأول سنة ١٤٩٤ ، ثم يذكر الناسخ أن هذه المخطوطة نسخت في ٢٠ مايو سنة ١٨٧٧ في عهد السيد برغش بن سعيد وكتبت بيد عبد الله بن مصبح الصوافي .

أما عن إسقاط مؤلف المخطوطة للفصول الثلاثة المذكورة فيرجع إلى سبب واضح إذ من المحتمل أن يكون المؤلف قد اقتصر في تأريخة لكلوة إلى السنوات الأولى من القرن السادس عشر لأن ماحدث بعد ذلك كان فيه الكثير

من الامتهان بالنسبة لكلوة بعد إحكام السيطرة البرتغالية على ساحل شرق إفريقيا .

والمهم أنه لايزال لدينا أمل في العثور على سجل كلوة القديم وكذلك المخطوطة التى نقلها الشيخ محي الدين الزنجبارى وبذلك يمكن إضافتهما إلى المخطوطة الثالثة وهى الوحيدة التى لدينا والمنسوبة إلى الشيخ عبد الله بن مصبح الصوافي ؛

وقد يكون من الجائز وقوع سجل كلوة في أيدى البرتغاليين خاصة وأن المؤرخ البرتغالى جواس دى باروس Jôas de Barros قد عثر على مجموعة ضخمة من المخطوطات نشر منها تاريخاً لكلوة بعنوان :

Choronica dos Reys de Quiloa

ولكن باروس لم يذكر لنا المصدر الذى أخذ منه الترجمة البرتغالية وقد كان من السهل علينا أن نقول إن باروس نقل عن سنة الكلاوية لولا بعض التناقضات الواضحة بين ما أورده باروس وبين النسخة التى سبق أن أشرنا إليها من تاريخ كلوة ، هذا مع التسليم بوجود تشابهاً في أوجه كثيرة بين النسخة البرتغالية وبين النسخة العربية .

وقد عنى كل من جرنفيل فريمان وبرنز بمطابقة السلوة في أخبار كلوة على تاريخ كلوة الذى نشره باروس(١) ويميل فريمان إلى الاعتقاد أن أصل المصدرين واحد إلا أن باروس أضاف معلومات من مصادر أخرى وكذلك أغفل أشياء اعتبرها غير هامة . ومما يعزز وجاهة رأى فريمان في أن مصدر النسختين مصدر واحد هو انتهاء باروس في تاريخه لكلوة في عام ١٥١٢ وهى نفس السنة التى انتهى فيها كتاب السلوة في أخبار كلوة .

ويُرجع النص العربي لتاريخ كلوة ،ويخالطه بعض الأساطير ، تأسيس مدينة كلوة إلى هجرة سلطان شيراز مع أبنائه الستة إلى ساحل شرق إفريقيا

---

(١) انظر ذلك فى كتاب جرنفيـل فريمـان التاريخ الوسيط لساحل تنجانيقا ص ٦٦ وما بعدها .

See also Prins A. H. The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and the East African Coast — Arab — Shiraz and Swahili, International African Institute, London 1961.

واستقرار السلطان بعد وصوله في كلوة وقد هاجر من شيراز إثر رؤية مخيفة توقع بها انهيار مملكته فهاجر بأبنائه ووزرائه ، على أن المخطوطة تؤكد أنه كان بكلوة جماعة من المسلمين ، بل كان هنالك مسجد أيضاً ، مما يدل على أن المسلمين قد وصلوا إلى كلوة قبل القرن العاشر الميلادى وفي فترة زمنية أسبق من الفترة التي وصل فيها الفرس الشيرازيون .

ويروى صاحب تاريخ كلوة أن السلطان حسن اشترى كلوة من صاحبها الأفريقى بأقمشة كانت معه ، بينما استقر كل ابن من أبنائه الستة في منطقة من المناطق على الساحل ، ولما كان الحسن بن على يخشى أن يعود صاحبها من جديد فقد صرف جهده لتحصينها ، ويروى صاحب كتاب السلوة أن هـذه الحادثة وقعت في منتصف القرن الثالث الهجرى (٩٧٥ م) ولا شك أن تحديد تأسيس الفرس لمدينة كلوة بهذا السبب الواهى لا يرقى إلى المنطق فالأرجح أن تكون هجرة الفرس إلى شرق إفريقية قد حدثت بين عامى ١٠٥٥ و ١١٠٠ على إثر فرار الشيعة الشيرازيين من وجه طغرل بك السلجوقي الذى غزا شيراز سنة ١٠٥٥ وهذا الرأى الذى ننقله هنا عن Hichens قد يكون أدعى إلى الإقناع مع الاعتراف بوجود فاصل زمنى بين ماذكره صاحب تاريخ كلوة وبين هذه الهجرة المشار إليها .

أما الفصول الممتدة من الفصل الثاني إلى الفصل السابع فتتناول تاريخ من تعاقب على سلطنة كلوه من ملوك وسلاطين ، والمنازعات حول العرش وعن حج معظم حكامها إلى مكه .

ولكن يهمنا الفصل السابع بصفة خاصة لأن هذا الفصل يعرض في نهايته لأخبار وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا فيقول إنه جاءت الأخبار بأن رجالاً أتوا من بلاد الفرنج بصحبة ثلاث سفن وأن اسم قائدهم ميراتي (ولعله يقصد فاسكودى غاما) فتقدموا إلى مافيا فوجدوا ترحيباً من الأهالى ولكن لم يلبث أن عرف الأهالى أنهم أتوا للتجسس على المدينة بهدف الاستيلاء عليها فثاروا عليهم فتقدموا إلى ماليندى ومنها أخذوا مؤناً ومياهاً وطلبوا مرشداً إلى الهند ، وفي عام ٩٠٦ قدم بيساريوس (ولعله يقصد القائد البرتغالى

بدرو الفاريز كبرال) وطلب من أهالى كلوة ماءً ووقوداً، وطلب أيضاً مقابلة السلطان أو ابنه فأوفد السلطان وفداً لمفاوضتهم «وقد رفض الوفد اعطاءهم ماطلبوا فذهبوا لعنة الله عليهم إلى مالينده وأخذوا كل ماكانوا يحتاجونه ، ولكنهم عادوا إلى كلوة ولما أدرك أهل كلوة أنهم لايستطيعون لهم دفعاً تقدم وفد لاستقبال الميراتي وكان قد عاد من الهند وكان في هذا الوفد بعضاً من أقاربي » .

ثم يقول صاحب التاريخ أنه « لم يجد بعد ذلك شيئاً » ويبدو أنه قد وقف عند مقدم البرتغاليين ،ويتضح ذلك من تسميته الكتاب «السلوة» أى أنه كتب تاريخاً للعزاء في تاريخ كلوة ولم يشأ بطبيعة الحال أن يكتب عما صارت إليه كلوة بعد السيطرة البرتغالية . وعلى الرغم من أن كتاب السلوة ليس النسخة الأصلية من تاريخ كلوة إلا أنه يعطينا تاريخاً متصلاً لسلطنة كلوة من القرن العاشر إلى أوائل القرن السادس عشر .

وكما سبق أن أشرنا في مقدمة هذه الدراسة أن الفترة التالية من وصول البرتغاليين تميزت بدخول إفريقيا إلى مجال الاحتكاكات بينها وبين أوربا ، فقد ظهرت الكثير من الكتب البرتغالية والأوربية بصفة عامة منذ نهاية القرن الخامس عشر . أما المصنفات العربية العامة التى أشارت لتاريخ شرق إفريقيا في عهد السيطرة البرتغالية فلا نجد منها سوى كتاب الشيخ تقى الدين المليبارى بعنوان « تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين » وهذا الكتاب نشره دافيد لوبز **David Lopes** بعنوان :

Historia Portuguesa No Malabra

ولكن لانجد في ذلك الكتاب اهتماماً واضحاً بشرق إفريقيا إذ قصر المؤلف همه إلى التعرض لمتابعة مسلمى الهند للبرتغاليين بصفة خاصة[1] وقد تميز الكتاب بحمية دينية بالغة ، الأمر الذى يؤكد أن الحرب البرتغالية في الشرق أثارت الروح الدينية التى عرفناها في العصور الوسطى .

والواقع أننا لانجد من المصادر العربية المعاصرة للفترة ما يستحق الذكر وفي تقديرى أن انشغال المسلمين بالتحول الجديد وبالحروب المستمرة بينهم

---

(١) زين الدين — تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين نشر **David Lopes**

وبين البرتغاليين وما تبع السيطرة البرتغالية من تدهور وانهيار اقتصادى ثم عزلة وجمود فكرى ، فضلاً عما تعرضت له الكثير من المراكز الإسلامية في شرق إفريقيا من حروب وحرق وتدمير ، كل هذه النواحى لم تساعد المؤرخين العرب على الكتابة عن تاريخ هذه الفترة التى ظلت مهملة بالنسبة للمصادر العربية .

وعلى الرغم من أنه لاتوجد لدينا مصادر معاصرة للفترة البرتغالية فإن بعض التواريخ المحلية التى كتبت في فترة متقدمة تطالعنا ببعض التفاصيل عن ملابسات العصر البرتغالى في شرق إفريقيا ، وقد ذكر أوين Owen في كتابه عن رحلته في شرق إفريقيا أنه عثر على مخطوطة عربية مدونه في ٢٨ شعبان ١٢٩٣ (١٨٢٢) عند أحد سكان منبسه وقد عرفت هذه المخطوطة باسم تاريخ آل المزروعى في منبسه(١) ، وقد عنى جيان Guillain بنقلها إلينا ، وتتناول هذه المخطوطة الفترة من وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا إلى العام الذى كتبت فيه ، وهى على هذا الأساس يمكن أن تمدنا بمادة مكملة لتاريخ كلوة ، خاصة وأن كلوة كانت السلطنة المسيطرة على مدن الساحل ، ولذلك فإن تاريخ آل المزروعى يمدنا بمعلومات عن الاتصالات التى قامت بين كلوة وبين البرتغاليين(٢) . ويذكر تاريخ آل المزروعى أن سلطان كلوة تسلم عدة رسائل من البرتغاليين بشأن المحالفة معه ولكنه تردد في عقد محالفة معهم فانصرف البرتغاليون إلى مالينده . ويستدل من تاريخ المزروعى أيضاً على مدى التمزق الشديد الذى كان يعاني منه الساحل الشرقي لأفريقيا فمالينده في صراع مع منبسه ، وسفالية تابعة لكلوة ولكن شيخها يوسف ، وقد شجعته الاضطرابات الداخلية ، أعلن انفصاله عن صاحب كلوة وسمح للبرتغاليين في بناء قلعة في بلاده ، وهكذا وقفت إمارات ساحل شرق إفريقيا مواقف مختلفة بالنسبة لعلاقتها بالبرتغاليين .

---

(١) Cf. Owen W. F. Narrative of Voyages to Explore the Shores of Africa, Arabia and Madagascar 2 Vols London 1833.
see vol I pp. 415-417.
Cf. Chronicles of Mombassa, Translated From the Arabic Text.

(٢) Guillain, Documents sur l'Histoire, Geographie et Commerce de l'Afrique Orientale Tome I Expose critiques de diverses Notion acquises sur l'Afrique Orientale pp. 614-622.

ويفهم من تاريخ آل المزروعى في منبسة كيف عمق البرتغاليون الخلافات التى كانت قائمة بين مالينده ومنبسة ، وكيف تمكنوا من السيطرة على منبسة وذلك بمساعدتهم الأسرة المحالفة لهم في مالينده على الوصول إلى حكم منبسة ، وتذكر المخطوطة بصدد ذلك أن منبسة كانت تابعة لزنجبار ثم انفصلت عنها وتولى الحكم بها شاوو موفيتا (شاهو بن مشمم) منذ انفصالها ، ويبدو أن هذا الإسم إسم فارسى سواحلى مما قد يستدل منه أنه كان أحد أقارب الأسرة الشيرازية التى تأسست في كلوة .

وتذكر المخطوطة العربية أن شاهو هذا كان آخر أمراء الأسرة الشيرازية التى حكمت مدينة منبسة منذ انفصالها عن زنجبار ، وأن حاكم مالينده هو الذى خلف شاهو على منبسة وكان يدعى الشيخ أحمد ، وترتب على وصول الشيخ أحمد إلى الحكم في منبسه بمساعدة البرتغاليين له أن عقد معهم محالفة تمكنوا بواسطتها من إبقاء حامية عسكرية برتغالية في قلعة منبسة ولكن تمضى المخطوطة العربية فتذكر أن السلطان أحمد صاحب منبسة الجديد كان له ولداً يدعى شنجوليا فلما مات السلطان أحمد انتخبه الأهالى بالولاية عليهم في يوم السبت ٧ محرم ١٠٤٠ هـ الموافق ١٣ أغسطس ١٦٣١ ، ولم يرد في التاريخ شىء عن المدة الواقعة بين تاريخ وفاة أبيه في ١٦٢٧ وبين جلوسه هو على الحكم في عام ١٦٣١ . والأرجح كما تقرر المصادر البرتغالية المعاصرة أن البرتغاليين بعثوا به إلى جوا وكان يبلغ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره عند وفاة أبيه وهناك عهدوا بتربيته إلى طائفة سانت أو غسطين ويقال إنه تنصر وتسمى باسم دون جيرونيمو . ولما عاد إلى منبسة وتسلم الحكم في عام ١٦٣١ سار بين الناس بالجور إذ كان يكرههم على أكل لحم الخنزير ، وكان على الجملة رجل سوء وشر ، وعلى الرغم من تحامل المخطوطة العربية عليه فإنها تسجل كفاحه في مقاتلة البرتغاليين الأمر الذى يفهم منه أنه كان يتصرف تلك التصرفات بهدف خديعة البرتغاليين إذ مالبثت منبسة بقيادة شنجوليا أن عادت مرة ثانيه لتزعم حركة النضال ضد البرتغاليين ، وعندما علم بأسطول برتغالى يتقدم إلى منبسة أسرع بتخريب المدينة وهاجر هو وقومه إلى اليمن ، وهيأ المسرح لظهور

عمان لتنزعم مدن شرق إفريقيا في محاولات مستمرة للقضاء على السيطرة البرتغالية وإقصاء البرتغاليين من منطقة الشرق الأفريقي ، وللأسف أن تاريخ آل المزروعي لايذكر لنا مراحل تدخل عرب عمان في الصراع بينهم وبين البرتغاليين ونجداتهم المستمرة لأهالي شرق إفريقيا وإن كان تاريخ المزروعي مع ذلك يسجل سقوط حصن المسيح الذى بناه البرتغاليون في منبسة على أيدى الإمام سلطان بن سيف في ٩ جمادى الثاني ١١١٠ هـ الموافق ١٤ ديسمبر ١٦٩٨ ، وأن الإمام سلطان بن سيف اليعربي استطاع بعد إسقاطه لمعقل البرتغاليين الحصين في منبسة أن يسيطر على مدن ساحل شرق إفريقيا ، زنجبار وكلوة وبات وماليندە بل وصل إلى موزنبيق ولم يثنه عنها سوى انفجار لغم كان البرتغاليون قد وضعوه هناك ، وأنه أعمل الذبح والتقتيل في فلول الحاميات البرتغالية التى كانت مسيطرة على مدن الساحل الشرقي وجزره .

ويتعرض تاريخ المزروعى إلى وصول أسرة المعمورى إلى حكم منبسة نيابة عن السلطان العماني اليعربى وقد بقيت هذه الأسرة حتى عام ١٧٣٩ حينما استطاع محمد بن عثمان المزروعى الذى تنسب إليه أسرة المزروعى ،وهى تنتسب إلى قبيلة عربية تسكن على الساحل الغربي للخليج العربي ،من انتزاع ولاية منبسة من آل المعمورى ولم تلبث أن واتته الفرصة لكى يعلن استقلاله عن عمان ويؤسس حكماً مستقلاً في منبسة حينما سقطت أسرة اليعاربة في عمان وأعلن المزروعى عدم اعترافه بمؤسس الأسرة الجديدة التى حلت محل أسرة اليعاربة ، وهى أسرة البوسعيد ، وظل خلفاء محمد بن عثمان المزروعى يتعاقبون على حكم منبسة وتوابعها إلى أن أسقط السيد سعيد بن سلطان هذه الأسرة في عام ١٨٣٩ وكان سقوط هذه الأسرة من أهم العوامل التى مهدت للسيد سعيد بن سلطان أن يقوى من دعائم سلطته في شرق إفريقيا على أن تاريخ أسرة المزروعى يقف عند عام ١٨٢٢ ، وإذن فنستطيع أن نعتمد على المصادر العمانيه في تناولنا للأحداث التاليه نظراً للصلات الوثيقة التى قامت بين عمان وشرق إفريقيا وخاصة على عهد السيد سعيد بن سلطان غير أن ما يؤخذ على هذه المصادر أنها أولت اهتمامها بعمان والجزيرة العربية ولم تشر إلى الشرق الأفريقى سوى إشارات طفيفه ، ويعزو ذلك في تقديرنا

أنه على الرغم من أن عاصمة الدولة انتقلت من مسقط إلى زنجبار في عام ١٨٣٢ إلا أن العمانيين استمروا مع ذلك يعتقدون أن المناطق الأفريقية مناطق ملحقه وليست الأساس الذى تقوم عليه الدولة ، وعلى الرغم من هجرة كثيرين من العرب ذوى الثقل الاجتماعى والمادى إلى شرق إفريقيا فقد استمر مع ذلك لإقليم عمان مكانته الروحية فضلاً عن أنه كان المستودع الطبيعى للعناصر العربية التى تمد القسم الأفريقى من السلطنة بما تحتاجه من مقومات ودماء عربية .

ولدينا من هذه الكتب العمانية كتاباً هاماً هو الفتح المبين المبرهن في سيرة السادة البوسعيديين تأليف حميد بن محمد رزيق بن بخيت وهذا الكتاب يعد من أهم مؤلفات هذا المؤرخ العماني إذ لديه بعض مخطوطات أخرى أقل أهمية محفوظه بمكتبة جامعة كمبردج .

وقد قام الدكتور بادجر **Badger** وهو أحد الباحثين الثقاة في تاريخ عمان بنشر هذا الكتاب ولكنه لم ينشر النص العربي وإنما اكتفى بترجمة هذا النص إلى اللغة الإنجليزية ولما كان النص العربي ينتهى في عام ١٨٥٦ وهى سنة وفاة السيد سعيد بن سلطان فقد أضاف بادجر إلى تاريخ بن رزيق تحليلاً تاريخياً للأحداث التى وقعت حتى عام ١٨٧٠ . وقد ذكر بادجر أن النسخة العربية قدمت له هدية من السلطان برغش بن سعيد أثناء زيارته إلى زنجبار حينما كان يقوم بمهمة التوفيق في النزاع الذى كان قائماً بين مسقط وزنجبار وقد نشر بادجر كتاب بن رزيق في عام ١٨٧١ بعنوان :

History of the Imams and Seyyids of Omam
By Salil Bin Razik

ولكن يلاحظ أن بادجر أخطأ خطأين أولهما أن إسم المؤلف ليس سليلاً كما ذكر بادجر إذ أن ابن رزيق ذكر أسمه أكثر من مرة في الكتاب وهو حميد بن محمد ، ولكن المؤلف ذكر أنه « سليل » بن رزيق فاعتقد بادجر أن سليلاً هو إسم علم .

والخطأ الثاني كتابة بادجر اسم المؤلف ابن رازق وصحته بن رزيق .

وقد ذكر حميد بن رزيق أنه انتهى من وضع هذا الكتاب في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٢٧٤ هـ الموافق (١٢ ديسمبر سنة ١٨٥٧) وقسمه إلى ثلاثة أقسام أو ثلاثة كتب أسماها :

القسم الأول أو الكتاب الأول يعرض لتاريخ عمان من سنة ٤١ هـ أو ٦٦١م إلى اعتلاء الإمام أحمد بن سعيد الحكم في عام١٧٤١ ، والكتاب الثاني من احمد بن سعيد إلى حفيده سعيد بن الإمام ، ثم يخصص الكتاب الثالث لحياة وأعمال السيد سعيد بن سلطان وينتهى به إلى وفاته في عام ١٨٥٦ وقد أسمى القسم الأخير بالبدر الكامل .

ولاشك أن ابن رزيق يعد من الكتاب الموالين لأسرة البوسعيد بل ويعترف المؤلف في أكثر من موضع في هذا الكتاب أن هذه الأسرة كان لها فضل كبير عايه، وأن الإمام أحمد بن سعيد قد عين جده في إحدى الوظائف الرئيسية في الدولة .

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لايوجه عناية كافية للشرق الأفريقى ويركز اهتمامه بعمان حتى بعد انتقال مركز الحكم إلى زنجبار فإن أهمية الكتاب بالنسبة لتاريخ شرق إفريقيا تنحصر في ناحيتين : الأولى أنه يكاد يكون المصدر العربي الوحيد بين أيدينا الذى يتعرض لأصول العلاقات السياسية بين عمان وشرق إفريقيا ويتحدث بصدد ذلك عن ثورة العمانيين على الدولة الأموية وأنه كان من نتيجة فشل هذه الثورة التى تزعمها الجلنديون، وهى الأسرة التى كانت تحكم في عمان، أن فر هؤلاء إلى بلاد الزنج في عام ٦٨٤ م، ثم وفدت إليهم موجات أخرى من العرب حيث بدأ اختلاطهم وتزاوجهم مع أهالى شرق إفريقيا، والواقع أن معلوماتنا عن تأسيس الإمارات الإسلامية الفارسية أو العربية في شرق أفريقيا لاتزال كما سبق أن ألمحنا معلومات قاصرة ، وخاصة أن المصادر العربية العامة قد تجاهلت هذه الفترة ومن ثم فإن اعتمادنا يرتكز على المصادر السواحلية فيما يختص بنشأة هذه الإمارات وتطوراتها وإن كانت هذه المصادر المحلية السواحلية تحتاج إلى حذر بالغ عند الاعتماد عليها كمادة تاريخية بالنظر لما علق بها من أساطير أو خيال .

والأهمية الثانية لكتاب ابن رزيق أنه متمم لتاريخ آل المزروعى في منبسة خاصة حينما يعرض لصراع السيد سعيد ضد المزروعيين[١] ، وتمكنه في نهاية الأمر من إسقاط الأسرة المزروعية في عام ١٨٣٩ ، واتجاهه بعد ذلك إلى السيطرة على مدن شرق إفريقيا ، ومع ذلك لايكاد المؤلف ينصرف إلى الأحداث في شرق إفريقيا حتى تشده الأحداث التى تجرى في عمان وعن تردد السيد سعيد بين آونة وأخرى من عاصمته الجديدة زنجبار ومجيئه المتكرر عمان لكى يعالج المشكلات الداخليه والخارجية التى تتعرض لها فهو ينهى كتابه بحرب السيد سعيد مع فارس ورجوعه بعد عقد الصلح إلى زنجبار ١٨٥٦ ووفاته على ظهر السفينة التى حملته إلى عاصمته الجديدة زنجبار[٢] .

ويمكن بشئ من التجاوز أن نضيف مصدرين هامين للمصادر التى تناولت تاريخ شرق إفريقيا ، وأحد هذين المصدرين وضعته ابنة السيد سعيد السيدة سلمى والآخر كتبه حفيد السيد سعيد .

والمصدر الأول يتضمن ذكريات السيدة سلمى في قصر الموتنى بزنجبار وقد تزوجت من أحد الضباط الألمان ويدعى رويت **Ruete** وانتقلت معه إلى بلاده وتسمت باسم إميلى **Emily** ووضعت هذا الكتاب باللغة الألمانية بعنوان مذكرات أميرة عربية وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغتين الانجليزية والفرنسية وقد تناولت في هذا الكتاب جوانب شيقة من نظم القصر والبلاط وحياتها في بيت المتونى في حياة أبيها السيد سعيد، ثم تعرضت إلى النزاع الذى حدث بين أخويها ثوينى وماجد حول ميراث أبيهما السيد سعيد، وحول تقسيم ملك أبيها فيما بينهما[٣] . وقد وفدت السيدة سلمى إلى زنجبار في عهد أخيها السيد برغش بن سعيد لتطالب بنصيبها من تركة أبيها ويبدو أن الحكومة الألمانية هى التى دفعتها إلى ذلك حتى تجد من ورائها وسيلة للضغط على السيد برغش باعتبارها قد أصبحت رعية ألمانية .

---

(١) Badger, History of the Imams and Seyyids of Oman by Salih Bin Razik pp. 348-349.

(٢) Bin Razik, op. cit., p. 355.

(٣) Cf. Emiby Ruete, Memoire d'une Princesse Arabe Paris.

أما المصدر الآخر فقد تناول ترجمة للسيد سعيد بن سلطان وضعها ابن السيدة سلمى وحفيد السيد سعيد رودلف رويت وقد نشر هذا الكتاب باللغة الانجليزية في عام ١٩٢٩ بعنوان

Said Bin Sultan
Ruler of Oman and East
Africa (1791 — 1856)

وقد اهتم فيه رودلف بإبراز شخصية السيد سعيد في المجال الدولى وعلاقاته الخارجية وأهم مميزات شخصيته كما تناول إلى جانب ذلك دراسة لتاريخ عمان وشرق إفريقيا قبل وصول السيد سعيد إلى الحكم .

كما له إلى جانب ذلك الكتاب محاضرة ألقاها في الجمعية الملكية الآسيوية في لندن في يوليو سنة ١٩٢٩ عن أسرة البوسعيد في الجزيرة العربية وشرق إفريقيا

The Al Bu Said Dynasty inArabia and East Africa

كما له إلى جانب ذلك أيضاً قائمة تاريخية بيبليوجرافية خاصة بأسرة البوسعيد من مؤسسها أحمد بن سعيد إلى وفاة السيد سعيد :

Dates and Refrences of the History of the Al Bu Said Dynasty from the time of it's founder Ahmed Bin Said till the death of Said Bin Sultan.

وبعد وفاة السيد سعيد انتهزت الحكومة البريطانية في الهند وقوع الصراع بين أبنائه ماجد وثوينى فأوفدت لجنة للتحقيق في هذا النزاع وذهبت اللجنة إلى كل من مسقط وزنجبار ووضعت تقريراً استند عليه اللورد كاننج نائب الملك في الهند في إصدار تحكيمه المشهور والذى قضى فيه باستقلال زنجبار عن مسقط حيث تم إعلانهما سلطنتين مستقلتين بمقتضى التصريح الانجليزى الفرنسى المشترك الذى صدر في العام التالى ١٨٦٢ .

وهكذا استقلت سلطنة زنجبار عن عمان وفقدت بالتالى المقومات العربية التى كانت تعتمد عليها في إبراز شخصيتها العربية وبدأت تخضع منذ ذلك الوقت للتأثيرات الاستعمارية خاصة وأن الاستعمار الانجليزى حرص حرصاً شديداً على مسخ الشخصية العربية للسلطنة ولم تعد اللغة العربية إلا لغة الطبقة

الأرستقراطية الحاكمة وأخذ معين المصادر العربية ينضب بالتالى ومع ذلك فقد حرص حكام السلطنة على اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية لهم وقد عثرنا في المكتبة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية على سجل للمراسلات السياسية للسيد برغش بن سعيد يحمل رقم ١٤٨٨ ويتكون هذا السجل من ثلاثة وعشرين ورقة تتخللها مكاتبات ذكر السجل أن بعضها بخط السلطان برغش وكلها تحمل تاريخ ١٢٨٦ ﻫ المقابل لعام ١٨٧٩ م .

وهذه المكاتبات موجهة من السيد برغش إلى ولاته في كل من قسمايو ولامو وكلوة وماليندى وبراوة كما يتضمن السجل مراسلات أخرى من السيد برغش إلىقناصل الدول الأجنبية في زنجبار خاصة قناصل انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وبيت الفريد رابو Rabaud وهو من البيوتات التجارية الفرنسية الشهيرة التى كان لها نشاط واضح في شرق إفريقيا . والملاحظة على هذه المكاتبات الموجهة إلى الولاة أنها تقتصر على الولاة القائمون بمدن الساحل بينما لاتوجد مكاتبات لولاة المقاطعات الداخلة الأمر الذى يفهم منه أن السيد برغش بن سعيد لم يكن يمارس نفوذا سياسياً على مقاطعات الداخل ، ولعل ذلك هو الذى شجع كل من ألمانيا وبريطانيا عند تقسيمها سلطنة زنجبار إلى مناطق نفوذ بريطانية وألمانية ألا يعترفا للسيد برغش بأى سلطان حقيقى له في الداخل وقصرت كل من الدولتين اعترافهما في المادة الأولى من اتفاقية أكتوبر سنة ١٨٨٦ على سلطة سلطان زنجبار على الجزر وعلى الساحل الممتد من منجاني جنوباً حتى لامو بعمق عشرة أميال في الداخل وعلى مدن قسمايو وبراوة ومركة ومقديشيو في دائرة قطرها عشرة أميال ، ووراشيخ في دائرة قطرها خمسة أميال . ولكن اللجنة تجاهلت الروابط الاقتصادية التى كانت تربط السلطنة بمقاطعات الداخل ففى عهد السيد برغش جهد التجار العرب للامتداد إلى الداخل واشتهر من هؤلاء التجار حميد الدين المرجبى أو تيبوتيب وللأسف أننا لا نملك مصادر عربية تتحدث عن هذا الرجل إلا ماأورده جورجى زيدان في كتابه عن أشهر مشاهير الشرق إذ أفرد له ترجمة في الجزء الأول

من كتابه وتعرض فيها للجهود التى بذلها المرجبى في السيطرة على الكنغو وعلاقاته بكل من الانجليز والبلجيك .

وقد ذكر جورجى زيدان أنه نقل هذه الترجمة من الشيخ ناصر بن سليمان اللمكى وأورد فيها انتماء المرجبى إلى قبيلة المراجبة وهذه القبيلة لعبت دوراً كبيراً في تأكيد النفوذ العربي على ساحل شرق إفريقيه واستعان بها الأئمة اليعاربة في القضاء على نفوذ البرتغاليين في القرن السابع عشر والثامن عشر وقد وصلت هذه القبيلة إلى زنجبار واستقرت بها منذ عهد السيد سعيد بن سلطان واتخذت مركزها جنوب مدينة دار السلام وقد ولد المرجبى في زمن السيد سعيد في عام ١٢٤٨هـ ولكن نشاطه اتضح في عهد ماجد بن سعيد وأخيه برغش بن سعيد وقد استعان به كل من ماجد وبرغش في تأكيد نفوذهما في داخل إفريقية وكانت كل من أوجيجى وتابوره والكونغو من أهم مناطق نشاطه في التجارة حينا وفي السيطرة حينا آخر ويستدل من ترجمة المرجبى على أنه كانت له صلة مستمرة بسلاطنة زنجبار الذين كانوا لا يوالون عن تقديم الأسلحة إليه وقد أورد المترجم رسالة بعث بها برغش بن سعيد إلى حميد بن محمد المرجبى يهنئه فيها على انتصاره في تابوره وأوجيجى وقد استعان به كل من البلجيك والانجليز — لتهدئة ثائرة العرب ضد البلجيك في الكونغو خاصة وأن البلجيك وجدوا مقاومة شديدة من التجار العرب في المنطقة وقد استعان البلجيك بالزنوج لطرد العرب نتيجة للعداء الذى عمدوا إلى تقويته بين الزنوج وبين تجار العرب من تجار الرقيق واستطاع القنصل الانجليزى في زنجبار التأثير على المرجبى بالوعود حتى تم الاتفاق بين عرب الكونغو والبلجيك(١) .

ولكن ماكاد يتم الاتفاق ويتمكن البلجيك من الاستقرار حتى نكلوا بالعرب وقضوا على دولتهم فى الكونغو وإفريقية الوسطى.

ويستدل من ترجمة المرجبى على النفوذ التجارى الذى كانت تتمتع به سلطنة زنجبار في داخل إفريقيا خاصة وأن سلطنة زنجبار كانت تعتمد منذ قيامها على الدعامة الاقتصادية وعلى حركة مرور القوافل من الساحل إلى

---

(١) جورجى زيدان — تراجم مشاهير الشرق ج ١ ص ١٦٨ — ١٧٣

الداخل حيث كانت تحصل على موارد كبيرة من العاج والرقيق ، وإلى جانب ترجمة جورجي زيدان لحميد الدين المرجبي كتب عنه الأستاذ الشاطر بوصيلي مقالة صغيرة في مجلة نهضة إفريقيا والواقع أننا لانزال في حاجة إلى دراسات أخرى عن النفوذ العربي في الكنغو وفي أواسط إفريقيا وفي منطقة البحيرات الاستوائيه ، وقد تفيدنا في ذلك الصدد كتابات الرحالة الأوربيين والمبشرين من رواد حركة التبشير والكشف الجغرافي في إفريقيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر خاصة وأن هؤلاء استفادوا من المراكز التجارية التى كان ينشئها التجار العرب على طول طرق القوافل والتى كانت بمثابة مراكز حضارية ساهمت إلى حد كبير في إلقاء الضوء على مجاهل القارة الأفريقية .

وقد امتدت سلطنة زنجبار في الوقت الذى حدث فيه التوسع المصرى في عهد الخديوى إسماعيل في إفريقيا حينما امتد النفوذ المصرى إلى بلاد السودان والبحر الأحمر ثم تدفق هذا النفوذ إلى ساحل الصومال . وتعتبر الإمبراطورية المصرية في إفريقية في عهد الخديوى إسماعيل وسلطنة زنجبار في عهد خلفاء السيد سعيد ، ماجد وبرغش ، أقوى الدول الأفريقية العربية التى كان من المنتظر أن يتكون من اتحادهما قوة يمكن أن تواجه النفوذ الاستعمارى الذى بدأت تتعرض له إفريقيا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي الواقع أننا نجد بعض المصادر العربية التى تحدثنا عن اتجاهات لتعاون هاتين الدولتين ، ثم نجد مصادر أخرى تحدثنا عن التوتر الذى حدث بينهما بفعل السياسة البريطانية التى حرصت على أن توقع بين هاتين القوتين حتى تتمكن من ابتلاع إحداهما وراء الأخرى بعد تقسيمها وتجزئتها إلى أجزاء صغيرة تسهل عليها عملية الابتلاع هذه .

ومن أهم المصادر التى أشارت إلى العلاقات بين مصر وسلطنة زنجبار كتاب اسماعيل سرهنك المعروف باسم حقائق الأخبار عن دول البحار والكتاب يقع في ثلاثة أجزاء يهمنا الجزء الثاني الذى يتعرض فيه لتاريخ مصر أما الجزئين الأول والثالث فهما يخرجان عن موضوع هذه الدراسة لأن الأول

يتناول تاريخ الدول الإسلامية البحرية والثالث يتناول بعض جوانب من تاريخ أوربا ، ويوجد في الكتاب بعض صور الوثائق التى استطاع اسماعيل باشا سرهنك أن يحصل عليها بحكم مركزه وبحكم الوظائف التى تولاها في البحرية المصرية وبعض هذه الوثائق نادر لايوجد في مراجع أخرى .

ومن هذه الوثائق صورة خطاب كتبه السلطان ماجد بن سعيد سلطان زنجبار إلى الخديو إسماعيل في شهر محرم سنة ١٢٨٢ وسلمه إلى قائد السفينتين المصريتين الابراهيمية وسمنود بمناسبة مرورهما بزنجبار في طريقهما من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر عن طريق رأس الرجاء الصالح قبل افتتاح قناة السويس . وكانت هذه السفن قد أوصى الخديو اسماعيل بشرائها من أوربا ، وأمر بنقلهما إلى مصر وسافرت السفينة الأولى الإبراهيمية في عام ١٢٨١ هـ تحت قيادة مصطفى بك العربي وقد عرج في طريقه على زنجبار حيث أكرم سلطانها وفادته هو وجميع من كان بالسفينة المذكورة من المصريين وأهدى قبطان السفينة سيفاً مرصعاً وأشياء أخرى ، وأرسل معه رسالة ودية إلى الخديو إسماعيل وكتب له الخديو يشكره على ذلك برسالة ودية أخرى[١] .

أما الوثيقة الثانية التى ذكرها سرهنك فتتضمن مشروع معاهدة بين مصر وزنجبار ، ويذكر بصدد ذلك أن الحملات العسكرية كانت منذ عام ١٨٧٥ تسافر إثر بعضها إلى قلب القارة الأفريقية لبث النفوذ المصرى بين قبائلها وسكانها وكانت تلك القبائل تقابلهم بالحفاوة والخضوع وفي عام ١٨٧٢ وصلت إحدى هذه الحملات المصرية العسكرية عن طريق أوغندا إلى زنجبار . وهناك استقبلت بترحاب بالغ وأظهر لها السكان ميلهم إلى الحكومة المصرية وقابل قائدها ملك زنجبار الذى أكرم مثواه وأظهر له شديد رغبته في مصادقة الحكومة المصرية وأنه يريد الاستظلال بالعلم العثماني المصرى على شرط أن يكون صاحب امتياز يضمن له حقوقه وحقوق أسرته ورعاياه

---

(١) اسماعيـل سرهنك ـ حقائق الأخبـار عن دول البحار ج ٢ ، ص ٣١٨ ـ ٣١٩

وأخبره أنه يخطب باسم أمير المؤمنين وسلطان العثمانيين في كل بلاده ثم عقد مع القائد المصرى معاهدة كانت تتكون من مواد سته :

تنص المادة الأولى على أن تكون سلطنة زنجبار تحت الحماية الإسلامية العثمانية المصرية ويكون الملك محصوراً بالتوارث بين ذرية السلطان الحالى أو بين أعضاء أسرته ، بمعنى أن يكون امتياز السلطان في سلطنته شبيهاً بامتياز الخديو إسماعيل باشا وأسرته في مصر .

وتنص المادة الثانية على أن ترسل الحكومة المصرية موظفين من قبلها ليقوموا بتأليف هيئة الحكومة في زنجبار وبتنظيم المالية والجند طبقاً للأنظمة المتبعة في الحكومة المصرية . ولا يجوز تعيين مصرى لأية وظيفة كانت إذا وجد وطنى يقدر على القيام بها .

وتنص المادة الثالثة على أن ترسل الحكومة المصرية مندوبين من أصدقائها ورجالها الخبيرين ليؤيدوا كل النظامات التى تسن في مملكة زنجبار بشأن إنشاء نظارات مالية وداخلية وحربية ونظارة معارف ونظارة أشغال يكون التلاميذ المتخرجون في مدارس السلطنة مقدمين على غيرهم في الترشيح للوظائف ولايجوز لمصر أن تطلب عساكر من زنجبار إلا إذا حدثت حرب دينيه بين أمير المؤمنين وعدو آخر فيطلب هو نفسه حينئذ جنوداً من زنجبار ثم أن علائق مملكة زنجبار وصلات شئونها كلها مع الدول الأجنبية يكون عقدها وحلها على يد نظارة الخارجية المصرية .

وتنص المادة الرابعة على أنه لايجوز للحكومة المصرية في سلطنة زنجبار أن تعين أحداً من الأجانب الغير مسلمين إلا إذا كانوا من رعاياها فلا بأس حينئذ من منحهم وظائف .

أما المادة الخامسة فقد نصت على أن جميع الأموال التى تجبى من مملكة زنجبار تنفق في شئونها وما بقى بعد ذلك يؤخذ إلى الخزانة المصرية وتكون مصر ملزمة بصرف كل أزمة مالية أو عسكرية تصيب سلطنة زنجبار .

أما المادة السادسة وهى المادة الأخيرة من مشروع هذه المعاهدة فقد نصت على أن تكون هذه المعاهدة سارية المفعول بعد اطلاع خديو مصر عليها وإصدار أمر بقبولها .

ولكن سرهنك يذكر أن غوردون ، وكان حينئذ حاكماً على مديرية خط الاستواء ، عرقل هذه المساعى فكتب إلى السلطان برغش يحذره من وقوع سلطنته تحت الحماية المصرية وفي نفس الوقت أوفد إلى الخديو إسماعيل بأن سلطان زنجبار يسىء معاملة التجار المصريين[1] .

والواقع أن اسماعيل سرهنك هو الذى انفرد بتفصيل ذلك الموضوع إذ لم نعثر على مشروع هذه المعاهدة في وثائق عابدين أو في المصادر الأخرى التى تعرضت للعلاقات بين مصر وزنجبار .

أما وثائق عابدين فهى تعرض للعلاقات الودية بين مصر وزنجبار ثم تعرض أيضاً لتوتر العلاقات بينهما ففى محافظ السودان ١٢٩٢هـ (١٨٧٥ م) توجد بعض الوثائق التى تتناول مرور السيد برغش بن سعيد بقناة السويس عند زيارته للملكة فيكتوريا بلندن[2] ، ثم عن زيارته لمصر عند عودته من لندن وعن الهدايا التى أرسلت من مصر والتى كانت تتضمن بعض الأسلحة والكتب إلى زنجبار بمناسبة هذه الزيارة[3] ، وعن حضوره احتفال مهرجان جبر النيل مع الخديوى إسماعيل في عام ١٨٧٥[4] .

ولكننا نجد في وثائق أخرى بوادر عن الصدامات التى وقعت بين سياسة إسماعيل في الصومال وبين سلطات زنجبار التى كانت تسيطر على الجزء الجنوبي

---

(١) سرهنك — حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٣١٩

(٢) وثائق عابدين — صورة التلغراف رقم ١٥٦ بتاريخ ١٨ ربيع ثانى ١٢٩٢ من محافظ السويس الى المعية السنية .

انظر ايضا تلغراف رقم ١٧٥ بتاريخ ٢٠ ربيع ثانى ١٢٩٢ من محافظ بورسعيد الى مهردار الخديوى .

(٣) انظر محافظ السودان ١٢٩٢ دفتر رقم ٣٢ صورة التلغراف العربى رقم ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٩ بتاريخ ٨/٦/٥ رجب ١٢٩٢ من محافظ مصر الى مهردار خديوى .

(٤) وثائق عابدين دفتر رقم ٣٢ صورة التلغراف العربى رقم ١٠٩ من محافظ مصر الى سعادة مهردار الخديوى .

من ساحل الصومال ، وذلك بعد أن حاول إسماعيل تنفيذ المشروع الخاص بضم البلاد الواقعة جنوب غندكرو وذلك بواسطة الطريق الموصل من منبسة إلى أوغندة . وكان هذا المشروع قد عرضه الضابط الأمريكى « شاى لونج » على الخديو في بداية الأمر وعرضه الخديو إسماعيل بدوره على غوردون باشا حاكم مديرية خط الاستواء . ويلاحظ أن هذه المراسلات الخاصة بفتح هذا الطريق كانت تتم بتكتم شديد ، ويفهم من الوثائق أن الانجليز كانوا يعملون على عرقلة المشروع المصرى وذلك بتأكيد حقوق سلطان زنجبار على الساحل

وقد ظهر ذلك على وجه الخصوص في عام ١٨٧٥ بعد نجاح مصر في الاستيلاء على هرر وبدأت تعمل على الاستيلاء على ساحل الصومال جنوب المحيط الهندى والذى كان يتبع سلطنة زنجبار لتحقيق مشروع عاجل يتصل اتصالاً كلياً بالمشروع العام الخاص بتوسع مصر في إفريقية ، ويقتضى هذا المشروع امتلاك مصر لمنفذ على ساحل إفريقيا الشرقي في موازاة خط الاستواء لإنشاء مواصلات مع المديريات الاستوائية التى كان قد تم فتحها تكون أسهل وأقصر من مواصلات النيل ، ومن العجيب أن هذا المشروع الضخم ستعمل إنجلترا على إحباطه،ولكنها ستعاود تنفيذه بنفسها فيما بعد حينما عملت إبان الحرب العالمية الأولى على إنشاء سكة حديد كمبالا — منبسة .

والواقع أن تفكير الخديو في هذا المشروع يرجع إلى عام ١٨٧١ وكانت آخر محاولة لتنفيذه في عام ١٨٧٦ . وقد مرت جميع محاولات تنفيذ المشروع بتكتم بالغ ، كما حرص الخديو إسماعيل أن يبعث إلى قواد حملاته بأن لايسيئوا إلى القبائل الإفريقية ولا يسيئوا في نفس الوقت لتجار العاج والرقيق وتتضح هذه السياسة في رسالة بعث بها اسماعيل إلى الكولونيل بيوردى **Burdy** يطلب منه أن يتبع سياسة معتدلة إزاء القبائل الأفريقية يقول فيها « يجب أن تفهم أن مهمتنا لايربطها بمهمة تجار العاج والرقيق أى غرض مشترك والتجار يجب أن يفهموا أنك لاتذهب للإضرار بمصالحهم » ، غير أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح ومن ناحية أخرى أن التوسع المصرى في منطقة البحيرات الاستوائية لم يكن قد استتب بطريقة تسمح أن يتم هذا الاتصال بين الساحل والداخل .

ولكن في عام ١٨٧٤ بدأت الممتلكات المصرية تتسع في جنوب السودان وأعلن الخديو رسمياً بأن البلاد التى حول غندكرو دخلت في حوزة الخديوية المصرية وسميت غندكرو باسم الاسماعيلية وعين الكولونيل غردون حاكماً لمديرية خط الاستواء في نفس ذلك العام ليتم ما كان قد شرع فيه السير صمويل بيكر من مد نفوذ مصر إلى بحيرة فيكتوريا نيانزا . وفي عام ١٨٧٥ عزم الخديوى إسماعيل على إرسال تجريدة مصرية إلى بلاد الصومال الجنوبية لإدخال البلاد الواقعة على نهر جوبا المذكور في قبضة مصر حتى يتيسر له إيصال أملاكها في شرق إفريقية بما لها من ممتلكات في جهات خط الاستواء فجهز لذلك تجريدة عسكرية بقيادة ماكيلوب باشا رئيس مصلحة المنارات بدلاً من القائد الأمريكي بيوردى ويبدو أنه كان يهدف من ذلك استمالة الانجليز إليه وإن كان ذلك لم يمنع الخديو من مراقبة ماكيلوب بواسطة شاى لونج الأمريكى الذى أشركه معه في الحملة وكذلك بواسطة بعض القواد والمهندسين المصريين(١) .

وقد أقلعت هذه الحملة من ميناء السويس في ١٧ فبراير سنة ١٨٧٥ ولما وصلت إلى رأس حفون نزل ماكيلوب واستدعى جميع رؤساء القبائل ودعاهم للانتماء إلى الحكومة المصرية فأجابوه إلى ذلك طائعين فخلع عليهم وركز العلم العثماني المصرى هناك ثم بارح ذلك المكان ولم يبق به حامية ومازال يتقدم ويركز الأعلام المصرية العثمانية حتى وصل بلدة براوة شرقي نهر الجب وكانت تابعة لحكومة زنجبار فأرست البواخر المصرية هناك ثم نزلت نصف القوة المصرية إلى البر ومعها مكيلوب باشا الذى طلب مشايخ القبائل فلما حضروا عرض عليهم أمر الاتحاد مع مصر وأفهمهم ما في ذلك من الفوائد لهم فأجابوا بالقبول لما رأوه من القوة المصرية التى هالتهم وأدهشتهم بحركاتها الحربية التى أجرتها أمامهم ولم يكونوا شاهدوا ذلك قبلاً وجعل لهم محافظاً وحامية مركبة من بلوك من البيادة، ثم تقدم هذا القائد حتى وصل إلى فم نهر جوبا المذكور وأراد السير فيه إلا أن الأمواج صدته

---

(١) محمد صبرى — تاريخ الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٢٩ — ٣١ القاهرة ١٩٤٨

وغرقت بعض المراكب والعساكر ولما أخذ ما يلزمه من مياه الشرب عاد إلى قسمايو التى سميت في الخريطة التى وضعها ضباط أركان حرب الجيش المصرى باسم بور اسماعيل التى اندهش أهلها لما رأوا هذه التجريدة وأقبلوا فى زوارقهم سائلين من أين أتت وما المقصود من حضورها فأخبرهم القائد بأن القصد اكتشاف نهر الجب وأنه لاخوف عليهم وبعد ثلاثة أيام نزلت العساكر إلى البر وسارت نحو النهر وأخذ الكولونيل لونج بالاكتشاف في النهر على زورق بخارى على مسافة ١٥٠ ميل ورسم أحد ضباط الحملة خريطة وصف فيها مجرى هذا النهر .

وقد ذكر شاى لونج أنه كان ينتظر اتصال غردون به في هذا الشأن للوصول إلى المناطق الداخلية ولكنه لم يتلق أى رسالة منه ويعتقد أن ذلك كان نتيجة لوصول تعليمات من الحكومة الإنجليزية إلى غردون توجب عليه عدم التعاون مع الحملة المصرية(١) .

وتسجل لنا وثائق عابدين(٢) صحة ما ذهب إليه لونج في اعتقاده ففى برقية سرية في ٩ محرم ١٢٩٢ من الخديو اسماعيل إلى الكولونيل شاى لونج رداً على برقيته يقول فيها «بخصوص اتخاذ الطريق الموصل من منبسة إلى محل إقامة العساكر بقرب الملك متيزة لأجل الحصول على البلاد الكائنة بجنوب كندكزو حيث أن هذه المسألة يقتضى الوقوف عن أفكار ومعلومات غردون باشا فيها ، فيقتضى مذاكرتكم والوقوف على حقيقة آراءه ومعلوماته في ذلك مع أخذ التقاريو والتعليمات التى تختص بهذه المسألة منه بحيث تكون مستوفية ، وتكون هذه المسألة سرية بينكم وبينه دون أن يشعر بها أحد »(٣) .

كما بعث الخديو إلى غردون يطلب منه التعاون معه وإمداده بمعلومات عن المنطقة ولكن من المؤكد أن غردون أهمل الإتصال بلونج وبعث إلى الخديو

---

(١) اسماعيل سرهنك — حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢

(٢) ذكر شاى لونج أن الغرض لم يكن مجرد كشف وانما محاولة الوصول الى منطقة البحيرات الاستوائية وكانت الحملة تنتظر اتصال غردون بها بهذا الشأن ولكنها لم تتلق اى اتصـــال من الخديو ويبدو ان ذلك كان نتيجة لوصول تعليمات من الحكومة الانجليزية الى غردون توجب عليه عدم التعاون مع الحملة . وفى الواقع اننا نجد فى وثائق عابدين ما يؤيد هذا الاعتقاد .

(٣) محافظ السودان ١٢٩٢ دفتر ٢١ عابدين صورة التلغراف العربى.

«أنه من المستحسن أن تترك الفكرة بافتتاح السكة إلى البحر المالح مؤقتاً لأنه باطلاعنا على الفزيتات وجدنا أن الإنجليز أخذوا ممباز لأجل إعطائها إلى سلطان زنجبار ، وما دام أخذوها فلا يكن لنا فيها مدخل ، ويقترح على الخديو أن يعدل عن هذا المشروع ويستعيض عنه بمشروع آخر وهو المشروع الذى يوصل هذه المنطقة بطريق النيل وأن فتوح السكة لحد البرك أمر مهم جداً »[١].

وبينما كانت القوات المصرية تنتظر اتصالات غردون بها بلا جدوى بدأت هذه القوات تتعرض لضغط الإنجليز عليها ، وتسجل وثائق القاهرة أن الإنجليز تدخلوا في هذه المناطق باسم سلطان زنجبار على الرغم مما حاولته الحملة المصرية أن تتحاشى بقدر الإمكان الإحتكاك بينها وبين المناطق التى تظهر فيها السيادة واضحة بالنسبة لسلطنة زنجبار عليها ، ولكن رؤساء القبائل كانوا يخشون على مراكزهم بطبيعة الحال من الحملة المصرية على الرغم من ترحيبهم بها في بداية الأمر ، فبعثوا إلى السلطان برغش سلطان زنجبار بأن الحكومة المصرية تريد الإستيلاء على بلادهم كما أن قبائل براوه حاصرت محافظ براوة المصرى هو ومن معه من الجنود . وتكشف بعض الوثائق أن قائد الحملة بعث يشترى فحماً لوقود السفن من زنجبار ، وهذا يثبت أن المناطق التى استولت عليها مصر في ساحل الصومال الجنوبي كانت تبعيتها لسلطان زنجبار تكاد تكون غير واضحة تماماً ومع ذلك فقد طلب سلطان زنجبار من قائد السفينة التى ذهبت لشراء الوقود ، بعد أن أجابه إلى طلبه ، ضرورة مغادرة هذه المناطق قبل أن يتفاقم الأمر ، ورد قائد السفينة بأن القوات المصرية لا تفكر في احتلال هذه المناطق وإنما قدمت لاكتشاف تلك الجهات ولكن السلطان ألح عليه بضرورة الإنسحاب وإلا فإنه سيعلم إنجلترا بما حدث لأنه هو وبلاده تحت حمايتها ، وبطبيعة الحال أن انجلترا لم تكن تنتظر أن يطلعها سلطان زنجبار على التحركات المصرية إذ أسرع القنصل البريطاني في زنجبار الدكتور جون كيرك Kirk بإرسال مدفعية إنجليزية إلى براوة

---

(١) محافظ السودان ١٢٩٢ . صورة التلغراف العربى — الشفرة رقم ٢٢٩ ص ٣٩

من مأمور جهات خط الاستواء الى خيرى باشا فى ٧ ربيع ثان ١٢٩٢هـ.

للوقوف على حقيقة الأمر وبالفعل تقابل القائد الإنجليزى مع ماكيلوب باشا قائد الحملة المصرية الذى كان قد تمكن من فك حصار القوات المصرية في براوة وأعاد الأمن للمدينة .

وتنتهى حوادث حملة الصومال الجنوبي في عام ١٨٧٦ بتوقيع الإتفاقية المصرية الإنجليزية الخاصة بتجارة الرقيق في عام ١٨٧٧ ويمكن القول أن الخديو اسماعيل آثر عدم التصادم مع الإنجليز ومن ناحية أخرى يفهم من التقرير الذى أعده فدريجو باشا مفتش عموم وابورات البوستة الخديوية الذى كان قد أوفده الخديو للتفتيش على النقط التى احتلتها هذه الحملة بأن المواصلات بين النقط العسكرية صعبة ولذلك طلب الخديو من ماكيلوب باشا الإنسحاب خاصة وأن مصر كانت مقبلة على حرب ضد الحبشة وأن بريطانيا لم تكن ترحب بوصول مصر إلى هذه المناطق .

وقد يكون من المناسب أن نعرض هنا لتقرير عن حوادث مأمورية سواحل إفريقية الشرقية وهذا التقرير مقدم من عبد الرازق بك رئيس أركان حرب المأمورية وناظر المدرسة الحربية وهو مؤرخ في ٨ ذى القعدة ١٢٩٢ الموافق ٦ ديسمبر ١٨٧٥ ، ويحتوى هذا التقرير على ثلاث وقائع هامة مرتبطة بعضها ببعض وهى توضح التطورات التى مرت بها حملة الصومال الجنوبي المصرية ، الأولى : أن ماكيلوب باشا وفريدريجو باشا والكولونيل ورد بك قاموا على رأس قوة لاستكشاف جهة لامو وفورموزا في طريق منبسة وأن أحد أمراء جزر القومور أخبر بوجود معدن فحم حجرى ونحاس غربي منبسة وأن أهالى تلك الجهة يودون التتبع للحكومة المصرية .

والثانية : أن الأمير محمد نجل السلطان عبد الله سلطان جزيرة خزوان ومعه كتاب من سلطان جزيرة القومور الكبرى أبدوا رغبتهم في التتبع للحكومة المصرية وكذا جزيرة مهلة وبندر منياص ، وأنهم وصلوا قسمايو بقصد التوجه إلى المحروسة في ظل الحكومة الخديوية وهذه الجزائر المختلفة تسمى جزائر القومور وهى واقعة في الشمال الغربي من جزيرة مدغشقر .

أما الواقعة الثالثة فهى وصول كتاب من قومندان براوة يقول فيه « إنه بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٨٧٥ وصلت سفينة حربية إنجليزية بالقرب من براوة

وأن قومندان السفينة بصحبة أحد قناصل الإنجليز وترجمان بعض الجنود الإنجليز أرادوا النزول إلى البر ولكن اليوزباشي قومندان براوة أفهمهم أنه لا يستطيع الإذن لهم بإنزال جنود مسلحين على أرض تحتلها القوات المصرية ، وأنه بتاريخ أول ديسمبر سلم أحد ضباط السفينة خطاباً إلى اليوزباشي يبلغه فيه أنه لم يمنع قط من قبل من إنزال جنود مسلحين في هذه المناطق فرد اليوزباشي أن هذه البلاد أصبحت تابعة لمصر وعندئذ غادرت السفينة براوة قاصدة زنجبار ، وجاء في الختام أن هذه السفينة كانت مكلفة بقمع تجارة الرقيق على سواحل إفريقية الشرقية » .

والواقع أن بريطانيا استغلت حركة مكافحة تجارة الرقيق للسيطرة على الموانى التابعة لمصر وزنجبار في سواحل إفريقية الشرقية والمهم أن وصول القوات المصرية إلى ساحل الصومال الجنوبي كان محاولة من جانب مصر لتسبق إنجلترا في السيطرة على هذه المناطق التى لم تكن تتبع سلطنة زنجبار سوى تبعية إسمية واهية ، ومع ذلك فقد أوعزت إنجلترا للسيد برغش بن سعيد أن يحتج على احتلال مصر لهذه المناطق وبادرت من جانبها إلى تأييده وبالفعل نجحت في حمل الخديو اسماعيل على التراجع عن حملة جنوب الصومال ، واضطرت مصر أن تنسحب من هذه المناطق دون أن تنفذ مشروعها الحيوى الذى كان يقضى بإيصال سواحل إفريقية الشرقي بمنطقة البحيرات الأستوائية وتدعيم النفوذ المصرى في السواحل الجنوبية للصومال . وإذا كانت اتفاقية الرقيق التى عقدتها إنجلترا مع مصر في عام ١٨٧٧ قد نصت على اعتراف إنجلترا بسلطان الخديوية المصرية على بلاد الصومال حتى رأس حفون إلا أنها اشترطت على تعهد الخديو بعدم التنازل لأية دولة أجنبية عن أية قطعة من هذه البلاد ، وتخويل الحكومة الإنجليزية حق تعيين قناصلها في الموانى الواقعة على سواحل البلاد المذكورة .

وتوجد لدينا بالإضافة إلى ما سجلته وثائق عابدين بعض المصادر العربية التى تعرضت لحملة الصومال الجنوبي فبالإضافة إلى كتاب إسماعيل باشا سرهنك أشار إلى حوادث تلك الحملة وتفاصيل الصدامات التى وقعت

بين الخديو اسماعيل وسلطان زنجبار المؤيد من جانب الإنجليز الدكتور محمد صبرى في كتابيه الإمبراطورية المصرية في القرن التاسع عشر ، ومصر في إفريقية الشرقية ، وقد اهتم في الكتاب الأخير بالدور الحضارى والعمراني الذى قامت به مصر مستنداً في ذلك إلى الوثائق المصرية ومشيراً بصفة خاصة إلى تقرير بعث به رضوان باشا إلى مهردار الخديو بتاريخ ١٨ شوال ١٢٩٢ الموافق ١٧ نوفمبر ١٨٧٥ يقرر فيه بعض الأعمال التى قامت بها البعثة المصرية في منطقة نهر الجب ومن ذلك إنشاء بستان مساحته مائة فدان كما ذكر في التقرير أن الأشجار كثيرة على ضفاف نهر الجب وأن خشبها يشبه الخشب الذى يرد من تركيا وطلب إرسال حطابين ونجارين وبنائين لتشييد بيوت من الحجر .. كما أشار إلى وثيقة أخرى بعث بها ماكيلوب باشا في ١٤ ذى القعدة ١٢٩٢ الموافق ١٢ ديسمبر ١٨٧٥ يقول فيها إن عبد الرازق بك يطلب ٣١٢ رجلاً من جميع الحرف والمهن من أطباء ومهندسين ونجارين وزراع وخبازين وطلب أشياء أخرى كثيرة لترقية المدائن وكان عبد الرازق بك قد قام باكتشاف منطقة نهر الجب ، وإن كانت انجلترا لم تمهله لإنفاذ وإتمام مشروعاته كما لم تمهل الحملة المصرية لتنشر الحضارة في هذه الربوع المتعطشة إليها[1] .

وهناك أيضاً مجموعة من الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر (١٨٦٣ — ١٨٧٩) التى قام بجمعها وتحقيقها الدكتور شوقي الجمل وبها مجموعة من الوثائق المختارة عن حملة الصومال الجنوبي وتتبع التطورات التى مرت بها البعثة المصرية منذ صدور الأمر بتشكيلها إلى انسحابها ، وتسجيل الإتصالات والمراسلات بين الحملة والخديو في مصر ، ويتضح من هذه الوثائق التقدم الذى أحرزته الحملة المصرية في سواحل الصومال وعن ضم المصريين لقسمايو ، وعن خضوع مشايخ براوة الذين كانوا يتبعون قبل ذلك سلطان زنجبار للحكومة المصرية لاطمئنانهم إلى الأمن الذى أشاعته الإدارة المصرية في المناطق التى كانت قد استحوزت عليها

---

(١) محمد صبرى — مصر فى افريقية الشرقية ص ٥٧ — ٥٨

تم تسجيل لاعتراض سلطان زنجبار مدفوعاً إلى ذلك من قبل القنصل الإنجليزى جون كيرك ضد هذه الحملة ، وأخيراً انسحاب البعثة بكامل هيئتها من براوة وقسمايو وغيرها من جهات الصومال الجنوبي(١) .

والواقع أن العلاقة بين الخديوية المصرية وسلطنة زنجبار في مختلف جوانبها تحتاج إلى مزيد من الإيضاحات والدراسة التحليلية التفصيلية خاصة وأن الدور الذى قامت به الدولتان كان متشابهاً في نشر الحضارة في أواسط القارة الإفريقية كما كان المصير الذى آلت إليه ممتلكات هاتين الدولتين متشابهاً في وقوعهما فريسة للأطماع الأوربية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

ويسجل عام ١٨٨٦ و ١٨٩٠ تقسيم سلطنة زنجبار بين القوى الإستعمارية الطامعة في ممتلكاتها وهى إنجلترا وألمانيا وإيطاليا ، وتنقطع المصادر العربية التى تعالج تاريخ شرق إفريقية التى خضعت بشكل أقوى للمؤثرات الإستعمارية العنيفة ، ومع ذلك فتوجد لدينا بعض المصادر العربية المتعلقة بهذه الفترة وإن كانت لا ترقى إلى مستوى المصادر التى تعرضنا لها فيما سبق . ومن هذه المصادر تسجيلاً لرحلة قام بها السلطان حمود بن محمد بن سعيد إلى مقاطعات الشرق الإفريقى في عام ١٣١٦ (١٨٩٨)(٢) .

وقد سجل هذه الرحلة الشيخ ناصر بن سالم بن عديم الرواحى ، وهو شاعر عماني معروف كان ملازماً للسلطان ، وضمن الرحلة ترجمة للسلطان وإسم الكتاب « السيرة السنية المسماة باللوامع البرقية في رحلة مولانا السلطان حمود بن محمد سعيد بن سلطان » ومن المتوقع أن هدف هذه الرحلة محاولة السلطان تأكيد سيطرته على مقاطعات الساحل الشرقي لأفريقيا ومن المعروف أن سلاطنة زنجبار قد دأبو على القيام برحلات لتفقد شئون ممتلكاتهم نتيجة للضغط الأوربي عليها ، بل إن السلطان برغش قام برحلة إلى مسقط على أمل أن يعيد الصلة بينه وبين أبناء عمومته بعد أن وجد ممتلكاته

(١) شوقى الجمل ، الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر انظر وثائق حملة الصومال الجنوبى ص ١٥٤ الى ١٦٦

(٢) انظر ناصر بن سالم بن عديم الرواحى ، اللوامع البرقية طبع زنجبار ١٣١٦

في شرق إفريقيا تتقاسمها الدول الأوربية وإن كان بعد ذهابه إلى مسقط قد أدرك أن الأسرة هناك لم تكن أقل منه خضوعاً لبريطانيا . وحينما تنقل حمود بن سعيد إلى المقاطعات الساحلية في شرق إفريقيا وجد الإنجليز هم المسيطرين على الأمر فيها كما وجد القنصل البريطاني السير آرثر هاردنج هو الحاكم بأمره .

وقد سجل لنا أحد الرحالة المصريين ويدعى توفيق ميخائيل أوضاع سلطنة زنجبار في ظل السيطرة البريطانية في كتاب نشر في القاهرة سنة ١٩٠١ بعنوان حقائق الأخبار عن شرق إفريقيا وزنجبار وتعرض المؤلف في هذا الكتاب إلى وصف رحلته التي قام بها في عام ١٨٩٩ ووصف سكان زنجبار وغيرهم من سكان مقاطعات الشرق الإفريقي ولاحظ بصفة خاصة سيطرة الهنود Banians على المعاملات التجارية ، كما أورد في كتابه ترجمة للسيد حمود بن سعيد كما تعرض أيضاً لرحلة برغش بن سعيد إلى مصر بدعوة من الخديو إسماعيل بعد زيارته لبريطانيا . كما لاحظ أن السلطنة ترتبط بشعور الولاء الروحي للخليفة العثماني ، ومن المؤكد أن ذلك كان صدى لحركة الجامعة الإسلامية التي شملت أقطار العالم الإسلامي في هذه الفترة وإن كان ذلك لا يعني ارتباط سلطنة زنجبار سياسياً بالسلطنة العثمانية[1] .

ويمكن أن نختتم هذه المصادر بمصدر هام كتبه الشيخ حميد الدين السالمي بعنوان تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ويقع هذا الكتاب في مجلدين ، وعلى الرغم من أنه يركز على إقليم عمان شأنه شأن غيره من المصادر العمانية إلا أنه يعرض في ثنايا ذلك لصلة شرق إفريقيا بعمان خاصة ما قامت به الإمامة اليعروبية من محاولات موفقة لطرد البرتغاليين من الخليج العربي وشرق إفريقيا في النصف الثاني من القرن السابع عشر . وفيما يبدو لنا أن السالمي على الرغم من أنه عاش في الفترة من أواخر القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين إلا أنه سجل تاريخ الإمامة الأباضية في عصورها المختلفة ، معتمداً في

(١) توفيق ميخائيل — غرائب الأخبار عن شرق افريقيا وزنجبار ص ٩٩ — ١٠٠

ذلك على مادة أصلية وإن كنا لانعرف عما إذا كان مصدر هذه المادة لايزال موجوداً حتى الآن . كما يلاحظ اتجاه السالمى ، باعتباره أشد المتحمسين لبعث الإمامة الأباضية في السنوات الأولى من القرن العشرين ، إلى تمجيد الإمامة الأباضية مقارناً بين ما كانت عليه الإمامة من تفوق في القرن السابع عشر ، حين تصدت للبرتغاليين في الخليج العربي وسواحل الهند وشرق إفريقيا ، وما صار إليه الحكم من تفكك وانقسام في عهد آل أبي سعيد . وقد تعرض السالمى في المجلد الأول للتدخل العماني في شرق إفريقيا في عهد الإمام سلطان بن بن سيف اليعربي ، كما تعرض في المجلد الثاني لدولة البوسعيد إلى السنوات السابقة لحياته(١) . وقد قام بتحقيق كتاب السالمى ونشره الشيخ طفيش الجزائرى وهو أحد أباضى الجزائر(٢) .

هذا هو ما أمكننا الوصول إليه من المصادر المحلية والعامة التى تحدثت عن المنطقة التى تعرضنا لها في نطاق هذه الدراسة . والأمر الذى نؤكد عليه أنه لاتزال توجد الكثير من المخطوطات العربية والسواحلية في أيدى سكان المنطقة ، والواقع أننا أشد ما نكون احتياجاً لدراسة هذه المصادر واستخلاص المادة التاريخية منها لما قد تعطيه لنا من بعض الجوانب الهامة الخاصة بتاريخ المنطقة ، وإذا كان من الممكن الاعتماد على المصادر الأوربية بعد العصر البرتغالى فإن الفترة التى سبقت العصر البرتغالى لاتزال بحاجة إلى مادة تاريخية أكثر من المادة التى بين أيدينا الآن فقد لاحظنا أن المصادر العامة أو بالأحرى المتبقى لنا منها ليست موفية بالحاجة ، والمصادر المحلية العربية المعروفة لدينا ليست كافية ولا تعرض لنا التطور التاريخى لإمارات ساحل شرق إفريقيا في العصر الإسلامى باستثناء ما لدينا عن تاريخ كلوة السابق الإشارة إليه ، ولذلك فإن الاعتماد ينصب أساساً على الروايات السواحلية ، وقد يكون من حسن الحظ أن هذه الروايات متوافرة وإن كانت لاتزال تحتاج إلى مزيد من الدراسة وإزالة ما علق بها من خيال ، وينبغى أن

---

(١) مات السالمى فى عام ١٩١٣ قبل بعث الامامة الأباضية فى ذلك العام بقليل .

(٢) تحفة الأعيان بسيرة آل عمان — للامام حميد الدين السالمى فى مجلدين .

نتوه بالجهود التى بذلها كل من Stigand و Prins و Hichens في دراسة هذه الروايات وإحرازهم نجاحاً كبيراً في العثور على سجلات لكل من تاريخ لامو وبات استخلصوا منها مادة تاريخية ذات أهمية كبيرة في تطور الإمارات الإسلامية في شرق إفريقيا[١] خاصة تاريخ الأسرة النبهانية في جزيرة بات وخبر لامو لشيبو فرج بن حمد الباقرى ، وهى مخطوطة سواحلية حققها هتشنز وأشار إليها في كتابه الإسلام في شرق إفريقيا[٢] .

وليس من شك في أن تاريخ العرب في شرق إفريقيا من الصفحات المجيدة في التاريخ الأفريقى أو التاريخ العربى في إفريقيا وأرجو أن تتاح الظروف للدارسين لاقتفاء آثار العرب في إفريقية قبل أن تضيع المدونات العربية ، أو يقتصر الدارسون على المصادر الأوربية وحدها ، فإن هذه المصادر كتبت بطبيعة الحال بالنظرة الأوربية وكان صعباً عليها أن ترى حسنة من حسنات العرب . ولذلك فقد يكون من واجبي هنا أن أدعو جامعاتنا والمهتمين بدراسة تاريخ أفريقيا بصفة خاصة إلى ضرورة الاهتمام بالمصادر العربية والاتصال بالمراكز الثقافية ، ودور المخطوطات الأوربية، والهيئات العلمية بشرق إفريقيا للتعاون في نشر التراث العربى الأفريقى .

---

(١) انظر فى ذلك : Prins, The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and the East African Coast (Arab — Shiraz and Swahili) London 1961 See also A. Warner, A Swahili History of Pate, Stigand, in the Land of Zinj London 1913, and Freeman grenville, The East African Coast selected documents from the first to the earlier 19th century, London 1962.

(٢) Cf. Hichens, Islam in East Africa.

مصادر البحث

أولا ــ وثائق غير منشورة :

وثائق عابدين : محافظ السودان السنوات المشار اليها فى الدراسة .

ثانيا ــ وثائق منشورة :

جيان : وثائق تاريخية وجغرافيــة وتجارية عن شرق افريقيــة ــ القاهرة ١٩٢٧

سجل المكاتبات السياسية فى عهد السلطان برغش بن سعيد ١٨٧٩

شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ــ القاهرة .

Ferrand — Gabriel

Docments Historiques et Textes Geographique Arabes, Persans et Turks Relatif a l'Extrene Orient de VIIIe au XVIIIe siecles, 2 Tomes Paris 1913

Greenville — Freeman

Select Documents on the East African Coast

Guillain

Document sur l'Historie Geographic et le Commerce de l'Afrique Orientale Paris 1956

Tome I, Expose Critiques de diverses Notions acquises sur l'Afrique Orientale depuis les temps le Plus Jours Jusqu' à nos Jours

Tome II, III, Relation de Voyage d'Exploration a la Côte Orientale d'Afrique. Exécuté Pendant les années 1847, 1848

Zôe March,

East Africa Through Contemporary Records. London 1961

ثالثا ــ المصادر العربية :

أحمد بن ماجد وسليمان المهرى .

راجع مؤلفات أحمد بن ماجد وسليمان المهرى عن النسخة الزنكوغرافية المنقولة عن المكتبة الأهلية بباريس والمحفوظة بدار الكتب المصرية .

أبو زيد السيرافي : رحلة التاجر سليمان ـ انظر : سلسلة التواريخ دار الطباعة السلطانية ـ باريس ١٨١١

ابن بطوطة : تحفة النظار فى عجائب الأمصار ـ مجلدين ـ القاهرة ١٩٣٣

ابن الوردى : فريدة العجائب وفريدة الغرائب .

آدم متز : الحضارة الاسلامية (مترجم) ـ مجلدين ـ القاهرة .

أنور عبد العليم : أحمد بن ماجد ـ القاهرة ١٩٦٧

اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ـ ثلاثة أجزاء ـ القاهرة ١٨٩٦/١٨٩٨/١٩٢٣

توفيق ميخائيل : غرائب الأخبار عن شرق افريقية وزنجبار ـ القاهرة ١٩٠١

جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق ـ مجلدين ـ القاهرة

جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ـ القاهرة ١٩٦٧

استقرار العرب فى ساحل شرق افريقية ـ العدد العاشر ـ حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس .

حسن احمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ـ القاهرة ١٩٥٧

حميد الدين السالمى : تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ـ مجلدين ـ القاهرة ١٣٥٠

حورانى : الملاحة البحرية فى المحيط الهندى .

دافيدسون : افريقية تحت أضواء جديدة (مترجم) ـ بيروت ١٩٦٥

زكريا القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ـ بيروت ١٩٦٠

زين الدين : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين : لشبونة ١٨٩٨

شوموفسكى (فيودور) ثلاث راهمانجات المجهولة ـ اصدار معهد الاستشراق السوفيتى ـ ليننجراد ١٩٥٧

عبد الله بن مصبح الصوافى : نقلا عن الشيخ محيى الدين الزنجبارى ـ كتاب السلوة فى أخبار كلوة ـ نشر ارثر سترونج ١٨٩٥

العقاد وجمال زكريا قاسم ـ زنجبار ـ القاهرة ١٩٦٠

كراتشكوفسكى (أغناطيوس بوليانوفتش) ـ مع المخطوطات العربية .

الأدب الجغرافى عند العرب ـ القسمين الأول والثانى ـ القاهرة ١٩٥٧

لوثروب ستودارد : ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب ارسلان ـ حاضر العالم الاسلامى ـ مجلدين ـ القاهرة ١٣٤٣

محمد صبرى : تاريخ الامبراطورية المصرية السودانية فى القرن التاسع عشر ـ القاهرة ١٩٤٨

ـ مصر فى افريقية الشرقية ـ القاهرة ١٩٣٩

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ مجلدين ـ نشر دار الرجاء القاهرة .

ناصر بن سالم بن عديم الرواحى : السيرة السنية المسماة باللوامع البرقية فى رحلة مولانا السلطان حمود بن محمد سعيد بن سلطان ــ زنجبار ١٣١٩

ياقوت الحموى : معجم البلدان ــ عدة مجلدات ــ القاهرة ١٩٠٦

رابعا ــ المصادر الأوربية :

Badger, Salil Bin Razik

History of the Imams and Seyyids of Oman

London 1871

Burton, Richard

Zanzibar city, Island and Coast

2 Vols London 1886

Ferrand, Gabriel

Les Musulumanes de Madagascar et l'iles de Commores

2 Tomes

Hichens

Islam in East Africa, London

Ingrams, Arabia and Isles

Lopes David

Historia Portuguesa no Malabar. Lispon 1898

Owen W. F.

Narrative to Explore the Shores of Arabia, Africa and Madagascar 2 Vols London 1833

Prins A. H.

The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and East Africa Coast (Arab — Shiraz and Swahili)

East International African Institute London 1961

Reinand,

Relation de Voyages fait par les Arabes et Persans a l'Inde et de la Chine

2 Tomes Paris, 1845

Ricci, A

Travels of Marcopolo

Ruete Emily

Memoires d'une Princeose Arabes Paris, 1905

Ruete, Rudolf

— Said Bin Sultan London 1929

— Dates and Refrences of the Al Bin Said Dynasty of Oman and East Africa London

— The Al Bu Said Dynasty in Oman and East Africa
Journal of the Central Asian Society Vol VXI, 1929

Stigand,

In the land of Zinj London 1913

Strong, Arthur

History of Kilwa
Journal of the Royal Asiatic Society April 1895

Warner

A Swahili History of Pate
Journal of the African Society Vol. XIV, 1913

« رحلة وادنجنتون فى السودان »

(١٨٢٠ — ١٨٢١)

عرض وتحليل

للدكتور نسيم مقار

« جورج وادنجتون George Waddington » رحالة انجليزى أغرم بالسياحة . وقد زار بعض بلاد أوربا والشرق . واشتهر كرحالة إلى جانب شهرته كمؤرخ للكنيسة . وقد كان زميل كلية ترنتى بكمبردج Fellow of Trinity, Cambridge كما تولى منصب أسقف مدينة درام Durham ثم اختير محافظاً لجامعتها(١) .

ظروف الرحلة ودوافعها الرئيسية :

أما عن زيارته للسودان فلم تكن متعمدة ، فقد عزم على القيام برحلة إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى . وفي طريقه إلى اليونان مرّ بالبندقية (في يناير ١٨٢٠) ، وهناك التقى بصديقه « برنارد هنبرى Hanbury »الذى وجده يستعد للقيام برحلة إلى مصر والنوبة لمشاهدة معالمها الأثرية ، ويحدوه الأمل في أن يتقدم جنوباً حتى دنقلة . وقد ألح « هنبرى» على « وادنجتون » في أن يرافقه في هذه الرحلة . وأخيراً وقع « وادنجتون » تحت تأثير وإقناع صديقه ، وقَبِلَ أن يصحبه في رحلته إلى وادى النيل ، وحدد الوقت الذى تستغرقه زيارته لبلاد اليونان وآسيا الصغرى ببضعة أشهر يقضيها في التجول بين ربوعها ، ثم يغادرها إلى مصر والسودان .

وبعد أن أمضى « وادنجتون » و« هنبرى » الربيع ومعظم الصيف في بلاد اليونان أبحرا إلى الاسكندرية ، فوصلاها فيمنتصف أغسطس عام ١٨٢٠ .

---

(١) Richard Hill : A biographical dictionary of the Anglo - Egyptiian Sudan, p. 375.
George Waddington : Journal of a visit to some parts of Ethiopia, p. i.

هناك تأكد لهما ما سبق أن ترامى إلى مسامعهما من أن حملة بقيادة اسماعيل بن محمد على والى مصر قد غادرت القاهرة في طريقها إلى الجنوب لضم البلاد الواقعة فيما وراء الشلال الثاني إلى ادارته . وقد وجدا في هذه الحملة فرصة سانحة لتحقيق رغبتهما في زيارة هذه البلاد ، الأمر الذى كان من المحتمل ألا يتحقق لهما بنجاح تام لو لم تتح لهما هذه الفرصة . ومن ثم قررا مرافقة الحملة ، وعرضا هذه الرغبة على الوالى الذى لم يبد تشجعياً كبيراً لهما ، إلا أنه على الأقل لم يعترض عليها(١) .

وقد قدمهما إلى والى مصر القنصل الإنجليزى في ذلك الوقت « مستر بيترلى Mr. Peter Lee الذى كان بحكم طبيعة عمله لايمانع في مديد المعونه والمساعدة للمسافرين من بنى جنسه ، وهناك انجليزى آخر أبدى أيضاً عطفاً ملحوظاً على مشروع «وادنجتون » و « هنبرى» لزيارة بلاد النوبة ، وشجعهما كثيراً على تنفيذه ، وقدم لهما المعونة في سبيل انجاحه ، يدعى مستر « براين Brine » . فعندما وجد هذا الانجليزى أنه لايرافقهما أحد من الأتراك ، كما وأنهما لايحملان أى خطاب توصية لأحد من ضباط الحملة ، سعى إلى أن يمدهما بخطاب توصية من عابدين كاشف الرجل الثاني في الحملة بعد اسماعيل . وقدكان « براين » جاراً وصديقاً لعابدين وقت أن كان الأخيرحا كماً على إقليم المنيا في صعيد مصر. ويعبر « وادنجتون » عن أهمية هذا الخطاب في تحقيق رغبته في هذه الرحلة بقوله « إنه بدونه كان سيصبح لحاقنا بالجيش أمراً عسيراً ، ووصولنا إلى بلاد النوبة كان من المحتمل ألا يتحقق . » ويضيف « وادنجتون » إلى ذلك « إن هذا العمل يعد من الخدمات الجليلة التى ندين بها لهذا الرجل الإنسان ذى النفس الكريمة »(٢) .

وفي ١٠ نوفمبر عام ١٨٢٠ وصل « وادنجتون » ورفيقه « هنبرى» إلى وادى حلفاً ، ومنها إلى بطن الحجر في ١٢ نوفمبر . وفي ١٣ نوفمبر وصلا إلى دارسكوت ، ومنها إلى دار المحس في ١٨ نوفمبر . وفي ٢٢ نوفمبر

(١) Waddington. Op. cit., p.p. III, IV.

(٢) Waddington : Journal of a visit to some parts of Ethiopia, p. IV.

وصلا إلى دنقلة ، ومنها تابعا سيرهما إلى دار الشايقية التى وصلاها في ٧ ديسمبر (عام ١٨٢٠) .

وبعد الوصول إلى دار الشايقية رغبا في مواصلة تقدمهما جنوباً إلى سنار برفقة الحملة ، ولكن رغبتهما لم تجد قبولاً لدى قائدها اسماعيل الذى كان لايشعر بالارتياح التام لوجودهما مع جيشه في تلك الأثناء ، وسرعان ما طلب إليهما مغادرة البلاد دون إبطاء بحجة الحرص على أمنهما وسلامتهما مما قد يتهددهما من صعاب ومخاطر [١] . وعبثاً حاول « وادنجتون » أن يؤثر على اسماعيل لكى يعدل عن قراره السالف الذكر [٢] .

وقد علل « وادنجتون » عدم ارتياح اسماعيل قائد الحملة إليه وإلى زميله « هنبرى» وبالتالى إصراره على مغادرتهما البلاد دون أن يتيح لهما فرصة مواصلة تقدمهما جنوباً إلى سنار برفقة جيشه بقوله « إنه كان طبيعياً أن يرغب الباشا في أن يريح نفسه من جماعة من الناس هم ليسوا في خدمته ، ولا يمكن أن يكونوا مفيدين له بطريق من الطرق ، حتى ولو كانوا من بعض الوجوه والاعتبارات مستقلين عنه ، وبالإضافة إلى ذلك فهم مسيحيون ، لأن اسماعيل كان بعيداً عن الأخذ بآراء والده المتحررة في هذا الشأن . وفوق هذا وذاك فإنه يحتمل أنه كان لايزال يتبنى بعض المشروعات السرية ضد الحبشة ، وهو البلد المفروض أنه تحت حماية انجلترا . وقد تخيل أننا سنصبح في هذه الحالة جواسيس على مقاصده ـ فهل كان إذن من الحكمة أن يحملنا معه على طول الطريق ؟ » [٣] .

ومهما يكن من الأسباب التى جعلت اسماعيل قائد الحملة لايشعر بالارتياح نحو الرحالة « وادنجتون » وزميله « هنبرى» ، ويتخذ قراره الحاسم بمغادرتهما البلاد ، فإن مما لاشك فيه أن هذا القرار كان له أثره الخطير في أن تنتهى رحلتهما في السودان عند دار الشايقية ، في حين أتيحت لغيرهما

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٥
(٢) نفس المصدر ص ١٤٨ ــ ١٥٤
(٣) المصدر السابق ص ١٥٤

من الأجانب الذين كانوا برفقة اسماعيل فرصة التقدم جنوباً مع جيشه إلى سنار بل إلى ما وراء فيزوغلى[١] .

على أن « وادنجتون » لاينكر في الوقت نفسه الخدمات التى أداها له ولزميله « هنبرى» بعض كبار المسئولين في الحملة ، وبخاصة عابدين كاشف نائب اسماعيل الذى كان قد قدمهما إليه بخطاب توصية صديقه الانجليزى مستر « براين Brine » . ومن هذه الخدمات مدهما بجميع لوازم الرحلة ، ووضع الحراسة الكافية لسلامتهما طيلة مدة سياحتهما في هذه البلاد[٢] .

وليس من شك أن مثل هذه الخدمات التى قدمها كبار المسئولين في الحملة لهذين الرحالين الانجليزيين قد يسرت لهما زيارة هذه البلاد ووفرت لهما عوامل النجاح فيما قاما به من دراسات أثرية وتاريخية واجتماعية واقتصادية في الأقاليم السودانية التى قدر لهما زيارتها ، مما أضفى على رحلتهما طابع الأهمية العلمية والتاريخية .

---

(١) اذ من الملاحظ انه كان برفقة هذا القائد فى حملته على السودان عدد من الخبراء والفنيين الأجانب غير الذين ورد ذكرهم على لسان الرحالة « وادنجتون » نفسه ومنهم العالم الفرنسى « كايو Cailliaud » ورفيقه « ليتورزك Letorzec » والطبيب الرسام « رتشى Ricci » اللذان كانا ساعده الأيمن فى اعداد البحوث الجغرافية وعمل الأرصاد الفلكية . وقد استطاع « كايو » أن يصل مع الحملة فى تقدمها جنوبا الى سنار والى ما وراء فيزوغلى ، وأن يضع مصنفا ضخما فى اربعة أجزاء عن هذه الرحلة التى قام بها برفقة الحملة تحت عنوان :

« Voyage à Méroé et au fleuve blanc » (Paris, 1826)

ومن هؤلاء الأجانب الذين جاءوا أيضا برفقة اسماعيل فى حملته على السودان الرحالة الأمريكى « جورج انجلش English » . وقد كتب كتاباعن هذه الحملة تحت عنوان :

« A narrative of the expedition to Dongola and Sennaar under the command of his Excellence Ismael Pasha » (London, 1822).

كذلك جاء برفقته « كورنر Corner » وزميله « كونستانت Constant » وهم من الانجليز ، و « زوكولى Zuccoli » و « سيجاتو Segato » من الطليان (انظر كتاب مصر والجغرافيا — ص ١٥ — ١٧ — لفردريك بنولا — تعريب أحمد زكى) .

(٢) Waddington : Journal of a visit to some parts of Ethiopia, p. 154.

ولقد سجل « وادنجتون » و« هنبرى» مشاهداتهما ودراساتهما المختلفة في هذه الأقاليم في كتاب نشر في لندن عام ١٨٢٢ تحت عنوان :

« Journal of a visit to some parts of Ethiopia »

وكان تأليف هذا الكتاب من نصيب « وادنجتون » الذى يشير في مقدمته إلى « أن كلاً منهما كان يحتفظ« بجورنال » يسجل فيه أخبار الرحلة ، وأنهما تبادلا الرأى سوياً في تصنيف الكتاب ، وأنه كان من نصيبه القيام بمهمة تأليفه » . ويختم « وادنجتون » حديثه هذا بقوله « وإني لأشعر الآن بأن هذا العمل أبعد من أن يكون تمييزاً خاصاً لشخصى طمعت في الحصول عليه . »(١)

الأهمية التاريخية والعلمية للرحلة :

من دراستنا لظروف الزيارة التى قام بها الرحالة « وادنجتون » للسودان (١٨٢٠ - ١٨٢١) يتضح لنا أنها تمت في الوقت الذى كانت فيه حملة اسماعيل بن محمد على تتقدم في هذه البلاد لضمها إلى الإدارة المصرية الموحدة ، ومن ثم فقد قدر لهذا الرحالة الانجليزى أن يعيش هذا الحدث الهام والخطير في تاريخ وادى النيل ، وأن يشاهد عن كثب صوره المختلفة . ومن هنا تبرز الأهمية التاريخية للرحلة ، وهى تعد بحق من المصادر الأولية التى لاغنى عنها للباحث في تاريخ الحملة .

كذلك تبرز أهمية الرحلة في موضوع تاريخى آخر عنى « وادنجتون » بصفة خاصة ولاعتبارات معينة بدراسته خلال زيارته لهذه البلاد ، وهو قيام دولة المماليك في دنقلة التى أمدنا بكثير من الحقائق والأخبار الهامة عنها ، مما قد لايجده الباحث في أى كتات آخر من كتب الرحالة أو كتب المعاصرين التى عرضت أو تناولت هذا الموضوع التاريخى .

هذا بالإضافة إلى الموضوعات التاريخية الأخرى الهامة التى عالجها « وادنجتون » في تاريخ السودان الحديث مثل الأوضاع السياسية السائدة في بعض أقاليمه قبل مجىء حملة إسماعيل إليها ، وما كانت عليه علاقات الحكام بعضهم ببعض في هذه الفترة .

---

(١) Waddington : Op. cit., p. VI.

كذلك اهتمام « وادنجتون » الواضح بدراسة بعض نواحى الحياة الاجتماعية في بعض المجتمعات النوبية مثل المجتمع الدنقلاوى والمجتمع الشايقى ، كالعادات والتقاليد السائدة في هذه المجتمعات ، والآداب والفنون الشعبية التى اشتهرت بها ، ومركز المرأة ، والمكانة التى حظى بها رجال الدين والفقهاء في المجتمع ، وغير ذلك من الدراسات الاجتماعية التى قلما نجد غيره من الرحالة الذين زاروا السودان في ذلك الوقت قد عنوا بها ، أو وجهوا اهتماماً ملحوظاً إلى دراستها .

وفوق ذلك كله النجاح الذى حققه « وادنجتون » وزميله « هنبرى » في أعمال البحث والتنقيب عن الآثار القديمة في بعض جهات النوبة ، إلى الحد الذى يذهب معه « بدج Budge » أحد المهتمين بدراسة الآثار القديمة في السودان إلى القول « بأن دراسة الآثار السودانية القديمة قد بدأت بإخراج « وادنجتون » و« هنبرى » كتاب رحلتهما في السودان . »

على أن المعلومات والأخبار التى أمدنا بها الرحالة « وادنجتون » خاصاً بموضوعات البحث والدراسة التى قام بها خلال رحلته مع زميله « هنبرى » في أقاليم النوبة المختلفة قد جاءت مبعثرة في أماكن ومواضع متفرقة من كتاب رحلتهما ، وتحتاج إلى نوع من التنظيم والتبويب على النحو الذى ييسر للباحث أو الدارس مهمة الإفادة منها وليس ذلك بالأمر السهل أو الهين إذ يتطلب نوعاً من المثابرة وبذل الجهد والإلمام بتفاصيل الرحلة والظروف التى أحاطت بأصحابها منذ القيام بها حتى مغادرتهما للبلاد السودانية ، وهو ما سعينا إلى تحقيقه .

كذلك فإن إجلاء الحقيقة يتطلب أحياناً مناقشة أقوال هذا الرحالة الانجليزى في بعض ما تناوله من الموضوعات ، على ضوء ما تضمنته الوثائق الرسمية من ذلك العهد المحفوظة بدار الوثائق التاريخية القومية (قصر عابدين) ، أو بمقارنتها بأقوال غيره من الرحالة الذين أتيحت لهم فرصة زيارة هذه البلاد في ذلك الوقت بالذات وبرفقة الحملة أيضاً ، مما كانوا أسعد حظاً منه في

التمتع بعطف ورعاية قائد الحملة ، ومنهم الرحالة « أنجلش English » الأمريكى الذى سبقت الإشارة إليه .

وبعد ، فإليك هذا العرض لأهم ما تضمنته رحلة « وادنجتون » في السودان من المشاهدات أو الدراسات في الأقاليم الرئيسية التى قدر له زيارتها وهى إقليم دنقلة ودار الشايقية ، بعد أن قمنا بتنظيمها وتبويبها على النحو الآتي :

أولا — مشاهدات « وادنجتون » ودراساته فى إقليم دنقلة

جاء الرحالة « وادنجتون » وزميله « هنبرى » إلى إقليم دنقلة في ٢٢ نوفمبر عام ١٨٢٠ . وقد استغرقت زيارتهما لهذا الإقليم زهاء أسبوعين تجولا خلالهما بين ربوعه ومعالمه المختلفة ، إذ زارا جزيرة أرقو أكبر جزر هذا الإقليم ، كما زارا مدنه الرئيسية ومناطقه الأثرية .

دراسة بيئة الاقليم الطبيعية :

وقد قام « وادنجتون » أثناء هذه الزيارة بدراسة بيئة الإقليم الطبيعية بعامة ، وجزيرة أرقو بخاصة ، إذ وصف طبيعة الأرض في هذه الجزيرة ، كما في أجزاء الإقليم الأخرى ، وتحدث عن مدى استغلالها في الزراعة ، وأشار إلى مميزات الإقليم المناخية والنباتية والحيوانية ، وبخاصة الخيول التى اشتهر الدناقلة بتربيتها ، وقد عرض « وادنجتون » لأقوال الرحالة وآرائهم في خصائص الخيول الدنقلاوية ومميزاتها .

وصف المدن الرئيسية :

كما وصف المدن الرئيسية في الإقليم ، وتناول بصفة خاصة مدينة « دنقلة العجوز » ، والأطوار التى مرت بها في العصور التاريخية المختلفة من واقع مشاهدات الرحالة الذين قدر لهم زيارتها خلال تلك العصور . كذلك عنى « وادنجتون » بوصف مدينة « مراغه Maragga » (دنقلة الجديدة) التى أنشأها المماليك الذين فروا من مصر عقب مذبحة القلعة المشهورة عام ١٨١١ ، لتكون مقر حكومتهم التى أقاموها في هذا الإقليم بعد أن حلوا به .

دراسة المجتمع الدنقلاوى :

ولم تقتصر مشاهدات « وادنجتون » ودراساته في إقليم دنقلة على بيئة الإقليم الطبيعية أو مدنه الرئيسية فحسب وإنما قد تضمنت أيضاً المجتمع الدنقلاوى ذاته ، والحياة الروحية لأهل دنقلة والإهتمام بالتعليم الدينى في هذا الإقليم كان أهم ما عنى به « وادنجتون » في دراسته لهذا المجتمع . فقد أشار إلى ظاهرة انتشار أماكن تعليم القرآن الكريم[1] في أجزاء الإقليم المختلفة ، وإلى ما يقوم به الوعاظ المتجولون من الكبابيش بصفة خاصة في هذا السبيل ، كما أشار إلى وجود مدارس يتعلم فيها الأطفال مبادىء القراءة والكتابة ، إلى جانب حفظ القرآن الكريم . وقد حدثنا عن السادة (شيوخ الإسلام) الذين يقومون بوظيفة التعليم ، وما يتمتع به هؤلاء من مكانة سامية في المجتمع . كما حدثنا عن أساليب تعليم الأطفال ، وطرق تأديبهم ، وأنواع الذنوب والأخطاء التى كانوا يعاقبون عادة من أجلها .

وهناك ظاهرة أخرى لفتت نظر الرحالة « وادنجتون » في هذا المجتمع وهى انتشار التخاطب باللغة العربية بين سكانه النوبيين . وقد ناقش وجود هذه الظاهرة ، وعرض لأقوال غيره من الرحالة في هذا الشأن .

ويرتبط بحياة أهل دنقلة الروحية واهتمامهم بالتعليم الدينى تقديرهم العظيم لرجال الدين . وقد حدثنا « وادنجتون » عن الأضرحة التى تقام لمن اشتهر من الفقهاء وشيوخ الإسلام بالصلاح والتقوى في حياته الدنيا ، لتضم رفاتهم الطاهرة ، حيث يتبارك الناس بزيارتها ، وينعمون بالأمن والسلام في ظلها عندما تتهددهم بادرة خطر . وقد أشاد بصفة عامة بما يتحلى به هؤلاء الشيوخ والفقهاء في دنقلة من الخصال والصفات الحميدة التى زادت من تعلق المواطنين بهم وتقديرهم لهم .

وهناك أيضاً جانب هام في حياة أهل دنقلة الإجتماعية عالجه «وادنجتون» في كتاب رحلته بنوع من الإهتمام ، ونعنى به دراسة آدابهم وفنونهم الشعبية .

---

(١) ويقصد بها الخلاوى (جمع خلوة) ، وقد كانت الى جانب المساجد والجوامع والزوايا من أهم أماكن العلم فى ذلك الحين .

فقد تناول الحديث عن طائفة المداحين والمنشدين والشعراء المتجولين ، وعرض لبعض أزجالهم ومواويلهم الشعبية التى استمع إليها في المناسبات المختلفة ، وقد تناولها بالنقد والتحليل بعد أن ترجمت له في حينها إلى اللغة الإنجليزية . وقد سره بعضها ، وعبر عن إعجابه وتقديره لقائليها[١] ، كما وصف لنا أنواع الغناء والرقص الشعبي الذى شاهده في الحفلات الشعبية العامة ، وفي بعض الحفلات الخاصة التى دعاه إليها بعض الشخصيات البارزة في الإقليم .

كذلك تناول « وادنجتون » مركز المرأة في المجتمع الدنقلاوى ، إذ أشار إلى ما تتمتع به من حقوق شرعية كحقها في الميراث ، وإلى ما تتحلى به من الصفات الطيبة التى أكسبتها احترام المجتمع وتقديره لها .

وفضلاً عن ذلك عرض « وادنجتون » في مواضع متفرقة من كتاب رحلته لبعض العادات والتقاليد السائدة بين أهل دنقلة ، كتلك التى تتعلق بأنواع الطعام والشراب التى يقبلون على تناولها ، ومنها عادة شرب العرقي والمريسة المنتشرة بينهم ، كما أشار إلى معتقداتهم في السحر والشعوذة . كذلك أشار إلى طبائعهم وأخلاقهم ، والصفات والخصال التى تميزهم عن غيرهم .

ومن الموضوعات الإجتماعية الأخرى الهامة التى عالجها « وادنجتون » موضوع الجريمة والعقاب في المجتمع الدنقلاوى ، إذ أشار إلى أنواع الجرائم التى يعاقب عليها عادة المجتمع ، وإلى العقوبات التى تفرض على مرتكبيها ، كما نوه في موضع آخر بتمسك حكام هذه البلاد الذين نعتهم بالأمراء الصغار من المكوك والكشاف والمشايخ (وهم غير شيوخ الإسلام الذين سبقت الإشارة إليهم) بأحكام الشريعة الإسلامية في حكم الرعية ، وما يدعيه هؤلاء الحكام من أنهم معينون في مراكزهم من قبل الله وبإرادته ليرعوا شريعته ، ويحققوا عدالة القرآن الكريم بين العباد .

---

(١) مثل القصيدة التى نظمها أحد شعراء النوبة فى مدح شجاعة عابدين كاشف فى محاربة الشايقية وقد وصفه فيها بالصقر الذى جال فى ربوع بلادهم .. وان العناية الالهية أرسلته لخلاصهم من هؤلاء الناس ، وليدخل البهجة والسرور فى قلوب المواطنين (**Waddington : Op. cit., p. 258**)

التنقيب عن الآثار القديمة فى اقليم دنقلة :

أما عن اهتمام « وادنجتون» وزميله « هنبرى» بالتنقيب عن الآثار القديمة في إقليم دنقلة فقد كان واضحاً وملموساً وبخاصة في جزيرة أرقو . والحق يقال أن هذين الرجلين قد بذلا كل مافي استطاعتهما ، ولم يدخرا وسعاً من أجل تحقيق هذا الهدف العلمى ، على الرغم من الصعوبات والعراقيل التى اعترضت طريقهما في هذا الشأن ، ومنها ما يرجع إلى احجام المواطنين وإعراضهم عن مساعدتهما في أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار القديمة ، يضاف إلى ذلك أن عابدين كاشف الرجل الثاني في حملة إسماعيل التى جاء « وادنجتون » برفقتها وتحت حمايتها لم يكن يؤيد في أثناء وجوده في دنقلة قيام هذين الرحالين الإنجليزيين بمثل هذه الأعمال . ومع ذلك فقد نجحا في الكشف عن بعض المعابد والتماثيل في جزيرة أرقو التى يرجع تاريخها إلى زمن الفراعنة ، وقد كان للملك طمبل ملك أرقو ، الذى نجح « وادنجتون » في كسب صداقته ، أثر كبير في هذا النجاح ، إذ بعث إليهما بعدد من حراسه المسلحين بالسيوف والبنادق ليكونوا برفقتهما . ويؤكد « وادنجتون » أنه لم يكن في الإمكان مواصلة التنقيب عن الآثار القديمة في المنطقة دون مساعدتهم ، إذ أنه من الصعوبة بمكان أن تحمل سكان هذه الجهات على القيام بهذه الخدمة ، وقد رفضوا رفضاً باتاً أن يتحركوا حتى تدفيء الشمس الدنيا (على حد تعبيرهم) .. فقط أمكن بطريق إثارة الفزع في نفوسهم حمل سبعة رجال منهم على أكثر تقدير على العمل لمدة ست أو سبع ساعات . ومع ذلك لم يكن عملهم غير مثمر تماماً . فقد كشفوا عن رأس تمثال الجرانيت الأسود الجالس وكذلك أساس الحائط السميك .. »[1] .

الاهتمام بقصة المماليك فى دنقلة :

ومن الموضوعات التاريخية الهامة التى عنى الرحالة « وادنجتون » بدراستها أثناء زيارته لإقليم دنقلة قصة المماليك الذين أقاموا لهم ملكاً في هذا الإقليم عقب فرارهم إلى السودان بعد مذبحة القلعة المشهورة عام ١٨١١ م .

(١) المصدر السابق ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

وقد مكنته علاقاته الشخصية مع بعض ملوك النوبة وزعمائها ممن عاشوا أحداث هذه القصة ، وبخاصة الذين أسهموا في بعض أدوارها مثل الملك طمبل السالف الذكر ، من الوقوف على الكثير من تفاصيلها ، هذا إلى جانب إلمامه بأقوال الرحالة السابقين الذين عرضوا لهذا الموضوع التاريخى كالرحالة بورخارد . بيد أن « وادنجتون » — فيما يبدو من معالجته له — كان أكثر اهتماماً وعمقاً في دراسته ، فقد جاء بالمزيد من المعلومات والحقائق عن أخبار هؤلاء المماليك ، وبخاصة فيما يتعلق بأخبار الدولة التى أقاموها في دنقلة ، والإنطباعات التى تركها حكمهم في بعض نواحى حياة سكان هذا الإقليم النوبي ، مما يكشف في حقيقته عن صفحة مطوية من تاريخ المماليك في جنوب الوادى .

ولقد أزاح « وادنجتون » بنفسه الستار عن سر اهتمامه بمتابعة قصة هؤلاء الناس في بداية حديثه عنهم ، فقد جاء على لسانه قوله « إنه سوف يلتمس لى العذر إذا تابعت باختصار (وباهتمام) قصة جماعة من الناس يرتبط تاريخهم لسوء الحظ من نقطة واحدة بتاريخنا (تاريخ بريطانيا) »[1] . ثم يقول « وإذا كانت قوة بأسهم التى تعزى إلى شجاعتهم ، وكثرة عددهم لم تستمر طويلاً ، فإنهم على أقل تقدير قد أصبحوا جديرين بالإهتمام من حيث سوء الحظ الذى أخذ يلاحقهم » . ويستطرد « وادنجتون » قائلاً « وأولئك الذين لا يثير في نفوسهم الإعجاب بهؤلاء المماليك باعتبارهم أحسن فرسان العالم رشاقة وأكثرهم شجاعة ، سوف يحسون بالعطف والشفقة نحو جماعة هام أفرادها على وجوههم واضطهدوا وعذبوا ، وكانوا دائماً ضحية الغدر والخيانة » .

والرحالة « وادنجتون » في معالجته لقصة المماليك في السودان قدعرض للظروف التى واجهها هؤلاء المماليك عند حلولهم بهذه البلاد ، فأشار إلى حالة الإنقسام والحرب التى كان عليها ملوك النوبة وزعماؤها في ذلك الوقت وإلى موقف المماليك من الأطراف المتنازعة وإلى حروبهم مع الشايقية أكبر

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٢٥

قوة واجهتهم في تقدمهم نحو الجنوب منذ ان غادروا الديار المصرية . كما تناول بنوع من التفصيل قيام دولتهم في إقليم دنقلة ، فتحدث عن حدود هذه الدولة ، وعن نواحى نشاطهم الإقتصادى فيها والجهود التى بذلوها لتدعيم كيانها . فقد وصف نشاطهم التجارى في « مراغة » (دنقلة الجديدة) الى يذكر أنه لم يمض وقت طويل على تأسيسها حتى غدت هذه المدينة مركزاً تجارياً كبيراً يؤمها التجار من مختلف جهات السودان حتى من دارفور ، وتباع السلع التى تعرض فيها بالأسعار ذاتها التى تباع بها في القاهرة . كما وصف نشاطهم الزراعى في إقليم دنقلة والمشروعات الزراعية التى أدخلوها للنهوض بالزراعة في هذا الإقليم . كذلك تناول « وادنجتون » في مواضع متفرقة من حديثه عن المماليك الإنطباعات التى تركها حكمهم في حياة سكان الجهات التى خضعت لنفوذهم في جنوب الوادى . فقد ذكر هذا الرحالة « إنه بتأثير الحكم المملوكى استمرسكان البلاد التى خضعت لسلطانهم تشعر بقيمة الأساحة وضرورة اقتنائها ، بينما في الجهات الأخرى مثل سكوت والمحس وهى أسبق الأقاليم السودانية إلى الخضوع للحكم المصرى ، ليس للبندقية أو السيف إلا قيمة بسيطة ، فقد كان أهل هذه الجهات يقولون موجهين القول إلينا « ما فائدة الأسلحة لنا ؟ ألسنا تحت حماية الباشا »[١] . وفي موضع آخر من حديثه عن المماليك يصف لنا « وادنجتون » بعض مظاهر التقدم النسبى التى لاحظها بنفسه في المناطق التى خضعت لحكمهم فيقول « إنه كلما تقدمنا في دولة (مملكة) المماليك بدت البلاد أكثر خصوبة وعمراناً بالسكان ، والمنازل جميعها مبنية جيداً بالأحجار على النحو الذى يلاحظ على بناء الأسوار في بعض مناطق إنجلترا »[٢] . وهناك حقيقة أخرى هامة تتعلق باختلاط المماليك بسكان البلاد الأصليين ومدى اندماجهم معهم ، يشير إليها « وادنجتون » ، إذ يقول « إن المماليك بعد أن استقروا في دنقلة ببضعة شهور قاموا بإرجاع معظم زوجاتهم القاهريات ، وتزوجوا من المواطنات النوبيات . وقد ظل هؤلاء الزوجات مخلصات وفيات لأزواجهن المماليك حتى في أواخر أيامهم

---

(١) Waddington, Op. cit., p. 254.

(٢) المصدر السابق : ص ٢٢٩

التعسة وبعد فرارهم من دنقلة .. وقد كن يواسين أنفسهن بالقول أن خروج المماليك من البلاد كان بإرادة الله ، وليس بإرادة الباشا »(١) .

ثم يتناول « وادنجتون » الحديث عن نهاية المماليك في السودان ، فيصف لنا ما كانت عليه أحوالهم من الضعف والإنحلال عندما جاءت حملة إسماعيل لتقضى على البقية الباقية منهم القضاء المبرم وتمحو كل أثر لوجودهم في هذه البلاد ، وكيف أنهم اضطروا إلى الرحيل من دنقلة إلى شندى إزاء هذا الخطر الداهم الذى يتهددهم ، وقد ظلوا في شندى حتى دب دبيب الخوف في قلب ملكها بعد أن وصلته أخبار انتصارات الباشا على الشايقية ، فأمرهم بمغادرة أراضيه . ثم يأتي « وادنجتون » إلى نهاية قصة المماليك في السودان فيحدثنا عما كان من تشتت شملهم شرقاً وغرباً ، حيث اتجه القسم الأكبر منهم إلى دارفور في حين سار البعض الآخر في اتجاه مضاد نحو شواطىء البحر الأحمر ، وقد توقع « وادنجتون » أن يكون القضاء عليهم أو إبادتهم للمرة الأخيرة أمراً لا مفر منه (٢).

وأخيراً يروى لنا الرحالة « وادنجتون » أنه عندما رجع إلى مصر علم بأن القليل من المماليك ممن نسى أو تناسى ما لا قاه غيرهم من وعود محمد على قد ألقى بنفسه تحت رحمة مهلكه(٣) .

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٢٩

(٢، ٣) Waddington : Op. cit., p. 230.

لقد أشار الرحالة « انجلش » الأمريكى الذى كان مرافقا لحملة اسماعيل على السودان فى كتاب رحلته الى ما يؤكد هذه الرواية التى جاءت على لسان الرحالة « وادنجتون » ولكن يزيد الأمر وضوحا ، اذ يقول « ان جماعة من بقايا مماليك مصر الذين كانوا قد هربوا أمام اسماعيل الى شندى ، قد وضعوا أنفسهم تحت حمايته عند وصوله الى بربر ، وقد عاملهم اسماعيل معاملة كريمة جدا .. » ويستطرد انجلش قائلا : « وهناك بقية أخرى صغيرة من المماليك فى شندى هربت الى البلاد الواقعة على البحر الأحمر حيث من المحتمل أن يهلكوا » .

(English : A narrative of the Expedition to Dongola and Sennar under the command of his Excellence Ismael Pasha, pp. 110-111).

ثانيا – مشاهدات « وادنجتون » ودراساته فى دار الشايقية

دراسة طبيعة الاقليم :

إن زيارة الرحالة « وادنجتون » « وهنبرى » لدار الشايقية تنطوى على جانب كبير من الأهمية ، بالنظر إلى ما تضمنته دراساتهما ومشاهداتهما في هذا الإقليم من قيمة علمية ، فقد تناول « وادنجتون » بالوصف جغرافية هذه البلاد حيث فتن بسحرها وجمالها ، وقارن بين هدوء الطبيعة هناك وبين طبيعة السكان أنفسهم التى تميل إلى الخشونة والعنف . كما وصف المناطق الزراعية ، ومدى ما يبذل من العناية في استغلالها .

دراسة الآثار القديمة :

ومن الدراسات الأخرى الهامة التى قام بها « وادنجتون » خلال زيارته لإقليم الشايقية دراسة الآثار القديمة التى اشتهر بها هذا الإقليم . وقد عنى بصفة خاصة بدراسة آثار جبل البركل من معابد وأهرامات ، وكذلك أهرامات البلال التى تقع عند التلال التى تعرف بهذا الإسم .

وإلى جانب ذلك تناول « وادنجتون » الحديث عن معتقدات النوبيين (الأثيوبيين) القدماء الدينية ، ومدى تأثرها بمعتقدات قدماء المصريين وتأثيرها فيها ، وضمن حديثه دراسة مقارنة لأقوال بعض المؤرخين القدامى في هذا الشأن أمثال « هيرودوت **Herodotus** ، و « جوزيف **Josephus** » و « استرابون **Strabon** » و « ديودور **Diodorus** » الصقلى .

دراسة طبائع الشايقية وتقاليدهم :

وفضلاً عن هذه الدراسات القديمة قام « وادنجتون » بدراسة حية لطبائع الشايقية وأخلاقهم وعاداتهم ، وبخاصة ما يتعلق بنزعتهم الحربية وحبهم للقتال ، من واقع ملاحظاته ومشاهداته لحياتهم وسلوكهم . ولقد كانت حروبهم مع إسماعيل ، وعلى وجه الخصوص معركة كورتي الفاصلة التى عاش هذا الرحالة الإنجليزى أحداثها وشاهدها عن كثب ، فرصة نادرة أتيحت له ليقف بنفسه على حقيقة خصالهم وتقاليدهم في الحرب والقتال

ومنازلة الأعداء . ولقد صور لنا « وادنجتون » ذلك تصويراً رائعاً جاء فيه « إن الشايقية لا يتهيبون الهجوم على أعدائهم على نحو يدعو إلى الدهشة ، فهم يسارعون لمنازلتهم وجهاً لوجه بروح الاستخفاف وعدم المبالاة ، وبقلب منشرح كأنهم ذاهبون إلى احتفال أو مهرجان ، أو تحت تأثير الشعور بالسرور كأنهم قادمون على ملاقاة أصدقاء قدامى افترقوا عنهم منذ أمد طويل . »(١) ويستطرد « وادنجتون » في وصفه قائلاً « وعند النزول إلى أرض المعركة يعطون تحية السلام عليكم ! سلام الموت التى يعقبها على الفور أن يقبض كل واحد على رمحه ويوجه به طعنات قاتلة ، ويستقبل أخرى مع كلمات الحب تخرج من الشفاه »(٢) .

ويرى « وادنجتون » أن هذا اللون من الشجاعة النادرة التى يتحلى بها الشايقية في الحرب والقتال والتى تصل إلى حد الإستخفاف بالحياة وعدم المبالاة بالموت إنما هو قاصر عليهم دون غيرهم من الشعوب ، إذ يقول « إن هذا الإزدراء بالحياة والإستخفاف بأكثر الأمور فزعاً ، إنما هى اعتبارات خاصة بهم ، فهم الشعب الوحيد الذى ينظر إلى الأسلحة وكأنها أدوات لهو ولعب ، وإلى الحرب وكأنها لون من ألوان الرياضة ، لا ينشدون من ورائها سوى مجرد التسلية ، ولا يخشون في الموت شيئاً ، بل يجدون فيه الراحة »(٣) .

وهناك صفة أخرى يمتاز بها الشايقية ولا تقل أهمية عن صفة الشجاعة النادرة التى يتحلون بها عبر عنها وادنجتون بقوله « إن الشايقية قد يتنازعون فيما بينهم ويحارب بعضهم بعضاً ، ولكنهم يتحدون عندما يواجهون خطراً مشتركاً من الخارج »(٤) .

---

(١) **Waddington : Op. cit., p. 98.**

(٢) المصدر السابق : ص ٩٨ — ٩٩

(٣) نفس المصدر ص ٩٩

(٤) المصدر السابق : ص ٩٤

شجاعة المرأة الشايقية :

كذلك قدم لنا « وادنجتون » من خلال معركة كورتي بعض الصور الرائعة لشجاعة نساء الشايقية ومشاركتهن للرجال في الحرب بروح عالية . وإن في بعض تقاليد الشايقية الحربية كما يصفها لنا « وادنجتون » نفسه ما يؤكد شجاعة المرأة ، إذ يذكر هذا الرحالة « إن إشارة البدء بالهجوم عند الشايقية — كما عند غيرهم من العرب — تعطيها فتاة عذراء تلبس لباساً فاخراً وتمتطى هجيناً ، ويحافظ الجميع على عفتها وطهرها بما في ذلك الأعداء »[١] ويضيف « وادنجتون » إلى ذلك « إن الإشارة التى تعطيها الفتاة ببدء الهجوم هى « ليللى — ليللى — لوو » وتكرر باستمرار ، وإن هذه الألفاظ ذاتها يعبر بها النساء عادة عند شعورهن بالبهجة والسرور في الولائم والأفراح »[٢] .

على أن « وادنجتون » بعد أن يحدثنا عن نزعة الشايقية الحربية وشجاعتهم النادرة في الحرب والقتال ، كما وقف عليها بنفسه أثناء حروبهم مع إسماعيل ، يؤكد بأن اعتقادهم في السحر وأعمال الشعوذة كان له تأثير واضح لا يمكن إغفاله فيما قاموا به من أعمال بطولية خارقة للعادة ضد قوات كانت تفوقهم عدداً وعدة . فهم — على حد قوله — « قد اعتقدوا أن التعاويذ السحرية التى كتبها لهم السحرة والعرافون في بلادهم ستمنحهم الغلبة والنصر المحقق على أعدائهم مهما كانت قوة هؤلاء الأعداء »[٣] .

ويروى لنا « وادنجتون » في حديثه عن معركة كورتي كيف أن الشايقية أصيبوا بخيبة أمل منقطعة النظير عندما أيقنوا بما لا يدع مجالاً للشك بأن عدوهم أقوى من تعاويذهم السحرية . وقد كان أول عمل قاموا به - كما يذكر لنا

---

(١) نفس المصدر ص ٩٦

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) Waddington : Op. cit., p. 100.

ويخبرنا « وادنجتون » « بأن السحرة فى بلاد الشايقية كانوا يمثلون طبقة ممتازة فى المجتمع الشايقى ، وان مكانتهم كانت تفوق مكانة الفقهاء والشيوخ فى هذه البلاد » . ويضيف الى ذلك « انهم جميعا كانوا يقطنون قرية بالقرب من مروى تعرف باسم « شبه Shibbah » (المصدر السابق : ص ١٠٠) .

« وادنجتون » الذى عاش معهم هذه المعركة - هو أنهم ساقوا إلى الموت هؤلاء السحرة والعرافين الذين غرروا بهم وخدعوهم على هذا النحو المشين[١] .

ومهما يكن من أمر فإن اسماعيل - كما يروى لنا الرحالة « وادنجتون » - قد عجز كلية في القضاء على نزعتهم الحربية بعد محاولات يائسة قام بها في هذا السبيل لتحويلهم من شعب محارب إلى شعب مزارع يفلح الأرض . وأخيراً رأى هذا القائد ، وبعد أن أذهلته شجاعتهم النادرة في محاربة قواته ، أنه من الحكمة أن يستغل هذه النزعة وتلك الشجاعة التى اشتهروا بها فيما يخدم أغراضه العسكرية في إتمام فتح السودان ، وذلك بأن الحق الكثير من فرسانهم بجيش الحملة .

وفضلاً عن اهتمام « وادنجتون » بدراسة نزعة الشايقية الحربية وبعض عاداتهم وتقاليدهم في الحرب والقتال ، عنى بوصف خصائص الشايقية الجسمانية التى تتعلق بلون بشرتهم وتقاطيع وجههم وقوامهم ، وغير ذلك من الخصائص العضوية التى تميزهم عن سائر الشعوب النوبية التى تجاورهم . وقد أبدى إعجابه بلون بشرتهم ، إذ يقول « إن لون بشرة الشايقية الأسود الحالك - وهم يختلفون عن الزنوج في كل ناحية - الذى يمتاز بصفائه ولمعانه قد بدا لعيوني غير المتحيزة أنه ألطف لون اختاره الله (لبنى البشر.) [٢]

كذلك تناول « وادنجتون » الأقسام السياسية والإدارية في إقليم الشايقية قبل مجئ حملة اسماعيل ، حين أشار إلى الممالك المختلفة التى كان يضمها ، وإلى المدن الرئيسية في كل مملكة ، كما تناول نشأة الشايقية وتاريخ نزوحهم إلى هذا الإقليم الذى أطلقوا عليه إسمهم ، وعرض لحقيقة الظروف والأوضاع التى كان عليها زعماؤهم في ذلك الوقت . وقد استقى « وادنجتون » هذه المعلومات من تحرياته المختلفة التى قام بها بين الشايقية أنفسهم .

حملة اسماعيل على السودان وموقف الشايقية منها :

وأهم من هذا وذاك أنه أتيحت « لوادنجتون » خلال زيارته لهذه البلاد أن يشهد أكبر حدث واجهه الشايقية في تاريخهم الحديث ، وهو مجئ حملة

(١) المصدر السابق : ص ١٠٠

(٢) Waddington : Op. cit., p. 127.

اسماعيل إلى ديارهم لإخضاعهم لنفوذ والده محمد على والى مصر». وقد قدر «لوادنجتون» أن يعيش هذا الحدث الخطير عن كثب، وأن يمدنا بتفاصيل ما وقع بينهم وبين إسماعيل قائد الحملة، وبخاصة الحرب التى خاضوها ضد قواته في معركة كورتي الشهيرة. وإذا علمنا أن الشايقية كانوا القوة الوحيدة التى اعترضت سبيل تقدم حملة اسماعيل إلى الجنوب وأن معركة كورتي بالذات كانت المعركة الفاصلة التى قررت مصير الشايقية، أدركنا الأهمية التى تنطوى عليها روايات «وادنجتون» وأحاديثه في هذا الشأن.

أسباب مجيء الحملة الى السودان :

وإلى جانب ما أمدنا به «وادنجتون» من المعلومات والحقائق الهامة عن قصة اسماعيل مع الشايقية بكامل تفاصيلها، وهى أهم ما يلفت النظر في أعمال الحملة العسكرية، فإنه عالج من وجهة نظره الخاصة الأسباب التى تكمن من وراء إرسال محمد على هذه الحملة إلى السودان، فهو قد ربطها بطموح الوالى الشخصى إذ يقول «إن طموح محمد على هو أن يمتلك وادى النيل من منبعه إلى مصبه، وإن يكون سيداً على سكانه جميعاً ممن يشربون من مائه، من بلاد الحبشة (جنوباً) حتى البحر الأبيض المتوسط (شمالا)»(١) ويستطرد «وادنجتون» قائلاً «وهذا الطموح جدير بأمير عظيم مثله، إن لم يكن ذلك بدافع الطمع. أما فيما يختص بمشروع فتح بلاد الحبشة فقدتركه عندما بلغه تأكيد رسمى بأن أى هجوم على هذه الدولة المسيحية سوف يوقعه في صدام مع الحكومة الانجليزية. ومن ثم اقتصرت فتوحاته على ممالك دنقلة، والشايقية، وبربر، وشندى، وسنار، ويدخل ضمن هذا المشروع إبادة أعدائه القدامى من المماليك الذين بسطوا سلطانهم تماماً على دنقلة.(٢) »

استعدادات الحملة العسكرية :

وبعد أن يعرض «وادنجتون» أهداف الحملة يتناول بالوصف قوتها العسكرية مبدياً وجهة نظره في استعداداتها، فهو يرى أن تجهيزها بوجه عام

(١) Waddington : Op. cit., p. 91 .

(٢) المصدر السابق : ص ٩١

لم يكن يتناسب مع ضخامة أهدافها ، إذ يقول « إن الوسائل التى استخدمها (محمد على) تبدو لأول وهلة أنها تكاد تتفق والغرض من استخدامها ، فجميع القوة التى تضمها الحملة تبلغ عشرة آلاف رجل لايزيد عدد المقاتلين منهم عن أربعة آلاف مقاتل ، واثنى عشر مدفعاً هى التى جعلت من غير المستطاع مقاومتها . »[١] . ثم يتحدث« وادنجتون » عن الجنود المرتزقة الذين كان يتكون منهم كل جيش الحملة تقريباً فيشرح نظام التحاقهم بالخدمة بصفة عامة ، وفي الحملات العسكرية وهذه الحملة بصفة خاصة التى يقول أن الجنود فيها منحوا مرتب ستة شهور مقدماً قبل أن يغادروا مصر . ثم يصف « وادنجتون » القوات التى كانت تضمها الحملة من الفرق النظامية وغير النظامية وأجناسها المختلفة ، ويتناول بصفة خاصة الحديث عن فرسان البدو الذين كانوا عماد الحملة ، فيصف أسلحتهم والأغاني التى ينشدونها زرافات ووحدانا ، ويقارن بين البدو الأفريقيين والبدو الآسيويين، ويشيد بضراوتهم جميعاً في الحرب والقتال ، وبمهارتهم الخاصة في استعمال الرمح . ويعتبرهم أفضل الجنود غير النظامية وأقدرها على القتال حين يذكر « أن أحسن الجنود في الحملة هم البدو الذين يبلغ عددهم حوالى ألف وخمسمائة بدوى. »[٢] ويقول « وادنجتون » أن قسماً منهم فيما يبدو من سكان المنطقة التى قهرت على أيدى الباشا في حملته تجاه معبد الآله آمون ، وقسم آخر من المغاربة من سكان الصحارى المجاورة لطرابلس وتونس ومراكش ، وجميعهم كانوا فرساناً ، وبعضهم كان لديه سونكى معلق على بندقيته . ثم يتحدث « وادنجتون » عن الجنود الألبانيين والجنود الأتراك في حملة اسماعيل فيذكر « أنه كان هناك عدد كبير من الألبانيين ولكنهم لايكونون في هذا الجيش (الحملة) كتائب متنوعة ، كذلك يوجد كثير من الأتراك الآسيويين الذين كانوا أيضاً متفرقين تحت قيادات مختلفة[٣] . »

---

(١) Waddington : Op. cit., p. 92.

(٢) المصدر السابق ص ٩٢

(٣) Waddington : Op. cit., p. 93.

وأخيراً يشير « وادنجتون » إلى كبار القواد في الحملة فيذكر « أن القواد الكبار في الجيش هم عابدين كاشف وكوجى أحمد قائد (قومندان) البدو ، وحسن دار ، والسلحدار ، وعمر كاشف وجميعهم كانوا تحت إمرة القائد الأعلى للحملة .

شخصية اسماعيل قائد الحملة :

ويصف لنا « وادنجتون » شخصية اسماعيل . وقد حظى هو وزميله « هنبرى » بمقابلته حيث قدمهما إليه طبيبه الخاص «بروتوميديكو **Protomedico**» اليوناني الأصل الذى قام بدور المترجم . وقد تمت المقابلة في ١٤ ديسمبر عام ١٨٢٠ ومن خلال هذه المقابلة استطاع « وادنجتون » أن يقف على جوانب هامة من شخصية هذا القائد مثل بعض الصفات والقدرات الطبيعية التى كان يتمتع بها ، ومظهره العام ، ولهجته في الكلام ، وثقافته السياسية العامة من حيث مدى إلمامه بالأحداث الجارية في العالم في ذلك الوقت، وبخاصة في قارة أوربا .

يقول « وادنجتون » في وصف شخصية اسماعيل « إنه النجل الأصغر لمحمد على ، وهويبلغ من العمر واحداً وثلاثين عاماً ، ويتمتع بشجاعة ذاتيه عظيمة ، وهو كريم إلى درجة كبيرة ، وعنده رغبة قوية في أن يتزود بالعلم والمعرفة ، كما يتمتع بقدرات عقلية كبيرة ، قد تؤهله لأن يصبح في وقت من الأوقات أحد رجال الأتراك العظام . »(١)

ويصف مظهره العام بقوله « إنه لايلبس عمامة ، وإنما يضع على رأسه طربوشاً أحمراً ملفوفاً عليه خيط عريض من الذهب الأصفر ، وهو ما يعد خروجاً على التقاليد التركية ، يزيد بدون شك من فخامة المظهر . »(٢)

ويضيف إلى ذلك « بأن أسلوب حديثه وطريقة كلامه تغاير إلى حد كبير مظهره العام ، فالعيب الذى في سقف فمه يعوق نطقه إلى درجة كبيرة،

---

(١) Waddington : Op. cit., p.p. 93-94.

(٢) نفس المصدر ص ١٣٠

بحيث يجعل كلامه عبارة عن أصوات متنافرة على التوالى ، وتزداد حدته مع تزايد السرعة في نطقها أو اخراجها حتى ليعجز الإنسان عن فهمها . »[١]

أما عن تفاصيل المقابلة التى تمت بين اسماعيل قائد الحملة والرحالة « وادنجتون » وما دار خلالها من أحاديث تكشف عن جوانب من شخصية هذا القائد فيصفها « وادنجتون » نفسه بقوله « إن الباشا كان له رغبة قوية صادقة في أن يقف على حقيقة الاتجاهات السياسية في أوربا . ولقد أكد له الأمريكيون بأنه لو أن « بونابرت » نجح في الهروب إلى بلادهم ، لما وجد صعوبة كبيرة في استعادة قوته كلها ، كما أكد له شخص آخر (يحتمل أن يكون بروسيا) بأن جميع حكومات أوربا كانت تتمتع بحرية تامة » [٢] .

ويستطرد « وادنجتون » قائلاً « إن اسماعيل سأل عن على باشا في ألبانيا الذى علت شهرته بنجاحه في موقفه ضد الباب العالى ، وعبر عن دهشته من أن انجلترا لم تمد له يد المساعدة . كذلك أثار اهتمامه ما أشيع عن احتمال نشوب حرب بين السويديين والجزائريين . » ويضيف « وادنجتون » إلى ذلك « بأن الباشا كان على معرفة بموقع السويد ، ومتمكناً حسناً في جغرافية أوربا . » ثم يقول « ولكن الموضوع الذى تحدث فيه اسماعيل بحمية وحماس أكبر هو قدرة الروسيا الحربية (وهو موضوع مهد لنا أيضاً للحديث فيه عابدين كاشف) ، وقد سألنا « لماذا سمح لها « الكونجرس » بأن تقوى وتتسع مادياً هكذا ؟ » ويقول « وادنجتون » « إننا لم نجب على هذا السؤال ، ذلك أن سكرتيره الخاص طلب المثول بين يديه » . ويختم «وادنجتون» حديثه قائلاً « وهكذا غادرنا الاجتماع بعد أن مكثنا معه (اسماعيل) أكثر من ساعتين . ولولا هذه المقاطعة لكان من المحتمل أن نمكث وقتاً أطول ، إذ لم يبدو عليه التعب على الإطلاق من المحادثة التى كان يحيطها بالاستعداد العظيم والاهتمام الكبير[٣] » .

---

(١) المصدر السابق : نفس الصفحة .

(٢) Waddington : Op. cit., p. 130.

(٣) نفس المصدر والصفحة .

سير الحملة :

أما عن سير الحملة فيصفه « وادنجتون » بقوله « إن الجيش غادر القاهرة مبكراً في الصيف ، وقد عبر الشلالات (الجنادل) أثناء الفيضان ، وتقدم جنوباً دون مقاومة حتى وصل إلى دنقلة الجديدة التى وجد أن المماليك أخلوها ، إذ كانوا قد انسحبوا منها منذ بضعة شهور إلى شندى . » ثم يقول « وكانت الخطوة التالية للجيش الزاحف هى أن يتقدم في وجه الشايقية(١) »

تحدى الشايقية السافر لاسماعيل :

وقد روى لنا « وادنجتون » قصة اسماعيل قائد الحملة مع الشايقية بكامل تفاصيلها وأدوارها المختلفة ، كما عاش أحداثها وسمع أخبارها بنفسه أثناء زيارته لهذه البلاد . فهو يشرح بداية القصة بقوله « إن الباشا (إسماعيل) عند وصوله إلى دنقلة أرسل إلى الشايقية يأمرهم بالخضوع لوالده محمد على . فعبروا له عن استعدادهم لزراعة أراضيهم وتقديم الجزية المقررة . فطلب منهم أن يبرهنوا على ولائهم وإخلاصهم بإرسال أسلحتهم وخيولهم إليه ، فأعادوا على مسامعه ما سبق أن رددوه ، فأجابهم بأن والده قد أمره بأن يحولهم من أمة من المحاربين إلى أمة من المزارعين ، وجدد ما طلبه منهم من قبل ، فأجابوه بتحد سافر « إما أن تمضى إلى حال سبيلك ، أو تأتي لتهاجمنا ، فكان أن وجه الباشا قواته إلى تخومهم(٢) » .

---

(١) Waddington : Op. cit., p. 97.

ويقدر « وادنجتون » قوة الشايقية العسكرية عند مجىء حملة اسماعيل الى بلادهم بحوالى عشرة آلاف مقاتل ، أكثر من الفين منهم من الفرسان (Waddington : Op. cit., p. 95)

(٢) وهذه الرواية لا تختلف فى جوهرها تقريبا عما رواه الرحالة الأمريكى « جورج انجلش English » الذى كان أيضا برفقة الحملة ، اذ يروى هذه الرحالة « أنه قد جاء الى معسكر الباشا وفد من شندى من قبل الملك شاويش زعيم الشايقية يعرض على الباشا الصلح ، فأجابهم (الباشا) « بأن الشرط الأساسى لعقد الصلح هو أن يسلموا خيولهم وأسلحتهم ، وان يرجعوا الى بلادهم فى هدوء وسلام دون أن يزعجوا جيرانهم » . فأجابه أعضاء الوفد « بأنهم لن يسلموا خيولهم وأسلحتهم » فرد عليهم الباشا « بأنه سيأتى اذن الى شندى ويستولى عليها » . =

كيف وقع أول صدام بين الشايقية واسماعيل :

ثم يقص علينا « وادنجتون » كيف وقع أول صدام بين الشايقية وإسماعيل بالقرب من دنقلة العجوز عندما فوجئ هو وبعض قواده مع عدد قليل من الجند بجماعة من الشايقية يهجمون عليهم ولكن سرعان ماردوا على أعقابهم ، وقد نجح عابدين في أسر إبنة أحد زعمائهم وكانت عذراء ، وقد أرسلها إسماعيل إلى والدها معززة مكرمة . ولكنه أمر في الوقت نفسه بعرض بعض الألعاب النارية ليثير الرعب في نفوس أعدائه ، بيد أن أعداءه بالرغم من ذلك كانوا أقل شعوراً بالخوف مما تخيل أو توقع ، إذ اكتفوا بالتعليق على الأسهم النارية وهى تنطلق في الفضاء بقولهم « ما هذا ؟ هل جاء ليحارب السماء ؟ »

ويمضى « وادنجتون » في وصفه قائلاً « إن هذا المنظر زاد من شجاعتهم ، إذ أخذوا يتصايحون بالقرب من معسكرهم « إنك جئت لتحاربنا ، وسواء جئت من الشمال أو من الشرق أو من الغرب ، فإننا على أى حال سنفنيك »

وصف معركة كورتى :

ولقد وصف لنا « وادنجتون » هذه المعركة وصفاً دقيقاً شرح فيه كيف أحاطت بمعسكر إسماعيل قوة من الشايقية يتراوح عددهابين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف رجل ، وكيف توالت هجماتهم على قوات الحملة في بداية المعركة على الرغم من شدة ما قاسوه منها . ثم ما كان من نجاح اسماعيل ونائبه عابدين كاشف في السيطرة على زمام الموقف في أرض المعركة ، بما أبدياه

= ويضيف « انجلش » الى ذلك « انه قد علم بأنه قبل أن يتقدم الباشا من وادى حلفا جاءه الى معسكره وفد من زعماء الشايقية يسألونه « لماذا يريد أن يشتبك معهم فى حرب » فأجابهم بقوله « لأنكم لصوص تعيشون على نهب وسلب الأقاليم المحيطة بكم » فردوا عليه « بأنه ليس لديهم وسائل أخرى يعيشون عليها » فرد عليهم قائلا « ازرعوا أرضكم وعيشوا بأمانه » فأجابوه بسذاجة واضحة « لقد نشأنا لنعيش وتنتعش حياتنا على ما تسميه أنت نهبا وسرقة ، ولا يمكننا أن نغير نظام معيشتنا » فأجابهم اسماعيل « سأجعلكم تغيرونها » .

(English : A narrative of the expedition to Dongola and Sennaar under the command of his Excellence Ismael Pasha, p. 109).

من ضروب الشجاعة والبطولة لمواجهة بسالة الشايقية واستماتتهم في القتال .
كما يصور لنا النهاية الحتمية للمعركة ، فيشير إلى ما كان من إدراك الشايقية في آخر الأمر للحقيقة الواقعة وهى عجز أسلحتهم البسيطة وتعاويذهم السحرية عن الصمود أمام أسلحة أعدائهم النارية ، واضطرار فرسانهم إلى الفرار لمعاودة الكرة من جديد . وأخيراً يتناول « وادنجتون » في هذا الوصف الخسائر في الأرواح التى تكبدها كلا الفريقين المتحاربين ، فيؤكد أن عدد القتلى من مشاة الشايقية كان كبيراً إذا ما قورن بعدد القتلى من قوات اسماعيل ، كما يعرض لأمثلة من أعمال البطولة النادرة التى قام بها الشايقية في المعركة وأثارت دهشة الأتراك وانتزعت إعجابهم منهم . ولقد أبدى « وادنجتون » نفسه ، من واقع ما شاهده وسمعه عن بسالة الشايقية في معركة كورتي ، إعجابه الشديد بهم وتقديره لهم كشعب مناضل يبذل روحه رخيصة في سبيل الدفاع عن حريته وكيانه .

مذبحة الشايقية :

على أن المتتبع لأقوال الرحالة « وادنجتون » يرى أن المناوشات بين الشايقية واسماعيل لم تنقطع بعد هزيمتهم في معركة كورتي ، فهو بعد أن يتحدث عن خسائر الفريقين في المعركة ، يشير إلى حادثين معينين وقع فيهما اشتباك بين الطرفين راح ضحيتهما عدد غير قليل من الشايقية ، هذا بخلاف المذبحة التى جاءت في أعقاب المعركة ، وقد أفرد لها «وادنجتون» مكاناً بارزاً في كتاب رحلته تحت عنوان « مذبحة الشايقية » « Massacre of the Sheygyà » وصف فيه المذبحة وصفاً مثيراً(١) ، تناول فيه آثارها البشعة ، كما رآها في الشوارع وفي الحقول وعلى شاطئ النهر ، وعرض لتأثيرها السيئ والمؤلم

---

(١) Waddington : Op. cit., p.p. 118-124.
لقد وصف الرحالة الأمريكي « جورج انجلش English » السالف الذكر حالة الخراب التى خلفتها هذه المذبحة ، ولكن ليست على النحو المفصل وبالصورة المثيرة التى وصفها بها الرحالة « وادنجتون » ، اذ يذكر «انجلش» « ان الحقول الممتلئة بالمحاصيل الزراعية الوفيرة التى كانت على وشك أن تنضج قد هجرت ، والسواقى توقفت عن العمل ، وأحواض المياه أصبحت مصدر رائحة كريهة بسبب الدماء والجثث العفنة التى ألقيت فيها » .
(English : Op. cit., p. 61)

في نفوس من بقى من الشايقية على قيد الحياة من واقع ملاحظاته ومشاهداته على تعبيرات وجوههم وكذلك من خلال الأحاديث التى تبادلها مع بعضهم .

مفاوضات الصلح بين اسماعيل والشايقية :

على أن قصة اسماعيل مع الشايقية - كما يرويها لنا « وادنجتون » نفسه - لم تنته بهذه المذبحة التى ذهب ضحيتها الكثيرون منهم وإنما انتهت بعقد الصلح بين الطرفين . ولقد شرح لنا هذا الرحالة الانجليزى الظروف التى تم فيها ذلك بقوله « إنه في تلك الأثناء كان الأتراك والشايقية في مفاوضات مستمرة للصلح) . فقد حضر حفيد الملك « صبير » إلى المعسكر اليوم ، ومَثُل أمام الباشا الذى أنعم عليه بعباءة وشال من كشمير . ثم ودعه بالحفاوة والإكرام البالغ[١]. » ويستطرد « وادنجتون » قائلاً « وعلى هذا النحو أغرى بقية هؤلاء العرب التعساء على الخضوع ، وهم حينما ينتشرون في سلام على أرض الإقليم سيحملون أكثرهم قوة وشجاعة على الإذعان[٢] . »

ويختم « وادنجتون » حديثه بقوله« وهكذا سيصبح الشايقية حلفاء لقاهرهم وليسوا عبيداً له ، وأن الشجاعة الجديرة بالنصر قد حصلوا على الأقل من ورائها على الراحة والخلاص من العبودية[٣] »

ولكن هل نجح إسماعيل ، بعد أن عقد الصلح مع الشايقية وتم له خضوعهم لسلطانه في أن يقضى على نزعتهم الحربية ، ويحولهم من شعب محارب يحرص على اقتناء الخيل والسلاح إلى شعب مزارع يفلح الأرض ويعيش على زراعتها كغيرهم من شعوب بلاد النوبة ؟

إن « وادنجتون » الذى عاش أحداث قصة إسماعيل مع الشايقية بأدوارها وتفاصيلها المختلفة ، وقد شاهد هزيمتهم على يديه ، ، كان يظن أنهم لابد سيخضعون لرغبة الباشا وإرادته ، فهو قد توقع لهم تلك الحياة التى عبر عنها

---

(١) Waddington : Op. cit., p. 147.
(٢) المصدر السابق : ص ١٤٧
(٣) نفس المصدر والصفحة .

في قوله « وربما سيتحول الجيل الثاني للشايقية بعد سنوات قلائل ، وربما في الوقت الحاضر إلى فلاحين يديرون الساقية مثل فلاحى مصر[١] » .

على أن ما توقعه « وادنجتون » من تغيير جوهرى في طبيعة حياة الشايقية بعد هزيمتهم على يد اسماعيل لم يحدث ، ذلك أن النزعة الحربية في هذا الشعب كانت أقوى من أن تضعف أو تستعلى إلى نزعة أخرى طابعها السلم . ولعل هذا ما أدركه محمد على أخيراً ، فقد رأى بعد أن فشلت محاولاته في أن يحولهم من شعب محارب إلى شعب مزارع يفلح الأرض ليعيش على خيراتها ، أن تستغل تلك النزعة الأصيلة فيهم فيما يخدم أغراضه العسكرية نحو إكمال فتح الأقاليم الجنوبية التى لم يكن قد تم للحملة فتحها بعد . وهذا ما صرح به « وادنجتون » في موضع آخر من كتاب رحلته ، حين يقول « إن مصير بقايا فرسان الشايقية لم يكن — تماماً — كما توقعنا . وهذا ما سمعناه على لسان محمد على نفسه ، خلال زيارة له قمنا بها على أثر عودتنا إلى القاهرة . فحالا عقب رحيلنا من المعسكر — اتفق على أن القسم الأكبر منهم الذى أبقى على خيوله وأسلحته التى حارب من أجل الحفاظ عليها سوف يدخل في خدمة إسماعيل باشا وينضم إلى جيشه في زحفه على الشعوب الجنوبية التى كانت أيضاً في حالة عداء معهم[٢] » .

---

(١) Waddington : Op. cit., p.p. 102, 103.

يذكر « وادنجتون » « ان لفظ فلاحين يطلق على العرب العاملين فى مصر ، ولكنه فى عرف الشايقية تعبير عن الذل والاحتقار » .

(Waddington : Op. cit., p. 95).

(٢) Waddington : Op. cit., p. 147.

يبدو أن محمد على لم يكن ليرضيه أن يظل الشايقية فى حالة سخط ونفور من ابنه اسماعيل بسبب اصراره على أن يسلموه أسلحتهم وخيولهم ، وهو ما يكشف عنه هذا الخطاب الذى بعث به اليه يؤنبه فيه على هذه السياسة وينصحه بكسب ودهم . وقد عثرنا عليه ضمن الوثائق المحفوظة بقصر عابدين . وقد جاء فيه :

من الجناب العالى الى اسماعيل باشا سر عسكر السودان .

« ... فيا ولدى الأغر ، ان من المعلوم عن أرباب الحكومة الذين تكون نفوسهم تحت حكم عقولهم أن استجلاب قلوب العباد متوقف على نشر العدالة ، وأن تسخير البوادى والبلاد موقوف على حسن الاستمالة ، ومن الظاهر انه لا يمكن لأى حاكم أن يقوم بعمل بدون عدالة ، كما أن من البديهى=

. . . .

الباهر أنه لا يتمكن من الوصـول الى المنزلة المقصـدة ، والى غاية من غير استمالة . فبناء على ذلك كان من الواجب عليكم أن تمتلكوا أهالى الشايقية بحسن استمالتهم وتملكوهم وبلادهم بتـأمينهم وتأليفهم . فمن العجب تبعيدكم اياهم عنكم وتنفيرهم عن اطاعتكم بتكليفهم اياهم تسليم خيولهم وأسلحتهم . فان كنتم غير مطلعين على أحوال أرباب السيف الذين نجحوا فى أعمالهم فى الأزمان السالفة ، أفلم تستمعوا أو لم تعلموا أن الفرنسيين الذين أتوا الى مصر فى زمن قريب الى أى درجة كانت عدالتهم فى مجيئهم لأجل تسخير البلاد ، والى أى درجة أظهرو العدل حينما أرادوا الذهاب والانسحاب لأجل تأمين سلامتهم وكيف كان مجيء الانجليز وذهابهم مقرونين بالعدل ...

فياولدى ونور عينى ان من الواضح الجلى أن الأنانى فى هذا العالم يبقى بعيدا عن رضا الخالق سبحانه وتعالى ، والمغرور يكون مهجورا فى نظر الكبار . فأنصحك نصح الوالد الا تكون مع هؤلاء الأنانيين لأن المصلحة التى انتدبتم اليها مصلحة عظيمة ، والممالك التى تقصدها ممالك جسيمة ، ولا يتغلب المرء على مثل هذه المصلحة العظيمة الا بالعدالة ، ولا يملك مثل تلك الممالك الا بمراعاة الرجال المجربين المعتبرين الذين قاموا بأعمـال وأنتجوا أمورا ، وبالاستشارة والمذاكرة معهم فى كل الشئون ... » .

(ترجمة المكاتبة التركية رقم ١١٧ بتاريخ ٩ ربيع الآخرة سنة ١٢٣٦ ـ دفتر رقم ٧ معية تركى) .

أثر قانون المطبوعات فى الحركة الوطنية المصرية
قبيل الحرب العالمية الأولى
١٩٠٩ — ١٩١٢

للدكتور يونان لبيب رزق

في ٢٥ مارس عام ١٩٠٩ أصدر « مجلس النظار المصرى » قراراً بعودة العمل « بقانون المطبوعات » الصادر في نوفمبر ١٨٨١ .

وكانت عودة العمل بهذا القانون الذى يمنح صلاحيات واسعة للسلطات الإدارية بفرض الغرامات على الصحف أو إنذارها أو تعطيلها لفترة قد تطول أو تقصر أو حتى إغلاق هذه الصحف[١] ، كانت عودة العمل بهذا القانون نتاجاً طبيعياً لذلك الصراع الطويل والمرير الذى احتدم خلال السنوات السابقة على عودة إصداره بين الحزب الوطنى من ناحية وسلطات الإحتلال تساندها القوى التقليدية في الحكم من ناحية أخرى .

وكان قد بطل العمل بهذا القانون منذ عام ١٨٩٤ ، وتعود أسباب ذلك الإبطال إلى محاولة الخديوى عباس حلمى الثاني استعماله ضد جريدة «المقطم» الإحتلالية على حد اعتراف صاحب هذه الجريدة نفسه[٢] ، كما أن الإستمرار في تطبيق القانون — خاصة على الصحف الأجنبية — أدى إلى مشاكل دولية بالغة التعقيد كما حدث فيما هو معروف بحادث جريدة « البوسفور إجبسيان » عام ١٨٨٥[٣] ، وكان العجز عن تنفيذ القانون على « الصحافة الأجنبية »

---

(١) نص القانون فى الوقائع المصرية العدد ١٢٦٨ السنة ٥١ فى ٢٩ نوفمبر ١٨٨١

(٢) انظر المقطم فى ٢٥ مارس ١٩٠٩

(٣) انظر بحث الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى : حادث جريدة البوسفور اجبسيان — المجلة التاريخية المصرية — المجلدان ٩ ، ١٠ (١٩٦٠ — ١٩٦٢) ص ١١٧ — ٢١٣

في الوقت الذى ينفذ فيه على الصحف العربية مما يفتح الباب عريضاً أمام أصحاب هذه الصحف باللجوء إلى تمليك صحفهم إسمياً لأوربيين أو أشخاص يتمتعون برعوية الدول التى تتمتع بالإمتيازات في البلاد . ومن ثم كان آخر عهد الصحافة المصرية بذلك القانون خلال القرن التاسع عشر هو الإنذار الذى ناله المؤيد سنة ١٨٩٤ حيث طوى من ذلك العهد فلم ينشر إلا في مارس سنة ١٩٠٩[1] .

وطوال عقد كامل — بعد ١٨٩٤ — ظلت السلطات البريطانية راضية عن الحرية التى تمتعت بها الصحف المصرية ، إذ أنها لم تؤثر تأثيراً جدياً في تخويف سلطات الإحتلال أو زعزعة مركزها ، بالعكس كانت هذه السياسة فرصة « لكرومر » للتفاخر بهذه الحرية التى لم تتمتع بها الصحافة المصرية من قبل ، كما رأى الإنجليز في هذه الحرية فرصة لتعبر بها الحركة الوطنية الوليدة عن نفسها بأساليب مشروعة ومنظورة بدلا من أن تلجأ إلى الأساليب السرية التى قد تتجه إلى العنف وهو ما حرص الإحتلاليون على تجنبه لأطول مدى ممكن .

ولكن مع اشتداد عود الحركة الوطنية ، ومع استعمال هذه الحركة « للصحافة » كسلاح أساسى في معركتها ضد الإحتلال كان لابد أن تعمل سلطاته على فل هذا السلاح ومن ثم تم إعادة إحياء القانون المذكور ، وهناك علامات واضحة على الطريق بين عامى ١٩٠٥ — ١٩٠٩ والذى انتهى أخيراً بعودة صدور القانون :

١ — ففى خلال « الأزمة المقدونية » في أواخر عام ١٩٠٥ هاجمت اللواء موقف الدول الأوربية من الدولة العثمانية — خاصة إنجلترا — هجوماً عنيفاً[2] مما دعا المعتمد البريطاني في القاهرة إلى أن يكتب لوزير الخارجية في لندن يتحدث عن أضرار حرية الصحافة « لأنها تركت الميدان مفتوحاً

---

(١) المؤيد فى ٢٥ مارس ١٩٠٩

(٢) انظر مقالة « الحياة أو الموت » لمصطفى كامل — اللواء ٢٦ نوفمبر ١٩٠٥ ، مقالة « عداوة انكلترا للاسلام » لأحمد حلمى — اللواء ٢٩ نوفمبر ١٩٠٥

لجهود المحرضين على الجامعة الإسلامية الذين أخذوا في إثارة التعصب الديني في مقالات يومية » [١].

٢ — تحتدم الأزمة المعروفة بأزمة العقبة خلال النصف الأول من عام ١٩٠٦ وتتخذ منها الصحافة الوطنية موقفاً معادياً للإحتلال مما أدى إلى أن يعتقد المعتمد البريطاني في القاهرة أن البلاد على حافة ثورة دينية سببها هذا الموقف[٢] مما دعاه إلى أن يعاود التفكير في إعادة القانون ، فكما كتب للسير « إدوارد جراى » أنه قد علم من مستشاريه القانونيين « أن للحكومة المصرية الحق في إيقاف أى جريدة طبقاً لقانون للصحافة لا يعمل به منذ عدة سنوات وسوف تعيد الحكومة المصرية إليه الحياة »[٣] .

٣ — لا يلبث أن يشهد النصف الثاني من نفس العام (١٩٠٦) « حادثة دنشواى » وما صاحبها من حملة اللواء على الإحتلال وسلطاته — مما هو معروف — مما يدعو كرومر إلى أن يعلن بصراحة في تقريره السنوى عن العام المذكور عن « وجوب تقييد حرية الصحف[٤] » .

٤ — أدى فشل سلطات الإحتلال في اللجوء للأسلوب القضائي للحد من هجوم الصحف الوطنية إلى الإصرار على إعادة صدور القانون ، وقد وضح هذا الفشل تماماً عندما هاجم الشيخ جاويش في اللواء الإجراءات التى اتخذتها السلطات البريطانية في السودان ضد الثورة التى قامت في قرية الكاملين في الجزيرة واعتبرها « دنشواى أخرى[٥] » .

ولما قدم الشيخ جاويش إلى المحاكمة بتهمتى « نشر أخبار كاذبة » و « إهانة نظارة الحربية » برأته المحكمة الإبتدائية من التهمة الأولى وعاقبته

---

(١) Corres, Part LXIII No. 203 Cromer to Lansdowne Dec. 9, 1905 Desp. No. 132 Conf.

(٢) انظر بحث دكتور يونان لبيب رزق : أزمة العقبة المعروفة بحادثة طابة — المجلة التاريخية المجلد ١٣ (١٩٦٧) .

(٣) Corres. P. LXV No. 203 Cromer to Grey, April 25, 1906 Tel. No. 114

(٤) Annual Report, 1906 P. 9.

(٥) انظر مقال « دنشواى أخرى فى الســودان » اللواء فى ٢٨ مايو ١٩٠٨

بغرامة عشرين جنيها على التهمة الثانية ، ولم تلبث محكمة الإستئناف أن برأته من التهمتين .

وكانت هذه الأحكام بمثابة لطمة لسلطات الإحتلال كما أدت إلى شيوع الإحساس بأن مجابهة الصحافة الوطنية في ظل القانون العادى لن يحقق لها ما تصبو إليه مما دعا غورست إلى أن يعلن في تقريره في نهاية العام « أن أفضل وسيلة لمواجهة هذه الصعوبات تطبيق قانون المطبوعات[1] » .

٥ — ومن العلامات التى لا يمكن إغفالها في الطريق نحو إصدار القانون تولى غورست لمنصب المعتمد البريطاني في القاهرة خلفاً « لكرومر » واتباعه أسلوب الملاينة مع الخديوى فيما عرف « بسياسة الوفاق » مما أدى إلى اتفاق مصلحة السلطة الشرعية — أى الخديو — مع مصلحة السلطة الفعلية — أى الإحتلال — ، ولم يبق ثمة ما يدعو سلطات الإحتلال إلى الإبقاء على « حرية الصحافة » ، إذ أن خوفها من استعمال القانون ضد الصحف الناطقة بإسمها قد زال بالإتفاق مع الخديو .

هكذا أعيد إحياء القانون في مارس ١٩٠٩ أساساً بهدف ضرب الحركة الوطنية في صحفها ،

* * *

وإذا سلمنا أن مفهوم العمل الوطنى في مصر طالما بقيت قوات الاحتلال البريطاني على أراضيها يتمثل في العمل على إخراج هذه القوات ، لوجدنا بحق أن الحزب الوطنى هو صاحب هذا الاتجاه خلال منى ما قبل الحرب وبالتالى فإننا عندما نؤرخ للحركة الوطنية المصرية في تلك الحقبة فإنما نؤرخ في الحقيقة لهذا الحزب .

ورغم أن العمل السياسى للحزب الوطنى المصرى قد ارتبط بأساليب معينة في تلك الفترة قد لاترضى المفاهيم الوطنية الحالية مثل دعوة زعماء هذا الحزب للارتباط بالدولة العثمانية والالتفاف حول كرسى الخلافة مما دعا

---

(١) Annual Report, 1908 P. 5.

بعض خصومه لاتهامه بأنه ليس موالياً تماماً لفكرة « الوطنية المصرية » إلا أن مؤسس هذا الحزب لم ير أبداً أى تعارض بين الولاء لمصر والولاء للخلافة .

فعندما اتهمت جريدة « الطان » الفرنسية مصطفى كامل بأنه يعمل على استبدال الانجليز بالأتراك وأنه لامعنى للوطنية عند المصرى[١] رد الزعيم الوطنى على الجريدة الفرنسية بمقال طويل في اللواء بعنوان «مصر للمصريين — وطنيه وجامعة إسلامية » مبدياً رأيه بأنه ليس ثمة تعارض بين المبدأين . . مصر للمصريين . . ومصر للخليفة[٢] . .

كما أرسل مصطفى كامل خطاباً إلى جريدة « الديلى جرافيك » الانجليزية نشرته في ١٥ أغسطس ١٩٠٦ رداً على مقالات لها في نفس المعنى أكد فيه رأيه بأن « مصر للمصريين »[٣] .

ونحن لانناقش هنا مدى صواب اتجاه الحزب الوطنى نحو دولة الخلافة أو عدم صوابه إنما نرغب أن نؤكد حقيقة هامة وهى أن اتجاه هذا الحزب الأساسى نحو العمل على إجلاء البريطانيين مستعيناً بأى وسائل قد أرضى المشاعر الوطنية المصرية ، ولا دليل على هذا أكثر من اعتراف كافة أطراف الصراع السياسى في الوطن المصرى في تلك الأعوام — وعلى رأسهم ممثلى الاحتلال البريطاني في البلاد — أن هذا الحزب يمثل اتجاه غالبية المصريين .

وهذا الاعتراف في حد ذاته إنما يمنحنا الحق أن نعتبر الحزب الوطنى ممثلاً للحركة الوطنية المصرية في تلك الآونة ، ومن ثم فإن تجسيد عملية الصراع بين تلك الحركة وبين الراغبين في القضاء عليها — وعلى رأسهم الاحتلال والخديو — إنما يكون بإبراز تفاصيل هذا الصراع بين هؤلاء وبين الحزب متمثلاً في صحفه ورجاله .

وانطلاقاً من هذا المفهوم نرى أن نلقى نظرة على موقف « الحزب الوطنى » في أعقاب صدور القانون في أوائل عام ١٩٠٩

---

(١) اللواء فى ٢٦ اغسطس ١٩٠٦

(٢) اللواء فى ٢٨ اغسطس ١٩٠٦

(٣) اللواء فى ٢٣ اغسطس ١٩٠٦

لاشك أن العام السابق على صدور هذا القانون كان عاماً حافلاً بالنسبة للحزب ظهرت خلاله تطورات هامة أثرت في مركزه تأثيراً كبيراً :

تمثل التطور الأول في وفاة زعيم الحزب ومؤسسه في أوائل تلك السنة — ١٩٠٨ — وبرغم أن هذه الوفاة الدرامية لسياسى في شرخ الشباب اكتسب شهرة في مصر والخارج . . . نقول برغم أن هذه الوفاة قد تركت أثراً عاطفياً بليغاً في نفوس المصريين دعتهم جميعاً — خصومه وأصدقاءه — إلى تمجيده وتمجيد مبادئه إلى حد أن رجلاً من ألد خصومه مثل أحمد لطفى السيد قد تبنى مشروع جمع التبرعات لإقامة تمثال له . . . إلا أن الشطحات العاطفية لا تلبث — كعادتها — أن تنطفئ ولا تبقى سوى المصالح التى تختار لكل طرف جانبه ولا يبقى سوى أن نحسب أثر وفاة الرجل في مركز حزبه .

لاجدال في أن الظروف الموضوعية التى نشأت فيها زعامة مصطفى كامل قد اختلفت إلى حد كبير عن الظروف التى نشأت فيها زعامة خلفه ، فالتنافس السياسى بين الخديو والمعتمد البريطاني ، والصراع الاستعمارى بين أكبر قوتين استعماريتين في العالم في ذلك الوقت — فرنسا وبريطانيا — كانا الدعامتين الأساسيتين — إلى جانب صفات مصطفى كامل الشخصية بالطبع — اللتين قامتا عليهما زعامته في الداخل وشهرته في الخارج .

وتوطيد الزعامة واكتساب الشهرة كانا بلا شك ثروة محسوبة إلى جانب العمل الوطنى وكان معنى فقدان صاحبها خسارة لهذه الثروة .

أما التطور الثاني فقد نتج عن التغيرات الدستورية العميقة التى طرأت على تركيا خلال نفس العام وأثر هذه التغيرات في نوعية العلاقات بين الحزب الوطنى وبين الدولة العثمانية وانعكاس هذه النوعية على مركز الحزب في البلاد .

ففى خلال الأحداث التى اضطرمت بها استنبول نتيجة لهذه التغيرات وقفت انجلترا إزاء تركيا وقفة الصديق والحامية للإسلام بدلاً من أن تكون عدوتها اللدود ، وقد رأى المستر بلنت — ويمكن أن يؤخذ برأيه دون اتهامه بالتحيز لبلاده نتيجة لما عرف عن مواقفه الشريفة في الدفاع عن القضية

المصرية — رأى بلنت أنه نتج عن هذا الموقف أن « ذهبت عن العاطفة الوطنية المصرية ما كان يعززها من الشعور بالجامعة الإسلامية . وقد أصبح الحزب الوطنى بعدها سياسياً ودستورياً تماماً بعد أن كان إسلامياً ضمناً[١] » .

ثم نجد للتطور الثالث في غير صالح الحزب الوطنى متمثلاً فيما تم بين الخديو والمعتمد البريطاني في القاهرة فيما عرف « بسياسة الوفاق » وقد أدت هذه السياسة إلى هزة عنيفة داخل الحزب .

فإنه لما كان الخديو عباس — طللما بقى معادياً للاحتلال — السند الرئيسى للحزب ، ولما كان تشكيل الحزب بالتالى قد تأثر إلى حد كبير بهذه المساندة فانضمت إليه بعض فئات المعتدلين وآخرون ممن يسعون وراء لقب أو مركز كنتيجة لرضاء الخديو عنهم . . كان لابد مع هذا أن يحدث أمر من أمرين بعد إقرار سياسة الوفاق ، فأما أن يظل الحزب على ولائه للخديو ويتخلى بالتالى عن ولائه للقضية الوطنية ، وأما أن يعادى « صاحب السلطة الشرعية » كنتيجة لتخليه عن هذه القضية . . وكان منطق الأمور مع الاحتمال الثاني فإن تخلى الحزب عن عدائه للاحتلال ومطالبته بالاستقلال كان سينهى وجوده السياسى بلا جدال .

ومن ثم لم يكن أمام القيادة الجديدة — مادامت وطنية — مجال للاختيار فسارت في الطريق الصحيح ونتجت عن ذلك نتيجتان خطيرتان أثرتا في موقف الحزب تأثيراً عظيماً :

١ — فقدان مساندة الخديو نهائياً وكسب عدائه .

٢ — بدأ التشكيل السياسى للحزب الذى تم في ظل ظروف العلاقات الودية السابقة مع عباس الثاني يهتز اهتزازاً عنيفاً وبدأت انشقاقات أصحاب المصالح والمعتدلين الذين رأوا أنه ليس ثمة فائدة من معاداة الخديو تتوالى عن الحزب . وقد حدثت بعض هذه الانشقاقات بهدوء باستقالة أصحابها من الحزب أو من لجنته الإدارية ، كما حدث بعضها بما يشبه الفرقعة كما ظهر

---

(١) من مقال للمستر بلنت نشرته « المانشستر جارديان » فى ١٦ أبريل ١٩٠٩ — اللواء ـ ٥ مايو ١٩٠٩

عندما أعلن « محمد فريد وجدى » صاحب جريدة « الدستور » خروجه عن الحزب في جريدته في ٢٠ أبريل ١٩٠٩ في مقال طويل شغل صفحتين فيها ، ولما ساق مبررات هذا الخروج كان أولها وأهمها — في رأيه — معاداة الحزب للخديو[١] .

وقد نتج عن خروج هؤلاء من الحزب أن وقع تماماً في أيدى المتطرفين من أعضائه من أمثال عبد العزيز جاويش وأحمد حلمى وسيد على واسماعيل شيمى وغيرهم .

وقد عبر الخديو عباس الثاني عن رأيه في هذا الموقف حين سجل في مذكراته أنه بعد وفاة مصطفى كامل « اتجه الحزب الوطنى اتجاهاً مخالفاً لخطته الأولى ، ولم تعد له قيادة في مستوى الأحداث فإن محمد فريد لم يكن له ذكاء سلفه ونفوذه ولم يكن يعرف كيف يفرض إرادته . وكان الشيخ عبد العزيز شاويش قد حاول أكثر من مرة أن يفلت من سلطة مصطفى كامل ونظام الحركة الوطنية ، فلما توفي الزعيم انشق شاويش ومن معه من المتطرفين الوطنيين »[٢] .

* * *

وفي ظل كافة هذه الظروف كانت نتيجة الصراع المنتظر بين تلك القوى الهائلة متمثلة في الاحتلال والخديو والوزارة متضامنة من ناحية وبين الحزب الوطنى من ناحية أخرى . . كانت معروفة مقدماً .

ونستطيع أن نؤكد أنه كان على الحركة الوطنية المصرية المتمثلة في هذا الحزب أن تغير من تكتيكاتها لمجابهة الظروف الجديدة . . . ولكن هذا التغير لم يحدث . . ولما كانت الشعوب بطبيعتها لاتلبث أن تسقط قياداتها السياسية التى لاتستطيع أن تضع آمالها وأحلامها موضع التنفيذ لهذا فقد كان طبيعياً تماماً أن نجد الشعب المصرى ينحى الحزب الوطنى عن قيادته في أعقاب الحرب الأولى بعد أن وجد قيادة أخرى عبرت عن مطالبه بأسلوب الثورة لا بأساليب

---

(١) المقال بعنوان : السبب الذى حملنا على خلع بيعة لجنة الحزب الوطنى الدستور فى ٢٠ أبريل ١٩٠٩

(٢) مذكرات الخديو عباس حلمى الثانى — المصرى فى ١٠ يوليه ١٩٥١

المناورات السياسية . وقيادة الحزب الوطنى كانت تنأى دائماً بنفسها عن أسلوب الثورة ، هذا لأنها كانت تضع في حسبانها دائماً أن هذا الأسلوب هو الذى أدى إلى الاحتلال البريطاني للبلاد وكانت دائماً تتهم « عرابي» أنه قد أسقط البلاد في براثن الانجليز نتيجة لاتباعه هذا الأسلوب .

وفي ضوء كل هذا نستطيع أن نسوق تفاصيل الصراع بين الحزب الوطنى وبين أعدائه في ميدان الصحافة .

* * *

ويلزم في بداية حديثنا عن هذا الموضوع أن تبحث موقف صحافة الحزب في أعقاب صدور القانون في مارس ١٩٠٩ .

كان اللواء هو لسان حال الحزب والناطق الرسمى بإسمه ، ورغم المتاعب التى بدأت تكتنفه بعد تولى الشيخ عبد العزيز جاويش لرياسة تحريره من خروج بعض المحررين المشهورين منه مثل أحمد حلمى أو اعتصاب عماله أحياناً مطالبين بزيادة أجورهم مما دعا إلى طبعه في أحد الأيام في مطبعة جريدة أخرى ، رغم ذلك إلا أنه ظل أقوى صحف الحزب بل ظل أقوى الصحف المصرية قاطبة خلال ما تبقى من عام ١٩٠٩ وأوائل ١٩١٠ حين تخلى الحزب الوطنى عنه وأصدر جريدة « العلم » في مارس من العام الأخير.

ومع اللواء كانت هناك الجرائد الأخرى التى آمنت بمبادئ الحزب الوطنى ونسبت نفسها له وكافحت من أجله وتقبلها الحزب بين صفوفه وهى « مصر الفتاة » التى كانت تصدر من القاهرة و « وادى النيل » التى كانت تصدر من الاسكندرية .

ومع هاتين الجريدتين صدرت « القطر المصرى » التى كان يحررها أحمد حلمى محرر اللواء السابق والذى اعتبر نفسه أميناً على مبادئ الحزب ، ورغم تجاهل اللواء ولجنة الحزب الإدارية للقطر المصرى في البداية إلا أن الاضطهاد العنيف الذى عاني منه أحمد حلمى من سلطات الاحتلال ومن الحكومة أدى إلى أن يعود رجال الحزب للتعاطف معه مرة أخرى .

ثم نجد الجريدتين الأخيرتين اللتين خرجتا من حلبة الصراع قبل أن يبدأ « ضياء الشرق » التى أصدرها محمود حسيب بك عام ١٩٠٨ والتى توقفت

قبل أن تنتهى نفس السنة ، و « الدستور » التى كان يمتلكها ويصدرها محمد فريد وجدى والتى خرجت عن الحزب بعد صدور القانون بأقل من شهر ثم لم تلبث أن توقفت نهائياً عن الصدور قبل نهاية نفس العام ، وقد نعاها صاحبها إلى قرائها في آخر أعدادها وقدم تبريرات متعددة لاحتجابها كان أهمها أنه لما دخل ميدان الصحافة دخله عن غير خبرة كافية بما يستلزمه هذا الميدان من مال طائل لايملكه(١) ! !

ومن استعراض هذه الجرائد التى بقيت على ولائها للحزب بعد صدور القانون فقد كان « القطر المصرى » أشدها عنفاً ولهذا مالبث أن عصف به وبصاحبه بعد شهور قليلة من القانون وكان « وادى النيل » أكثرها اعتدالاً ولهذا عاشت طويلاً ولم تغلق الحكومة أبوابها إلا — في ربيع ١٩١٢ —

على أى حال فإن قصة هذا الصراع تستحق تسجيلها منذ بدايتها . .

ونستطيع أن نميز بين مرحلتين من مراحل الصراع بين صحف الحزب الوطنى من ناحية وبين سلطات الاحتلال والحكومة من ناحية أخرى .

المرحلة الأولى : وهى التى سبقت حادث اغتيال بطرس باشا غالى رئيس مجلس النظار في فبراير ١٩١٠ .

المرحلة الثانية : وهى التى تلت تلك الحادثة والتى استمرت حتى أواخر ١٩١٢ حين أغلقت « العلم » آخر جرائد الحزب الوطنى التى استمرت في الصدور .

١ — مرحلة ما قبل اغتيال بطرس باشا غالى ١٩٠٩ — ١٩١٠ :

وقد تحكم في السياسة البريطانية خلال هذه المرحلة عاملان مهمان أجبرا من بيدهم تنفيذ « قانون المطبوعات » على أن ينفذوه في أضيق نطاق وبأخف صورة :

العامل الأول : كانت سلطات الاحتلال البريطاني والحكومة المصرية تتصوران أنه بعد عقد الاتفاق الودى مع فرنسا ١٩٠٤ فلن يكون هناك ثمة

---

(١) الدستور فى ٩ ديسمبر ١٩٠٩

عقبات نحو تطبيق القانون على الأجانب في مصر، ولكن مالبثت وزارة الخارجية البريطانية أن صدمت عندما طلبت موافقة الدول على تنفيذ هذا القانون على رعاياها فوجدت أن فرنسا مع ألمانيا في طليعة المعترضين على هذا التنفيذ.

وإذا كنا لسنا في صدد الحديث عن تفاصيل تطور هذه المعارضة إلا أن هناك حقيقة أساسية يجب أن نسجلها في هذا الصدد وهى أنه نتيجة لهذه المعارضة فإنه لم يتح لهذا القانون قط فرصة التطبيق على رعايا الدول صاحبة الامتيازات .

وكان لهذا معنى كبير تعرفه سلطات الاحتلال والحكومة المصرية كما يعرفه أصحاب الجرائد الوطنية ، وهو إمكان تحويل ملكيات جرائدهم إلى واحد من رعايا تلك الدول بصفة إسمية ، وبهذا تتمكن الجريدة من الاستمرار على نفس سياستها الوطنية المعادية للاحتلال دون خوف من إنذار أو إغلاق .

وبناء على هذا الوضع فقد خشى المعتمد البريطاني في القاهرة من أن يؤدى تنفيذ القانون بعنف إلى مثل هذا الموقف الذى لن يكون له سوى نتيجة من نتيجتين . . إما الدخول في مباحثات دولية معقدة لإبعاد الحماية الأجنبية عن الصحف الوطنية التى قد تلجأ للحصول عليها ، وإما أن يظهر جانب التقصور من القانون بعجزه عن التطبيق على الصحف التى ملكت للأجانب وفي هذه الحالة لن يكون له أى قيمة على الإطلاق .

ومن ثم فلم يكن هناك سوى طريق واحد وهو تنفيذ القانون . . برفق . .

العامل الثاني : أدت الضجة العظيمة التى صاحبت صدور القانون في الداخل والخارج ، وما صاحب هذه الضجة من مظاهرات ومناقشات على كافة المستويات ، كذا الهزة التى كادت تصيب الوزارة المصرية من جرائه(١)

---

(١) فقد أبدى ثلاثة من النظار استعدادهم للاستقالة لو نفذ القانون وهم سعد باشا زغلول وسعيد باشا وحسين باشا رشدى مما حدا بالخديو الى تهديدهم بأن من سيستقيل منهم لن يتولى أى مناصب عامة بعد ذلك فتراجعوا عن نيتهم .

أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ القسم الثانى ص ١٧٤—١٧٦

. . . أدى كل هذا إلى ضرورة تجنب الإثارة لبعض الوقت ، وكان معنى اتخاذ إجراءات عنيفة وقاسية ضد الصحف في تلك الفترة استمراراً لهذه الإثارة بل واحتمال تحولها في أى وقت إلى انفجار .

وبالوعى بهذه الإعتبارات كتب ممثل المعتمد البريطاني في القاهرة بأنه لن يتم تطبيق قانون المطبوعات إلا في الحالات المتطرفة[١] ، وبهذا الوعى اتبع المحتلون البريطانيون سياسة لينة تماماً نحو تنفيذ القانون على الصحف الوطنية خلال ما تبقى من عام ١٩٠٩ وبداية ١٩١٠ حين اغتيل بطرس باشا فتحول الموقف تماماً لصالحهم .

* * *

إذا انتقلنا إلى الجانب الآخر ... جانب الحزب الوطنى وصحفه ، فبعد هدوء الزوبعة التى حدثت في أعقاب صدور القانون كان على رجال هذا الحزب أن يراجعوا موقفهم ويرسموا سياسة جديدة لمواجهة أحكام القانون الجديدة .

ولبضعة شهور يشيع تماماً الإحساس في نفس قارىء الصحف الوطنية أنها تتحسس طريقها الجديد ، بمعنى آخر يمكن أن نقول أن الحزب الوطنى كان خلال الشهرين أو الثلاثة شهور التى تلت القانون يستكشف الطريق الذى يمكن أن تسير عليه صحافته في ظل القانون الجديد .

وفي خلال فترة الإستكشاف تلك نحس أن حدة لهجة الصحف الوطنية قد خفت نوعاً فهذه ملاحظاتها على تقرير المعتمد البريطاني الذى نشر عن عام ١٩٠٨ — والتى كانت قد اعتادت خلال السنوات السابقة أن تقابل هذا التقرير بعاصفة من الهجوم — نقول أن ملاحظاتها عن هذا التقرير الذى نشر في أبريل ١٩٠٩ كانت أقرب للإنتقادات الهينة منها إلى الهجوم الجارح الذى اعتادت عليه من قبل[٢] .

---

(١) F.O. 407/174 No. 131 Graham to Grey Aug. 23, 1909 Desp.No. 98 conf.

(٢) انظر ملاحظات اللواء ومصر الفتاة على التقرير المذكور ٢٠ ، ٢١ ابريل ١٩٠٩

ونجد هذه الصحف الوطنية تنغمس في مناقشات حادة حول خطبة « باحثة البادية » في منتدى حزب الأمة مطالبة بالسفور وبنوع من المساواة بين الرجل والمرأة في ١٨ مايو وتظل لبضعة أيام لا تنبس بكلمة عن الإحتلال وكأنما غادر البريطانيون البلاد ولم يبق لها من مشاكل سوى تضية الرجل والمرأة ! ! .

ثم لا يلبث أن يسوق القدر فرصة عظيمة لهذه الصحف لتتجنب الخوض في غمار معارك جديدة مع الإحتلال والخديو ، وقد تمثلت هذه الفرصة في الأحداث الجسام التى اجتاحت استنبول خلال مايو عام ١٩٠٩ والتى انتهت بالإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني ، وكان من الطبيعى في هذه الظروف أن ينصب اهتمام صحف الحزب الوطنى تماماً على تلك الأحداث لا سيما إذا وضعنا في الإعتبار « العلاقة الخاصة » بين هذا الحزب وبين الدولة العثمانية .

وفي تلك الفترة التى اتسمت بالحذر والحيطة والتى غاب عليها طابع استكشاف المواقع الجديدة للحركة الوطنية كان هناك مناقشات عميقة حول طبيعة هذه المواقع .

رأى بعض أصحاب صحف الحزب الوطنى ضرورة توفير غطاء قانوني لحمايتهم وذلك بدفع صحفهم إلى ملكيات أوربية إسمية مشمولة بحماية الإمتيازات الأجنبية يتمكنون في ظلها من ممارسة حريتهم في التعبير والنقد ، وفعلاً بادر « يوسف بك المويلحى وشركاه » أصحاب جريدة مصر الفتاة ببيعها هى ومطبعتها إلى « أوجست كاين » الألماني في ٥ أبريل ١٩٠٩ ،وتتضح تماماً إسمية هذا البيع عندما تؤكد الجريدة أنها ستستمر في سياستها القائمة على إعلاء منار الحق والأخذ بناصر الضعيف والإنتصار للمظلوم والدفاع عن الشعوب المهضومة الحق المهانة الجانب المغلوبة على أمرها[١] . كما تعلن أن نفس قلم التحرير سيبقى كما كان ليعاون كاين على المهمة الشاقة التى أخذها على عاتقه .

---

(١) مصر الفتاة فى ٦ ابريل ١٩٠٩

وقد ظهر في الصحف الوطنية اتجاه آخر يستنكف هذا السبيل بالحصول على الحماية الأجنبية التى رأت « أنه ليس من الوطنية أن نرتكز على الأجانب ونجعلهم دروعاً نحتمى بها في جهادنا وأنه يجب علينا أن لا نخشى هجمات أعدائنا بل نقابلهم بصدورنا كما يقابل الجندى عدوه في ساحات الوغى . وأن الفخر كل الفخر أن تنال من جسومنا اليد الإستبدادية ما تجعل فيه أثراً إذا آلمنا وقعه فإنه يبقى عنواناً على جهادنا الشريف في استقلال الوطن العزيز[١] »

وهكذا وفي خلال شهرين من صدور القانون كانت تلك المرحلة الإستكشافية قد انتهت وبدأ كل طرف من أطراف الصراع السياسى يأخذ مكانه .. اللواء عادت إلى الهجوم على الإحتلال بصورة مقنعة أولاً كأن تتحدث عن « الحرية » عموماً ولكن القارىء يحس تماماً أن هذه الحرية تجتاز فعلاً محنة في مصر أو تنقل بعض المقالات التى تمس مصر وتهاجم الإحتلال عن الجرائد الأجنبية ، ولكن حتى هذا الهجوم المقنع لم يستمر طويلاً وعاد اللواء إلى سابق عهده وعنفه مع الإحتلال والحكومة والخديوى .

« ومصر الفتاة » كانت أشد تطرفاً ، فما أن نجحت في الحصول على الحماية الألمانية حتى كانت تشن أقسى وأعنف حملة لها على الإحتلال والوزارة ، ففى اليوم التالى لإعلان ملكية « الهركاين » لها تصف جورست بأنه « واضع السم في الدسم » وبأنه يقتل ولا ترى يده[٢] ، وفي اليوم الذى يليه تهاجم بطرس باشا غالى وتصفه بأنه جلاد الصحافة المصرية في مقال بعنوان « عشماوى في رأس الوزارة »[٣] .

وكانت أمام سلطات الإحتلال — على ضوء هذا الموقف — مهمتان ثقيلتان :

<u>الأولى</u> : وهى عاجلة وتتمثل في العمل على إعادة وضع « مصر الفتاة » على ما كانت عليه قبل نجاح أصحابها في الحصول على الحماية الأجنبية وكان

---

(١) وادى النيل فى ١٠ ابريل ١٩٠٩
(٢) مصر الفتاة فى ٧ ابريل ١٩٠٩
(٣) مصر الفتاة فى ٨ ابريل ١٩٠٩

يمكن أن يتم هذا بأحد طريقين ، إما بموافقة الدول الأوربية المعنية وعلى رأسها ألمانيا — التي ينتمي إليها المشتري الإسمي للجريدة — بتنفيذ القانون على رعاياها ومن ثم تعامل « مصر الفتاة » كبقية الصحف الوطنية ما دام قد وقع صاحبها في دائرة تنفيذ القانون ، بمعنى آخر أن تحل مشكلة « مصر الفتاة » في إطار حل مشكلة الصحافة الأجنبية عامة .

وإما بإجراء محادثات دبلوماسية خاصة تستهدف تنحية « كاين » عن ملكيتها بالضغط عليه من ممثلي دولته السياسيين في القاهرة .

وعلى أي حال فأي الطريقين كان يستلزم الإسراع خوفاً من أن يؤدي نجاح خطة « مصر الفتاة » إلى إغراء الآخرين على الحذو حذوها .

الثانية : العمل على « إشاعة الإحساس» بأن القانون موجود وإن كان قد رؤى استعماله في أضيق نطاق وذلك حتى لا تلجأ الجرائد الوطنية الأخرى إلى أسلوب رصيفتهم « مصر الفتاة » ، والواقع أن المهمة بهذه الصورة كانت صعبة للغاية .

واستعراض معالجة المهمتين يؤكد لنا مدى المتاعب التي لاقتها سلطات الإحتلال في هذا الصدد .

* * *

أولا — مشكلة مصر الفتاة :

بعد أيام قليلة من إعلان أصحاب « مصر الفتاة » المصريين لانتقال جريدتهم إلى ملكية « أوجست كاين » الألماني كتب المعتمد البريطاني في القاهرة تقريراً طويلاً إلى وزير الخارجية في لندن عن هذه المسألة .

وكان رأي جورست أن هناك ثلاثة جوانب للمسألة :

١ — أن البيع قد تم لتتجنب الجريدة أي متاعب ناتجة عن تطبيق قانون المطبوعات على الصحف الوطنية .

٢ — إن البيع إسمي بدليل أن المالك الجديد ميكانيكي ذو مرتب صغير ولا خبرة له على الإطلاق في ميدان الصحافة .

٣ — بهذا البيع سيتم معرفة ما إذا كان القانون سينفذ على الأجانب أم لا .

وقد خرج السير إلدون جورست من كل هذا بأن الأمر بالغ الأهمية سواء للحكومة المصرية أو للصحف التى تعاديها التى تنتظر ماسوف تفعله الحكومة.

ورأى أنه إذا استمر المالك الألماني الجديد على نفس سياسة العداء التى كانت تنتهجها الجريدة من قبل فيجب أن تقوم الحكومة المصرية بإيقاف « مصر الفتاة » ومصادرة مطبعتها ، ولكن هذا الإجراء يحتاج إلى معونة القنصلية الألمانية التى قد ترفض تقديمها مما قد يؤدى إلى نشوب نزاع بين الحكومتين المصرية والألمانية .

وبناء على كل ذلك فقد اقترح المعتمد البريطاني شرح الأمر للسفير البريطاني في برلين وأن يطلب من الحكومة الألمانية الإبراق إلى ممثلها في القاهرة للمعاونة في تنفيذ القانون على الصحيفة الوطنية(١) .

وتسلمت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة السير جورست ورات ان تنتهز هذه الفرصة فتحول المعونة الديبلوماسية المطلوبة من الممثلين السياسيين لألمانيا في القاهرة إلى اعتراف من تلك الدولة بقانون المطبوعات . فقد نبهت على السفير البريطاني في برلين بتقديم مذكرة رسمية للحكومة الألمانية يبلغها فيها باستعداد الحكومة المصرية للموافقة على نقل ملكية الجريدة إلى الهر كاين على شرط أن يتقدم بطلب للحصول على ترخيص حسب المادة السابعة من قانون المطبوعات مصحوب بتوصية من القنصل الألماني العام في القاهرة(٢) .

ومعنى قبول الحكومة الألمانية لمثل هذا الإجراء قبولها لتنفيذ هذا القانون على رعاياها في مصر وهو ما كان الكونت هتز فلدت **Hatzfeldt** القنصل الألماني العام في القاهرة متردداً في الإعتراف به دون تعليمات من حكومته(٣).

وعلى ضوء هذه التعليمات أعد « السير جوشن » مذكرة بالموضوع تقدم بها لوزير الخارجية الألمانية في أوائل الشهر التالى — مايو — ، وفي اللقاء الذى

(١) F.O. 407/174 No. 51 Sir E. Corst to Sir Edward Grey April 17, 1909 Desp. No. 42.

(٢) F.O. 407/174 No. 55 Grey to Sir Goschen April 30, 1909 Desp. No. 122

(٣) F.O. 407/174 Inc. In. No. 55 Draft of the Memorandum Communicated to German Government.

تم بين السفير والوزير أثناء تقديم المذكرة أشار الأول إلى عجلة الأمر لخطورته على الأمن العام في مصر .

وقد أجاب الهر « فون سوخن » وزير الخارجية الألماني بأنه لن يستطيع أن يقدم أى رد في الموضوع قبل بضعة أيام ولما ألح السفير البريطاني ذكر له فون سوخن بأن الأمر يستلزم إجراء بعض المشاورات مع الدول الأخرى ذات المصالح في مصر .

ولما يزيد عن عشرين يوماً ظل السير جوشن يطلب رداً حتى قدمت له وزارة الخارجية الألمانية هذا الرد على صورة مذكرة مكتوبة في ٢٦ مايو تعيد فيها اعتذارها عن عدم قدرتها على إرسال رد محدد سريع على أساس أن قانون المطبوعات قد صدر دون موافقة الدول وقد يكون معارضاً للإمتيازات وهو هذا موضوع مشاورات قد تستمر لبعض الوقت(١) .

وقد رأت الحكومة البريطانية في تلكؤ وزارة الخارجية الألمانية « تعويق للحكومة المصرية عن تطبيق قانون المطبوعات على صحيفة مصرية بذيئة وإحباط لإجراءات فرض الأمن الداخلى » وطلبت من سفيرها في برلين أن يذكر للألمان أنه مما لا يتصوره العقل في مثل تلك الظروف أن تلقى هذه الأعمال اعترافاً رسمياً من القنصلية الألمانية في القاهرة خاصة على ضوء تعهد الحكومة الألمانية في مذكرتها السرية إلى الحكومة البريطانية المؤرخة في ١٩ يونيو ١٩٠٤ « بعدم تعويق عمل بريطانيا في مصر بطلب تحديد موعد معين لإنهاء الإحتلال البريطاني أو بأى وسيلة أخرى » . وطلبت منه أيضاً أن يبلغ الهر « فون سوخن » أن الحكومة البريطانية لا تتصور أن الحكومة الألمانية تدعم عقد مزيف أبرم بهدف تمكين صحيفة مصرية تصدر باللغة العربية من إثارة المتاعب في مصر(٢) .

أجاب وزير الخارجية الألمانية على تلك الإحتجاجات بأن أرسل للقنصل الألماني العام في القاهرة يطلب منه رفض الإعتراف بشراء كاين للجريدة

(١) F.O. 407/174 No. 77 Goschen to Grey May 26, 1909 Desp. No. 193 Conf.
(٢) F.O. 407/174 No. 81 Grey to Goschen June 9, 1909 Desp. No. 154.

المصرية إذا كانت هناك أى شكوك تحوط حول صحة عقد الشراء وذلك طبقاً للقانون الألماني . وإن كان قد أبلغ السفير البريطاني في برلين صعوبة العثور على الأدلة المادية التي تثبت زيف هذا العقد(١) .

وبينما تجرى هذه المباحثات بين لندن وبرلين كانت « مصر الفتاة » في القاهرة تحس بالأمان التام وتمارس هجومها العنيف على الوزارة والإحتلال ، وقد رأى جورست أن إحياء قانون مطبوعات ١٨٨١ أثر تأثيراً كبيراً في الصحافة الوطنية فيما عدا هذه الجريدة(٢) .

والواقع أن الإطلاع على « مصر الفتاة » في تلك الأيام يوضح تماماً أنها قد أصبحت أكثر تطرفاً منها قبل صدور القانون ، ولعل ذلك يعود إلى أن الأقلام المتطرفة التي لم تعد تجد ميداناً في الصحف الوطنية المصرية الأخرى لجأت إليها .

وقد أخذت هذه الصحيفة في مهاجمة — وبعنف — كافة الأطراف المعادية للحزب الوطني ، فتنتهز فرصة حادثة سكر من بعض الجنود البريطانيين في الإسكندرية لتتهمهم بالإعتداء على « الطهارة والعفاف » في مقال طويل ومثير للغاية(٣) تألم منه جورست غاية التألم وأكد لحكومته عدم صحة ما جاء فيه ورأى أن هدفه الأساسى إثارة الناس على الجيش البريطاني(٤) .

كما تتهم « مصر الفتاة » القناصل الإنجليز بأنهم يعملون في توريد الحشيش بإسمهم وتصف هذا بأنه « فضيحة كبرى وحادث مدهش »(٥) وتنتهز ذكرى مذبحة الإسكندرية في ١١ يونيه فتصدر مجللة بالسواد وتصفه أنه « يوم الجناية الإنجليزية على مصر فاذكروه أيها المصريون ولا تنسوه » وتذكر المحتلين أنه لا يأس « والتاريخ يقص علينا قصص عشرين أمة تسلطت على

---

(١) F.O. 407/174 No. 86 Goshen to Grey June 14, 1909 Tel. No. 74.

(٢) F.O. 407/174 No. 90 Gorst to Grey June 20, 1909 Desp. No. 71.

(٣) مصر الفتاة فى ٣١ مايو ١٩٠٩ مقال بعنوان « سطو جيش الاحتلال على الطهارة والعفاف » .

(٤) F.O. 407/174 No. 90 Gorst to Grey. June 20, 1909 Desp. No. 71.

(٥) مصر الفتاة فى ٥ يونيو ١٩٠٩

هذه الديار فابتلعتها أرض مصر وبقى ابن النيل خالداً على الزمن والحوادث . كيف يتطرق اليأس إلى قلوبنا ونحن أمة لها قديم تبني جديدها عليه ، ولها نفوس أبية تأنف الضيم فصبراً اللهم صبراً »[١] .

وفي نفس الوقت تهاجم « مصر الفتاة » رئيس النظار بقسوة ، فعندما يغادر الخديو البلاد في زيارة لإنجلترا ويترك بطرس باشا قائمقاماً عنه تهاجم الأخير وتذكره بمواقفه في حادثة دنشواى واتفاقية السودان وقانون المطبوعات[٢]

وتغتنم فرصة ذكرى حادثة دنشواى لتنشر في صدرها صورة مجللة بالسواد لبطرس باشا غالى وكانت حريصة على تعريف صاحب الصورة للقراء بأنه « صاحب العطوفة بطرس باشا غالى رئيس مجلس النظار ورئيس محكمة دنشواى المخصوصة » ومعها مقال ملىء بالتحقير والإهانات لرئيس النظار[٣] .

والإحساس يتزايد لدى قارئ الجريدة في تلك الأيام أن الحماية التى حصلت عليها بشراء كاين الصورى لها قد جعلتها في غاية الجرأة والاستخفاف بالحكومة ويكتب أحد محرريها[٤] معبراً عن هذا في مقال يرد به على اتهام الأجبشيان جازيت لها بالتعصب فيقول في عنوان مقاله « زيدونا تهديداً ووعيداً نزداد جرأة وثباتاً[٥] » .

وقد شكا المعتمد البريطاني من هذا الموقف مرير الشكوى ورأى أن « المثل السئ لهذه الجريدة سوف تحتذى به بقية الجرائد ومن ثم يفقد قانون المطبوعات كل قيمة له » وطالب حكومته بأنه في حالة عدم تقديم الحكومة الألمانية لحل معقول فيجب تنفيذ قانون المطبوعات المصرى على الجريدة على الفور وإذا تظلم الرعية الألمانية فعليه أن يلجأ إلى المحاكم المختلطة وهو الحل الطبيعى لمثل هذا الموقف[٦] .

---

(١) مصر الفتاة فى ١١ يونيو ١٩٠٩

(٢) مصر الفتاة فى أول يونيو ١٩٠٩ مقال بعنوان : « قائم مقام أمير البلاد على عرش الفراعنة » .

(٣) مصر الفتاة فى ٢٨ يونيو ١٩٠٩

(٤) اسمه محمد شفيق .

(٥) مصر الفتاة فى ١٤ يونيو ١٩٠٩

(٦) F.O. 407/174 No. 90 Gorst to Grey June 20, 1909 Desp. No. 71.

وقبل وصول تلك الآراء إلى لندن كان السفير البريطاني قد اجتمع بوزير الخارجية الألماني الذى أكد له أن حكومته مقتنعة تماماً برفض معونة الرجل الألماني إذا ثبت أن العقد الذى أبرمه ليس عقداً حقيقياً . وقد شارك الهرستمريخ Stemrich رئيس الإدارة القانونية بالوزارة في الحديث في ذلك الاجتماع وأكد أن قانونيي إدارته يرون أن هذه المشكلةليس لها حل، وأن القانون الخاص بالعقود الغير الحقيقية لايمكن أن يطبق على هذه الحالة(١) .

وقدم القنصل الألماني العام في القاهرة بيانات مماثلة للمعتمد البريطاني يذكر له فيها أنه غير قادر على العثور علىحل سريع للمشكلة ، و من ثم فإن « مصر الفتاة » لاتزال تتمتع بالحماية الألمانية كما أنها باقية على لهجتها الهجومية العنيفة(٢) .

ولكن رغم هذه التصريحات والبيانات الغير المشجعة من جانب الألمان فإن الموقف ما لبث أن تغير سريعاً بعد وصول اقتراح السير جورست باتخاذ الإجراءات اللازمة لتنفيذ قانون المطبوعات على مصر الفتاة ، وقد أحيل الاقتراح على السفارة البريطانية في برلين(٣) التى أبلغت هذه النية بدورها إلى وزارة الخارجية الألمانية ورجتها أن تسرع في البحث عن حل للموقف الحرج بدلاً من أن يتحول الأمر إلى أزمة ديبلوماسية ، وقد وعد المسئولون في الوزارة الألمانية بالوصول إلى حل عملى للمشكلة على وجه السرعة وإن كانوا قد طلبوا من البريطانيين ألا يتخذ أى إجراء في القاهرة قبل أن يقدموا إجابتهم النهائية(٤) .

ولم يتأخر رد الحكومة الألمانية كثيراً فقد قدم سفيرها في لندن الكونت مترنيخ إلى الحكومة البريطانية في أوائل الشهر التالى — أغسطس — مذكرة يبلغها فيها بأن كاين قد قطع علاقته مع مصر الفتاة وغادر مصر بعد أن ثبت

---

(١) F.O. 407/174 No. 92 Goschen to Grey June 23, 1909 Desp. No. 241 A. Conf.

(٢) Ibid No. 97 Corst to Grey July 7, 1909 Tel. No. 21.

(٣) Ibid No. 98 Grey to Count De Salis July 7, 1909 Desp. No. 174 Conf.

(٤) Ibid No. 99 Count De Salis to Grey July 10, 1909 Tel. No. 84.

أن عقده مع « مصر الفتاة » لم يكن عقداً حقيقياً ، وإن السلطات المصرية أصبحت حرة في اتخاذ أى إجراءات ضد ملاك الجريدة الحقيقيين (١) .

وفي نفس اليوم قدمت وزارة الخارجية الألمانية مذكرة مماثلة إلى السفارة البريطانية في برلين(٢) كما أبلغ ممثل القنصل الألماني العام في القاهرة ممثل المعتمد البريطاني فيها بفحوى المذكرة نفسها كما أرسل كاين في هذا اليوم أيضاً — ٣ أغسطس — خطاباً إلى قلم المطبوعات بوزارة الداخلية المصرية يبلغها فيه أنه قد حصل على وظيفة في أحد المصانع الألمانية ، وأضاف أنه قد أعاد « مصر الفتاة » إلى ملاكها القدامى .

وقد ظلت هذه الصحيفة تصدر رغم ذلك وإسم كاين على رأس صفحتها الأولى باعتباره مالكها مما دعا وزارة الداخلية المصرية إلى طلب حذف هذا الإسم بعد ذلك وأن يقدم أصحاب الجريدة للسلطات كل المعلومات الخاصة بها كما جاء في قانون المطبوعات . وقد نصحت الوكالة البريطانية في القاهرة الحكومة المصرية باتخاذ هذا الإجراء بأسرع مايمكن قبل أن يعثر الملاك الحقيقيون على أجنبي آخر يستعملونه « كرجل مخلب » (٣) .

ورضخت « مصر الفتاة » لطلبات قلم المطبوعات بنظارة الداخلية وأعلنت في ١٤ أغسطس أن الجريدة قد عادت « إلى من وضعوا أساساتها المتينة حباً في الخدمات الوطنية المخلصة » ، وكتب رئيس تحريرها يذكر أن « المالك يتغير ولكن القلم لايتغير »(٤) .

وقد تقرر بعد ذلك معاملة « مصر الفتاة » بنفس معاملة بقية الجرائد الوطنية وإن كان قد تقرر في نفس الوقت عدم اتخاذ أى إجراءات ضدها وقتذاك بسبب الأعمال التى ارتكبتها (٥) وكان الهدف من وراء هذا القرار

---

(١) F.O. 407/174 Inc. In. No. 114 Count Metternich to Grey, Aug. 3, 1909.

(٢) Ibid No. 113 Goschen to Grey Aug. 3, 1909 Desp. No. 203.

(٣) Ibid No. 124 Graham to Grey Aug. 8, 1909.

(٤) مصر الفتاة فى ١٤ أغسطس ١٩٠٩

(٥) F.O. 407/174 No. 115 Grey to Graham Aug. 5, 1909.

الأخير ألا تحس الجريدة أو الجرائد الوطنية أنه كان هناك حماية فعلية لها من جراء شراء كاين لها مما قد يدفعها إلى تكرار المحاولة .

ونلاحظ بعد ذلك على « مصر الفتاة » أنها قد أقلعت عن الهجوم الحاد المباشر على الوزارة وعلى الاحتلال ، واستبدلت هذا الهجوم بوسائل أخرى مثل الحديث عن فساد الحالة الاجتماعية في مصر أو عن حرية الصحافة العثمانية ، وكان في هذه المقالات من الإيحاءات أكثر مما فيها من نقد صريح .

كما لجأت الجريدة الوطنية إلى « الرمزية » في هجومها على المحتلين فأصدرت عدة مقالات بعنوان « الحسنات والسيئات لكويتب صغير ومحيرر حقير » بتوقيع « الصياد » .

ولكن لا « الإيحاء » ولا « الرمزية » كان لهما قيمة الهجوم المباشر الذى انتهجته الجريدة طول فترة ملكية (كاين) إلا سمية لها . ومن ثم يمكن أن يقال إن مشكلة « مصر الفتاة » قد انتهت فعلاً ونجحت سلطات الاحتلال في التخلص من هذا الموقف الصعب الذى أوجدها فيه لجوء الجريدة المذكورة إلى الحماية الألمانية .

ثانيا ـ تنفيذ القانون على الصحف الوطنية الأخرى :

حتماً أن سلطات الاحتلال قررت تنفيذ قانون المطبوعات في أضيق نطاق ممكن ولكن كان هناك مع القانون القرار الآخر الذى خوّل وزير الداخلية مقاضاة الصحف[1] والذى بدا عند صدور القانون كأن الهدف منه استنفاذ الوسائل القضائية قبل اللجوء إلى الوسائل الإدارية ، وفي تلك الحقبة من الصراع بين السلطات الحاكمة وبين الحزب الوطنى استعمل هذا القرار على نطاق واسع .

(١) فقد صدر القانون على شكل قرارين الأول باحياء قانون نوفمبر ١٨٨١ والثانى قرار بتكليف « ناظر الداخلية باقامة الدعوى أمام المحاكم عن المخالفات التى تقع من الجرائد ما لم يستصوب المجلس تنيذ المادة ١٣ من القانون للوصول الى الغاية المقصودة » ، وبذلك أصبح القانون سلاحا ذا حدين .. حد قضائى لمصادرة حريات الصحفيين وزجهم فى السجون .. وحد ادارى لمصادرة حرية الصحف بانذارها أو تعطيلها أو اغلاقها (! !)

وكانت أول ضحايا استعمال هذه الإجراءات القضائية جريدة « القطر المصرى » المتطرفة وصاحبها .

ورغم أن تقديم «أحمد حلمى» للمحاكمة لمهاجمته الخديو وأسرة محمد على قد تقرر قبيل صدور القانون إلا أن هذه المحاكمة لم تتم فعلاً إلا في أعقاب صدوره ، فقد صدر الحكم في ١٦ أبريل ١٩٠٩ ضده بالحبس عشرة شهور وبإيقاف جريدة القطر المصرى ستة شهور وإعدام العدد ٣٧ منها الذى صدر فيه الهجوم على الأسرة الحاكمة .

كما حوكم أحمد حلمى في نفس الوقت لتزعمه للمظاهرة التى قامت في أول أبريل ١٩٠٩ احتجاجاً على قانون المطبوعات وصدر ضده حكم آخر بستة أشهر بتهمة إهانة الحكومة في خطبته التى ألقاها في المظاهرة(١) .

ولا شك أن هذه الأحكام كانت قاسية للغاية على صاحب القطر المصرى وجريدته ، ويمكن أن نعيد هذه القسوة لسببين :

أولاً : تطرف أحمد حلمى البالغ ضد الخديو والاحتلال والحكومة ، وكان هذا التطرف واضحاً تماماً في كل صفحة من صفحات جريدته .

ثانياً : أنه رغم تمسك صاحب « القطر المصرى » بانتمائه إلى الحزب الوطنى إلا أن قادة هذا الحزب — خاصة الشيخ جاويش — نظروا إليه بعدم رضاء لخروجه عن اللواء في أعقاب وفاة مصطفى كامل دون موافقتهم .

وقد ظل هذا الفتور قائماً بين زعماء الحزب وبين أحمد حلمى حتى صدور الحكم ضده في قضية مهاجمة أسرة محمد على . ويكفى لإظهار مدى هذا الفتور أن « اللواء » ظل يتجاهل هذه المحاكمة ولم يشر إليها بكلمة حتى يوم صدور الحكم رغم قسوة هذا الحكم .

وبالطبع فقد انتهزت السلطات الحاكمة هذا الانقسام الداخلى بين صحف الحزب لتعصف ببعضها دون أن تثير الضجة المنتظرة مع مثل هذا الحدث .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد : رمز الاخلاص والتضحية ص ١١٠ .

وقد ظلت « القطر المصرى » معطلة خلال الشهور الستة التى تقرر تعطيلها فيها ثم عادت إلى الصدور مرة أخرى في ٢٣ أكتوبر ١٩٠٩ .

وظهر إثنا عشر عدداً من هذه الجريدة حتى ٧ يناير عام ١٩١٠ ونلاحظ في هذه الأعداد ما يلى :

١ — أن الصفاء قد عاد بين أحمد حلمى السجين وبين رجال الحزب الوطنى ، ويظهر هذا سواء في مقالات « القطر المصرى » و « اللواء » أو في الصور التى نشرت بعرض الصفحة الأولى غداة صدور حكم بحبس عبد العزيز جاويش له ولأحمد حلمى بوصفهما سجينى الحرية(١) .

٢ — أن « القطر المصرى » حاولت أن تلعب نفس لعبة « مصر الفتاة » فأجرت بعض الأجانب لتولى إدارة سياستها ، وقد تولى هذا العمل في العدد الأول « جبرييل سكور دينو » الإيطالى ، ثم خلفه فيه في الأعداد التالية راؤول مارشان Raoul Marchand الفرنسى .

ولكن الواضح تماماً أن سلطات الاحتلال لم تعد تهتم بمثل هذه اللعبة ، فلم نعثر في الوثائق البريطانية على الإطلاق إلى ما يشير لأى اهتمام من جانب هذه السلطات بتولى هؤلاء الأجانب لإدارة الجريدة المذكورة .

٣ — كان من البادى تماماً أن « أحمد حلمى » يحرر جريدته من وراء القضبان ، فقد جاء في أول أعدادها بعد التعطيل أن من يحررها هم « نخبة من كبار الكتاب » ، كما أن أغلب مقالاتها كانت غفلاً من الإمضاء ، وفوق ذلك فإن التطرف الذى اتسمت به مقالاتها وأسلوب هذه المقالات ينبئ تماماً أن « أحمد حلمى » هو كاتبها .

يكتب الرجل في جريدته في ٢٩ أكتوبر مقالاً بعنوان « صلاح الرعية بصلاح ملوكها » بتوقيع « أديب ناصح » جاء فيه « فيا كل ملك غشوم أو حاكم ظلوم ما ضرك لو تزود قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل فلا تحكم

---

(١) القطر المصرى فى ١٩ نوفمبر ١٩٠٩

في عباد الله بحكم الجاهلين ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لايرقبون في مؤمن عهداً ولا ذمه فتبور بأوزارك»[(١)] .

ثم يكتب مقالاً آخر بعنوان « حكومة الفرد » في العدد التالى به هجوم عنيف على حكم الفرد والواضح أن المقصود منه حكم الخديو .

ثم مقالات أخرى في ١٩ نوفمبر بعنوان « نحن والمحتلون » و « اليوم احتلال وغداً استقلال » وكلها هجوم على الانجليز .

كما صدر أحد أعداد الجريدة وقد كتبت بالمانشيت العريض « فلتسقط حكومة الفرد »[(٢)]

والواقع أن هذا الهجوم المركز قد أقلق سلطات الاحتلال بالقاهرة التى قررت أخيراً الحصول على الإذن من لندن بإغلاق الجريدة نهائياً لاسيما أن الجريدة قد شنت أعنف هجوم لها في آخر أعدادها المؤرخ في ٧ يناير ١٩١٠ ، ورغم أن هذا الهجوم لم يتناول الخديو بصورة مباشرة إلا أنه ذكر الأعمال السيئة للحكام الآخرين التى يمكن نسبها للخديو نفسه ، وقد رأى المعتمد البريطاني أن الأخطاء التى أشير إليها في هذا المقال على اعتبار أنها أخطاء الحكام الظالمين عموماً هى نفس الأخطاء التى ينسبها خصوم الخديو له .

وقد أبلغت الحكومة المصرية رغبتها إلى السير جورست في إصدار قرار من « مجلس الوزارء » بإغلاق هذه الجريدة بمقتضى المادة ١٣ من قانون المطبوعات .

ورأى المعتمد البريطاني أنه ليس هناك فرصة أنسب من تلك لتطبيق هذه المادة « فكل مصرى يرى في هذه المقالة دعوة لأعمال العنف ضد صاحب التاج . وهناك شعور قوى بأنه لن يتأخر اتخاذ إجراءات الإغلاق ضد هذه الجريدة » وألح على وزير الخارجية في الموافقة على طلب الحكومة المصرية على الفور[(٣)] .

---

(١) القطر المصرى فى ٢٩ اكتوبر ١٩٠٩

(٢) القطر المصرى فى ٢٦ نوفمبر .

(٣) F.O. 407/175 No. 5 Gorst to Grey Jan. 8, 1910 Desp. No. 3.

وبوصول موافقة السير ادوارد جراى البرقية في نفس اليوم[١] صدر قرار إغلاق « القطر المصرى» وكانت النهاية لأول صحيفة يمكن أن ننسبها للحزب الوطنى .

* * *

رغم القسوة التى عومل بها « أحمد حلمى» وجريدته إلا أن المواجهة الحقيقية بين « قانون المطبوعات» وبين صحافة الحزب الوطنى تمثلت في محاولة تنفيذ هذا القانون على « اللواء » لسان حال الحزب .

وكما ذكرنا من قبل كانت الظروف تحتم على سلطات الاحتلال عدم تنفيذ القانون بقسوة ، وكان هذا واضحاً تماماً بالنسبة « للواء » لأن الضجة التى يمكن أن تحدث فيما يتعلق بهذا التنفيذ القاسى مع « اللواء » بالذات لن تعادلها ضجة ، ليس فقط لأنه جريدة الحزب الرسمية ولكن هناك الجانب العاطفى الهام نحو هذه الجريدةبالذات ، فهى صحيفة « مصطفى كامل » بكل ما يحمله هذا الإسم من معاني في داخل مصر وخارجها .

وكان اللواء قد خفف من حدة لهجته كثيراً بعد صدور القانون بأيام ، ولكن بعد حوالى شهرين عاد إلى بعض حدته ، ولما لم يحدث أى رد فعل من جانب سلطات الاحتلال أو الحكومة أخذ يتصاعد بهذه الحدة حتى عادت إلى أقصى مراحل العنف وشجعه على ذلك أن « مصر الفتاة » كانت ترتع في ذلك الوقت في بحبوحة من التطرف وفرها لها إسم «كايزر» الألماني على صدرها . وقد سجل ممثل المعتمد البريطاني في القاهرة هذه الحقيقة حين كتب إلى وزارة الخارجية في لندن يقول « إن التسامح الذى تمتعت به جريدة مصر الفتاة التى حمتها ألمانيا قد خلق انطباعاً عاماً بأن السلطات غير قادرة أو غير راغبة في تطبيق القانون ونتج عن ذلك أن عادات لهجة اللواء تزداد عنفاً خاصة فيما يتعلق بالدستور والمطالب المتطرفة الأخرى» [٢]

وقد تمثل أقصى عنف جريدة الحزب الوطنى في المقال الذى كتبه الشيخ عبد العزيز جاويش في ٢٨ يونيو ١٩٠٩ بمناسبة « ذكرى دنشواى »

(١) F.O. 407/175 No. 6 Grey to Gorst Jan. 8, 1910 Tel. No. 3.

(٢) F.O. 407/174 No. 131 Graham to Grey Aug. 23, 1909 Desp. No. 98 Conf.

وكان مما جاء فيه « سلام على تلك الأرواح البريئة التى انتزعها بطرس باشا غالى رئيس المحكمة المخصوصة بقضائه من مكامنها في أجسامها كما تنتزع سلوك الحرير من خلال الشوك . . . سلام على أولئك الذين وقف هلباوى باشا فثار فيهم ثوران الجبارين ثم انقلب على رقابهم فقضمها وعلى دمائهم فأرسلها تجرى في الأرض تلعن الظالمين وتتوعد الآثمين . . وما لبث بطرس باشا غالى وزميله قاضى دنشواى أحمد فتحى باشا أن استهوتهما المناصب واسترهبتهما سطوة الاحتلال فأنطقهما بذلك الحكم الجائر لرغبة في الألقاب والمناصب وعوز النفس إلى الشعور بالواجب »(١)

ورغم هذا العنف في مهاجمة كبار الموظفين المصريين إلا أنه بعد دراسة عميقة قد تقرر ضبط النفس وعدم استعمال قانون المطبوعات مع اللواء — والاكتفاء بتقديم الشيخ جاويش إلى المحاكمة وهو ما كانت تستطيع أن تفعله الحكومة قبل صدور القانون المذكور .

وقدمت القضية إلى محكمة عابدين حيث نظرها القاضى « محمد بك سرور » وطلب الدفاع كافة أوراق محاكمة دنشواى ولكن القاضى رفض هذا الطلب .

والفارق واضح بين محاكمة أحمد حلمى صاحب « القطر المصرى » وبين محاكمة الشيخ جاويش رئيس تحرير « اللواء » فالمحاكمة الأخيرة صحبها ضجة وإن لم تعادل الضجة التى أحدثتها محاكمة الشيخ جاويش الأولى عام ١٩٠٨(٢) إلا أنه قطعاً ليس من وجه للمقارنة بين اهتمام الحزب وصحفه وجماهيره بقضية الشيخ جاويش وبين اهتمامه بقضية أحمد حلمى .

فمصر الفتاة تهاجم المحاكمة وترى أن « الصحافي المصرى أصبح وعلى رأسه سيفان مشهوران قانون المطبوعات وقانون المحاكم الأهلية يهددان حياته ووجوده . فموقف الصحافي اليوم من أحرج المواقف فإنه إن أخلص

---

(١) اللواء فى ٢٨ يونيه ١٩٠٩ .

(٢) وهى المحاكمة التى سببها مقال الشيخ جاويش عن ثورة عبد القادر حبوبة فى الجزيرة فى السودان ١٩٠٨ واتهم فيها حكومة السودان بأحداث « مجزرة بشرية شبيهة بدنشواى » .

في وظيفته وخدم بلاده بما يقتضيه الشرف والذمة لايسلم من العطب والأذى وإن هو اتقى شر السيفين أهمل في أقدس الواجبات الوطنية وأجدرها بالتعلق والتمسك »(١) .

كما أن « اللواء » انتهز فرصة إدلاء « رشدى باشا » ناظر الحقانية بتصريح مؤداه أن الشيخ جاويش سيحكم عليه هذه المرة ليهاجم الحكومة ورجالها في حملة عنيفة .

وتعترف الوثائق البريطانية بازدحام قاعة المحكمة خلال جلسات المحاكمة وتجمهر أعضاء الحزب حول هذه القاعة الذين كانوا يستقبلون الشيخ في غدواته وروحاته بالهتاف والتصفيق إلا أن هذا الجمهور كان منظماً ولم يسبب أى متاعب للشرطة(٢) .

وقد صدر الحكم في ٥ أغسطس بتغريم الشيخ جاويش مبلغ ٢٠ جنيهاً لهجومه على موظفين عموميين ، وسعد الحزب الوطنى بهذا الحكم فخرجت صحفه تكيل المديح للقاضى الذى لم يتأثر بمركز خصم الشيخ جاويش —بطرس غالى — (٣) ، ولكن على الجانب الآخر عبرت السلطات البريطانية عن دهشتها لهذا الحكم الخفيف وعللته بأن هناك عوامل شخصية وسياسية أثرت على القاضى في هذا الحكم ورأت أنه لابد من جولة أخرى في محكمة الاستئناف وأعربت عن أملها في صدور حكم قاس من هذه المحكمة(٤) .

وفي خلال الأيام العشرين بين صدور الحكم الابتدائي وبين الجلسة التى تقررت لعقد جلسة محكمة الاستئناف في ٢٥ أغسطس حدثت تطورات ثلاثة هامة :

الأول : نجاح الاتصالات البريطانية — الألمانية في أبعاد كاين عن مصر وحرمان « مصر الفتاة » من الحماية التى اسبغت عليها ، وكان لهذا دلالة

(١) مصر الفتاة فى ٥ اغسطس ١٩٠٩

(٢) F.O. 407/174 No. 123 Graham to Grey Aug. 8, 1909 Desp. No. 94.

(٣) مصر الفتاة فى ٦ اغسطس ١٩٠٩

(٤) F.O. 407/174 No. 123 Graham to Grey Aug. 8, 1909 Desp. No. 94.

هامة وهى إضعاف إمكانية الصحف الوطنية الأخرى في اللجؤ إلى مثل هذا الأسلوب .

الثاني : أغرى حكم الغرامة الخفيف على الشيخ جاويش ، أغرى رئيس تحرير اللواء على الاستمرار في هجومه العنيف على الاحتلال ، وقد اغتنم فرصة تنفيذ حكم الإعدام على « دنجرا » الشاب الهندى الذى اتهم باغتيال السير كرزون ديلى فكتب عدة مقالات في مديح هذا الشاب وإطرائه ووصفه بالوطنية ، وقد صدر أعنف المقالات في اليوم الذى كان مقرراً لتنفيذ الحكم في هذا الشاب وجاء فيه أن « اليوم تنقد نار الحقد على انجلترا في صدور الهنود . . . اليوم يزداد سعيرها ويشتد لهيبها . . اليوم يضاعف هؤلاء القوم جهادهم في سبيل استقلالهم . . اليوم تتصدع دولة الاستعمار .

« سلام عليك يادنجرا . سلام في ظلمات القبور . سلام عليك كلما ذكرك الذاكرون . سلام عليك حياً وميتاً(١) » .

وقد أعرب بطرس باشا غالى من خشيته لممثل المعتمد البريطاني في القاهرة من هذه المقالات لأن انتشار اللواء « بين الطلبة والطبقات الجاهلة قد يؤدى إلى أن يحاول أحدهم القيام بما قام به دنجرا في أحد الوزراء المصريين أو كبار الموظفين وذلك لاكتساب شهرته » وأرسل المستر جراهام هذه الآراء إلى وزير الخارجية البريطاني مطالباً بتخويله حق التصريح « لمجلس النظار المصرى » بتنفيذ قانون المطبوعات وإنذار اللواء(٢) .

الثالث : زار مدير تحرير اللواء الدكتور رفعت منصور في نفس الفترة استنبول بهدف التخلي عن جنسيته العثمانية ليصبح بعد ذلك مواطناً أمريكياً(٣) . وكان هذا يعنى أن اللواء يعمل للحصول على الحماية الاجنبية كما فعلت مصر الفتاة .

* * *

أخذت السلطات البريطانية في القاهرة زمام المبادرة على ضوء كافة هذه التطورات ، وكان أول مواجهتها لها حصولها على الإذن من وزارة

(١) اللواء فى ١٧ اغسطس ١٩٠٩

(٢) F.O. 407/174 No. 125 Graham to Grey Aug. 20, 1909 Tel. No. 26.

(٣) Ibid No. 131 Graham to Grey Aug. 23, 1909 Desp. No. 98 Conf.

الخارجية في لندن بإنذار اللواء[١] نتيجة للمقالات التى حررها الشيخ جاويش عن دنجرا ، وفي نفس اليوم الذى طلب فيه من جريدة الحزب الوطنى نشر الإنذار صدر حكم محكمة الاستئناف في قضية مقال « ذكرى دنشواى » . وقد طابق الحكم المذكور توقعات ممثل المعتمد البريطاني في القاهرة فقد عُدل الحكم الابتدائي من الغرامة إلى الحبس ثلاثة شهور على الشيخ جاويش وكان وقع الحكم غاية في القسوة على دوائر الحزب .

كما تم وأد محاولة الدكتور رفعت منصور بالحصول على الجنسية الأمريكية واستطاع بطرس باشا غالى رئيس النظار أن يحصل على خطاب من المعتمد الأمريكى في القاهرة يمكنه من اتخاذ أى إجراء فعّال حيال الجريدة[٢] .

* * *

وقد أثار الحكم والإنذار الجرائد الوطنية ، وكان هذا أسوأ ما نزل بصحيفة الحزب الوطنى في شهور ما قبل اغتياس بطرس باشا .

والواقع أن إنذار اللواء أو الحكم على الشيخ جاويش يبدوان أسلوباً هيناً للغاية إذا ما قورنا بأسلوب مواجهة الحركة الوطنية وصحافتها بعد حادث الاغتيال المذكور .

والفرق بين الأسلوبين يتضح تماماً عندما نرى أن الأسلوب الخفيف قد حول الصحفيين المحكوم عليهم إلى أبطال والإنذارات الموجهة إلى الصحف إلى أوسمة وهو ما نبضت به أقوال الجرائد واحتجاجات المواطنين بينما حول الأسلوب العنيف الصحفيين إلى ضحايا والإنذارات إلى أوامر إغلاق .

كما أن الأسلوب الأول زاد الصحف الوطنية جرأة وتطرفاً بينما أدى الأسلوب الآخر إلى إسكات ألسنتها نهائياً . . .

وأوضح دليل على ذلك رد اللواء على الإنذار الذى وجه إليه . . يقول اللواء « أتريدون أن نتبع مذهبكم في تمليق المحتل والتسبيح بحمده في البكرة والعشى وأن نلتمس منه التفضل علينا بمطالبنا الوطنية فإذا رفض ونهر استغفرناه .

---

(١) F.O. 407/174 No. 127 Grey to Graham Aug. 23, 1909 Tel. No. 36.

(٢) Ibid No. 131 Graham to Grey Aug. 23, 1909 Desp. No. 98 Conf.

« أتريدون أن ننسى أنفسنا وحقوقنا ونضع أيدينا على صدورنا وكلما قال المحتل كلمة شهدنا له بالصدق حتى ولو طعن على ديننا أو سب أمراءنا على مسمع منا .

« أتريدون أن يصرح بأن الاحتلال باق إلى الأبد ونسكت على قوله » وترد جريدة الحزب الوطنى على كافة هذه التساؤلات وتساؤلات أخرى ب « اللهم إنا نأنف أن نتبع ما تدعوننا إليه من ممالأة المحتل على هضم حقوق هذه الأمة القديمة المجيدة وخير لنا أن نعذب في سبيل الحق من أن نترك آمنين على الباطل[١] »

ويعترف ممثل المعتمد البريطاني في القاهرة بأن الإنذار والحكم على الشيخ جاويش أديا إلى نشوب المظاهرات ضد الحكومة في القاهرة وفي الاسكندرية ، وقدر عدد المتظاهرين في العاصمة بثمانمائة متظاهر على الأقل، ولكن رغم هذا الاعتراف لم يخف ارتياحه لفشل محاولة من زعيم الحزب « محمد فريد » لإغراء الصحف الوطنية على التوقف عن الصدور لبضعة أيام احتجاجاً على الحكومة ، كما أسعده حرج موقف اللجنة الإدارية للحزب لأنها وافقت على نشر مقالة « دنجرا » بالرغم من أن بعض القانونيين من رجال الحزب قد نصحوا بعدم النشر ، وبدا من ذلك « الشيخ جاويش » كضحية لقرار اللجنة[٢] ! !

ولكن رغم الارتياح والسعادة التى أبدتها السلطات البريطانية في القاهرة إلا أن الحقيقة أنه لا الحكم على الشيخ جاويش ولا إنذار اللواء قد أثرا كثيراً سواء في لهجة هذه الصحيفة أو لهجة غيرها من صحف الحزب الوطنى.

وقد خاضت هذه الصحف خلال ما تبقى من عام ١٩٠٩ معركة ضارية لإفساد محاولة الحكومة الاتفاق مع شركة قناة السويس على مد امتيازها لأربعين عاماً آخر مما أدى أخيراً إلى فشل المحاولة .

---

(١) اللواء فى ٣٠ أغسطس ١٩٠٩ مقال بعنوان « نحن وخصومنا ــ بشأن الانذار » .

(٢) F.O. 407/174 No. 134 Graham to Grey Aug. 30, 1909 Desp. No. 103.

كما اهتمت تلك الصحف بموضوعات أخرى ذات حساسية خاصة مثل موضوع معاملة سلطات الاحتلال للجيش المصرى ، وقد اتخذت المقالات التى كتبت في « مصر الفتاة » خلال شهر سبتمبر في هذا الشأن صبغة التحريض ودعوة أبناء هذا الجيش إلى الثورة على الأوضاع التى وضعهم فيها المحتلون[١].

وقد دعا كل هذا المعتمد البريطاني إلى أن يسجل في تقريره آخر العام عدم ارتياحه لطريقة تنفيذ قانون المطبوعات ، ورأى أن هذا التنفيذ قد تم بتساهل أكثر من اللازم « فلم يصلح في منع الصحف المتطرفة من الاستمرار في الطعن على ولاة الأمور وإهانتهم ، وإذا لم يكف أولئك عن خطتهم في القذف والطعن فلا بد من تنفيذ القانون بشدة أكثر من قبل[٢] »

ولا يلبث الموقف كله أن يتغير عندما — ينجح الورداني في اغتيال رئيس النظار في ٢٠ فبراير ١٩١٠ وتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين الاحتلال والحكومة المصرية من جانب وبين الحركة الوطنية من جانب آخر .

٢ ـ مرحلة ما بعد اغتيال بطرس باشا غالى ١٩١٠ ـ ١٩١٢ :

لقد أدى العمل المفاجئ الذى قام به ابراهيم ناصف الورداني من اغتيال رئيس النظار المصرى بطرس غالى إلى ردود فعل مختلفة .

ففى الوقت الذى أدى هذا الحادث فيه إلى ارتباك شديد في أوساط دوائر الاحتلال لأسباب أهمها أنها لم تكن قد استكملت بعد استعداداتها للمواجهة النهائية للحركة الوطنية في البلاد ، ذلك أنه حتى هذا الوقت لم تكن قد حصلت على موافقة الدول الأوربية على تنفيذ قانون المطبوعات على رعاياها مما كان يجبرها على إبقاء هذا القانون في إطار التنفيذ اللين .

في نفس الوقت لاجدال أن دوائر الحزب الوطنى قد ارتاحت كثيراً لإزاحة الرجل الذى وقّع اتفاقية الحكم الثنائي ١٨٩٩ والذى رأس محكمة

---

(١) مصر الفتاة فى ٢٢ ، ٢٣ سبتمبر ١٩٠٩

(٢) Annual Report, 1909 P. 7.

دنشواى المخصوصة ١٩٠٦ والذى صدرت في عهد رياسته للنظارة قانون المطبوعات ١٩٠٩ والذى حاول أخيراً مد امتياز شركة قناة السويس خلال النصف الثاني من نفس العام، نقول لاشك أن دوائر الحزب الوطنى قد ارتاحت لإزاحة هذا الرجل من على رأس الحكومة المصرية وإن لم تقر تماماً الأسلوب الذى تم إزاحته به .

وقد شجع ارتباك سلطات الاحتلال البريطانية لفترة بعد الحادث وإزاحة رئيس النظار المذكور قيادة الحزب الوطنى وصحافته على شن هجمة مضادة وعنيفة خلال شهور ما بعد الحادث .

ولكن لا تلبث هذه الهجمة أن تتكسر على صخرة تصميم السلطات البريطانية على تحطيم صحافة الحزب الوطنى بل على تحطيم الحزب نفسه وخاصة بعد أن أصبحت الظروف أكثر ملاءمة لهذا العمل .

وعلى ذلك فإنه يمكن تقسيم هذه المرحلة إلى فترتين ، الأولى فترة هجوم الحزب الوطنى المضاد على قانون المطبوعات ، والثانية تنفيذ القانون بقسوة مما أدى أخيراً وقبيل نهاية عام ١٩١٢ بأيام إلى إغلاق كافة جرائد الحزب المذكور . . .

أولا — هجوم الحزب الوطنى على القانون :

رغم ما حدث في أوائل عام ١٩١٠ من قرار اللجنة الإدارية للحزب الوطنى بعدم الإستمرار في منح « اللواء » صفة الجريدة الناطقة باسم الحزب وإصدار جريدة أخرى باسم « العلم » في مارس لتتولى هذه المهمة .

رغم هذا فإن ما حدث لم يضعف أبداً الصحافة الوطنية ، فإن هذا القرار لم يضع « اللواء » في الصف المعادى للحزب الوطنى ، بل يمكن أن يقال أن الحزب هجر اللواء ولكن اللواء لم يهجر الحزب فالذى تولى إدارة اللواء بعد هجر الحزب له هو « يوسف بك المويلحى » الذى كان قد عين حارساً قضائياً عليه بسبب الخلافات التى نشبت بين ورثة مصطفى كامل حوله . و « يوسف بك » عضو قديم من أعضاء الحزب الوطنى كما أنه كان رئيس شركة « مصر

الفتاة » جريدة الحزب المتطرفة ، ومن ثم فلم يكن من المنتظر أن يتخلى « اللواء » أبداً عن خطته الوطنية التى اتبعها منذ صدر .

وعلى ذلك يمكن أن يقال أن الإنقسام الذى حدث وظهر نتيجة له « جريدة العلم » لم يكن من شأنه أبداً أن يضعف من صحافة الحزب الوطنى فالواقع يؤكد أن ما حدث هو زيادة صحيفة له دون فقدان الأخرى .

ويمكن بعد ذلك الإستعراض للتغير الذى طرأ على موقف صحافة الحزب في أعقاب مقتل رئيس النظار أن نتلمس خطة هجوم الحزب على قانون المطبوعات الذى تميزت به تلك الفترة ووسائل هذا الهجوم .

لقد كان لهذه الخطة شقان :

١ — الشق الأول : الهجوم المباشر على القانون وكانت المجالس النيابية المصرية ، الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ميدان هذا الهجوم .

ففى الجلسة التى عقدتها « الجمعية العمومية » في ٣٠ مارس ١٩١٠ تقدم ثلاثة من أعضائها باقتراحات تهدف إلى إصدار قرار بإلغاء «قانون المطبوعات».

جاء في الإقتراح الأول أن « القانون الذى نشرته الحكومة ليس القانون الذى طلبه بعض أعضاء الجمعية العمومية أولاً ولا الذى أقره بعض أعضاء الشورى آخراً لأنهم ما أقروه إلا نافذاً على الوطنيين والأجانب معاً لا لغواً باطلاً عند هؤلاء ورمحاً نافذاً في صدور أولئك »(١) .

وخرج مقدم الإقتراح من هذا بوجوب إلغاء القانون ما دام لم يمكن تنفيذه على الأجانب مما يسبب استمرار الفوضى .

أما الإقتراح الثاني فقد قدمه « عبد اللطيف الصوفاني بك » وطالب بإلغاء القانون برمته لأنه « لا ينطبق على الحرية الشخصية والحقوق العمومية » .

وقدم الإقتراح الأخير « محمد أفندى خضر » الذى رأى أن « قانون العقوبات مع سهر أولياء الأمور على تنفيذه فيه الضمان الكافي لتأديب كل متطرف » .

---

(١) مقدم الاقتراح « صادق بك أباظة » .

وقد حملت المناقشات التي دارت بين أعضاء الجمعية حول الإقتراحات الثلاثة روح التأييد العام مما أدى إلى أن تطلب الجمعية في نهاية الجلسة — وبالإجماع — من الحكومة « إلغاء قانون المطبوعات[١] » .

ورغم أن « العلم » كان معطلاً في هذا الوقت إلا أن هذا لم يمنع الصحف الوطنية الأخرى من أن تحيي أعضاء الجمعية العمومية على موقفهم ، بل إنها تفاءلت وأحست أن سكوت الوزراء أثناء المناقشة « دليل الرضى » عنها وطلبت منهم أن يعاونوا الجمعية حتى يصدر الأمر العالى لإعادة « الجثة المشوهة الدامية جثة قانون المطبوعات إلى قبرها الذى هجر منذ زمان بعيد لأننا نعتقد أن الحكومة لم تبقه إلى الآن إلا لأنها لم تشهد هذا الإجماع من قبل[٢] » .

* * *

وكانت فرصة للحزب أن يشن هجوماً آخر على القانون عندما تقدمت الحكومة في مايو إلى مجلس شورى القوانين بمذكرة تطلب فيها الموافقة على مشروع بمحاكمة الصحفيين أمام المحاكم الجنائية بدلاً من المحاكم الإبتدائية .

وعندما وافقت « اللجنة القانونية » بالمجلس على هذا المشروع ربطت موافقتها بشرطين :

الأول : إلغاء قانون المطبوعات والإكتفاء بنصوص قانون العقوبات العام مع المشروع المعروض . « وذلك لأن اللجنة لا ترى لزوماً مطلقاً لوجود قانون المطبوعات بجانب قانون العقوبات العام الشامل لجميع النصوص اللازمة » .

الثاني : أن تسعى الحكومة لدى الدول في جعل نصوص قانون العقوبات المصرى الخاصة بالصحف تسرى على الصحافة الأجنبية تأييداً للعدالة وعملاً بالفكرة التي سعت إليها الحكومة عندما أعادت قانون المطبوعات في العام السابق .

---

(١) محضر جلسة الجمعية العمومية فى ٣٠ مارس ١٩١٠ — الوقائع المصرية — ملحق رقم ٢٤٥ فى ١٨ ابريل ١٩١٠

(٢) مصر الفتاة فى ٣١ مارس ١٩١٠ مقال بعنوان « السكوت دليل الرضى » .

وفي أثناء المناقشة التى جرت حول المشروع وحول قرار اللجنة القانونية حاول سعد باشا زغلول ناظر الحقانية أن يقنع الأعضاء أن المشروع « لايقضى بتقييد حرية الصحافة ولا هو من هذا القبيل مطلقاً » .

ولكن سارت المناقشة في عموميتها في اتجاه عام ضد قانون المطبوعات مما حمل المجلس في النهاية إلى رفض المشروع بأغلبية الأراء[١] .

* * *

كانت هذه اللطمات القاسية لوأد حرية الصحافة مدعاة لسعادة الحزب الوطني وصحفه ، « فالعلم » تثنى أعظم الثناء على موقف أعضاء مجلس شورى القوانين[٢] و « مصر الفتاة » تعرب عن سرورها البالغ من « اتفاق نواب الأمة معها رأياً في كل ما تضعه الحكومة من المشاريع القاسية فإن رفضها لهذه المشاريع مما يلقى مسئوليتها على رأس الحكومة وحدها [٣]» .

ولكن في نفس الوقت كانت مدعاة لمرارة شديدة في نفس سلطات الإحتلال البريطانية ، فرغم أن الحكومة المصرية لم تستجب لطلب الجمعية العمومية بطلب إلغاء القانون « حيث أن الأسباب التى أعيد من أجلها هذا القانون باقية ومتى زالت يزول » ، كما لم توافق على قرار مجلس شورى القوانين لرفض مشروع تحويل الصحفيين إلى المحاكم الجنائية لأنها « لم تر وجها للعدول عن إصدار هذا القانون »[٤] ، رغم ذلك فإن المعتمد البريطاني يعبر عن رأيه في موقف الجمعية والمجلس في تقريره في آخر العام حين سجل « أنهما أظهرا خلال النصف الأول من العام — ١٩١٠ — رغبة متزايدة أن يكونا أداتين في أيدى الحزب الوطنى يستعملهما في تحريضه وتهييجه على الإحتلال البريطاني »[٥] .

---

(١) محاضر مجلس شورى القوانين ١٩٠٩ — ١٩١٠ — محضر جلسة ٣٠ مايو ص ٦٥٥ — ٦٧٨

(٢) العلم فى ٣١ مايو ١٩١٠

(٣) مصر الفتاة فى ٣١ مايو ١٩١٠

(٤) محاضر مجلس شورى القوانين ١٩١٠ — ١٩١١ ص ٦

(٥) Annual Re port, 1910 P. 1.

٢ ـ الشق الثاني : الإلتفاف حول القانون بهدف إفساد فاعليته وإضعاف قيمته .

فالحكومة حتى هذا الوقت لم تكن قد استطاعت أن تنفذ القانون على الأجانب وإن كانت قد استطاعت أن تمنع هؤلاء من فرض حمايتهم على الصحف الوطنية ـ كما حدث بالنسبة لمصر الفتاة ـ .

وبناء على تقدير الموقف من هذه الزاوية فقد قرر بعض أعضاء الحزب تكليف بعض الأجانب المتعاطفين مع الحركة الوطنية بإصدار جريدة أوربية بها ملحق عربي على أن تسير الجريدة على نفس خطة الحزب الوطني بصورة متطرفة حيث أن يد الحكومة ستبقى قاصرة عن الإمساك بها ، وعلى أن يمولها أعضاء الحزب الذين تصدوا لإصدارها .

وبالفعل حصل المسيو جاك دارجيلا **Jaques d'Argila** الأسباني على رخصة إصدار الجريدة المقترحة باسم «الدبيش اجبسيان **Le Dépêche Egypt.**» وتولى رئاسة تحريرها المسيو « ألبان ديروجا **Alban Derroja** » الفرنسي .

وفوجئت سلطات الإحتلال والحكومة المصرية صبيحة يوم ٩ يوليه ١٩١٠ بهذه الصحيفة وقد صدرت وبها ملحق عربي باسم « البلاغ المصرى » وكانت الجريدة بشقيها الفرنسى والعربي أعنف صحف الحزب الوطنى في هجومها على أعداء هذا الحزب خلال عام ١٩١٠ .

واستعراض بعض مواقف هذه الجريدة خلال السنة المذكورة يوضح تماماً حقيقة تبعيتها للحزب الوطنى ، فهى تنشر خطب وتصريحات زعيم الحزب أولاً بأول ، وهى تهاجم الإحتلال البريطاني وسياسته في كل فرصة بأقلام رجال الحزب الوطنى ومدير تحريرها الفرنسى ، وهى تنقد موقف الأقباط نقداً مراً بعد حادثة اغتيال بطرس باشا غالى ، وهى تغتنم فرص المناسبات الوطنية لتندد بالإحتلال وأعوانه كما حدث في مقالاتها التى نشرتها بمناسبة ذكرى يوم ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ .

ونسوق بعض عناوين هذه المقالات لعلها تعيننا أكثر على تفهم اتجاه الجريدة ، يكتب على فهمى كامل في يوليو ١٩١٠ مقالة بعنوان « ممن نطلب

الدستور[١]. ويكتب اسماعيل شيمي بعده بأيام مقالة أخرى بعنوان « أحرار نحن أم عبيد أذلاء »[٢] ، كما يشارك القسم الأفرنجى في الجريدة في هذه الهجمات بنصيب وافر فيهاجم ألبان ديروجا رئيس التحرير الاحتلال والحكومة والخديو في مناسبات متعددة ، فعندما تقرر محاكمة الشيخ جاويش بسبب تقريظه للكتاب الذى ألفه «الغاياتي» باسم «وطنيّ» — في المقدمة التى وضعها لهذا الكتاب — يهاجم رئيس التحرير الفرنسى « البان ديروجا » هذه المحاكمة هجوماً شديداً ويرى « أن الحكومة التى تنفر الآن من الحرية وتحكم بشدة وقسوة على أقل ما يبدو من التظاهر بالوطنية تريد أن تسيء مرة أخرى إلى الشيخ عبد العزيز جاويش بمناسبة كتاب الغاياتي وذلك سبيل البلاد التى لاتعتمد إلا على السلطة الظالمة[٣] »

كما تتولى « الديبيش اجبسيان » الرد على الجرائد الأجنبية الأخرى التى تهاجم الحركة الوطنية المصرية فترد على ما جاء في البروجريه بأن مستقبل مصر في أيدى الانجليز قبل غيرهم بمقال طويل بعنوان « لا احتلال انجليزى ولا احتلال عثماني ولا أى احتلال[٤] »

وعندما يصدر الحكم على الشيخ جاويش في قضية الغاياتي في ٦ أغسطس ١٩١٠ تشن الجريدة بقسميها هجوماً عنيفاً على الاحتلال والحكومة وتظل في لهجتها الشديدة حيالها وإن كان قد حدث تغيير في طريقة الهجوم في البلاغ العربي فأصبحت التوقيعات على المقالات فيه بأسماء مستعارة مثل « ناصح » و « المصرى » و « حقوقي حر » و « المطيع لأمر الوطن » و « عدو الاحتلال » و « أبوالهول » ، كما أن بعضها كان غفلاً من الإمضاء . . وواضح من هذا أن رجال الحزب الوطنى الذين كانوا يتصدون للكتابة هذه المقالات أرادوا أن يبتعدوا عن يد المحاكمات التى لحقت بالشيخ جاويش كما أنهم كانوا

---

(١) البلاغ المصرى فى ١٩ يوليه ١٩١٠
(٢) البلاغ المصرى فى ٢٤ يوليو ١٩١٠
(٣) **La Dépêche Egyptienne 16 Juillet, 1910.**
(٤) **Ibid 31 Juillet, 1910.**

على ثقة أن هذه اليد لن تصل أبداً إلى صاحب الجريدة الأسباني أو رئيس تحريرها الفرنسي.

ثانيا ـ تنفيذ القانون والقضاء على صحافة الحزب الوطنى :

رغم الارتباك الواضح الذى ساد دوائر الاحتلال والحكومة المصرية عقب اغتيال رئيس النظار والحملة العنيفة التى شنتها أجهزة الحزب الوطنى على قانون المطبوعات إلا أن هذا الارتباك لم يدم طويلاً وعادت السلطات المعادية للحركة الوطنية تنظم صفوفها لتفسد أثر هجوم الحزب الوطنى ثم تعمل على تصفيته بنفس السلاح الذى استهدف الهجوم المذكور تحطيمه .

وقد تمثلت العقبة الرئيسية أمام حرية حركة سلطات الاحتلال ضد الحزب الوطنى وصحافته فى استمرار معارضة الدول الأوربية على رأسها فرنسا وألمانيا على تطبيق « قانون المطبوعات » على رعاياها . وقد استخدم الحزب تلك الحقيقة هذه المرة بمهارة فائقة في مسألة « الدبيش اجبسيان » .

وكنتيجة لهذا الموقف نستطيع أن نميز بوضوح تام بين فترتين واضحتين في السياسة البريطانية نحو تنفيذ القانون ، فترة ما قبل حل مشكلة « الدبيش اجبسيان » والتى استمرت حتى أوائل ١٩١١ ، ثم فترة ما بعد حل هذه المشكلة حتى أواخر ١٩١٢ حين قضى على آخر صحيفة من صحف الحزب وتم تشتيت أغلب رجاله في الخارج.

الفترة الأولى : — وقد حكم السياسة البريطانية خلال هذه الفترة عدم إمكان وصول يد القانون إلى « الدبيش اجبسيان » ، ولم يكن منطقياً أمام هذا الموقف أن يترك الحبل لهذه الصحيفة بينما يستعمل القانون بقسوة وعنف مع الصحف الوطنية الأخرى ، ومن ثم فإن سلطات الاحتلال كانت مضطرة إلى استخدام قانون المطبوعات بصورة لانستطيع أن نقول أنها كانت خفيفة ولكن نستطيع أن نقول أنها كانت أقل عنفاً مما استعمل به القانون بعد التخلص من « الدبيش اجبسيان » .

ولكن إذا كان سلاح « القمع الإدارى» لم يتوفر له حرية الاستعمال فقد كان هناك سلاح « القمع القضائي» ، ومن ثم فقد قرر المعتمد البريطاني

تطوير هذا السلاح الأخير بإصدار قانون بتحويل القضايا الصحفية من المحاكم الابتدائية ذات القاضى المصرى إلى محاكم الجنايات التى يحكم فى قضاياها ثلاثة قضاة أحدهم أجنبى[١] .

وبالفعل تقدمت الحكومة المصرية إلى مجلس شورى القوانين بمشروع للقانون المذكور من مادتين :

« المادة الأولى : الجنايات أو الجنح التى تقع بواسطة الصحف أو غيرها من طرق النشر تحكم فيها محاكم الجنايات ويكون حكمها غير قابل للاستئناف .

« المادة الثانية : تقدم الدعوى إلى المحكمة بالطرق المنصوص عليها فى المادة ١٥٧ من قانون تحقيق الجنايات » .

وفى المذكرة الإيضاحية التى قدمتها الحكومة مع مشروع القانون عللت غرضها منه بأنه « هو جعل الجنح بواسطة المطبوعات من خصائص محكمة الجنايات إذ فى إحالة الجرائم التى هى من نوع خاص على أكبر محكمة جنائية ضمانة كبرى لتقدير العقوبة تقديراً عادلاً خصوصاً إذا لوحظ ما يعرض عند تطبيق القوانين الجنائية فى مواد الجنح التى ترتكب بواسطة المطبوعات من المسائل القانونية العويصة التى يحتاج فى حلها إلى تجارب كبرى لذلك رأت الحكومة أن الأولى أن تكل حل هذه المشكلات لقضاة محاكم الجنايات الذين هم عادة أكبر سناً وأكثر تجارباً[٢] » .

ورغم محاولة « سعد زغلول » ناظر الحقانية أن يقنع أعضاء المجلس فى خطبة طويلة بعدم تعارض القانون مع الحرية الصحفية إلا أن هؤلاء الأعضاء — متأثرين بالنقد العنيف الذى مارسته الصحف الوطنية — رفضوا فى جلسة ٣٠ مايو ١٩١٠ الموافقة على مشروع القانون المذكور بأغلبية ١٣ صوتاً ضد ٩ أصوات[٣] .

---

(١) F.O. 407/175 No. 61 Gorst to Grey April 22, 1910 Desp. No. 54.

(٢) مجموعة محاضر مجلس شورى القوانين ١٩٠٩—١٩١٠ ص ٦٥٥—٦٥٦

(٣) F.O. 407/175 No. 83 Gorst to Grey, June 5, 1910 Desp. No. 36.

ولكن ضربت سلطات الإحتلال البريطاني بمعارضة مجلس شورى القوانين عرض الحائط فقد وافق وزير الخارجية البريطانية على نصح (وهى الكلمة التى كانت تستعمل دائماً بدلا من كلمة « أمر ») الحكومة المصرية بتمرير القانون المذكور حيث « أنه ضرورى لحماية الأمن العام »(١) .

وبالفعل قبل منتصف يونيه كانت الحكومة المصرية قد استجابت لنصح سلطات الإحتلال وصدقت على قانون تحويل الصحفيين على محكمة الجنايات مما دفع جرائد الحزب الوطنى إلى أن تتعجب من هذا العمل وترى فيه احتقاراً لإرادة الأمة وتحذر من أن « الإضطهاد يزيد من بأس الأمة وعند ذلك تقولون أن الخطر يعظم شأنه(٢) » .

وهكذا دعمت سلطات الإحتلال من قيمة سلاح « القمع القضائي » وكان عليها أن تبادر باستعماله وقد فعلت (! ! !) .

* * *

بينما كان مشروع قانون « إحالة الصحفيين إلى المحاكم الجنائية » يتعثر بين مهاجمة صحف الحزب الوطنى له وبين رفضه في مجلس شورى القوانين كان هناك إتجاه قوى في دوائر سلطات الإحتلال البريطاني بالتدخل السافر في المسألة برمتها واتخاذ إجراء « فاقع اللون » يكون من نتيجته كسر حدة التطرف الوطنى التى استمرت عليها سياسة الحزب الوطنى وصحفه .

وقد بدأت فكرة اتخاذ إجراء من هذا اللون عندما قدم المستر رونالد جراهام Ronald Graham مستشار وزارة الداخلية المصرية مذكرة طويلة إلى جورست في أوائل مايو ١٩١٠ يعدد فيها مواقف الشيخ عبد العزيز جاويش المعادية للإحتلال ويقترح في آخرها نفى الشيخ من مصر نهائياً(٣) .

وقد دعم فكرة مستشار الداخلية المصرية الإنجليزى الشكوى التى قدمتها غرفة التجارة البريطانية في القاهرة في نفس الوقت من أثر « حالة الإضطراب

---

(١) F.O. 407/175 No. 79 Grey to Gorst, June 4, 1910 Tel. No. 36.

(٢) العلم فى ١٥ يونيه ١٩١٠

(٣) F.O. 407/175 Inc. No. 1 In No. 66 Note from the adviser of the Ministry of the interior to Sir E. Gorst, May 3, 1910.

القائمة في البلاد على المصالح الحيوية البريطانية وأعربت عن رأيها « أن الموقف القائم ناتج عن تصرفات بعض المهيجين مما يحتم على الحكومة البريطانية اتخاذ الخطوات اللازمة لوضع حد لهذا التهييج »(١) .

وقد تلقى المعتمد البريطاني كافة هذه الآراء ووافق على ما جاء فيها وبعثها إلى لندن مشفوعة برأيه بضرورة تنفيذ ما جاء فيها ، أما طريقة التنفيذ فقد رأى أنه لما كان الإجراء المنوى اتخاذه ذا طبيعة خاصة ولا يخضع للقوانين المصرية فإنه على السلطات البريطانية أن تتحمل تنفيذه فتقوم به قوات الإحتلال التى تعتقل الشيخ وترسله تحت الحراسة إلى أى مكان تم الموافقة على إرساله إليه .

ورأى جورست أن مثل هذا التصرف سيزيد من الأثر المعنوى للعمل المقترح اتخاذه على الشعب حيث تكون فرصة لمظاهرة حقيقية تشترك فيها القوات البريطانية مما سيؤدى إلى منع متاعب خطيرة لسلطات الإحتلال قد تنجم عن الوضع الذى كان قائماً(٢) .

واغتنم المعتمد البريطاني في القاهرة فرصة صدور الحكم على الورداني لتشديد الضغط على لندن للموافقة على نفى الشيخ جاويش حيث رأى أن الأيام التى أعقبت صدور الحكم هى أحسن فرصة ممكنة لاتخاذ العمل المقترح ضد الشيخ ، فطبقاً للقانون المصرى لابد من مرور شهر قبل تنفيذ « الحكم على قاتل رئيس النظار » وأنه من الضرورى تقديم كل حماية ممكنة للقضاة الذين أصدروا الحكم ضده خلال هذه الفترة ، ومن المفيد للغاية لمنع أى تهييج لصالح الورداني إبعاد الشيخ جاويش(٣) .

وقد رضخ السير إدوارد جراى لإلحاح جورست وخوله سلطة نفى عبد العزيز جاويش من مصر إلى جبل طارق(٤) .

---

(١) F.O. 407/175 Inc. No. 2 In No. 66 British chamber of commerse to Gorst May 6, 1910.

(٢) Ibid No. 66 Gorst to Grey May 6, 1910 Desp. No. 57 Conf.

(٣) Ibid No. 67 Gorst to Grey May 14, 1910 Tel. No. 28 Conf.

(٤) Ibid No. 68 Grey to Gorst May 17, 1910 Tel. No. 30.

وبدأت وزارة الخارجية البريطانية تتخذ الترتيبات اللازمة لتنفيذ العمل المذكور فاتصلت بوزارة المستعمرات التى أرسلت إلى حاكم جبل طارق بالإستعداد لاستقبال الشيخ جاويش[١] .

ووصلت دقة الإتصالات في هذا الشأن إلى الإتفاق على المعاملة التى تقرر أن يلقاها قطب الحزب الوطنى في منفاه . وقد رؤى أن تكون هذه المعاملة مطابقة لمعاملة « الزبير باشا رحمت » الذى نفى إلى نفس المكان خلال عام ١٨٨٥ والتى أرسلت بها مذكرة إلى حاكم جبل طارق في ٣٠ مارس من نفس العام[٢] .

ويبدو أن الشيخ جاويش كان قد أحس بما يدبر له في الخفاء فأوقف تماماً كل نشاطه الظاهر ، وقد شكا المعتمد البريطاني من هذا التغير الذى طرأ على تصرفات الشيخ. ورأى « أن وقتاً سيمر حتى يرتكب العمل المناسب الذى يمكن من نفيه إلى جبل طارق ولكن يجب انتهاز الفرصة المناسبة الناتجة عن الوضع الحالى لاتخاذ هذه الخطوة »[٣] .

ولكن ظل حذر عبد العزيز جاويش يزداد في نفس الوقت الذى كان قد صدقت فيه الحكومة المصرية على قانون إحالة الصحفيين على المحاكم الجنائية ، ومن ثم فقد قررت السلطات البريطانية التخلى عن فكرة النفى وتسقط أى خطأ من الشيخ جاويش لتقديمه للمحاكمة بمقتضى القانون الجديد .

* * *

ما لبثت الفرصة أن سنحت لسلطات الإحتلال لتقديم الشيخ جاويش إلى المحاكمة أمام المحاكم الجنائية بمقتضى القانون الجديد عندما صدر كتاب من تأليف الشيخ على الغاياتي باسم « وطنيتى » كتب مقدمته الشيخ جاويش رأت فيه السلطات هجوماً عليها ، ومن ثم فقد تم إعلان الشيخين فعلاً في ١٧ يوليه بالجرائم التى تقرر أن يحاكما بسببها وهى :

١ — التحريض على كراهة الحكومة والإزدراء بها .

---

(١) F.O. 407/175 No. 75 Colonial office to Foreign office May 27, 1910.

(٢) Ibid No. 91 Foreign office to Colonial office June 22, 1910.

(٣) Ibid No. 70 Gorst to Grey May 20, 1910 Tel. No. 30 Conf.

٢ – العيب في حق ذات ولى الأمر .

٣ – تحسين جريمة دنجرا الهندى والورداني لقتلهما وزيرين .

٤ – إهانة ناظر الحقانية بصفته موظفاً عمومياً(١) .

وتمت المحاكمة في ٦ أغسطس أمام محكمة الجنايات المؤلفة من قاضيين مصريين بينهما الرئيس وقاضى ثالث بلجيكى ، وصدر الحكم في نفس اليوم بحبس الشيخ جاويش ٣ شهور وحبس الغاياتي سنة مع الشغل غيابياً حيث أن هذا الأخير كان متغيباً في استنبول .

وكانت النية تتجه إلى محاكمة زعيم الحزب «محمد فريد بك» بدوره في نفس القضية لأنه كتب تقريظاً لنفس الكتاب ، ولكن لما كان فريد بك خارج البلاد وقتئذ فقد تقرر الإنتظار حتى يعود فيقدم للمحاكمة ، وقد كتب ممثل المعتمد البريطاني في هذا الصدد أنه « سيكون من الممتع للغاية أن نرى إذا ما كان محمد فريد سيعود إلى مصر لمواجهة حكم مماثل(٢) » كما كتب معبراً عن آرائه في الحكم الصادر ضد الشيخين « إن الأحكام كانت مناسبة خاصة على الشيخ جاويش الذى كتب مقدمة الكتاب بطريقة تمنحه تأثيراً كبيراً في نفس الوقت الذى تجنب فيها أى جملة يكون من شأنها أن تضعه تحت طائلة مواد قانون العقوبات »(٣) .

ورغم انقضاء أربعة شهور على صدور الحكم ضد الشيخ جاويش إلا أن سلطات الاحتلال ظلت متربصة بزعيم الحزب على ذمة نفس القضية، وفعلاً ما أن وطأت أقدام محمد فريد أرض مصر في أوائل ١٩١١ حتى قدم إلى المحاكمة وصدر الحكم بسجنه ٦ شهور في ٢٣ يناير من هذا العام بسبب تقريظه لكتاب الشيخ الغاياتي ، هذا التقريظ الذى نشر قبل صدور الكتاب نفسه ووضعه الغاياتي في مقدمة الكتاب لترويجه(٤) (. ! !)

---

(١) مصر الفتاة فى ١٨ يوليه ١٩١٠

(٢) **F.O. 407/175 No. 106 Mr. Cheetham to Grey, Aug. 7, 1910 Desp. No. 108.**

(٣) **Ibid.**

(٤) العلم فى ٢٤ يناير ١٩١١

ووصل الأمر إلى قمة استعمال العنف من جانب السلطات البريطانية نحو زعامة الحزب الوطنى وبقى أن يلحق العنف بجرائده .

* * *

لم يكن في الإمكان مواجهة صحف الحزب مواجهة حاسمة مثل تلك التى تمت مع زعامته في ظل قانون «تحويل القضايا الصحفية إلى محاكم الجنايات» طالما بقيت إحدى جرائد هذا الحزب ونعنى بها جريدة « البلاغ المصرى » متمتعة بكامل حريتها في الهجوم على الاحتلال والحكومة سواء في قسمها العربي أو قسمها الفرنسى .

وكان المعتمد البريطاني في القاهرة يعلم تماماً أن المالك الحقيقى للجريدة هو اسماعيل شيمى بك أحد أقطاب الحزب الوطنى المتطرفين — وإن ظلت الصحيفة تحمل إسم مالكها الأسباني ورئيس تحريرها الفرنسى— ولكنه دائماً كان يعرب عن أمله أن تتوقف الجريدة عن الصدور في أى وقت نتيجة للمصاعب المالية التى تواجهها ، وعلى ذلك فلم يبادر باتخاذ أى إجراء محدد ضدها .

ولكن بمرور الوقت كان هذا الأمل يتبدد رويداً رويداً في نفس الوقت الذى لم يكن ميسوراً فيه محاكمة صاحبها ورئيس تحريرها الأجنبيين أمام المحاكم الأهلية المصرية لتمتعهما بحماية « الامتيازات الأجنبية » .

وإنصافاً للحق يجب أن لا نمر على هذه الصورة التى تبدى هذين الأجنبيين كمجرد أجيرين للحزب الوطنى استخدمها كلدرع واق ضد « قانون المطبوعات » فالواقع أن رئيس تحرير الجريدة كان من الشخصيات الفرنسية المرموقة في مصر ، فقد كان المسيو « البان ديروجا » رئيس نقابة الصحفيين الأوربيين في القاهرة « ومتخرجاً من مدرسة نورمال العليا وحاملاً لشهادة جامعة باريز[1] »

في نفس الوقت تشهد مواقف الرجل على حقيقته كمثقف فرنسى ذى وزن سياسى كبير ، فهو يهاجم الحكومة الفرنسية لرفضها عقد المؤتمر الوطنى

---

(١) جريدة البلاغ المصرى فى ٨ ديسمبر سنة ١٩١٠

المصرى في باريس مما أدى إلى انتقاله إلى بروكسل ، كما كان أول من دعا المصريين لرفع سلاح المقاطعة الاقتصادية لمواجهة الاحتلال والحصول على الاستقلال .

والواضح أن المسيو ديروجا كان يسارياً تقدمياً إلى حد بعيد — بمقاييس العصر — بدليل أن جريدته أصبحت أيام اعتصاب عمال عنابر السكك الحديدية لسان هؤلاء العمال فأخذت تشجعهم على نيل حقوقهم وتدافع عنهم وتطلب من أصحاب الأعمال إنصاف العمال في مرتباتهم كما دعت هؤلاء إلى إنشاء النقابات القوية التى تتولى الدفاع عنهم[١] .

ولا شك أن كل هذا مع اتخاذ جانب الحزب الوطنى في كافة قضاياه قد أقلق سلطات الاحتلال تماماً وشحذ رغبتها في القضاء على الجريدة بأى ثمن ، وقد جاءتها الفرصة عندما كتب ديروجا مقالاً في القسم الفرنسى من الجريدة يهاجم فيه الخديوى ، وهووان لم يذكر عباس الثاني صراحة في هذا المقال ألا أن الإيماءات التى جاءت فيه وعنوانه الذى كان مجرد علامة استفهام كان إشارة واضحة من يعنى بها المسيو ديروجا[٢] .

وقد قدم وزير الخارجية المصرى المقالة المذكورة بصفة رسمية لكل من « المسيو ديفرانس De France » الوزير المفوض الفرنسى والمسيو « فاسكيز » Vasquez القائم بالأعمال الأسباني وطلب منهما نفى الرجلين المسئولين[٣] .

وبادرت الحكومة الفرنسية إلى تلبية طلب الحكومة المصرية قبل انقضاء أسبوع واحد على صدور مقالته ، ففى ٧ ديسمبر وصل الرجل من القنصلية الفرنسية في القاهرة قراراً بنفيه جاء فيه « بناء على نشر البان ديروجا الفرنسى في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ مقالة في جريدة « الديبش اجبسيان » التى يديرها .

« وحيث أن هذه المقالة موجهة إلى شخص ولى الأمر في البلاد التى يعيش فيها ديروجا ضيف . .

(١) انظر البلاغ المصرى فى اكتوبر ونوفمبر ١٩١٠

(٢) La Dépêche Egyptienne 30 Nov. 1910.

(٣) F.O. 407/175 No. 144 Gorst to Grey Dec. 10, 1910 Desp. No. 154.

« وحيث أن ذلك مخل بالأمن العام وبالصلات الودية بين فرنسا ومصر. فلهذه الأسباب تأمر بإبعاد البان ديروجا من البلاد المصرية وندعوه بأن يستعمل الطرق التى يراها لحفظ مصالحه المادية في هذه البلاد[١] »

ولما تأخر رد الحكومة الأسبانية بعض الشئ على الطلب المصرى أبرق جورست إلى السفير البريطاني في مدريد يدعوه إلى حض القنصل الأسباني في القاهرة لنفى « السينور دراجيلا» مالك الجريدة[٢] .

وقد رغبت الحكومة الأسبانية في البداية تجنب حل « النفى » المطلوب ووعدت بالمعاونة على إلغاء الجريدة فحسب ، أما إذا لم يكف هذا الإجراء فقد أعربت عن استعدادها للنظر في نفى صاحبها[٣] .

ولكن نتيجة لإلحاح السفير البريطاني في مدريد اضطر وزير الخارجية الأسبانية السينور «جر اشيا بريتو Gracia Prieto » إلى الموافقة على إصدار أوامره إلى القائم بأعمال المعتمد الأسباني في القاهرة بنفى دراجيلا[٤] ، وأبلغ الرجل بالقرار على الفور[٥] .

وقد وقعت قرارات النفى على دوائر الحزب الوطنى وقع الصاعقة ، ولكن مالبث زعماء الحزب أن تمالكوا أنفسهم وجعلوا من سفر الرجلين مناسبة للتظاهر والاحتجاج ضد القرارات المذكورة . « فالعلم » تهاجم قرار نفى المسيو ديروجا وترى « أن حق النفى الذى تتمتع به القنصليات إذا جاز العمل به إلى الآن لايصح تطبيقه إلا على الأفراد المشردين الذين يعيثون في الأرض فسادا ولا يمكنهم أن يحصلوا على قوتهم إلا بالاعتداء على الأرواح أو بسلب الأموال فكيف يسوى بهم كاتب كبير له مكانة عظيمة في نفوس مواطنيه »[٦] ، وترى « مصر الفتاة » أن « جريدة البلاغ قد أصبحت قذى في عين الاحتلال الذى لم يستطع أن يؤاخذها مثل الجرائد العربية

(١) مصر الفتاة فى ٨ ديسمبر ١٩١٠
(٢) F.O. 407/175 No. 138 Gorst to Grey Dec. 4, 1910 Tel. Unnumbered.
(٣) Ibid No. 139 Sir M. De Bunsen to Grey Dec. 8, 1910 Tel. No. 69.
(٤) Ibid No. 150 De Bunsen to Grey Dec. 10, 1910 Desp. No. 171.
(٥) مصر الفتاة فى ١٥ ديسمبر ١٩١٠
(٦) العلم فى ٨ ديسمبر ١٩١٠

بقانون المطبوعات ومحاكم الجنايات فأراد القضاء عليها بإبعاد مديرها عنها ولكن إبعاد ديروجا عن مصر لايمنع كتابته فيها من فرنسا بل لايمنع أقلام أولئك الأحرار الذين هم من أجناس مختلفة من إصدارها وتحريرها مهما قاسوه من النفى واحداً بعد واحد[١]» .

وقد تحققت نبوءة« مصر الفتاة » فما لبث فرنسى آخر يدعى المسيو « إيتان ريشيه Richet » أن تولى موقع المسيو ديروجا في رئاسة التحرير وقد بادر بشن هجمة عنيفة على سلطات الاحتلال ورأى « أن انجلترا بتحكمها الجنوني تصيب بضربة واحدة حرية الصحافة وحرية الاجتماع وحرية الكلام .

« وهى تتناسى أن وسائل الشدة لاتدوم كما أنها تغتنم الاتفاق الودى المؤقت لتستعمل ضد أبناء وطننا وسائل التعسف وهو مالا يمكن احتماله .

« على أن الشدة لها حد محدود وسنعلم قريباً إذا كانت طريقة الاستخفاف بالامتيازات التى يمكن الالتجاء إليها كلما اقترح الانجليز عملاً مخزياً من الأعمال التى تمكنها منها سلطتهم الباطشة ستلبث نافذة إلى أمد غير معلوم »[٢].

وقد غاظ هذا الموقف الاحتلال البريطاني والحكومة المصرية التى سارع ناظر خارجيتها « حسين رشدى باشا » إلى الاتصال بالقنصل الفرنسى مطالباً وقف صدور الجريدة حيث أن ترخيصها الذى منح لمالكها السابق قد انتهى مفعوله وعلى ذلك فهى تظهر بصورة غير شرعية[٣] .

ولما مضت بضعة أيام ولم يتمكن القنصل الفرنسى من إغراء المسيو ريشيه على الانسحاب من رئاسة تحرير الجريدة فقد اقترحت الحكومة المصرية اتخاذ إجراءات ضدها منها منع نقل هذه الجريدة عن طريق مصلحة البريد المصرية ومنع بيعها في الشوارع . وقد رأى جورست أن الحكومة الفرنسية لن تستطيع الاعتراض على مثل هذه الإجراءات حيث أن السفير الفرنسى في لندن قد وافق — أثناء المباحثات التى دارت حول تطبيق القانون على الرعايا

---

(١) مصر الفتاة فى ٨ ديسمبر ١٩١٠

(٢) La Dépêche Egyptienne 11 Dec. 1910.

(٣) F.O. 407/175 No. 144 Gorst to Grey Dec. 10, 1910 Desp. No. 154.

الأجانب — في مذكرة له مؤرخة في ١٢ نوفمبر ١٩٠٩ على ضرورة حصول كافة الصحف على الرخص اللازمة(١) .

وقد أبلغ السفير البريطاني في باريس هذه الآراء للحكومة الفرنسية التى طلبت منحها مهلة قصيرة لحل الأزمة ، وبالفعل قامت الوكالة الفرنسية بالضغط على المسيو ريشيه ، فقد سحبت منه منحة دراسية كان قد قدمها له المسيو أوجانييه **Augagneur** حاكم مدغشقر ، كما تم تحذيره بأنه إذا استمر في إثارة المتاعب فسوف تعامله الوكالة الفرنسية في القاهرة بأقسى ما تملكه من وسائل(٢) .

وبالفعل تم حل المسألة وتقرر في بداية العام التالى — ١٩١١ — انسحاب المدير الفرنسى وما لبثت الجريدة أن توقفت عن الصدور بعد انسحابه في أوائل يناير(٣) .

وقد عنى هذا النجاح الكثير بالنسبة للاحتلال البريطاني في مصر ففرصته أصبحت كاملة في تنفيذ قانون المطبوعات دون أى خوف من التجاء الصحف الوطنية مرة أخرى إلى الحصول على الحماية الأجنبية سواء بتمليك هذه الصحف إلى ملاك أجانب كما حدث بشأن «مصر الفتاة» أو بحصول آخرين على رخص لتحريرها باسمهم تحت عناوين أجنبية كما حدث بشأن «الديبش اجبسيان» .

وأدى ذلك إلى دخول تنفيذ القانون في مرحلته الثانية والأخيرة بعد اغتيال بطرس باشا غالى .

* * *

الفترة الثانية : كما وضح من عرض الصراع حول تحقيق الحرية الصحفية الذى دار بين الحزب الوطنى من جانب وأعدائه من جانب آخر انه قد مر بمراحل ثلاثة ، المرحلة التى تلت صدور القانون وكان تطبيقه فيها في أضيق الحدود لم تزد عن الإنذار الذى وجه إلى اللواء ، حقاً عطلت خلالها جريدة مثل « القطر المصرى» إلا أننا يمكن أن نمر على هذا

---

(١) F.O. 407/175 No. 143 Gorst to Grey Dec. 16, 1910 Tel. No. 45.

(٢) F.O. 407/175 No. 151 Sir F. Bertie to Grey Dec. 24, 1910 Tel. No. 108.

(٣) F.O. 407/176 No. 1 Gorst to Grey Jan. 2, 1910 Tel. No. 1.

التعطيل دون أن نمنحه مكاناً كبيراً في هذا الصراع لسببين ، أولهما قلة أهمية هذه الجريدة الأسبوعية ، وثانيهما أن زعامة الحزب لم تعترف أبداً بهذه الجريدة كإحدى جرائده ، ثم المرحلة التى أعقبت اغتيال رئيس النظار ومما لاشك فيه أن هذه المرحلة كانت أعنف من المرحلة التى سبقتها فقد لجأت سلطات الاحتلال والحكومة إلى سياسة التعطيل بدلاً من سياسة الإنذار ، وقد ظهر هذا في تعطيل «العلم» لسان حال الحزب الجديد لمدة شهرين من ٢٠ مارس إلى ٢٠ مايو ١٩١٠ . ورغم أننا نعثر في هذه المرحلة على إنذار موجه إلى اللواء في ٢٣ أكتوبر ١٩١٠ إلا أن الوثائق البريطانية تؤكد أن النية كانت متجهة أولاً إلى تعطيل اللواء لفترة من الزمن(١) ثم مالبثت هذه النية أن تعدلت إلى قرار بالإنذار فقط لأنه كان « هناك بعض المنافسة بين جرائد الحزب الوطنى وبين اللواء وقد يؤدى تعطيل اللواء إلى انتشار توزيع جرائد هذا الحزب(٢) » .

أما المرحلة الثالثة فهى التى تلت توقف صدور « الدبيش اجبسيان » في أوائل يناير ١٩١١ والتى لم يعد ثمة معوق بعدها أمام سلطات الاحتلال عن كتم أنفاس حرية الصحافة الوطنية حتى النفس الأخير ، ولا ننسى في هذا المجال وفاة السير إلدن جورست في هذه الفترة وتولى اللورد كتشنر مهام منصبه منذ سبتمبر ١٩١١ بما عرف عنه من عنف ، هذا ولا يمكن أن نفصل بين العمل على كتم أنفاس الصحافة الوطنية وبين العمل على الإجهاز على الحزب الوطنى برمته .

وقد ارتبطت سياسة التحطيم النهائي للصحافة الوطنية بجانبين :

الأول : إفساد كافة محاولات رجال الحزب الوطنى لتعويض خسائر صحافة الحزب بإصدار صحف جديدة ، وكان بطل هذه المحاولات « سيد على » رئيس تحرير « مصر الفتاة » الذى استقال من منصبه في ٥ نوفمبر ١٩١٠ وتزعم محاولتين لإصدار جرائد جديدة ناطقة باسم الحزب .

المحاولة الأولى : عندما تقدم إلى قلم المطبوعات بوزارة الداخلية طالباً الترخيص له بإصدار جريدة باسم « الجهاد » ، ولكن ظل الطلب يتخبط

(١) F.O. 407/175 No. 125 Cheetham to Grey Oct. 21, 1910 Tel. No. 42.

(٢) F.O. 407/175 No. 126 Cheetham to Grey Oct. 24, 1910 Tel. No. 43.

من مكتب إلى آخر دون إستجابة ، وقد نصحه بعض موظفى الوزارة بتغيير اسم الجريدة المطلوب ترخيصها إلى إسم أقل وطنية فاستمع إلى النصح وغيره إلى « الصباح» ولكن دون جدوى . ولما زاد إلحاح الرجل على وزارة الداخلية قابله مستشارها في ٢٣ فبراير ١٩١١ وأبلغه « أنه قرر نهائياً عدم إعطاء أحد رخصة بإصدار جريدة ما »[١] (. ! !)

وقد هاجمت الصحف الوطنية هذا الأسلوب ، فمصر الفتاة رأت أن « الامتناع عن إجابة من يطلبون الترخيص بإصدار الجرائد يخفى أشباح الصحف من جهة واستمرار قانون المطبوعات فاتكاً بها يجندل الموجود منها يقضى عليها من جهة أخرى »[٢] ، والعلم رأت أن الوزارة قد وصلت بهذه السياسة « إلى ما فوق قانون المطبوعات وشدته فعولت على عدم الترخيص بإصدار الجرائد لمن يطلبون ذلك »[٣] .

ولكن لم تعر سلطات الإحتلال أى اهتمام لهذه الإنتقادات ومضت في طريقها .

المحاولة الثانية : لما فشل سيد على في الحصول على رخصة بإصدار جريدة بإسمه اتفق مع شاب إيطالى يدعى « لويجى بنياتين » على إصدار جريدة بإسم الأخير وهو يتصور أن الحكومة لن تجرؤ على التصدى لهذه الجريدة لتمتع صاحبها بحماية « الإمتيازات » .

وبالفعل صدرت في ٢٤ يونيه ١٩١١ جريدة « الإرشاد » ، وما كاد نبأ صدور الجريدة يصل إلى نظارة الداخلية حتى اعتبرتها غير قانونية لأن صدورها بلا رخصة اعتبر خرقاً لقانون المطبوعات .

وبناء على ذلك أصدرت الداخلية فوراً قراراً بمصادرة العدد الأول من جريدة الإرشاد وأمرت محافظة العاصمة بتنفيذ هذا .

---

(١) العلم فى ٢٤ فبراير ١٩١١

(٢) مصر الفتاة فى ٢٤ فبراير ١٩١١ ــ مقال بعنوان « الداخلية تمنع وقانون المطبوعات يقطع » .

(٣) العلم فى ٢٤ فبراير ١٩١١ ــ مقال بعنوان « فوق قانون المطبوعات » .

وقام رجال البوليس وصادروا الأعداد التى كانت لدى الباعة فضبطوا نحو ١٢٠٠ عدد منها .

ورغم أن الصحف الوطنية حرضت السنيور «لويجى بنياتين» على الإحتجاج على أعمال البوليس لقنصليته ولكن لم يكن لهذا الإحتجاج أى قيمة سياسية ، وكانت آخر محاولة لبعض رجال الحزب الوطنى في ميدان الإستعانة بالحماية الأجنبية في مواجهة قانون المطبوعات .

* * *

الإتجاه الثاني : يتمثل في العمل على إسكات الصحف الباقية للحزب الوطنى بعد أن تم محاصرتها . ويتضح أثر النجاح البريطاني في ميدان الدبلوماسية الخارجية ــ بعد إبعاد كاين عن مصر الفتاة ونفى ديروجا ودراجيلا وتوقف صدور الدبيش أجبسيان ــ ، يتضح أثر هذا النجاح في الفارق الهائل بين معاملة الصحافة الوطنية بعد احرازه ومعاملتها قبله .

لقد أخذت سلطات الإحتلال تتربص للجرائد الوطنية لتسجل عليها أى هفوة فيكون أقل جزاء الإغلاق ... ولا شىء غيره .

كانت أول ضحايا السياسة الجديدة « مصر الفتاة » التى طالما طمعت سلطات الإحتلال في العصف بها ، وقد جاءت الفرصة عندما نشرت هذه الجريدة في ٤ أكتوبر ١٩١١ أثناء الحرب الطرابلسية بين إيطاليا والدولة العثمانية مقالاً تحت عنوان « الحكومة المصرية تخدم إيطاليا أربع خدمات مستترة ــ الوزراة تريد الإجهاز على نفسها في نظر الشعب المصرى » اتهمت فيه الحكومة بمصانعة إيطاليا اضراراً بصوالح الدولة العلية[١] .

ولم يتردد كتشنر في الإتفاق مع رئيس النظار على إغلاق الصحيفة بمقتضى قانون المطبوعات[٢] حتى قبل أن يحصل على تخويل بهذا الإغلاق من وزارة الخارجية البريطانية وهو ما كان يفعله سلفه في أمور أقل أهمية من هذا الأمر .

---

(١) مصر الفتاة فى ٤ اكتوبر ١٩١١

(٢) F.O. 407/177 No. 225 Kitchener to Grey Oct. 6, 1911 Tel. No. 26.

وصدر على الفور قرار إغلاق «مصر الفتاة» حيث أن «المسائل التى هولت بها الجريدة المذكورة لم تصدر إلا عن افتراء ومن شأنها تكدير النظام العام»(١).

ولم تمض سوى شهور قليلة حتى سنحت الفرصة لاغتيال جريدة الحزب الوطنى في الإسكندرية ، ففى ٣ أبريل ١٩١٢ نشرت وادى النيل مقالاً بعوان « أحرب طاحنة أم حملة صغيرة » تعلق فيها على الحملة التى أرسلت إلى بلاد الأنواك بقيادة « الميجور لفسون » ، وكل ما طالبت به الجريدة في هذا المقال عرض مثل هذه المسائل الخطيرة على مجلس النظار والخديو قبل تنفيذها « لوضع الخطط التى تطمئن الأمة على أرواح بنيها(٢) » .

ورغم ذلك فقد رأت الحكومة المصرية أن مثل هذه الأقوال « ترمى إلى إضعاف نفوذ السلطة العسكرية والتحريض على خرق النظام العسكرى فضلاً عن أنها نسبت إلى الحكومة التقصير في واجباتها نحو الجيش الذى من شأنه الإخلال بالنظام العام » . ومن ثم تقرر إغلاق الجريدة إبتداء من ٦ أبريل(٣) .

* * *

وكانت الضحية التالية الجريدة التى أسسها « مصطفى كامل » ، فقد ظلت « اللواء » رغم تقلب الظروف عليها رمزاً عاطفياً للحزب الوطنى ومؤسسه .

وكان من المفهوم — أو المتصور — أنه بعد أن تخلى الحزب الوطنى عن اللواء أنه سينتهج نهجاً آخر ولكن هذا التصور لم يتحقق ولهذا فقد أنذر للمرة الثانية أواخر ١٩١٠ .

ولم يؤثر هذا الإنذار في اللواء ، وأصبح من الواضح ضرورة التخلص منه ، وحانت الفرصة عندما حدثت مخالفة بسيطة من الجريدة الوطنية لقانون المطبوعات حين تقرر تعيين « محمد المهدى » كرئيس تحرير جديد خلفاً « لعلى فهمى كامل » دون الحصول على إذن بذلك من قبل(٤) . وقد رأت الحكومة

(١) الوقائع المصرية فى ٥ اكتوبر ١٩١١ السنة ٨١ نمرة ١٣ غير اعتيادية
(٢) وادى النيل فى ٣ ابريل ١٩١٢
(٣) الوقائع المصرية فى ٧ أبريل ١٩١٢ عدد ٤١ غير اعتيادية السنة ٨٢
(٤) F.O. 407/179 No. 95 Gbeetham to Grey Sept. 9, 1912 Desp. No. 96.

أن ذلك يستوجب « تطبيق المادة ١٣ من قانون المطبوعات عليها سيما أن جماعة من رجالها قد صدرت عليهم أحكام قضائية عقاباً لهم على أمور موجبة للإضطراب ومخلة بالأمن العام » وخرجت من ذلك بقرار إقفال اللواء[١] .

ولم يبق بعد كل ذلك سوى « العلم » الجريدة الناطقة بلسان الحزب الوطنى .

وقد لاقت « العلم منذ صدورها الأمرين من عنف سلطات الإحتلال ، فلم يكن قد مضى أسبوعان على إبتداء صدورها في ٧ مارس ١٩١٠ حين عطلت لمدة شهرين لأنها « خرجت في كتاباتها عن حد الإعتدال واستعملت عبارات التشهير بالحكومة ومصالحها ، كما أنها طعنت في الدولة الإنجليزية ورجالها الموجودين بمصر ونسبت إليهم من المصائب والفظائع ما قد يبعث على تكدير صفاء العلاقات بين الأمتين[٢] » .

ومرة أخرى تعود السلطات البريطانية إلى سياسة تعطيل « العلم » عندما نشرت أواخر عام ١٩١١ خلال الحرب الطرابلسية أخباراً عن محاولة الحكومة المصرية احتلال السلوم من القوة التركية الموجودة فيها[٣] ويصدر قرار التعطيل لشهور ثلاثة هذه المرة[٤] .

وقد رأى كتشنر أن هذا العقاب خفيف للغاية إذا ما قورن بعنف المقالات التى تنشرها الجريدة[٥] والواقع أن هذا العقاب كان خفيفاً فعلاً إذا ما قورن بما أنزل بالصحف الوطنية الأخرى من إغلاق في هذه الفترة .

ولكن يجب أن نستدرك هنا فنذكر أن إغلاق لسان الحزب الوطنى لم يكن بالسهولة التى يتم بها إغلاق الصحف الوطنية الأخرى .

* * *

---

(١) الوقائع المصرية فى أول سبتمبر ١٩١٢

(٢) الوقائع المصرية فى ١٩ مارس ١٩١٠ ملحق نمرة ٣٢

(٣) العلم فى ١٨ ديسمبر ١٩١١

(٤) الوقائع المصرية فى ٢٠ ديسمبر ١٩١١

(٥) F.O. 407/178 No. 2 Kitchener to Grey Dec. 24, 1911 Desp. No. 138.

بعد عودة « العلم » إلى الصدور في مارس ١٩١١ حاولت أن تتخذ جانب الحيطة فكانت أغلب مقالاتها مليئة بالإيماءات دون التصريح ، بمعنى آخر كان ما يقرأ فيها بين السطور أهم كثيراً مما يقرأ في السطور نفسها .

وقد سعدت « العلم » بتكوين ما أسمى « باللجنة المصرية » في لندن برئاسة المستر بلنت والتى أصدرت جريدة باسم « إجبت Egypt » تهاجم فيها سياسة الإحتلال البريطاني في مصر . وكانت « العلم » تقوم بترجمة هذه المقالات وتعيد نشرها بالعربية على جمهور قراء المصريين .

وعندما أراد كتشنر معاقبة « العلم » على هذا التصرف لم يوافقه وزير الخارجية البريطانية على رأيه « فليس من العدالة في شيء تعطيل الصحف المحلية التى تنشر مقالات لها هذه الطبيعة والسماح بتداول الجرائد الأجنبية التى تسير على نفس النغمة[١] » .

وعلى ذلك فقد تقرر استعمال المادة ١٧ من قانون المطبوعات « بمنع دخول نشرة إجيبت التى تصدر بلوندره وتداولها وبيعها بالقطر المصرى »[٢].

في نفس الفترة أخذت السلطات تعمل على إرهاب زعماء الحزب فترسل وراء الشيخ جاويش رجال البوليس السرى يصاحبوه مصاحبة الظل فإذا سار ساروا وراءه وإذا ركب عربة امتطوا دراجات ليسابقوا تلك العربة وهكذا[٣] .

وتنتشر الأشاعات القوية عن نية نفى الشيخ جاويش من الديار المصرية ليطوح به في تونس أو غيرها[٤] ولا يجد عبد العزيز جاويش مفراً من الخروج من البلاد فيقصد الإستانة في مارس ١٩١٢ ، وكان هذا بالضبط ما أرادته السلطات البريطانية التى استطاعت — حتى بعد هجرة الرجل — أن تحرمه من ممارسة كفاحه من الخارج حيث استطاعت باتصالها بالحكومة

---

(١) F.O. 407/179 No. 165 Grey to Kitochener May 3, 1912 Desp. No. 61.

(٢) الوقائع المصرية فى أول مايو ١٩١٢ العدد ٥١

(٣) العلم فى ٢١ مايو ١٩١١

(٤) العلم فى ١٨ اغسطس ١٩١١

التركية أن تحرضها على منع معونتها المالية عن الشيخ التى كانت تمنحها له لإصدار جريدة « الهلال العثماني » التى كان يصدرها في استنبول[١] .

وتثنى السلطات البريطانية بزعيم الحزب نفسه « محمد بك فريد » فتستدعيه النيابة العمومية في ٢٥ مارس ١٩١٢ للتحقيق معه في شأن الخطبة التى ألقاها في الجمعية العمومية للحزب في ٢٢ من نفس الشهر[٢] .

وكان واضحاً تماماً أن السلطات قد انتوت الحجر على حرية الزعيم مما دعاه إلى مغادرة البلاد بدوره قبل أن يصدر الحكم عليه في أول مايو بالحبس سنة مع الشغل .

ولا تأتي نهاية العام حتى يكون أغلب زعماء الحزب الوطنى قد غادروا البلاد أو كفوا فعلاً عن نشاطهم .

ولم يبق بعد كل ذلك سوى إنهاء وجود لسان حال الحزب — أى جريدة العلم — ، وبالفعل وقبل أن يصل عام ١٩١٢ إلى نهايته صدر قرار إغلاق الجريدة في ٧ نوفمبر ١٩١٢ بحجة نشرها مقالة في اليوم السابق لمحمد فريد عن رأيه في الحرب البلقانية اتهم فيه بعض المسئولين في حكومة الإتحاد والترقي بالإهمال مما مهد السبيل لانتصار ولايات البلقان[٣] . وقد رأت الحكومة المصرية في هذه المقالة « إثارة لخواطر المسلمين وإيغار صدورهم نحو ولاة الأمور المذكورين »[٤] .

* * *

وهكذا لم ينته عام ١٩١٢ إلا وقد انتهت معه تماماً صحافة الحزب الوطنى وشرد زعماؤه خارج البلاد وانتهت مرحلة هامة من مراحل العمل الوطنى المصرى قوامها العمل السياسى الذى كان من أهم أسلحته الصحافة .

---

(١) F.O. 407/179 No. 73 Marling to Grey Sept. 3, 1912 Tel. No. 361.

(٢) العلم فى ٢٦ مارس ١٩١٢

(٣) العلم فى ٦ نوفمبر ١٩١٢

(٤) الوقائع المصرية فى ٧ نوفمبر ١٩١٢

ولكن هذا لا يعني – بالتأكيد – نهاية هذا العمل الوطنى فهذا العمل لم يتوقف للحظة بعد صدور القانون ، وإنما الذى يمكن أن يقال أن أنماط هذا العمل قد اختلفت بعد ظهور هذا القانون عنها قبله .

فالظاهرة الواضحة في أعوام ما بعد القانون هى ظاهرة الإغتيال السياسى التى لم يمارسها العمل الوطنى قبل ١٩٠٩ .

ولا جدال أن هذه الظاهرة السياسية وما صاحبها من تشكيل الجماعات السرية إنما هى نتاج طبيعى لسياسة الكبت وقمع الحريات التى صاحبت صدور القانون .

ويمكن أن نلحظ هذه الظاهرة من خلال الحوادث التى ارتكبت بعد عام ١٩٠٩ وحتى قيام الثورة المصرية ١٩١٩ . فهذه حادثة اغتيال « بطرس باشا غالى » رئيس مجلس النظار المصرى في فبراير ١٩١٠ – أى قبل انقضاء عام واحد على صدور القانون – ولا ينقضى سوى عامان بعد تلك الحادثة – ١٩١٢ – إلا وتكتشف محاولة لاغتيال الخديو عباس الثاني[١] . ثم تفشل محاولتان لاغتيال السلطان حسين كامل ١٩١٥[٢] ومحاولة ثالثة لاغتيال إبراهيم فتحى باشا ناظر الأوقاف في نفس العام[٣] .

وكانت كل تلك إيماءات للتغييرات في طبيعة العمل الوطنى المصرى بعد سياسة العنف البريطانية ، هذه السياسة التى ازدادت عنفاً خلال سنى الحرب والتى لم يكن من سبيل لمواجهتها في أعقاب هذه الحرب سوى اتباع أسلوب الثورة وهو ما تحقق خلال عام ١٩١٩ .

---

(١) اتهم فى هذه المحاولة كل من امام واكد ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام وحكم على كل منهم بالسجن ١٥ عاما .

(٢) قام بالمحاولة الأولى فى أبريل المدعو محمد خليل الذى نفذ فيه حكم الاعدام فى ٢٤ من نفس الشهر ودبر المحاولة الثانية محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين فى يوليه وتم تنفيذ حكم الأشغال الشاقة المؤبدة فيهما .

(٣) قام بهذه المحاولة فى سبتمبر صالح عبد اللطيف وصدر ضده حكم الاعدام فى نفس الشهر .

مصادر البحث

أولا ـ وثائق غير منشورة :

— Further Correspondence Respecting The Affairs of Egypt & Soudan

Part	Date
LXIII	1905
LXV	April — June 1906

— Public Record Office (London) — Foreign Office

No.	Date
407/174	1909
407/175	1910
407/176	Jan. — June, 1911
407/177	July — Dec. 1911
407/178	Jan. — June, 1912
407/179	July — Dec. 1912

ثانيا ـ وثائق منشورة :

— Annual Reports, 1906 — 1912

Report by His Agent and Consul General on the Finances, Administration & Condition of Egypt and The Soudan.

ـ محاضر جلسات الجمعية العمومية ١٩٠٩ ـ ١٩١١
ـ محاضر جلسات مجلس شورى القوانين ١٩٠٩ ـ ١٩١١
ـ مذكرات الخديوى عباس حلمى الثانى ـ جريدة المصرى ١٩٥١

ثالثا ـ كتب :

ـ أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ القسم الثانى القاهرة سنة ١٩٣٦

ـ عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد ـ رمز التضحية والاخلاص القاهرة ١٩٤١

رابعا ـ دوريات :

ـ الوقائع المصرية ١٨٨١ ، ١٩٠٩ ـ ١٩١٢
ـ اللواء ١٩٠٦ ـ ١٩١٢
ـ الدستور ١٩٠٩
ـ مصر الفتاة ١٩٠٩ ـ ١٩١١
ـ القطر المصرى ١٩٠٩
ـ وادى النيل ١٩٠٩ ـ ١٩١٢
ـ La Dépêche Egyptienne
وكان لها ملحق عربى باسم « البلاغ المصرى » .

ذكر ماوقع بين عسكر المحروسة القاهرة

(سنة ١١٢٣ هـ = ١٧١١م)

تأليف

الشيخ على بن محمد الشاذلى الفرا

تحقيق

الدكتور عبد القادر أحمد طليمات

مقدمة

قضى السلطان العثماني سليم الأول في وقعة مرج دابق سنة ١٥١٥ على حكم السلاطين المماليك في الشام بانتصاره على السلطان الغورى الذى مات في ميدان القتال ، كما قضى على حكمهم في مصر بانتصاره على طومانباى الذى تزعم حركة المقاومة المملوكية في القاهرة وقتله في سنة ١٥١٧ ، وبذلك استتب الأمر للسلطان سليم في الإقليمين معاً ، وأصبحت مصرمنذ ذاك ولاية عثمانية .

وأخذ السلطان سليم يعمل على التخلص من كبار الأمراء المماليك الذين اشتركوا مع طومانباى في حركة المقاومة ، فأخذ يتصيدهم حيثما ثقفهم ، حتى إذا اطمأن إلى أنه قضى على رؤسهم ولم يبق إلا ضعافهم ممن لا يخشى بأسه ، أعلن العفو العام عنهم ، فظهروا من مخابئهم وأعلنوا ولاءهم له .

ولما عزم السلطان سليم على العودة إلى بلاده ، وضع مقاليد أمور مصر في أيدى هؤلاء الأمراء حتى أنه جعل أحدهم نائباً له في مصر هو خاير بك مكافأة له لخيانته للسلطان الغورى ومعاونته له — للسلطان سليم — في فتح مصر ، فسمى المصريون خاير بك « خاين بك » رمزاً لخيانته . ووضع السلطان حامية عسكرية عثمانية تقيم في القاهرة لمعاونته . وظل حكم مصر في أيدى الأمراء المماليك البكوات ، حتى قضى عليهم محمد على فى شهر مارس سنة ١٨١١ ، ولم يتغير من الأمر شيء طوال مدة الحكم العثماني ، سوى أن النائب العثماني كان عثمانياً يأتي من الأستانة بعد وفاة خاير بك .

وكان الأمراء البكوات في بادىء الأمر ضعافاً لا حول لهم ولا قوة ، لكنهم ما لبثوا أن جمعوا القوة في أيديهم ، وظهر من بينهم أميران كبيران هما : قاسم بك الكبير ، وذو الفقار بك الدفتردار ، وجمع كل منهما حوله عصبية كبيرة ، وقد عرفت العصبيتان بالبيت القاسمى — نسبة إلى قاسم بك ، وبالبيت الفقارى — نسبة إلى ذى الفقار بك ، وبدلاً من أن يستغل البيتان قوتهما في التخلص من الحكم العثماني ، أخذا يتنافسان على الزعامة والسيادة

وكثيراً ما كانت المنافسة تتحول إلى قتال تشترك فيه الحامية العسكرية العثمانية منقسمة هى الأخرى على نفسها ، قسم يؤيد البيت القاسمى ، والقسم الآخر ينتصر للبيت الفقارى .

كذلك تفرعت عن هاتين العصبيتين ، عصبيات أخرى من أبنائها بعد أن مات رؤساؤها الكبار ، فكانت هذه العصبيات الصغيرة دائمة النزاع فيما بينها ، تحاول كل منها احتجان الزعامة لنفسها ، حتى أن عصبيات البيت الواحد انقسمت على نفسها ، وأخذت تحارب بعضها بعضاً .

أما الحامية العثمانية المرابطة في القاهرة ، فقد كانت تشملها الفوضى ، فقد كانت تتكون من عدة فرق مختلفة الجنسيات ، فكان التنافس على زعامة الفرق لا ينقطع ، كذلك كان التنافس في الفرقة الواحدة على زعامتها مستمراً ، وكثيراً ما أدى التنافس إلى قتال مرير .

أما النائب العثماني ، فقد كان في بداية الحكم العثماني قوياً وله سطوته ونفوذه ، ولكن قوته أخذت في الضعف بظهور قوة الأمراء وتدخل قواد الحامية ، وكثيراً ماعزل الأمراء وعزلت الحامية النواب العثمانيين واعتقلوهم ، فيضطر السلطان إلى إرسال نائب آخر يحل محل النائب المعزول ، دون أى اعتراض منه على عزل نائبه بغير إرادته أو مشورته .

وتحدثنا مصادر تاريخ مصر في العصر العثماني عن عشرات الفتن والحروب سواء تلك التى كانت تنشب بين الأمراء وبعضهم بعضاً ، أو تلك التى تشتعل بين فرق الحامية ، وعما كان يحدث لمصر — في عاصمتها القاهرة وأريافها — من التخريب والتدمير والسلب والنهب .

والمخطوط الذى نخرجه اليوم مطبوعاً ، يتحدث فيه صاحبه ، الشيخ على الشاذلى ، عن فتنة بشعة حدثت في سنة ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) تحولت إلى قتال دار رحاه في شوارع القاهرة وأزقتها وحاراتها وضواحيها ، وظل القتال دائراً سبعين يوماً كاملة .

وقد عاصر الشيخ على الشاذلى هذه الفتنة ومسته أضرارها وأذاها ، فسجل حوادثها تسجيل شاهد عيان ، وانفعل مع أحداثها الدامية ، فنفس عن

انفعالاته بالتعليق والدعاء . وقد أعطانا المؤلف من خلال وصفه لأحداث الفتنة صورة صادقة لما حدث ، تؤيده — فيما دون — مصادر أخرى معاصرة ومتأخرة .

والمخطوط الذى ننشره اليوم ، واحد من مخطوطات كثيرة ، دوّن أصحابها فيها فتناً وحروباً في أزمنة متفاوتة — كل في عصره — نرجو أن يسعفنا العمر في نشرها أو نشر بعضها .

وبعد ؛ فأجد لزاماً عليّ أن أقدم خالص الشكر لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، مدير جامعة عين شمس ، ورئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، أولاً : لتوجيهاته القيمة التى كان لها الفضل في إخراج المخطوط بصورته الحالية ، وثانياً : لإفساحه صدر المجلة لنشره فيها .

والله نسأل العون والتوفيق .

مصر الجديدة { ذو القعدة سنة ١٣٨٧ هـ
مارس سنة ١٩٦٨ م }

د . عبد القادر أحمد طليمات

دراسة على المؤلف والمخطوط

(أ) — المؤلف

الشيخ على الشاذلى الفرا

(توفى عام ١١٩٥ هـ = ١٧٨٠ م)

ذكر المؤلف اسمه في ختام مخطوطه بأنه على الشاذلى الفرا ، ولكن الجبرتي ذكره في ترجمته له في وفيات سنة ١١٩٥ هـ ، بأنه على بن محمد الحباك الشافعى الشاذلى[١] . ولعل لفظ « الحباك » الذى ذكره الجبرتي ، إشارة إلى صناعة والد المؤلف وهى صناعة حباك الخيوط . أما لفظ « الفرا » الذى ذكره المؤلف ، فلعله إشارة إلى تجارة أو صناعة تجهيز الفراء ، التى - ربما - كان يمتهنها المؤلف نفسه ، على عادة بعض العلماء المسلمين في جمعهم بين العلم والتجارة أو الحرف أو الصناعة .

* * *

وتاريخ مولد المؤلف مجهول ، ونحن نرجح أنه ولد في مطلع القرن الثاني عشر الهجرى (أواخر القرن السابع عشر الميلادى) ، وذلك لأن الفتنة التى دون أخبارها حدثت في سنة ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) وقد دونها بعد انتهائها مباشرة ، فنحن نقدر أنه تجاوز العشرين من عمره في تلك السنة ، أى أنه كان ناضج الذهن ، يستطيع أن يفهم ويستوعب ما يجرى حوله من أحداث .

أما وفاته ، فقد كانت في يوم الإثنين الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ١١٩٥ هـ[٢] (١٧٨٠ م) .

* * *

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، ٢ ص ٢٩ ، ٧١
(٢) الجبرتى : عجائب الآثار ، ج ٢ ص ٧١

وثقافة الشاذلى ثقافة دينية أدبية ، فقد تفقه على الشيخ عيسى بن أحمد البراوى المتوفي سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) . ولعل الشاذلى درس على الشيخ البراوى غير الفقه ، كالنحو والحديث ، فقد كان الشيخ البراوى ، فقيهاً نحوياً أصولياً محدثاً[١] .

وكان الشاذلى على درجة كبيرة من الثقافة العلمية والأدبية ، بحيث كان يجالس كبار علماء عصره ويناقشهم ويناظرهم ، أمثال الإمام القطب وجيه الدين أبي المراحم عبد الرحمن الحسينى العلوى العيدروسى ، المتوفي سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٨ م) . فقد كان وجيه الدين ذا مكانة علمية رفيعة ، بحيث كان علماء عصره يتهافتون على مجالسه ويأخذون عنه العلم . يقول الجبرتي عن وجيه الدين : إنه عندما دخل مصر سنة ١١٥٨ هـ (١٧٤٥ م) : « هرعت إليه أكابر مصر من العلماء والصلحاء وأرباب السجاجيد والأمراء ، وصارت له معهم المطارحات والمذاكرات » . ولما ترك وجيه الدين مصر سنة ١١٥٩ هـ ، ثم عاد إليها سنة ١١٧٤ (١٧٦٠ م) : « هرعت إليه الفضلاء للأخذ والتلقى ، وتلقى هو عن كل من الشيخ الملوى والجوهرى والحفنى وأخيه يوسف ، وهم تلقوا عنه تبركاً ، وصار أوحد وقته حالاً وقالاً مع تنويه الفضلاء به ، وخضعت له أكابر الأمراء على اختلاف طبقاتهم .... واجتمع بالسيد على الشاذلى،وكل منهما أخذ عن صاحبه»[٢] . فكان الشيخ على الشاذلى إذن ، يعد من كبار العلماء بحيث كان وجيه الدين — على جلالة قدره — يأخذ عنه العلم .

أما ثقافة الشيخ على الشاذلى الأدبية فيدل عليها أسلوبه في كتابه واستشهاده كثيراً بالشعر مما يدل على وفرة محصوله منه ، كذلك يذكر الجبرتي ، أنه كان « طارحاً للنكات » ، ومطارحة النكات لا يحسنها إلا الأديب غزير الإطلاع . وعلى هذا يمكن القول ، بأن الشاذلى كان يشترك في المساجلات الأدبية التى كانت تدور في الندوات بين أدباء عصره ، فكان يضفى على هذه الندوات جواً من المرح والبهجة ، خاصة وأنه كان معروفاً بحسن العشرة

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ٣١٢
(٢) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ٢ ص ٢٧ — ٣٥

ولطف المحاورة والتواضع . كذلك يمكن القول ، بأن الشاذلى كان يتمتع بمكانة عالية عند معاصريه من أهل العلم والأدب ، أكبر مما صورها الجبرتي في ترجمته القصيرة له[1] .

* * *

ولا نعرف عن حياة المؤلف العملية ، سوى أنه كان إماماً لإحدى الزوايا بقلعة الجبل .

* * *

وكان الشيخ على الشاذلى ، رجلاً متصوفاً على الطريقة الشاذلية . وقد أخذ الطريقة عن الشيخ محمد كشك وانتسب إليه . ولما توفي الشيخ محمد كشك ، تولى الشاذلى مشيخة الطريقة ، فسار في المشيخة سيرة حسنة أرضى فيها المريدين ، كذلك صار له مريدون وأتباع يختصون به ويلتفون حوله غير أتباع شيخه .

* * *

ولا نعلم أن للشيخ على الشاذلى مؤلفات غير هذا الكتاب الذى ننشره اليوم .

ويتناول الكتاب أخبار فتنة دموية دارت رحاها بين فرق الحامية العثمانية المرابطة في مصر ، استمرت سبعين يوماً من عام ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) عاصرها المؤلف ، وشاهد حوادثها بنفسه ، وتتبع تطوراتها منذ أن كانت في مبدإ أمرها خلافاً كلامياً حتى تطور الخلاف إلى حرب قاتلة .

* * *

(١) ترجم الجبرتى للشاذلى (ج ٢ ص ٧١ ، سنة ١١٩٥) فقال : « ومات الفاضل الصالح الشيخ على بن محمد الحباك الشافعى الشاذلى ، تفقه على الشيخ عيسى البراوى وبه تخرج . وأخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ محمد كشك واليه انتسب . ولما توفى جعل شيخا على المريدين وسار فيهم سيرا مليحا . وكان يصلى اماما بزاوية بقلعة الجبل . وكان شيخا حسن العشرة ، لطيف المحاورة ، طارحا للنكات ، متواضعا . وقد صار له مريدون وأتباع خاصة غير أتباع شيخه . توفى فى يوم الاثنين ثالث عشرين شعبان من السنة » .

ويؤكد معاصرة المؤلف لهذه الحرب ، وتدوينه أخبارها وقت حدوثها ، قوله بعد وصفه ضرب المتحاربين بعضهم بعضاً بالبنادق ، « وليس الخبر كالعيان » . وقوله بعد وصفه إحدى المعارك : « ... وكانت ليلة مشئومة على أهل مصر ، حتى ظننا أن الأرض تنخسف بنا ، فيا لها من ليلة ما أصعبها وأشدها » ، ومثل دعائه : « فالله يفرج عنا هذه المهالك » ، ثم قوله في نهاية المخطوط : « ثم جاءت لنا المكاتيب بالأخبار ، بتولية الوزير على الديار ، وهو الوزير ولى باشا ، أعطاه الله ماشا ... » .

* * *

أما نسبة المخطوط إلى الشيخ على الشاذلى ، يؤكده قوله في ختام المخطوط : « قال ذلك بلسانه الحقير في عيون القرا ، الفقير على الشاذلى الفرا ... » .

* * *

وسبب الفتنة كما يتضح لقارىء كتاب الشاذلى ، هو المنافسة على النفوذ والسلطان بين ضباط أوجاق (فرقة) الإنكشارية ، أحد أوجاقات الحامية العثمانية في مصر .

أما مثيرها ، فهو ضابط في هذا الأوجاق ، هو افرنج أحمد أوضاباشا فقد أراد هذا الضابط أن يسيطر على الأوجاق كله ، وأن يبسط نفوذه وسلطانه على أقرانه من ضباط الأوجاق ، فعارضه بعضهم وأبوا عليه ما أراد ، فدب النزاع بينهم ، ولكنه انتصر عليهم واستصدر مرسوماً من الوالى العثمانى بنفيهم من القاهرة . ثم عاد المنفيون بعد مدة وأرادوا الإلتحاق بأوجاقهم ولكن افرنج أحمد عارض في ذلك ، فلجأوا إلى أوجاق العزب ، (أوعزبان) — وهو منافس لأوجاق الإنكشارية — وطلبوا من ضباطه أن يكونوا الواسطة بينهم وبين خصمهم إفرنج أحمد في عودتهم إلى أوجاقهم ، فلبى ضباط الأوجاق طلبهم ، ولكنهم فشلوا في وساطتهم ، إذ أصر إفرنج أحمد على موقفه من خصومه ، الأمر الذى أغضب ضباط العزب فوقفوا ضده ، وانتصروا لغرمائه . فلما رأى الأمراء المسئولون ، أن الخلاف اتسع اتساعاً يخشى منه نشوب القتال بين الأوجاقين ، تدخلوا لفض النزاع بين إفرنج أحمد وخصومه

من ناحية ، ثم بين الأوجاقين من ناحية أخرى ، ولكن إصرار المتنازعين جميعاً كل على موقفه ، اضطر الأمراء إلى التدخل بصفة جدية ، فجرفهم تيار النزاع وأصبحوا أطرافاً فيه . وقد أدى تدخل أوجاق العزب والأمراء في النزاع إلى انقسام الأمراء وأوجاقات الحامية قسمين : قسم يؤيد إفرنج أحمد ، والقسم الآخر يؤيد خصومه ، ثم تحول النزاع الكلامى إلى حرب دموية استمرت سبعين يوماً .

وكانت الحرب عنيفة قاسية ، نتج عنها أهوال ذاق المصريون — وبخاصة سكان القاهرة — مرارتها ؛ فقد بدأت الحرب وسط أحياء القاهرة الآهلة بالسكان ، فهدمت بيوتهم ، واحترق متاعهم ، ونهبت أموالهم ، وسقط منهم قتلى وجرحى ، وأسقطت الحوامل حملها من الفزع والرعب ، من قصف المدافع ، ودوى القنابل ، وأزيز الرصاص ، ولهب الحريق ، فضلاً عن إغلاق الأسواق ، وتعطيل المتاجر ، وانقطاع جلب الماء من النيل للشرب ، فانقطعت عن الناس أرزاقهم ، وضاقت عليهم سبل معايشهم .

وقد وصف الشاذلى كل هذا بأسلوبه الممتع وصف شاهد عيان ، نقتطف هنا بعض ما ذكره ، فقال يصف ما حدث في حى القلعة وما يجاوره يوم أن بدأ القتال بين المتحاربين : « ... وكان يوماً لم تر أهل مصر مثله ، وحصل لهم من الدهوة العظمى ما يكل عنه الواصف ، وأسقطت الحبالى من ضرب ضرب المدافع ، وماتت الأطفال والرجال ، وهدمت البيوت من الجُلل ، وقفلت أهل مصر الأزقا والحوانيت والدروب ، وصار الناس متحيرين أين يذهبون » .

ويقول في مكان آخر : « ... ثم لما كان يوم السبت ، ابتدؤا بالضرب يوماً كاملاً ، فلا تسل عما فعلت المدافع ، فإنها زلزلت الأرض ، وأفزعت القلوب ، وأدهشت العقول ، وزعقت النساء والأطفال ، واستغاثت إلى ربها بالدعاء على من كان سبباً لهذه الفتنة ، حتى أن الطير في السماء تحير ، والكلاب والدواب وغيرهم أصيب بالرصاص ، فاستمروا على ذلك الحال أياماً ثلاثة » .

ويقول في مناسبة أخرى : « ... فلما رأت الينشرية ، العزبَ ظافرين عليهم ، حرقوا بيتاً بيتاً بينهم ، فطارت النار في السقف والدكاكين والبيوت في ذلك النهار ، ونهبت البيوت بقوصون ، وانحرقت النساء والأطفال والرجال والأمتعة والحوانيت وانهدمت ، وتهتكت الحرائر ، وانكشفت السرائر ، وأيست الناس من الحياة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله . وانحرق في ذلك اليوم بيت المرحوم محمد كتخدا بيرقدار والربع المجاور له وبيوت كثيرة ، وحوانيت شهيرة ، فاستمر الحرق ليلاً ونهاراً عشرة أيام ، لا يقدرون على إطفاء النار ، من كثرة الرصاص النازل على تلك الديار » . ومن أمثال هذا الوصف كثير مما دونه المؤلف بخطه .

ولم يبالغ الشيخ على الشاذلى أو يهول في وصفه لأحداث هذه الفتنة ، فإن ثمت معاصرين لها ، اتفقوا معه فيما كتبوا عنها ووصفوا من أحداثها .

فالشيخ حسن البدرى الحجازى الأصل المصرى الإقامة ، عاصر الفتنة وشاهد أحداثها ، وناله من أضرارها وأذاها ما نال غيره من سكان القاهرة فسجل انفعالاته شعراً ، فقد كان البدرى أديباً شاعراً ، ووصف ما عاناه الناس بسببها ، ونحن لا ندرى عما إذا كان قد جمع البدرى ما نظمه عن الفتنة في ديوان ، ولكننا وقفنا على بعض ما نظمه فيها مما أورده المؤرخ المصرى الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في كتابه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » .

ومما أورده الجبرتي من نظم البدرى قوله :

بلية عظيمة مصرا أتت ما وجدت قط وقد لا توجد
دامت عليها مدة مديدة في كل وقت هولها يجدد
أيوب والإفرنج والباشا كذا محمد الصعيدى بيك الأفسد
قد فعلوا مناكرا شنيعة بأهلها تفت منها الأكبد
ضرب مدافع ودور حرقت وسادة قد قتلت وأعبد
وفي الرعايا القتل والنهب فشا والجوع والظمأ وما لا يعهد
وجملة القول عن الذى جرى لا تسألن فشرحه لا ينفد[1]

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ١٠٧

وقوله :

قد نصبوا فوقنا المدافع ترمى بأعلى البروج جمراً
فأحرقونا وأحصرونا وأعطشونا بالمنع قسرا
عن نيلنا ثم قد شربنا ملحاً فزاد الكبود حراً(١)

قوله أيضاً :

من أعالى السور ناراً أرسلوا في البرايا كى يحشوا أى حش
واستمروا مدة طالت وقد عمنا خوف وجوع وعطش(٢)

وقوله أيضاً :

وأحاطوا بنا وقد منعونا استقاء من نيلنا أو نصوّب
فعطشنا وماء ملح شربنا ورمونا بكل ما كان يرعب
مدة مستطيلة ثم باءوا بعقاب لم يبق منهم معقب(٣)

وغير الشيخ حسن البدرى من المعاصرين للفتنة ، الحاج مصطفى بن الحاج ابراهيم ، تابع الأمير حسن أغا عزبان . وقد اشترك الأمير حسن وابنه في الفتنة إلى جانب خصوم إفرنج أحمد ، فسجل الحاج مصطفى أخبار الفتنة في كتابه « تاريخ وقائع مصر من سنة ١١٠٠ - ١١٥٢ هـ »(٤) . نقتطف منه ما يلى :

« وإذا بالمدافع من باب الانكشارية انطلقت على غفلة على باب العزب والمحجر بان في ساعتها الشجيع من الجبان »(٤) .

و « . . . نعماك بالصابونجى وكور عبد الله في أخذ المتريزات في باب زاوية الشيخ ابراهيم ، أخذ مدفع كبير ملآن رؤوس مسامير وجُدد كبار ويجانبه متريز بمدفع أقل منه ، سدوا الطريق الذى يؤدى إلى حارة الجامع المطل على المحجر . . . . وعزّلوا كامل سكان باب العزب ونزلوا تحت لم أصاب

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ١٠٨
(٢) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ١٠٩
(٣) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ٩٧
(٤) مخطوط بالخزانة التيمورية ، رقم : ١٤٠٢ تاريخ .
(٥) المخطوط : ص ١٢٤

مالهم شئ ، غير أن النساء من رمى المدافع على غفلة أرمت حملها وبعض صغار فرقعت مرارتهم ماتوا . . . »[١] .

ويقول عن إغلاق الطرق : « . . . . وأحرموا (منعوا) أحد يدخل من باب القرافة إلى تربة الرميلة ولم أحد ينزل من السبع حدرات إلى قره ميدان ، ولم أحد يقدر يمشى بين الشيخونتين ، ولم أحد يقدر يطلع من المظفر إلى بيوت آقبردى . . . »[٢] .

ويقول أيضاً : « . . . وعزلت سكان القلعة ومشيت الناس على بعضها وعزلوا سكان الرميلة كاملها ودخلوا المدينة . . »[٣] .

ويقول أيضاً : « . . . والذين ساكنين داخل الباب دابوا من عدم الماء والحنطة وماتت أولادهم ورمت نساؤهم حملها من رمى المدافع . . »[٤] .

ويقول أيضاً : « . . . وبدؤا (المتحاربون) ينقبون في بيوت من باب العزب إلى أن وصلوا قرب باب قره ميدان ومن جامع الماس إلى قصاد بيت البيرقدار وحرقوا الربع وباب البيرقدار والطاحون . . . »[٥] . إلى غير ذلك مما وصفه المؤلف من الأذى والضرر الذى حل بالناس ، مما يتفق وما جاء في كتاب الشيخ على الشاذلى .

* * *

والشيخ على الشاذلى وهو أحد أفراد الشعب ، نجده يتأذى من هذه الفتنة ، ويستفزه استهتار المتنازعين واستهانتهم بأرواح الناس وممتلكاتهم ، ويتألم لما حل بالبلاد — القاهرة وقرى مصر — من تخريب وتدمير ، وما أصاب الناس في القاهرة من أضرار ، من قتل ونهب وحرق ، ولاشك أنه قد ناله من أضرارها ما نال غيره من سكان القاهرة ، ولذلك نجده يسخط على القائمين بها وعلى من عاونهم عليها ، فيدعو على من أراد ضرر « مصر المحروسة ،

(١) المخطوط : ص ١٢٥ — ١٢٦
(٢) المخطوط : ص ١٢٥
(٣) المخطوط : ص ١٣٠
(٤) المخطوط : ص ١٣٠
(٥) المخطوط : ص ١٣٧

فاجعل الله أيامه منحوسة ، وأهلكه واقطع دابره ، وألحقه بسرعة ياربنا بالآخرة » .

ثم يهجو الفريقين المتحاربين ويعنف عليهم ، فيقول : « . . . وتنافست الفرقتان غاية التنافس ، ودخل بينهم الشيطان ، وغرتهم الدنيا ، وزينت لهم بأنهم مقيمون فيها ولا رحيل عنها ، ولقد نسوا قول الله تعالى « وما الْحَيَاةُ الدُّنْيا إلا مَتَاع الغُرُور» . وقوله : « . . ولم يحسبا عواقب الأمور ، وسلبهما الله العقل حتى أنفذ فيهما القضاء المبرم الذى لاراد له ولا فرارمنه » . ثم يتمثل بقول القائل :

إذا أراد الله أمراً بامرئ وكان ذا عقل وسمع وبصر
أصم أذنيه وأعمى عينه وسل منه عقله سل الشعر
حتى إذا أنفذ فيه حكمه رد إليه عقله ليعتبر
لا تقل فيما جرى كيف جرى كل شئ بقضاء وقدر

ومن ذلك أيضاً ، أنه لما وصل ابن حبيب مع عربانه إلى شبرا باستدعاء من أيوب بك ليشترك معه في قتال خصومه ، أفسد ابن حبيب وعربانه ونهبوا ما في طريقهم من القرى ، فيدعو المؤلف عليه وعلى عربانه ، فيقول : « . . . وخرجوا ينهبون المال والغلال ، وهم قاصدون الحرب والقتال ، إلى أن وصلوا إلى شبرا ، فالله يلحقهم بداره الأخرى . . » .

وهو في الوقت نفسه ، يدعو لمن يريد الخير للقاهرة ، فيقول : « واحفظ اللهم من حمى حماها ، ومن السوء والمكروه قد وقاها ، وسائر البلاد والقرى الإسلامية ، بجاه المصطفى خير البرية » .

* * *

وبالرغم من أن الفتنة قامت في أحد أوجاقات الحامية العثمانية وانحصرت بين الحامية والأمراء ، إلا أن المؤلف يعزو سببها أيضاً إلى فساد المجتمع في عصره ، هذا المجتمع الذى يتكون من الأمراء البكوات حكاماً وغير حكام ، ومن شيوخ الأزهر بصفتهم قادة روحيين ، ثم من سكان القاهرة بطبقاتهم الثلاث .

فالأمراء البكوات يسود بينهم الحسد والتنافس على النفوذ والسلطان حتى أفسدهم « التجبر والتكبر والبطر » مما دفعهم إلى محاربة بعضهم بعضا .

وأما شيوخ الأزهر وعلماؤه ، فكان بعضهم يجرى وراء المادة ، كما حدث في هذه الفتنة التى يعرضها المؤلف ، فقد أفتى بعض الشيوخ فتاوى متعارضة لكل من الفريقين المتخاصمين بجواز قتال خصمه ، مقابل مبالغ من المال دُفعت لهم من الفريقين . وبسبب هذه الفتاوى المتضاربة ، استبد كل فريق برأيه ورفض الصلح ، ثم أنشبوا القتال . ويعرّض المؤلف بشيوخ الأزهر حين يهاجم المتقاتلين وتصميمهم على القتال ، بقوله : « كل ذلك من عدم رئيس يرشدهم ، وعالم يزجرهم » . ويقول عن اختلاف العلماء بشأن نفى خصوم إفرنج أحمد ، عند بداية النزاع : « ثم إن بعض العلماء أفتى بأنهم ينفون من هذه البلاد ، وأن أمر وكيل السلطان مطاع لاخلاف فيه ولا نزاع ، وكل من عاند يجوز قتاله ومحاربته ، وبعضهم أفتى بأنه لا يجوز قتالهم ولا نفيهم ، فحصل الخلاف بين العلماء في الفتاوى بسبب اختلاف الأسئلة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

وأما الناس ، سكان القاهرة ، فإن المؤلف يحملهم مسئولية ما حدث بسبب فسادهم وبعدهم عن تعاليم الدين وارتكابهم المعاصى ، لذلك انتقم الله منهم بهذه الحرب ، يقول الشاذلى : « .. كان الناس في أمن وعزة وأمان ، فذل العزيز وخاف الشريف وظهر اللئيم وبان ، وكان الناس في نزهة وأفراح ، ولعب وحظ وانشراح ، وطاب لهم الوقت والزمان ، ومصرنا المحروسة تشبه الجنان ، من مآكل ومشارب ، وملابس ومراكب وزخاء قد عم البلاد ، ونزهة لسائر العباد ، فبطرنا وأخذنا في المعاصى ، ولم نتذكر يوم أخذ للنواصى ، وكل ذلك من أمور ارتكبناها ، وأمور ابتدعناها ، فجوزينا بذلك ، فالله يفرج عنا هذه المهالك .

* * *

وكتاب الشاذلى ، فضلاً عن وصفه الفتنة وما سببته من أضرار بالغة ، فإنه يبين أموراً هامة ، ويمد الباحث بمعلومات قيمة عن كثير من الأحوال التى كانت سائدة في مصر أثناء الحكم العثماني .

فالكتاب يبين أولاً : مدى فقدان التضامن بين أوجاقات الحامية العثمانية في مصر ، وكيف تسوقهم أتفه الخلافات التى تقع بينهم إلى حرب مسلحة ، بينما مهمتهم هى إثبات الأمن في البلاد .

ويبين الكتاب ثانياً : ضعف الوزير نائب السلطان العثماني في مصر ، عند نشوب خلاف بين الأمراء أو بين أوجاقات الحامية ، فقد كان يميل سريعاً إلى الجانب الذى يتوهم أنه الأقوى فيعضده ويسانده ، دون أن يحاول محاولة جدية في الوقوف إلى جانب المصلحة العامة ، وما ذلك إلا لأنه يعلم أنه أضعف من أن يملى إرادته على أحد ، وما ذلك أيضاً ، إلا لأن سلطته على الحامية معدومة ، وأن نفوذه على الأمراء حكاماً وغير حكام مفقود ، بل كثيراً ما كان الأمراء يفرضون يفرضون إرادتهم عليه ، ويعزلونه ويعتقلونه دون أخذ رأى السلطان العثماني ، فلا يسع السلطان إلا الامتثال لإرادتهم ، والموافقة على عملهم . وَعَزْل خليل باشا ـ الذى كان نائباً للسلطان العثماني أثناء الفتنة التى نحن بصددها ـ خير شاهد على ذلك .

ويبين الكتاب ثالثاً : موقف بعض العلماء وشيوخ الأزهر من الأحداث الهامة التى كانت تجرى في مصر ، وكيف أنهم لا يتفقون على رأى واحد في الأحداث الخطيرة التى تمس سلامة البلاد وأرزاق الناس وأرواحهم ، وقد بين لنا مؤلف الكتاب الشيخ الشاذلى ، كيف أن العلماء اختلفوا في نفى خصوم إفرنج أحمد ، ثم كيف أن بعضهم باعوا الفتاوى للفريقين المتخاصمين بجواز قتال كل منهما للآخر ، الأمر الذى أدى إلى تعصب كل فريق لرأيه ، ثم أدى بالتالى إلى اشتداد الفتنة وتحويلها إلى قتال مرير . وليس من الغريب بعد ذلك ، أن يفشل العلماء المخلصون الذين حاولوا إصلاح ذات البين بين المتخاصمين في مهمتهم ، بعد أن أصبح في يد كل فريق وثيقة شرعية تؤيد حجته ، وتجيز له قتال خصومه ، وليس من الغريب كذلك ، أن يكون نصيب العلماء الذين أفتوا لإفرنج أحمد ، النفى بعد هزيمته .

ويبين الكتاب رابعاً : كيف كان الأمراء ينعمون بالعيش الرغيد ويقيمون في القصور الفاخرة على حساب خيرات البلاد وأهلها ، حيث يصف الشيخ الشاذلى حياة الأمراء في مصر في معرض كلامه عن الفتنة ، فيقول : « ... ولقد

كان هؤلاء الأمراء من العز في غاية ، ومن التنعم والتنزه والتفكه في نهاية ، والتلذذ بأنواع المآكل الفاخرة ، والملابس الباهرة ، والخيول المسومة ، والجوارى المنعمة ، والمياه الجارية ، والجناين والبساتين الحاوية ، لسائر الأزهار ، والفواكه والأثمار ، وكثرة الخدم والحشم ، فلم يراعوا هذه النعم » . ثم يصف قصر الأمير أيوب بك ، فيقول : « ... وبيت الأمير أيوب ، قد خلت منه العيوب ، قد حوى كل المحاسن ، وفاق على كل الأماكن ، بالجنينة الحاوية لسائر الأشجار ، وكل الفواكه والمشموم والأزهار ، وخلفها بركة من ماء النيل ، على حافاتها الأشجار والنخيل ، وفي وسطها قصر متين ، يشرح القلب الحزين ، يسمع منه أصوات الطيور ، من بلبل وشحرور ، وقمرى وكيروان ، يسبح الرحيم الرحمن ، لهم هدير وغدير ، والرياح لها صفير ، قد حوى كل الفنون ، وهو نزهة للعيون » .

ويبين الكتاب خامساً : موقف سكان القاهرة من الفتنة ، فقد انقسموا بدورهم قسمين ، كل قسم يؤيد فريقاً من المتنازعين وإن كانوا لم يشتركوا في القتال معهم ، ولكنهم بدؤا ينزعجون حين لحقت بهم أضرارها ، فأخذوا يدعون الله أن يرفع عنهم هذه الشدة والبلية ، ولما طال القتال ، وازداد بهم الضيق ، أخذوا يعبرون عن سخطهم بالشكوى جهاراً حتى بلغت مسامع ضباط أوجاق العزب ، فخافوا أن يتحول السخط إلى ثورة : « ... وأما ما كان من أمراء العزب ، فإنهم ضاقت نفوسهم ، وتعبت قلوبهم ، وقالوا هذا الأمر قد فزّع الناس ، وصار جميع الناس في وسواس ، ونخاف من تطرقه من حارة إلى حارة ، فتصير الخلائق في دهشة وغارة ، ويتولد من هذا ضرر كبير ... » ، ولذلك يعمل أوجاق العزب على إنهاء القتال في أسرع وقت ، قبل أن يتحول سخط الناس إلى ثورة عارمة تطيح بهم جميعاً .

يبين الكتاب سادساً : دور القبائل البدوية من عربان ومغاربة المقيمة في الوجهين البحرى والقبلي في هذه الفتنة . فقد كان معظم أفراد هذه القبائل تعيش على السلب والنهب والإغارة على القرى الآمنة ، فيستولون على الأموال والغلال والمواشى . وقد استعان كل من الفريقين المتنازعين بهذه القبائل في القتال ، فخرج أبناؤها يزحفون إلى القاهرة ، ويغيرون في طريقهم على

ما يقابلهم من بلاد وقرى ، فينهبون سكانها الوادعين ويسرقونهم ويتلفون مزروعاتهم .

* * *

وقد وقف المؤلف موقف الحياد من الخصوم ، فلم يكن هواه مع أى من الفريقين ، وإنما كان ناقماً عليهم جميعاً ، ولكنه كان معجباً بالفروسية والشجاعة والجرأة ، أينما كانت هذه الصفات من الخصمين ، مثال ذلك وصفه يوسف بك الجزار — أحد خصوم إفرنج أحمد — بأنه « فارس المنايا والموت الأحمر ، بطل من الأبطال لا يخطر الموت له ببال » . ثم يصف محمد أغا متفرقة من رجال إفرنج أحمد ، فيقول عنه : « لله دره من فارس ، بطل من الأبطال ليس له نظير في رمى الجريد والنشاب ، رمى بقوسه نبلاً ، فوضعوا محل الوقوع علامة ، وصار الرماة المشهورة ترمى ، فلم يصل نبلهم تلك العلامة » .

غير أنه بعد أن ينتصر خصوم أيوب بك وإفرنج أحمد ، وينتهى القتال ويستتب الأمن في القاهرة ، تطمئن نفس الشاذلى ويزول قلقه ، فيمدح المنتصرين ويشيد بقوتهم في حرارة وحماس ، فيقول : « فلله درهم من فرسان ، وغلمان وشجعان ، لا يخافون من الحرب ، والقتل والضرب ، شبهتهم بالأسود الكاسرة ، وهم كالملوك الأكاسرة ... ونسأل الله حفظ عسكرنا علينا ، ودوامهم لدينا » .

ولكنه في الوقت نفسه ينعى عليهم نفيهم للعلماء الذين أفتوا لخصومهم أيوب بك وإفرنج أحمد ومن لاذ بهم بجواز قتالهم من القاهرة عقوبة لهم ، ويعتبر نفيهم « من أعظم المصايب » ثم يدعو على من نفاهم ، ويسأل الله أن يرد العلماء من منفاهم .

* * *

ولغة المؤلف في كتابه عربية فصحى في مجموعها ، ولكن في غير تعقيد ، وأخطاؤه الإملائية واللغوية قليلة ، وقد عملنا على تصويبها .

أما أسلوبه فإنه ممتع حقاً وإن فشا فيه السجع على عادة كتاب عصره ، وبخاصة حين يصور المآسى التى حلت بالناس أثناء القتال ، وحين يصف ما كان يتمتع الأمراء البكوات به من حياة كلها ترف وبذخ . وسجع المؤلف على كل حال سجع محبب ، ليس فيه تكلف أو تصنع ، فيما عدا حالات قليلة ، وذلك عندما لا تسعفه الألفاظ بما يريد . من ذلك قوله : « ... فركبت العربان على العربان ، ونزلوا في حومة الميدان ، وكذلك العسكر على العسكر ، ومن صلى على سيدنا محمد يربح ولا يخسر » . ومثل قوله أيضاً : « ... وضربوا المدافع فأدوت الأرض ، فخرجت الجلل من أفواهها بالعرض » .

ويستشهد المؤلف بالشعر كثيراً ، مما يدل على وفرة محصوله منه ، كذلك يضعه في مناسبته من الحوادث مما يدل على فهم وتذوق ومعرفة ، وبحكم ثقافته الدينية فإنه يستشهد بالقرآن الكريم وبالحديث الشريف .

(ب) — المخطوط

وقد اعتمدنا للنشر ، المخطوط الوحيد الموجود بالخزانة التيمورية برقم ٣٦٧ تاريخ . والراجح أنه بخط المؤلف ، لأنه ليس في المخطوط ما يشير إلى أنه نسخة من أصل المؤلف أو من نسخة أخرى ، ثم إن المخطوط ينتهى بهذه العبارة : « قال ذلك بلسانه الحقير في عيون القرا ، الفقير على الشاذلى الفرا » .

* * *

ويحمل المخطوط في فهرس الخزانة التيمورية عنوان « نبذة في ذكر واقعة بين أمراء مصر سنة ١١٢٣ هـ » . أما العنوان في المخطوط نفسه فهو « رسالة في واقعة وقعت بين أمراء الجراكسة بمصر سنة ١١٢٣ تسبب فيها إفرنج أحمد أوده باشا مستحفظان للشيخ على الشاذلى وقد ذكر إسمه في آخرها » . وهذا العنوان بخط يخالف خط المخطوط ، ثم في صفحة العنوان ، إشارة بالقلم الرصاص إلى الحزم الموجود بعد الصفحة ٧٤ من المخطوط ، ولعل الذى وضع هذا العنوان وغيره من البيانات هو أحمد تيمور باشا الذى كان يملك المخطوط . واختلاف العنوان في فهرس الخزانة التيمورية وفي

المخطوط يدل على أن أيهما ليس هو العنوان الأصلى الذى وضعه المؤلف ، ولذلك أرجح أن العنوان الأصلى ، هو « ذكر ما وقع بين عسكر المحروسة القاهرة » ، فقد ختم المؤلف مخطوطه بقوله : « وليكن هذا آخر ما أردنا ، وإتمام ما قصدنا ، من ذكر ما وقع بين عسكر المحروسة القاهرة » ، ولذلك اخترنا للمخطوط هذا العنوان .

* * *

ويقع المخطوط في اثنتين وتسعين صفحة ، وتحتوى كل صفحة على ١٧ سطراً ، وكل سطر يحتوى على ما بين ٧ و ٨ كلمات .

والواقع أن المخطوط يقع في الأصل في أكثر من هذه الصفحات ، ولكن النقص في أوله ووسطه جعله في عدد هاته الصفحات .

والمخطوط غير مرقوم في الأصل ، والترقيم الموجود فيه ، ترقيم مدخول عليه ، واليد التى رقمته اعتبرت أولى صفحاته ما هو موجود بالفعل ، ثم تجاوزت عن النقص الموجود في وسطه ، فسلسلت أرقام الصفحات حتى بلغت اثنتين وتسعين صفحة .

والنقص الذى يقع في أول المخطوط لا يعرف مقداره ، ولعله لا يزيد عن الورقة التى تحمل صفحة العنوان والورقة الأولى التى تحمل افتتاحية الكتاب ومدخل الموضوع ، فإن الصفحة الأولى من المخطوط ، توحى بأن المؤلف لا يزال في أول الحديث عن الفتنة . أما النقص الآخر ، فإنه يقع بعد صفحة (٧٤) من المخطوط ، إذ المفروض أن تبدأ الصفحة (٧٥) باللفظ « ضاقت » وهو اللفظ المثبوت في ذيل صفحة (٧٤) ، ولعل هذا اللفظ هو الذى يبدأ به البيت المشهور :

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظن أنها لاتفرج

ولكن الصفحة (٧٥) تبدأ بكلام لا علاقة له بالصفحة السابقة لها .

وإذا كنا لا نعرف مضمون الورقة أو الورقات الأولى الناقصة من المخطوط ، فإنا نستطيع أن نحزر مضمون الورقة أو الورقات الناقصة بعد صفحة (٧٤) ، وذلك بالرجوع إلى مصدرين تكلما عن الفتنة ، وهما

مخطوط ، « تاريخ ما وقع بمصر من سنة ١١٠٠ — ١١٥٢ هـ » للحاج مصطفى ابن الحاج إبراهيم ، وكتاب « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » للشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، وهى المعلومات الخاصة باستسلام الوالى العثماني بعد هزيمة الفريق الذى كان يؤيده ، وقد أشرنا إلى هذه المعلومات في مكانها ، في حاشية الكتاب .

* * *

والمخطوط مكتوب بالخط النسخ العادى الواضح ، وهو سهل القراءة ، ما عدا بعض ألفاظ تعذر قراءتها بسبب طمسها ، وقد اجتهدنا في وضع ألفاظ بدلا منها تناسب معناها في العبارة التى جاءت فيها ، ووضعنا هذه الألفاظ بين الحاصرتين [ ] ، وأشرنا إلى ذلك في الحاشية .

* * *

وفي المخطوط بعض الأخطاء اللغوية والإملائية ولكنها قليلة ، ولم نجد صعوبة في تصويبها لأن المؤلف يسر لنا الأمر بوضوح خطه وسلاسة أسلوبه ، غير أن هناك بعض ألفاظ غريبة في تركيبها الإملائي ، مثل : « الماتنة » في عبارته « الأماكن الماتنة البناء » ويقصد المتينة البناء ، و « كيروان » للطائر المعروف بـ « الكروان » ، فأبقينا على مثل هذه الألفاظ كما هى ، ما دامت مفهومة من سياق العبارة .

* * *

وورد في المخطوط بعض المصطلحات العسكرية والإدارية التى كانت متداولة في عصر المؤلف ، ولكنها غير معروفة اليوم ، فشرحنا هذه المصطلحات في هوامش الكتاب .

* * *

كذلك ورد في المخطوط أسماء شخصيات هامة ، كان لها دوراً هاماً وخطيراً في الفتنة ، فعرّفت بهذه الشخصيات في هوامش الكتاب ، وذلك لكى تكون لدى القارىء فكرة عن مكانة كل شخصية هامة اشتركت فيها .

* * *

وقد اقتضى الأمر أحياناً إلى أن أضيف إلى عبارة المؤلف كلمة أو حرفاً لكى تستقيم العبارة ، وقد وضعت الإضافة بين الحاصرتين [ ] .

* * *

وقد قابلت أخبار المخطوط على كل من « تاريخ وقائع مصر من سنة ١١٠٠ — ١١٥٢ هـ »[١] و « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ، وهما أهم المؤلفات التى تعرضت للفتنة .

فأما « تاريخ وقائع مصر » فهو مخطوط كتبه الحاج مصطفى بن الحاج إبراهيم تابع الأمير حسن أغا عزبان . والسنة التى ولد فيها المؤلف مجهولة ، غير أنه كان معاصراً للفتنة ، وذلك لذكره اشتراك سيده الأمير حسن أغا وابن سيده فيها . وقد كتب المؤلف كتابه باللغة العامية البحتة ، وذلك لجهله باللغة العربية الفصحى ، وأسلوبه معقد صعب الفهم لعاميته المشوبة بالتعبيرات التركية والجركسية .

غير أن أهمية المخطوط ترجع إلى أن المؤلف عاصر الحوادث التى ذكرها في كتابه ، وهى حوادث نصف قرن . وترجع أيضاً إلى أنه يتفق وما ذكره الشاذلى عن حوادث الفتنة ، وما سببته من الأضرار التى لحقت بالناس من هدم البيوت وحرقها ونهبها ، وإن كان كل من المؤلفين اختار المعلومات التى رآها — بحسب وجهة نظره — هامة .

وأما « عجائب الآثار » فهو للمؤرخ المصرى الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، والجبرتي لم يعاصر الفتنة فقد ولد بعدها ، أى في سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣م) ، وقد تضمن كتابه أخبار مصر وحوادثها من سنة ١١٠٠ — ١٢٣٦ هـ (١٦٨٨ — ١٨٢٠ م) .

وقد استمد الجبرتي مادته عن الفتنة من كتاب « تاريخ وقائع مصر » ومن كتاب الشاذلى وإن كان لم يصرح هو بذلك ، ولكن تأكد لنا هذا من مقابلة أخباره على أخبار الكتابين ، بالإضافة إلى أنه أشار في مقدمة كتابه إلى إطلاعه على « بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ركيكة التركيب

---

(١) توافق سنة ١٦٨٨ — ١٧٣٥ م .

مختلة التهذيب والترتيب ، وقد اعتراها النقص في مواضع خلال بعض الوقائع» وهو لا شك يعنى مخطوط « تاريخ وقائع مصر » . كذلك أشار صراحة بأنه اطلع على مخطوط الشاذلى ، حيث يقول في ختام أخباره عن الفتنة : « ورأيت مؤلفاً للشيخ على الشاذلى في خصوص هذه الواقعة وما حصل فيها مفصلاً »(١) . وقد أتيح للجبرتي الاطلاع على مصادر أخرى تعرضت للفتنة لم نعثر عليها ، ويتضح ذلك من ذكره معلومات لا نجدها في كل من كتاب الشاذلى وكتاب « تاريخ وقائع مصر » ، وإن كانت هذه المعلومات ليست بذات أهمية كبيرة . غير أن أهم ما في الجبرتي عن الفتنة ، هو تحديد التواريخ اليومية لبعض أحداثها ، تمشياً مع خطته العامة في تأليف كتابه . وعلى ذلك ، فهذه المصادر الثلاثة : مخطوط الشاذلى ، ومخطوط الحاج مصطفى وكتاب الجبرتي ، يكملون بعضهم بعضاً لأخبار هذه الفتنة .

وهناك مؤلفات أخرى ذكرت أخبار الفتنة ، ولكن أصحابها لم يعاصروها فجاءت معلوماتهم عنها ضئيلة ومختصرة ، ومنها ما يخالف ما ذكره المؤلفون المعاصرون ، ومن هذه المؤلفات :

١ — تاريخ حوادث وقعت بمصر من سنة ١١٢٠ إلى دخول الفرنسيس : تأليف الشيخ إسماعيل الخشاب المتوفي سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٤ م)(٢) . وهو تاريخ مختصر عن مصر ، يبدأ من سنة ١١٢٠ هـ وينتهى بالحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ (١٧٠٨ — ١٧٩٨) . أى أنه لم يتكلم عن أخبار الحملة ؛ وهو عديم الأهمية بالنسبة لموضوع مخطوطنا ، فإن المؤلف لم يعاصر الفتنة ، ثم هو يتحدث عنها باختصار كبير ، فضلاً عن أنه أخطأ في ذكر السنة التى حدثت فيها الفتنة ، فقال أنها سنة ١١٢٠ هـ ، هذا إلى جهله بحقيقة ما أحدثته الفتنة من تخريب وتقتيل في أحياء القاهرة قبل أن ينتقل القتال إلى ظاهر المدينة ، إذ قال ، إن المتقاتلين كانوا « يخرجون في كل يوم إلى خارج القاهرة قريباً من المكان المعروف بقبة العزب ، فيتحاربون إلى أن تدنو الشمس من الغروب

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ١٠٧

(٢) مخطوط بالخزانة التيمورية ، رقم : ٢١٠٧ تاريخ .

ثم يرجعون إلى منازلهم ، وذلك بوفور شفقتهم على الرعية ، والبلد في أثناء هذا مفتحة عامرة أسواقها »(١) .

٢ ــ تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين : تأليف الشيخ عبد الله الشرقاوى ، المتوفي سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) . وقد ذكر الشيخ الشرقاوى الفتنة عند حديثه عن عزل الوالى العثماني في مصر ، ابراهيم باشا القبودان سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) فقال : « وحضر بعده لوزارة مصر الوزير خليل باشا ، ووقع في زمنه فتنة عظيمة سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف بين العسكر ، وقفلت حارات مصر وأسواقها اثنين وسبعين يوماً ، والمدافع تضرب ليلاً ونهاراً ، وتعطلت سائر الأسباب ، وآل الأمر إلى قتل أمراء لايحصون ، منهم أحمد باشا أوطه باش مستحفظان الشهير بافرنج وبه اشتهرت تلك الوقعة ، وهرب من مصر أمراء لايحصون ، منهم رئيس القوم أيوب بك أمير الحاج الشريف ، ونهبت أموال كثيرة ، وسبيت ذرارى كثيرة ، وعزل خليل باشا صاحب الفتنة »(٢) .

---

(١) ص ٢ ــ ١ .

(٢) انظر كتاب « فتوح الشام » للواقدى ، الجزء الأول ، هامش ص ١٧٩

المخطــوط

١ قرا[١] إسماعيل كتخدا[٢] ، مصطفى كتخدا الشريف[٣] ، أحمد كتخدا برمق سز[٤] ، كور عثمان كتخدا[٥] ، أويس كتخدا ، ناصف كتخدا[٦] ، سركس إسماعيل كتخدا ، عمر كتخدا[٧] ، على كتخدا[٨] ، فهؤلاء الأمراء — لهم الحل والعقد في مصر وأقطارها ، وزاد على هؤلاء جميعاً بلك الينشرية[٩] بالكلمة النافذة وجلب الأموال والحبوب من سائر القرى

---

(١) من هذه الصفحة يبدأ المخطوط . ونستطيع أن نستنتج أن الجزء المفقود من أوله ، انه حديث المؤلف عن أمراء مصر ورؤساء أوجاق الانكشارية وزعيمهم افرنج أحمد أوضا باشا وما حدث بينهم من نزاع أدى الى نفى القائد المذكور .

وقد ذكر الجبرتى أخبار قرا اسماعيل كتخدا على السنين ، فى كتابه عجائب الآثار فى التراجم والأخبار : جـ ١ ص ٤١ وما بعدها .

(٢) كتخدا : لفظ فارسى صحة كتابته « كدخدا » ، وله أكثر من معنى ، مثل : ملك ، رئيس ، عمدة ، حاكم (المعجم فى اللغة الفارسية) . وقد استعمل اللفظ فى العصر العثماني ، بمعنى : وكيل أو نائب ؛ ففي الجبرتى (جـ ١ ص ١١١) أن قانصوه بك كان تابعا لقيطاس بك الكبير الدفتردار ، فرباه سيده وجعله كتخداه .

(٣) لم يترجمه الجبرتى بعد وفاته ، وانما ذكر أخباره على السنين ، فى جـ ١ ص ١٠٦ وما بعدها .

(٤) سوف يأتى الاسم فى النص بعد ذلك : برمق سيز .

(٥) لم يترجمه الجبرتى بعد وفاته ، وانما ذكر أخباره على السنين ، فى جـ ١ ص ٥٣ وما بعدها .

(٦) قتل ناصف كتخدا فى سنة ١١٢٣ هـ بعد اخماد الفتنة ، وذكر الجبرتى سبب مقتله مطولا فى جـ ١ ص ١١٣

(٧) لم يترجمه الجبرتى ، وانما ذكر أخباره على السنين إبتداء من ص ٤١ جـ ١

(٨) ذكره الجبرتى باسم على كتخدا المعروف بالداودية مستحفظان وأنه كان من أعيان الانكشارية وأصحاب الكلمة ، وكان من الأعيان المعدودين فى مصر . توفى سنة ١١٣٣ هـ (جـ ١ ص ١١٤) .

(٩) الينشرية : هم جند الأوجاق (الفرقة) الذى حرف اسمه فى اللغة العربية باسم الانكشارية ، وهو أهم أوجاقات الحامية العثمانية فى مصر . للاستزادة عن هذا الأوجاق ، انظر : تاريخ جودت ، ص ٤٠ ، ١٠٧ ، ١٢٠ ؛ شفيق غربال : مصر عند مفترق الطرق ، ص ٢١ حاشية ٢

والبلاد ، لكثرة أوضاباشاتهم[١] وأنفارهم ، فحسدوا بعضهم بعضاً ، ودخل بينهم اللعين أبومرة[٢] إلى أن أوقعهم فيما سيذكر[٣]. وكان الباش[٤] على أوضاباشاتهم ، إفرنج أحمد أوضاباشا[٥] ، فحاز المال والرجال ، وتصرف غاية التصرف ، فوقع الخلاف بينهم فعزلوه ونفوه إلى بلاده[٦] ، واتفقوا على تولية عبد الله أوضاباشا[٧] ، فتولى أياماً ، وطاب له الوقت وصفا .

ثم إن أحمد أوضاباشا استوفي ما قدر الله عليه من الأيام نفياً ، ورجع مستخفياً إلى مصر ليلاً[٨] // أو فاشتاع الخبر بقدومه ، فاتفق رأيهم على توليته ٢

(١) أوضاباشا : لفظ تركى صحة كتابته : أوطه باشى ، وهو رتبة عسكرية من رتب ضباط أوجاق الانكشارية . (شفيق غربال : مصر عند مفترق الطرق ، ص ٢١ حاشية ٢) .

(٢) ابو مرة : كنية ابليس .

(٣) فى « تاريخ وقائع مصر » ص ٧٣ — ٧٦ ، أن الخلاف بين افرنج احمد والثمانية بدأ فى شهر ربيع الثانى سنة ١١١٨ هـ (١٧٠٦ م) .

(٤) الباش : لفظ تركى معناه ، الرئيس . (شفيق غربال ، ص ١٨ حاشية ١) .

(٥) ذكر الجبرتى (ج ١ ص ٩١ ، ١٠٦) أن ابتداء ظهور افرنج أحمد كان بعد موت مصطفى القازدغلى كتخدا مستحفظان سنة ١١١٥هـ (١٧٠٣م) فكان هو ومراد كتخدا وحسن كتخدا ذوى السلطان والنفوذ ، فلما مات مراد كتخدا سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م) زاد ظهور افرنج احمد وأصبح أودهباشه مستحفظان ، فنفذت كلمته على جميع أقرانه ، وكان جبارا عنيدا ، مما أدى الى تألب بعضهم عليه ، فكانت الفتنة التى يرويها الشاذلى .

(٦) فى « تاريخ وقائع مصر » ص ٧٦ ، ٧٧ ، أن النفى كان فى شهر ربيع الثانى سنة ١١١٨ هـ . ويصف المؤلف (ص ٩١ وما بعدها) كيفية القبض على افرنج أحمد ونفيه فيقول : ان خصومه لما قبضوا عليه «ضربوه فوق قاووقه (لباس للرأس) باللكامية وجروه الى القلة » ثم استصدروا فرمانا من خليل باشا الوالى العثمانى بنفيه هو وصديقه بشلى حسين الى « الطينة » بدمياط ، ثم « ركّبوهما حمير حمّارة ، وحطوا فى رجلهم القيد من تحت بطن الحمار ... وكانت السفينة جاهزة نزلوا فيها على ما جاهم اسبابهم » (أى حاجياتهم) . ولما وصلهم فرمان الباشا ، « سافروا الى ناحية الطينة سلموهم بالفرمان ليد الدزدار » ثم عاد مرافقوهم الى القاهرة . (الدزدار ، فى اللغة الفارسية هو متولى أمر القلعة) .

(٧) كان عبد الله أوضاباشا منافسا خطيرا لافرنج أحمد ، ولما عاد افرنج أحمد من منفاه ظل عبد الله فى منصبه وانضم الى خصوم افرنج أحمد.

(٨) فى « تاريخ وقائع مصر » ص ٩٣ وما بعدها ،أن أيوب بك — وكان يتولى منصب شيخ البلد فى ذلك الوقت — قد غضب لنفى صديقه افرنج أحمد وصاحبه ، فاتفق سرا مع العرب على أن يسرقوهما من محبسهما وأن=

صنجقاً[١] ، وأرسلوا أعلموه بذلك ، فقال : لاخلاف عندى ولا عناداً، فلبس قفطان الصنجقية وصار أميراً من الأمراء ، فمكث أياماً على هذا الحال. هذا ما كان من أمره .

وأما ما كان من أمر كتخدائيات الينشرية وأوضاباشاتهم وأنفارهم ، [فقد] وقع الخلف بينهم وبين الأمراء وسائر البلكات ، ومشى المفسدون [بينهم] بالقال والقيل حتى صاروا فرقتين ؛ ولله درّ من قال ، لكل شئ آفة من جنسه ، حتى الحديد سطا عليه المبرد .

ثم إن الأمراء وبقية البلكات قاموا عليهم[٢] قومة واحدة وأرادوا قتالهم ، فلما علموا بذلك ، اجتمعوا في بابهم[٣] جميعاً ، وأغلقوا الأبواب ، وعمّروا المدافع وحضّروها للقتال ، فأحاطت بهم العساكر من كل جهة ، ووقفوا على باب القلعة ومنعوهم من النزول والطلوع ، وعينوا الأمير إفرنج أحمد بيك على المحجر // بعسكر وجلس فيه محاصراً لهم سبعة أيام ، ٣
وكان هذا هو عين الحظ له ، لكن بتقدير الله وألطافه الخفية ، لم يضرب أحد مدفعاً ولا بندقية .

فلما رأوا الينشرية هذا الحال ، وأنهم في غاية الضيق ، أرسلوا إلى الأمراء ، وقالوا لهم : ما تريدون منا ؟ فأرسلوا لهم : لانرتضيكم محافظين

= يأتوا بهما الى مصر ، فأتوا بهما ليلا ، فأخفاهما أيوب بك فى بيوت بعض أصحابه . وطلبت فرق الاسباهية والمتفرقة والجاويشية من الوالى العثمانى حسن باشا اخراج اسم افرنج أحمد وصاحبه من أوجاق الانكشارية الذى ينتسبان اليه والحاقهما بأوجاق الاسباهية ، فرفض الوالى طلبهم ، وكادت أن تقوم بسبب ذلك فتنة بين الاسباهية والانكشارية ، فاقترح الوالى تعيين افرنج أحمد صنجقا فوافقوا على ذلك » . وفى الجبرتى (ج ١ ص ٣٢) أن فرار افرنج أحمد وصاحبه من منفاهما كان فى شهر شعبان سنة ١١١٩هـ .

(١) الصنجق : لفظ تركى صحة كتابته « سنجاق » ، ومعناه العلَم ، ثم أطلق اللفظ على القسم من ولاية كبيرة ، وكذلك أطلق على حاكم هذا القسم . وقد تكون الصنجقية مجرد رتبة . (شفيق غربال ، ص ١٤ حاشية ٢) والصنجقية التى تقلدها افرنج أحمد هى مجرد رتبة .

(٢) أى على قرا اسماعيل كتخدا وزملائه المذكورين فى أول الكتاب ، وهم خصوم افرنج أحمد أوضا باشا .

(٣) أى فى ثكناتهم فى القلعة .

لقلعة السلطان ، لأنكم تجبرتم وتكبرتم علينا ، وأنتم تنزلون إلى بلادكم [١] ، فلما سمعوا ذلك ، أجابوا بالسمع والطاعة ، وقالوا نحفظ أنفسنا وأموالنا وأولادنا وأمة محمد بنزولنا ونفينا ، ولكن بشرط إعطائنا [٢] الأمان ، وعدم التعرض لنا وأموالنا وبلادنا ، وضمان الأمراء بذلك ، فأعطوهم الأمان ، وضمنهم بعض الأمراء [٣] وكتب على نفسه حجة بذلك . فلما علموا بذلك ،
فتحوا الباب ونزلوا إلى بلادهم ، وهم : الأمير ناصف //كتخدا ، وكور ٤
عبد الله أوضا باشا ، وقرا إسماعيل كتخدا ، وحسن كتخدا نجدلى ، ومصطفى كتخدا الشريف وغيرهم ؛ وأما الباقون ، فكانوا في بطن الأمر على هؤلاء الجماعة ولذلك لم ينفوا معهم ، واتفقوا مع الأمراء وسائر البلكات عليهم .

ثم إنهم عزلوا الأمير إفرنج أحمد بيك من الصنجقية وولوه باشا على أوضاباشاتهم ، وطاب له الوقت وصفا ، وأتت له الدنيا من كل فج ، ولا يقول كلمة وترد ، واشتاع ذكره في سائر البلدان ، وكان سبباً لتوليته الأمير أيوب بيك .

ثم إن الكواخى [٤] المنفية أرسلوا مكاتبة إلى الأمراء في عودهم إلى بيوتهم وأولادهم ، وأنهم يتفرقون في الأجاوقات [٥] ولا يكون [٦] لهم بباب الينشرية علاقة ، فأجيبوا [٧] إلى ذلك بعد أن مكثوا في بلادهم نحو شهرين ،

---

(١) اي يذهب كل منهم الى البلد التى بها التزامه ويقيم بها .
(٢) بالأصل : اعطاء .
(٣) فى « تاريخ وقائع مصر » (ص ١١٣) أن الذى ضمنهم هو عيواض بك (وسيأتى اسمه فى النص : ايواز بك) وانه ارسلهم الى احدى البلاد الملتزم بها ، « وعيَّن لهم تعايين من وسيته طول ما هم مقيمين فى عرضه » . وفى الجبرتى (ج ١ ص ٣٦) . أن ذلك كان فى يوم الأحد ٢٣ ربيع الأول سنة ١١٢١ هـ .
(٤) الكواخى : جمع « كخيا » وهو الكتخدا . (شفيق غربال ، ص٢١ حاشية ٢) .
(٥) الأوجاقات : جمع ، اوجاق ، وهو لفظ تركى بمعنى الموقد ، ثم أطلق على الطائفة من الجند ، ثم استعمل بمعنى الفرقة من الجيش . (شفيق غربال ، ص ١٧ حاشية ٢) .
(٦) بالأصل : ولم يكون .
(٧) بالأصل : فاجابوا .

فأرسلوا لهم المكاتيب بالعود إلى مصر المحروسة // فرجعوا إليها[1] ، ٥
واجتمعوا بالأمراء ، وصار بعضهم في العزب[2] ، وبعضهم في الجاويشية[3] وبعضهم في المتفرقة[4] ، لكن عندهم الغيرة والمشقة على فراق بابهم وأجاقهم ، ولم يهن عليهم مفارقته ، ولقد أحسن من قال :

كم منزل في الأرض يسكنه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

هذا ما كان من أمر هؤلاء .

وأما ما كان من أمر إفرنج أحمد أوضا باشا ومن معه من الكتخدائية [فإنهم] صاروا في طيب عيش ، ومودة ، ومحبة ، وعزومات ، وخروج إلى الجنائن ، ومنافع دنيوية لاتعد ولا تحصى ، فحسد بعضهم بعضاً ، والحسد مذموم شرعاً ، ويكون سبباً لزوال[5] النعمة ؛ وكفى الحاسد ذماً آخر سورة الفلق ؛ وقال بعضهم : ليس شيء أضر من الحسد ، يصل إلى الحاسد خمس
عقوبات قبل أن يصل إلى المحسود : غم // لا ينقطع ، ومصيبة لايؤجر ٦
عليها ، ومذمة لايحمد بها ، ويسخط عليه الرب ، ويغلق عليه أبواب التوفيق ؛ وقد ورد في ذم الحاسد آثار كثيرة ، وأخبار شهيرة ليس هنا محلها ، ولقد أحسن بعض الفضلاء :

ألا قـل لمـن كان لى حاسداً أتدرى على من أسأت الأدب

---

(١) فى « تاريخ وقائع مصر » (ص ١١٥ ، ١١٦) ، أن حسن كتخدا النجدلى ـ أحد الثمانية المنفيين ـ أرسل الى الأمير قيطاس بك مالا ليدفعه الى « الخمسة بلوك » فى نظير موافقتهم على رجوعهم الى القاهرة ، فلما دفع قيطاس بك المال الى « الخمسة بلوك » وافقوا على رجوعهم واستصدروا فرمانا من خليل باشا الوالى العثمانى برجوعهم . وفى الجبرتى (ج ١ ص ٣٦) أن رجوعهم كان فى شهر ربيع الآخر سنة ١١٢١ هـ .

(٢) العزب : أحد أوجاقات الحامية العثمانية فى مصر ، وهو الأوجاق المنافس لأوجاق الانكشارية .

(٣) الجاويشية : أحد أوجاقات الحامية العثمانية السبعة . (البحر الزاخر ، ص ١٦٧) .

(٤) المتفرقة : أحد أوجاقات الحامية العثمانية فى مصر . وهم أصحاب الاقطاعات . (شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ، ص ١٢) .

(٥) بالأصل : لزول .

أسـأت على الله في فضـله لأنك لم ترض لى ماوهب
فجـازاك منــه بأن زادني وسد عليك وجوه الطلب[١]

وقال بعض الفضلاء :

وكلٌّ أداريه على حَسْب حالِه سوى حاسدى فهيالتى لاأنالها
وكيف يُدارى المرءُ حَاسِدِ نعمة إذا كان لايرضيه إلا زوالها

فاستمروا على ذلك الحال نحو سنتين[٢] إلىسنة ألف ومائة وثلاث وعشرين[٣] ، [ثم] افترقت الينشرية فرقتين : فرقة مع أحمد أوضا باشا ، وفرقة توجهت إلى الجماعة المنفيين ، واتفقوا أن يكونوا معهم على طبق
مرادهم في جميع ما يفعلونه ، فتوجهوا جميعاً إلى باب العزب// واجتمعوا ٧
عليهم وقالوا لهم : تكونوا معنا في ردنا إلى بابنا ، فقالوا لهم : لكم ذلك ونحن معكم ؛ وانضم إليهم خلق كثير من الينشرية نحو الخمسمائة من أوضاباشية وأفندية وجربجية[٤] وأنفار ، واتفقوا جميعاً على عزل أحمد أوضاباشا [من] مكانه ، وتنافست[٥] الفرقتان غاية التنافس ، ودخل بينهم الشيطان

---

(١) هذا الشعر للمعافى بن زكريا بن يحيى بن حميد النهروانى القاضى المتوفى سنة ٣٩٠ هـ (٩٩٩ م) (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٧ ص ٢١٣) . وقد جاء فى المصـدر المذكور كلمة « فعله » بدلا من « فضـله » فى الشطر الأول من البيت الثانى . وكلمة « عنى » بدلا من « منه » فى الشطر الأول من البيت الثالث .

(٢) فى « تاريخ وقائع مصر » (ص ١١٨ ـ ١٢٠) ، أن الثمانية الذين كانوا قد نفوا ، كانوا منـذ رجوعهم الى القاهرة يعملون على العـودة الى أوجاقهم ، ويوسطون الأمراء بينهم وبين افرنج أحمد ليوافق على رجوعهم ، ولكن افرنج أحمد تعصب وأصر على ابعادهم ، فغضب الأمراء عليه وعلى الأمير أيوب بك الذى كان يؤيده ويسانده ، ثم تحول الغضب الى الحرب .

(٣) توافق سنة ١٧١١م . وفى الجبرتى أن الخلاف الذى تحول الى الحرب بدأ فى يوم الجمعة السادس عشر من شهر المحرم . (جـ ١ ص ٣٨) .

(٤) جربجية : لفظ تركى مفرده « جوربجى » ويطلق على ضباط الانكشارية وعلى « مختارى » القرى المتقدمين فيها ، أو بعبارة أخرى على أعيان الجهات . (شفيق غربال ، ص ٢١ حاشية ١) .

(٥) بالأصل : وتنافس .

وغرتهم الدنيا ، وزينت لهم بأنهم مقيمون فيها ولا رحيل عنها ، ولقد نسوا قول الله تعالى : « وَمَا الْحياة الدنيا إلا متاع الغُرُور » . ولقد أحسن من قال :

لو كانت الدنيا تدوم لأهلها[(١)] لكان رسول الله حياً وباقيا
ولكنها تفنى ويفنى نعيمُها وتبقى المعاصى والذنوب كما هيا

ثم إن إفرنج أحمد أوضا باشا ، لما رأى هذه الفرقة خرجت من عنده وتوجهت إلى الجماعة المنفيين وباب العزب ، ساءه ذلك واغتم غماً شديداً ، فجمع رجالاً كثيرة وأنفق عليهم الأموال ، وصار يركب معه نحو مائة .

وكذلك عبد الله أوضا باشا // جمع رجالاً كثيرة وأنفق عليهم ٨
الأموال ، وصار يركب معه نحو مائة ، وصار كل منهما مصمماً على قتل الآخر ، فتفاقم الأمر بينهم ، واشتد الخصام ، وزادت الفتنة بين الينشرية والثمانية - أى المنفيين - وجماعة العزب ؛ ومن جملة من خرج من الينشرية واستجار بالعزب ، الأمير حسن أمير الصعيد[(٢)] ، وأعطاهم الاموال الكثيرة ، وأنفق على العساكر والجنود حتى أبهر عقولهم .

ثم إن الثمانية ومن تبعهم توجهوا إلى الأمير قيطاس بيك[(٣)] ، والأمير

---

(١) بالأصل : باهلها .

(٢) فى « تاريخ وقائع مصر » (ص ٧٧ – ٨١) ، أن خروج الأمير حسن – ويعرف بالاخميمى – من أوجاق الينشرية ودخوله فى أوجاق العزب ، كان فى سنة ١١١٩ هـ . وسبب خروجه من أوجاق الينشرية الذى كان ينتمى اليه ، هو أن الأمير محمد بك حاكم جرجا (وهو المعروف فى مخطوطنا بأمير الصعيد) حرض أيوب بك على ارسال افرنج أحمد للاغارة على اخميم وقتل الأمير حسن الذى كان حاكما عليها وقتل أولاد أخيه ، فلما علم الأمير حسن بذلك هرب من اخميم الى القاهرة وأخرج اسمه من أوجاق الينشرية والتحق بأوجاق العزب .

(٣) كان قيطاس بك يشغل منصب الدفتردارية أيام الفتنة . وكان قيطاس بك كردى الجنس ، وكان مملوكا لابراهيم بك ذى الفقار ، فهو من البيت الفقارى المنافس للبيت القاسمى . تولى امرة الحج ومنصب الدفتردارية عدة مرات . قتله الوالى العثمانى عابدى باشا سنة ١١٢٦ هـ (١٧١٤ م) لأسباب ذكرها الجبرتى (جـ ١ ص ٩٨) .

إبراهيم بيك[١] وبعض من الأمراء والأغاوات[٢] ، ووقعوا في عرضهم لأجل رجوعهم إلى بابهم ، فقالوا لهم : لكم ذلك إن شاء الله تعالى .

ثم إن الأمراء أرسلوا إلى الينشرية : إنكم ترجعون الثمانية إلى بابهم وتكونون عباد الله إخوانا ، فلم يرضوا بذلك ، وقالوا : ليس لهم عندنا تعلق ولا كلام بوجه من الوجوه ، فلما // وصل إليهم الكلام ساءهم ٩
ذلك ، وأرسلوا إلى الجامع الأزهر دراهم كثيرة وأعطوها للعلماء ، وطلبوا منهم فتاوى على قتال هؤلاء الطائفة الذين منعوهم عن بابهم ، فأعطوهم فتاوى على قدر سؤالهم ؛ هذا ما كان من هؤلاء .

وأما ما كان من أمر أحمد أوضا باشا ، فإنه أرسل أيضاً إلى الجامع الأزهر أموالاً كثيرة للعلماء وأخذ منهم فتاوى[٣] ، فأفتوا له على قدر سؤاله ، ورفع أمره إلى وكيل السلطان الوزير خليل باشا فأمده بالمال الكثير وقال له : لابد من نفيهم وافعل ما تشاء ، وأعطى له بيردياً[٤] على قتالهم

---

(١) هو ابراهيم بك ابو شنب . وكان مملوكا لمراد بك القاسمى ، ثم قلده مراد بك الامارة والصنجقية حتى أصبح من الأمراء الكبار المعدودين فى مصر ، وقد تولى أمرة الحج والدفتردارية عدةمرات . ومن طريف ما يذكره الجبرتى عن ابراهيم بك هذا ، أنه كان بارا بالشحاذين فى مصر وكان يتصدق عليهم ويعرفهم معرفة شخصية . فلما سافر فى سنة ١٠٩٤ هـ على رأس فرقة من الجند ليشترك مع الجيش العثمانى فى فتح جزيرة كريت ، خرج جميع الشحاذين يتقدمهم نقيبهم لوداعه ، ولما عاد الى القاهرة فى نفس السنة ، خرجوا لاستقباله من مشارف القاهرة وقدموا له حصانا مسروجا محلى بالفضة دالذهب هدية منهم اشتروه من مالهم الخاص باثنين وعشرين ألف فضة بعملة ذلك الوقت ، فقبل ابراهيم بك هديتهم وركب الحصان ودخل به القاهرة وهم يحفون من حوله ، ثم خلع على كل واحد منهم خلعة تناسبه. وتوفى بالطاعون فى سنة ١١٣٠ هـ (١٧١٧م) . (الجبرتى ، جـ ١ ص ١٠٥) .

(٢) الأغاوات : جمع أغا . وهم الرجال من جند وموسيقيين ورسل فى معية الوالى العثمانى ، وهم أيضا الضباط فى أوجاقات الجيش العثمانى . (شفيق غربال ، ص ١١ حاشية ٢ ؛ ص ١٨ حاشية ١) .

(٣) ذكر المؤلف فى آخر كتابه أسماء العلماء الذين أفتوا لافرنج أحمد بجواز قتال خصومه ، وقد نفاهم الخصوم بعد انتصارهم على افرنج أحمد . انظر ما يلى ، ص ٣٩٨ وما بعدها .

(٤) بيردى : لفظ تركى معنـاه ، أمر سام أو عال ، وصحة كتابته : بيورلدى . (حوادث دمشق اليومية ، تحقيق الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، ص ١٣١ ، ٢٠١) .

وضرب المدافع عليهم[١] ؛ وأعانه الأمير أيوب بيك بالمال والرجال ، وانضم إليه الأمير رضوان أغا جمليان[٢] ، والأمير أحمد أغاتفكجيان[٣] ، والأمير [عمر][٤] أغاجراكسة ، وسليمان أغا كتخدا شاويشان[٥] ، ومحمد أغا متفرقة وغيرهم من أمراء ، وجربجية ، وأوضا باشية ، وأنفار ، واتفقوا على قتال هؤلاء الطائفة ، وقتل // الأمير حسن أمير الصعيد .

ثم إن بعض العلماء أفتى بأنهم ينفون من هذه البلاد ، وأن أمر وكيل السلطان مطاع ، لاخلاف فيه ولا نزاع ، وكل من عاند يجوز قتاله ومحاربته ، وبعضهم أفتى بأنه لايجوز قتالهم ولا نفيهم ، فحصل الخلاف بين العلماء في الفتاوى بسبب اختلاف الأسئلة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، وليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، فتثبت كل من الطائفتين على فتوى[٦] .

فأما أحمد أوضا باشا ومن تبعه ، فإنهم يقولون : لابد من نفى هؤلاء وقتل الأمير حسن ولو كان فيها ذهاب الأرواح .

---

(١) سبب تأييد خليل باشا لافرنج احمد ــ كما فى « تاريخ وقائع مصر » ص ١٢٣ ، الجبرتى ج ١ ص ٣٩ ــ هو أن الينشرية خصوم افرنج أحمد الذين انضموا الى فرقة العزب ، قطعوا الطريق الموصل الى باب القلعة ، ومنعوا من يريد الطلوع الى باب النيشرية (أى الى افرنج أحمد ومن معه من المعسكر والاتباع) ثم خربوا السواقى التى تمد القلعة بالماء فانقطع عنها ، وكان ذلك فى ١٧ صفر سنة ١١٢٣ هـ .

(٢) جمليان : أحد أوجاقات الحامية العثمانية فى مصر . واللفظ تحريف عربى للفظ الفارسى « جنليان » وللفظ التركى « جنللو » . وهم نوع من الفرسان . (شفيق غربال ، ص ١٧ حاشية ١) .

(٣) تفكجيان : أحد أوجاقات الحامية العثمانية فى مصر ، وهو أوجاق حملة البنادق . ويكتب اللفظ أيضا « تفكشيان » وكلاهما تحريف عربى للفظ « تفنكجيان » (شفيق غربال ، ص ١٨) .

(٤) الاضافة من الجبرتى (ج ١ ص ٤١) .

(٥) هو أوجاق الجاويشية .

(٦) فى الجبرتى (ج ١ ص ٤٤) أن الجيش افترق فرقتين : فرقة تتكون من : بلوكات الاسباهية الثلاثة والجاويشية والعزب ويؤيدها الأمراء : ايواز بك أمير الحج ، وقيطاس بك الدفتردار ، وابراهيم بك أبو شنب ، وقانصوه بك ، وعثمان بك ، ومحمود بك (وهم خصوم افرنج أحمد وايوب بك) والأخرى تتكون من : أغاوات الاسباهية من غير الأنفار ، ومحمد اغا متفرقة وأهل بلكه ، وسليمان اغا الكتخدا الجاويشية ، وبلك الينكجرية (الينشرية) بالقلعة ، والوالى العثمانى ، وهم المؤيدون لافرنج أحمد .

وأما الطائفة الأخرى فيقولون : لاننفى ، ولابد من عزل أحمد أوضا باشا ولو نموت عن آخرنا .

ثم لما كان يوم الخميس السادس والعشرون من شهر صفر الخير سنة ألف
١١ ومائة وثلاثة وعشرين ، طلع كل من الطائفتين بابه وأغلق//الأبواب ، وضربا على بعضهما بعضاً بالبندقيات والمدافع التى أدوت الأرض بالجلل العظام ، التى وزن كل واحدة منها خمسة أرطال إلى قنطار وشيء ، وصار أحمد أوضاباشا وجماعته يضربون المدافع على باب العزب ، وهم كذلك يضربون البندقيات على باب الينشرية ، وكان يوماً لم ير أهل مصر مثله ، وحصل لهم من الدهوة العظمى ما يكل عنه الواصف ، وأسقطت الحبالى من ضرب المدافع ، وماتت الأطفال والرجال ، وهُدمت البيوت من الجلل ، وقفلت أهل مصر الأزقا والحوانيت والدروب ، وصار الناس متحيرين أين يذهبون ، فضربوا في هذا اليوم نحو مائة مدفع ، وأما البندقيات فلا تعد ولا تحصى ؛ وكان ابتداء الضرب يوم الخميس وقت الضحوة الكبرى إلى غروب الشمس .

ثم لما كان يوم السبت ، ابتدؤا بالضرب يوماً كاملا ، فلا تسل عما
١٢ فعلت[1]// المدافع ، فإنها زلزلت الأرض ، وأفزعت القلوب ، وأدهشت العقول ، وزعقت النساء والأطفال ، واستغاثت إلى ربها بالدعاء على من كان سبباً لهذه الفتنة ، حتى أن الطير في السماء تحير ، والكلاب والدواب وغيرهم أصيب من الرصاص ، فاستمروا على ذلك الحال أياماً ثلاثة ، ثم بعد ذلك مشت الناس بينهم بالصلح مدة أيام عشرة ، فلم يرض كل منهما إلا بتنفيذ مراده .

---

(١) فى الهامش الأيسر لصفحة المخطوط أبيات من الشعر أواخرها ناقصة بسبب تشذيب حوافى صفحات المخطوط بعد تجليده . والخط والحبر يختلفان عن خط المتن وحبره . ونص ما هو ظاهر فى النص : شعر .

يا نعمةَ الله حِلّى منجعنا
وجاورينا فتكته ال
وجوارينا باكوا مر مـا
والسَّعْدُ يحيد منا نجدَ
وان أتى حـَار، وكاذَ
فالله يحرسُنَا .

ثم إن الينشرية ركّبوا على جماعة العزب مدافع على ظهر الكسوة وعلى قصر يوسف وعلى الأبراج ؛ واحتاطت بالعزب المدافع فترسوا بمتاريس تقيهم من المدافع ، فلما تضايقوا وحصل لهم هذا الكرب ، أرسلوا جماعة نحو مائة على باب الينشرية في المحجر فجلسوا فيه وترّسوا بمتاريس ،
١٣ ورئيسهم باكير أوضا باشا // فلما رأوهم الينشرية ركّبوا مدافع على الباب ، فلم يجسر أحد منهم [أن] يقربه ، وصاروا يضربون بعضهم بعضاً بالبندقيات آناء الليل وأطراف النهار ، لا يملون ولا يتعبون ، وليس الخبر كالعيان[١] .

ثم إن جماعة العزب تحيّلوا ليلاً حتى وصلوا إلى باب الينشرية ، وأخذوا معهم النفط والكبريت وأحرقوا الباب الأول ، لكن لم يقدر أحد [أن] يصل إلى الباب الثاني من المدافع والبندقيات ؛ ثم إنهم عينوا عسكراً لكل باب من أبوابهم ، ومنعوهم الطلوع والنزول ، وقطعوا عنهم المآكل والمشارب ، ولم يبق لهم طريق إلا باب الجبل ، وهو باب مطبخ الوزير .

فاستمروا على ذلك الحال أياماً ، والأمراء ، والعلماء ، والسادات ، تمشي بالصلح ، فلم يرض كل من الفريقين إلاّ بتنفيذ مراده وأبيا الصلح ، ومن أبي الصلح ندم .

١٤ فبرز للخصام الأمير // أيوب بك[٢] ومن تبعه من الأغاوات المذكورة مساعدين لطائفة الينشرية .

---

(١) يذكر الجبرتى (جـ ١ ص ٤٠) أن سكان الأحياء القريبة من القلعة ، مثل : الرميلة ، والحطابة ، والمحجر استولى عليهم الخوف ، فأخذوا ما أمكنهم من أمتعتهم وتركوا منازلهم وتفرقوا فى حارات القاهرة خوفا من هدم المنازل عليهم « وكان الأمر كما ظنوه ، فان غالبها هدم من المدافع واحترق ، والذى سلم منها حرقه عسكر طوائف الينكجرية (الينشرية) بالنار » . وفى «تاريخ وقائع مصر» (ص ١٢٥) أن « النساء من رمى المدافع على غفلة أرمت حملها ، وبعض صغار فرقعت مرارتهم وماتوا » .

(٢) كان ايوب بك يشغل منصب شيخ البلد فى ذلك الوقت . (تاريخ وقائع مصر ، ص ٧٣) . وأيوب بك جركسى الجنس ومن البيت الفقارى . تولى امرة الحج ومنصب الدفتردارية ومشيخة البلد عدة مرات . ولما انهزم فى هذه الفتنة هرب الى اسلامبول ومات بها سنة ١١٢٤هـ (١٧١٢م). (الجبرتى ، جـ ١ ص ٩٨) .

وبرز الأمير قيطاس بيك ومن تبعه من الأمراء المذكورين للخصام مساعدين لطائفة العزب لأنهم وقعوا في عرضه واستندوا إليه ، كما أن الينشرية استندوا إلى الأمير أيوب بيك .

ثم إن الأمير قيطاس بيك أرسل إلى الأمير أيوب بيك مراسلة ، والآخر يرسل للآخر ، وهدد بعضهما بعضاً بالقتال والضرب ، فزاد الخصام بينهما وطال الكلام ، وتفاقم الأمر إلى أن جمع كل من الأميرين المذكورين جموعاً إلى أن صار بيت كل منهما ملآناً بالعساكر وآلات الحرب ، فتوجهت الناس إلى الأمير الكبير إيواز بيك(١) أمير الحاج الشريف ليمشى بينهما بالصلح ، فأجاب بالسمع والطاعة // وأرسل لهما مراسلات ، فلم يرض كل منهما إلاّ بتنفيذ مراده وأبيا الصلح ، ولم يحسبا عواقب الأمور ، وسلبهما الله العقل ،حتى أنفذ فيهما القضاء المبرم الذى لا راد له ولا فرار منه ؛ ولقد أحسن من قال :

إذا أراد الله أمراً بامرىءٍ(٢) وكان ذا عقل وسمع وبصرْ
أصم أذنيه وأعمى عينه
وسل منه عقله سل الشعر
حتى إذا أنفذ فيه حكمه
ردّ إليه عقله ليعتبر
لا تقل فيما جرى كيف جرى
كل شىء بقضاء وقدر

ثم إن الأمير إيواز بيك ، حين ردت شفاعته ، اغتم غماً شديداً ، وكان في يقينه أنه لا ترد له شفاعة ، وصار في نفسه شيء من ذلك ، فراسل الأمير

---

(١) يذكره الجبرتى (ج ١ ص ٩٤ — ٩٨) : ايواظ (بالظاء المنقوطة) ويقول ، ان أصل اسمه « عوض » فحرف باعوجاج التركية الى « ايواظ » لأن اللغة التركية ليس فيها حرف الضاد ، فأبدلت وحرفت بما سهل على لسانهم حتى صار « ايواظ » . وايواز بك زعيم البيت القاسمي فى عصره ، وهو جركسى الجنس . وقد تقلد الامارة بعد مقتل سيده مراد بك الدفتردار القاسمى سنة ١١٠٧ هـ . وتولى امرة الحج وإمارة جدة عدة سنين . وكان يشغل منصب أمير الحج أثناء الفتنة . وقد قتل ايواز بك فى الفتنة كما يلى ص ٣٦٩

(٢) بالأصل : امرء .

أيوب بيك مرة ومرة فلم يقبل ، وأرسل له كلاماً لا يليق بمقامه فبرز للخصام ، ودخل المفسدون بالقال والقيل ، حتى صار كل منهما مصمماً على قتل الآخر ، وانضم إلى الأمير إيواز بيك : الأمير قيطاس بيك ، والأمير//إبراهيم بك[١] ، ١٦
والأمير قانصوه بيك[٢] ، والأمير عثمان بيك وجماعة هؤلاء الأمراء ، مثل : الأمير يوسف كاشف الجزار[٣] تابع الأمير إيواز بيك فارس المنايا والموت الأحمر ، بطل من الأبطال لا يخطر الموت له ببال ، ومثل الأمير محمد بك[٤] تابع الأمير قيطاس بيك ، لله دره من فارس ، وجماعة لا يحصون ، فصاروا جميعاً عصبة واحدة .

وكذلك الأمير أيوب بيك ، انضم إليه الأغاوات الثلاثة[٥] ، وهم : الأمير رضوان أغا ، والأمير عمر أغا ، والأمير أحمد أغا ، وسليمان أغا ،

---

(١) المقصود به ابراهيم بك أبو شنب .

(٢) كان قانصوه بك تابعا لقيطاس بك الكبير الدفتردار ومن البيت القاسمي ؛ وقد تقلد قانصوه بك الامارة بعد وفاة سيده سنة ١٠٩٦ هـ (١٦٨٤ م) ، وتولى الكشوفية عدة مرات فى بنى سويف والبحيرة . وكان أحد الأعيان والمشار اليهم فى البيت القاسمى . مات فى سنة ١١٢٧ هـ (١٧١٥ م) . (الجبرتى ج ١ ص ١١١) .

(٣) كان يوسف كاشف الجزار تابعا للأمير ايواظ بك . وتقلد الامارة بعد مقتل سيده ، وبعدانقضاء الفتنة تقلد منصب القائمقامية سنة ١١٢٦هـ . وقد شارك فى أحداث مصر حتى وفاته سنة ١١٣٤ هـ (١٧٢١ م) وقد سمى بالجزار لكثرة ما قتل من العرب أثناء حروبه معهم . (الجبرتى ، ج ١ ص ١١٠) .

(٤) كان محمد بك كرجي الجنس . وقد قلده سيده قيطاس بك الامارة . وبعد الفتنة تقلد امرة الحج عدة مرات . ولما قتل الوالى قيطاس بك سنة ١١٢٦ هـ ، حاول محمد بك أن يثأر لمقتل سيده ولكنه فشل وهرب الى اسلامبول ، ثم عاد الى مصر فى سنة ١١٣٨ وتقلد منصب الدفترداربة. ولما عزل الوالى العثمانى باكير باشا تقلد محمد بك القائمقامية وذلك فى سنة ١١٤٣ ، وأصبح أعظم الأمراء وبيده الحل والعقد وظل مسموع الكلمة حتى قتل فى سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) (الجبرتى ، ج ١ ص ١٤٩ ، ١٦٩) . ويعرف أيضا بمحمد بك الصغير وبمحمد بك قطامش . وقد أطلق عليه أصحابه لفظ « قطامش » على اسم رجل كان بمصر يبيع حلاوة عسل قصب ، وكان ينادى على بضاعته : قطامش داير فى البلد قطامش عراه الولد . (تاريخ وقائع مصر ، ص ٩٠) .

(٥) المعدود فى المتن ، خمسة أغاوات أمراء وغير أمراء .

ومحمد أغا متفرقة ، والأمير مصطفى بيك الشريف وغيرهم من جاويشية وجربجية وأنفار لا تعد ولا تحصى ، وصاروا عصبة واحدة .

وانفرق أهل مصر فرقتين[١] ، من أمراء ، وعلماء ، وأغاوات ، وعامة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

١٧ ثم إن الأمير أيوب بيك ما ساعه// إلاّ [أن] كتب مكتوباً للأمير محمد بيك أمير الصعيد[٢] مضمونه : « أن تجمع جموعاً من هوارة ، وعربان ، وفلاحين ، وأروام[٣] وجميع ما تقدر على جمعه من جميع الجنوس ، وتأتي إلينا سريعاً لمقاتلة هؤلاء الجماعة » ؛ وكتب له جميع ما جرى ، وخصوصاً لمقاتلة الأمير حسن أمير الصعيد « الذى أراد أن يعزلك ويولى الأمير محمد بيك تابع الأمير قيطاس بيك ويملك البلاد منك ، ويطيب له الوقت بعزلك » .

ومن تقدير الله سبحانه وتعالى وإرادته ، أن هوارة ليس بينهم وبين الأمير حسن محبة[٤] ، فلما وصل إليه الكتاب وأيضاً بصحبته بيردى من خليل باشا بإذن المجىء والحض على القتال لهؤلاء الجماعة ، أجاب بالسمع والطاعة ، خصوصاً لما رأى البيردى ، فبادر لجمع العربان والأوباش ،

---

(١) بالأصل : فرقتان .

(٢) كبير البيت الفقارى . وقد تقلد الامارة سنة ١١١٧ هـ . هرب بعد الفتنة الى اسلامبول ومات بها سنة ١١٣٣هـ (١٧٢٠م) . (الجبرتى ، جـ ١ ص ١١٢) .

(٣) الأروام ، والروم ، هم الأتراك العثمانيون . وكان المسلمون يطلقون على سكان آسيا الصغرى اسم « الروم » ولما استولى السلاجقة على هذه المنطقة أطلقوا عليهم اسم «سلاجقة الروم » تمييزا لهم عن سلاجقة العراق . وظل اسم «الروم» يطلق على سكان المنطقة حتى العصر العثمانى .

(٤) سبب ذلك ــ كما فى « تاريخ وقائع مصر » (ص ٢١ ــ ٢٥) أن الأمير حسن اشترك فى حرب هوارة مع عبد الرحمن بك سنة ١١٠٧ هـ (١٦٩٥ م) بالقرب من جرجا ثم فى فرشوط ، فانهزمت هوارة وفرت ولجأت الى « ولد العابد » فى الجبل ، ثم عادت الى بلادها بتدبير بعض الأمراء سنة ١١١٢ هـ .

وأرسل إلى الأمير يوسف أبوحمد شيخ هوارة[١]، والأمير // عمر بن عبد القادر ١٨
وأخبرهما بذلك ، فبادرا[٢] إلى جمع العربان ، من كل محلة ومكان ، في أسرع مدة وزمان ، وبرزوا للخروج مع الأمير محمد بيك مريدين القتال ، والنهب والسلب للحوائج والأموال ، وسوّل لهم الشيطان وغوى ، ولكل امرىء ما نوى .

ثم إن الأمير محمد بيك أرسل كتاباً إلى الأمير أيوب بيك : « أنك تمسك لنا جامع السلطان حسن ، وتجعل فيه العسكر لأجل القتال ، وضرب المدافع من أعلاه على باب العزب ، فنقتلهم عن آخرهم في أسرع مدة » ، فأخذ النجاب الكتاب ، وسبق الأمير محمد بيك ، وسار يقطع البرارى والقفار ، والحصى والأحجار ، حتى وصل إلى الديار المحروسة ، حرسها الله وجعلها دار الإسلام إلى يوم القيامة ، فقدر الله سبحانه وتعالى القادر على كل شىء ،
أن جماعة من العزب نظروا إلى هذا الرجل ، فبهت الرجل//وتحير في أمره ١٩
وارتاب وتغير لونه ، فمسكوه وسألوه وقالوا له : من أنت ومن أين جئت ؟ فتلجلج في الكلام ، وقال : أنا من جماعة الأمير محمد بيك ، وجئت من عنده أرسلني لمصالح . فعرفوا أنه أرسله بمراسلة ، ففتشوه فوجدوا المكتوب ، فأخذوه منه وطلعوا به إلى باب العزب وأعرضوه على الإختيارية[٣] ففضوا المكتوب وقرأوه وعلموا ما فيه ، فما ساعهم إلاّ المبادرة إلى [جامع] السلطان حسن ، وكان قبل ذلك اليوم مغلوق الأبواب خوفاً من العبور فيه من إحدى الطائفتين ، فأرسلوا جماعة نحو المائة للمجاورين القاطنين فيه فلم يفتحوا لهم الأبواب ، فكسروا الباب القبلى ودخلوا محافظين لباب العزب ،

---

(١) لم يترجمه الجبرتي وانما ذكر أخباره على السنين . وقد ترجم الجبرتي ابنه هماماً فى ترجمة طويلة يستبين منها ما كان عليه همام وأبيه من مكانة عالية فى الوجه القبلى . (جـ ١ ص ٣٤٣) .

(٢) بالأصل : فبادر .

(٣) اختيار : جمعه اختيارية . وهم رؤساء أوجاقات الحامية العثمانية فى مصر ، وهم أيضا المسنون من رجاله ، وأقدمهم « الباش اختيار » . وهم كذلك من أرباب الديوان العمومى ، يحضرون فى كل ديوان (اجتماع) لتحصيل الأموال الأميرية (شفيق غربال ، ص ١٨ حاشية ١) .

وأخذوا معهم آلات الحرب من بندقيات وزربطانات(١) ، وركبّوا المدافع
٢٠ العظام على الأسطحة من كل جهة فصار حصناً حصيناً ، ولم يقدر أحد //[أن] يأتي إليه . ثم إنهم أخرجوا القاطنين من أماكنهم جميعاً ، وازداد العسكر حتى صار في الجامع نحو ثلاثمائة ، ورئيسهم الأمير محمد بيك تابع الأمير قيطاس بيك .

فلما علم الأمير أيوب بيك بذلك ، اغتم غماً شديداً وكذلك أحمد أوضاباشا كاد أن ينفلق من الغم ، لأن جامع السلطان حسن مسامت للقلعة وأمتن منها ، ولكن الحذر لا ينفع من المقدر .

ثم إن إفرنج أحمد أوضاباشا ركّب المدافع على البرج الكبير(٢) وعلى قصر يوسف ، وصار يرمى بهم ليلاً ونهاراً على الجامع والمنارة ، وكذلك الذين في الجامع يرمون البندقيات من المنارة والمدافع من السطوح على باب الينشرية ومن في قصر يوسف ، حتى أدوت الأرض وتزلزلت ، وصار كل مدفع
٢١ يزلزل البيت العظيم والأماكن الماتنة(٣)//البناء ، وأيضاً سلط الله عليهم الرعد والبرق والمطر الشديد ثلاثة أيام بلياليها واشتبه بالمدافع لشدته ، وكان رعداً وبرقاً لم تسمع وتنظر الناس مثله . هذا ما كان من هؤلاء .

وأما ما كان من الأمير محمد بيك [أمير الصعيد] فإنه سار وصحبته نحو عشرة آلاف نفس ، ما بين خيالة ومشاة وشجعان وفرسان ، بعضهم في البر وبعضهم في البحر ، وصحب معه المراكب المملوءة بالشعير والتبن لأجل العليق نحو خمسين أو أكثر ، حتى وصل إلى مصر السعيدة(٤) ، فنصب

---

(١) زربطانات : جمع زربطانة ، وهى نوع من السلاح .

(٢) هو أحد أبراج القلعة ، وقد بناه الظاهر بيبرس .

(٣) هكذا بالأصل ، ويقصد المؤلف ، الأماكن المتينة البناء .

(٤) فى « تاريخ وقائع مصر » (ص ١٢٦) ، أن محمد بك أمير الصعيد أغار على أخميم وهو فى طريقه الى القاهرة ، فنبهها هو ورجاله « الى أن خلوها قرعة من غير بنـــاء » وأنهم ظلوا بها ثلاثة أيام ، ثم رحلوا عنها الى القاهرة فى اليوم الرابع . أما الجبرتى (جـ ١ ص ٤٦ ـ ٤٧) فانه يذكر أن محمد بك أغار على أخميم بعد فراره من القاهرة بعد أن حلت به الهزيمة .

الخيام في البساتين[١] والأثر[٢] ، وملأوا القرافة ومصر العتيقة ودير الطين ، وتضايقت الأرض منهم ، فتوجه إلى الأمير أيوب بيك فتلقاه بأحسن اللقاء ، وجلس يتحدث معه في شأن هؤلاء وما يجرى معهم ، وقال : ما فاتنا إلا أخذ الجامع ، فقال له : ما يكون إلاّ ما يريد ، واتفقا على القتال والمحاربة ؛
وركب من عنده//وتوجه إلى القلعة ، فقابل الوزير خليل باشا ، فقابله بالقبول ٢٢
والإكرام ، وأمده بالنفس[٣] ، وقال له : أريد[٤] [أن] أفعل [٥] وأناهك[٦] في قتال هؤلاء الجماعة الذين خالفوا قولى ولم يرضوا بحكمى ، فخرج من عنده وتوجه إلى باب الينشرية ، فاجتمع بأحمد أوضاباشا والعسكر المجتمعين عنده ، فقابلوه أحسن قبول ، وأكرموه غاية الإكرام ، وكان قدومه عليهم مثل يوم العيد ، لأنه صحب معه إلى بابهم نحو ثلاثمائة ضارب بالنار ، فلما دخلوا هؤلاء قالوا : دعونا ننظر لباب العزب ، فتوجهوا بهم إلى محل الرمى فضربوا طلقاً مرة واحدة وكذلك المدافع ، فدوت الأرض من ذلك الطلق ، وظنت الناس أن القيامة قامت ، فبادرهم العزب بالرمى من بابهم كذلك ، فقتلوا منهم كثيراً .

فاستمروا على ذلك الحال أياماً ، وهم يرمون على بعضهم بعضاً آناء
الليل وأطراف النهار// بالمدافع والبندقيات ، فتعبوا وملوا ، وضاقت صدورهم ٢٣
وتحيرت نفوسهم ، وانحرقت كبودهم ، فتحيلوا على بعضهم بعضاً بنقب الحيطان والأسوار ، لأجل الوصول إلى بعضهم بعضاً ، فنقبوا الجدران ، وهدموا البنيان ، وحرقوا المنازل التى بين البابين بما فيها من الأمتعة ، وصار بينهما طريق ، لكن لم يقدر أحد [أن] يصل إلى أحد من المدافع والرجال

(١) قرية تقع قبلى شرقى مصر القديمة . (الخطط التوفيقية ، ج ٣ ص ٧١) .

(٢) هو المكان المعروف بـ « أثر النبى » بمصر القديمة .

(٣) أى بمده بالتأييد .

(٤) بالأصل : تريد .

(٥) مكان هذا اللفظ بالأصل لفظ مطموس بالحبر ، وقد اخترنا هذا اللفظ لأنه قريب من رسم اللفظ المطموس .

(٦) أناهك : أى اشتد . ففى مختار الصحاح (مادة نهك) : نهكه السلطان عقوبة ، أى بالغ فى عقوبته .

المحافظين على ذلك النقب من كل منهما ؛ ثم إن الينشرية غافلوا العزب وهجموا عليهم ، فما شعروا إلا بمدفع خرج عليهم فقتل منهم كثيراً ، ومنعهم عن الوصول إليهم ، وتسمى هذه الواقعة وقعة البدرم[1] ، والبدرم إسم لمحل بين البابين .

ثم إن الأمير محمد بيك أمير الصعيد ، لما رأى هذا الفعل ، وأن العزب
في غاية من الشدة والقوة ، وأنه لم يقدر يصل إليهم من البدرم ، دبر في نفسه
٢٤ تدبيراً ، ونزل من قلعة الجبل وأخذ الرماة معه // وتوجه إلى باب القرافة ،
ففرق الجيوش والعساكر : فرقة في الصليبة ، وفرقة في سبيل المؤمنين ، وفرقة في بيت اقبردى[2] ، فتفرقوا كما أمرهم في أسرع وقت وترسوا بمتاريس ، وأرادوا أن يهجموا على باب العزب ليلاً من تلك الجهات ، وأحمد أوضا باشا ومن معه بجماعة من البدرم والمحجر ويأخذونهم مواسطة .

فلما علموا بذلك العزب ، وجهوا طائفة في بيت الأمير أحمد جربجى ابن الخضرى ، وصحبتهم المدافع والبندقيات ، وجماعة في وكالة المزاريق المجاورة للسلطان حسن ، وجماعة في جامع محمود باشا الذى تجاه باب العزب وجماعة في جامع أمير أخور[3] كذلك .

فلما عاين بعضهم بعضاً هذا الحال ، ماساعهم إلاّ الصبر إلى الليل ، فلما أتي الليل بسواده وتولى النهار ببياضه ، ضرب الأمير محمد بيك [أمير الصعيد]

---

(١) يذكر الجبرتى هذا المكان باسم « البذرم » (بالذال المنقوطة) . ويصف المعركة فيقول : « هجمت الينكجرية (الينشرية) من البذرم على باب العزب ومعهم محمد بيك الكبير وكتخدا الباشا وافرنج أحمد ، فعندما نزل أولهم من البذرم ـ وكان العزب قد أعدوا فى الزاوية التى تحت قصر يوسف مدفعين ملآنين بالرش والفلوس الجدد ـ فضربوا عليهم ، فوقع محمد أغا سركدك والبيرقدار وانفار منهم فولوا منهزمين يطأ بعضهم بعضا ، فأخذت العزب رؤوس المقتولين فأرسلوها الى قانصوه بيك » . (جـ ١ ص ٤٤) .

(٢) يقع بيت آقبردى فى حى الرميلة . (الجبرتى ، جـ ١ ص ٤٠) .

(٣) أمير آخور : كلمة مركبة من لفظين ، أحدهما عربى وهو «أمير» ، والآخر فارسى ، وهو « آخور » ومعناه « المعلف » ، فالمعنى « أمير المعلف » لأنه المتولى لأمر دواب السلطان وأهم أمور المعلف . (صبح الأعشى ، جـ ٥ ص ٤٦١) .

المدافع — وهى على الأعجال — من الجهات المذكورة على باب العزَب ليهدمه//
أو يحرقه على من فيه من العسكر ، وكذلك أحمد أوضا باشا ضرب المدافع ٢٥
من الأبراج وظهر الكسوة ، وكذلك العزب ضربت عليهم من [جامع]
السلطان حسن ومن الأماكن المذكورة ومن المحجر ، فانطبق الجو بالدخان
من ضرب المدافع والبندقيات ، وصارت ذخيرة المدافع تنور الجو مثل البرق
وكانت ليلة مشئومة على أهل مصر ، حتى ظننا أن الأرض تنخسف بنا ، فيالها
من ليلة ما أصعبها وأشدها ، فقتل من هوارة في تلك الليلة خلق كثير ، ومن
وقع في الرميلة صار ملقى في الأرض لا يجسر أحد يأخذه من الرصاص
والجلل ، وصار القتلى في الرميلة أياماً ، ولم يحصل لباب العزب ضرر من
المدافع والبندقيات في تلك الليلة ، لكن ضرب مدفع من جهة القرافة ، فهشم
شباكاً نحاساً من جامع محمود باشا وأصاب بابه مدفع فأرمى منه أحجاراً ،
وأصاب المنارة مدفع فخرقها // وكسر بعض دورها ؛ وأصاب مدفع جامع أمير
آخور فأرمى منه أحجاراً . وأما الجلل التى تقع في باب العزب ، فلا تسل ٢٦
عما فعلت .

ثم إن الفرقة التى في [جامع] السلطان حسن ، ركّبوا المدافع ورموها
على الفرقة التى في بيت اقبردى بالجلل العظام ، فخرجوا من ذلك المحل — ولم
يبق لهم أثر — إلى بيت الأمير يوسف أغا بالمدافع ، فخرجوا منه أيضاً
وولوا هاربين ، وفاز من خرج ، وقتل من ولج .

ثم إن الأمير محمد بيك ضاق صدره وعيل صبره ، فما ساعة إلا التحيل
بحيل تحير الفكر ، وصار يخرج كل يوم في صفة لاتشبه الأخرى ، وأمر
بنقب البيوت من بعضها لبعض حتى أخلى[1] طَريقاً من داخل البيوت
ليمشى فيها هو ومن معه خوفاً من الرصاص والجلل ، فنقبوا البيوت على
أهلها ، وهجت الناس منها ، ونهبت الأمتعة من المنازل والحوانيت والوكائل ،
وأصيبت الناس بمصائب لم تر// مثلها ، وخرجت النساء المصونات المحجبات ٢٧
من بيوتهن مكشفات الوجوه على الرجال من الدهوة التى أصابتهن حال دخول
الرجال عليهن ، ولم يقدر أحد يتكلم ويقول بيتى ومتاعى وحريمى ، فإنا لله

(١) بالأصل : اخلا .

وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ؛ فما ساع الناس إلا الصبر على ما أصابهم ، وشكت الناس إلى ربها واستغاثت برفع هذه الشدة والبلية ، متوسلين بالمصطفى خير البرية . ولقد أحسن من قال :

دع المقادير تجرى في أعنتها ولا تبيتن إلا خالى البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الدهر[1] من حال إلى حال

كان الناس في أمن وعزة وأمان ، فذل العزيز وخاف الشريف وظهر اللئيم وبان ؛ وكان الناس في نزهة وأفراح ، ولعب وحظ وانشراح ، وطاب لهم الوقت والزمان ، ومصرنا المحروسة تشبه الجنان ، من مآكل ومشارب ،
٢٨ وملابس ومراكب ، ورخاء قد عم البلاد ، ونزهة لسائر العباد // فبطرنا وأخذنا في المعاصى ، ولم نتذكر يوم أخذ للنواصى ، وكل ذلك من أمور ارتكبناها ، وأمور ابتدعناها ، فجوزينا بذلك ، فالله يفرج عنا هذه المهالك ؛ وقد أحسن وأجاد من قال :

إذا كنتَ في نعمــة فارعَها فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليــها بشكر الإلـه فإن الإله سريع النقـم

فاستمر الحال على ذلك آناء الليل وأطراف النهار ، لايملون ولا ينامون ولا يتعبون ؛ وجرى بينهم أبو مرة اللعين ووسوس لهم ، وزين لهم الدنيا وأنساهم الأخرى ، وصار كل من الفريقين يقول : لا أرجع إلا ببلوغ مرادى ، ولو كان فيه ذهاب مالى وأولادى ، وكل ذلك من عدم رئيس يرشدهم وعالم يزجرهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ولما اشتد الحال على الأمير محمد بيك [أمير الصعيد] ولم يجد له سبيلا
٢٩ إلى الوصول إليهم بوجه من الوجوه ، دبر في نفسه أن يرسل // عسكراً في المساجد التى في الشارع ، لأجل قطع المآكل والمشارب التى تأتي إلى العساكر التى في [جامع] السلطان حسن وباب العزب ، فشاع الخبر بذلك ، فبادر

---

(١) المشهور : يغير الله .

العزب إلى تلك المساجد ، وأرسلوا عسكراً لجامع الجاى اليوسفى الكائن في سويقة العزّى[١] نحو المائة ، فجلسوا في المسجد محافظين لتسليك الطريق ، ووجهوا جماعة لجامع المارداني فجلسوا فيه محافظين ومعهم المدافع والبندقيات ، فمنعوا الناس من الصلاة ، وتعطلت الجمعة والجماعة ، وكل ذلك دليل على اقتراب الساعة ، فبادر الناس إلى الخروج من المنازل ، وخلت الحوانيت والوكايل ، وصار أهل سويقة العزى لا يدرون أين يذهبون ، ولا إلى أى طريق يخرجون ، فاشتد الكرب على أهل تلك المحلة ، وصار الناس في البيوت جملة جملة .

وقد أعمى الله العزب عن أخذ مسجد الأمير سودون — وهو بين [جامع]
المارداني و [جامع] الجاى // اليوسفى[٢] — ولم يخطر لهم ببال أن الينشرية ٣٠
ينزلون فيه للقتال ، فبادرت الينشرية ليلاً نحو المائة إليه ، وأصبحوا جميعاً حواليه ، فلما أصبح الصباح ، جاءتهم الأخبار أن الينشرية جاءت إليكم ومعهم آلات النار ، فتحيروا لما سمعوا هذا الكلام ، وتيقنوا بطردهم جاءت إليكم ومعهم آلات النار ، فتحيروا لما سمعوا هذا الكلام ، وتيقنوا بطردهم ورحيلهم عن ذلك المقام ، فترس كل منهم بمتاريس ، وظهر مهاقيت الوقت والمعاكيس ، فبادرت الرجال على بعضها بالقتال ، فطلقوا البندقيات من أعلى الأسطحة والمنارات ، ومنعت الناس من المآكل والمشارب وصاروا في أشد المتاعب ، فاستمروا على ذلك ثلاثة أيام ، وفقدت الناس لذيذ المنام ، ولا يجدون طريقاً يخرجون منها ، واتفق أهل المحلة على الرحيل عنها .

---

(١) سويقة العزّى : سمى هذا المكان بهذا الاسم نسبة للأمير عز الدين أيبك العزى نقيب الجيش أيام الملك الأشرف خليل بن قلاون (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ = ١٢٩٠ — ١٢٩٣ م) . ويحدد على مبارك باشا فى (الخطط التوفيقية ، ج ٢ ص ١٠٥) مكان السويقة فى أيامه فيقول : ان شارع سويقة العزى يبدأ من تقابل شارع جامع أصلان بنهاية شارع الدرب الأحمر ، وآخره شارع سوق السلاح .

(٢) بالأصل : الجاى اليوسف . والتصويب من النص نفسه فيما يلي ومن الجبرتى (جـ ١ ص ١٩) .

ثم إن العسكر الذين في [جامع] السلطان حسن نزلوا بجماعة نحو المائة
٣١ ومعهم بيرق ، ورئيسهم صالح أغا يساعدون//العسكر الذين في جامع حتى اليوسفى ، فجاء لهم الخبر أيضاً ، أن جماعة من الينشرية ومحمد بيك قد ملأوا بيت مصطفى بيك الشريف نحو ثلاثمائة ، وصحبتهم الأمير أحمد أغا تفكجيان بعساكر وجنود لاتعد ولاتحصى ، وذلك البيت تجاه المسجد المذكور من داخل الدرب المجاور لحوض الماء ، فتضايق العزب غاية الضيق وانحصروا غاية الحصر ، ولم يبق لهم طريق يأتيهم الزاد منها .

وأما الرعية فلا تسل عما حصل لهم من الحصر .

ثم إن العزب أخذوا في تدبير وتحيل كيف يصنعون ، فاتفق رأيهم على نقب البيوت والهجم عليهم ، ، فنقبوا دكان صانع تجاه الجامع المذكور ، ودخلوا إلى بيت الأمير أحمد أفندى كاتب الجراكسة ، إلى بيت الأمير إيواز بيك ، إلى بيت الأمير مصطفى بيك الشريف ابن المرحوم إيواز بيك ،
٣٢ وتعالوا عليهم وضربوهم // بالنار ، وهم كذلك بادروهم بالرمى من أعلى الأسطحة ؛ وكان يوماً مشهوداً شديداً على أهل المحلة ، فلا تسل عما قاست الأطفال ، والنساء والشباب والرجال ، ودكسوا على بعضهم بعضا ، فولى الأمير محمد بيك وكذلك[1] الأمير أحمد أغا ، وخرجوا من البيت وطردوا ولم يبق لهم أثر ، ونهب بيت الأمير مصطفى بيك الشريف ، فلم يبق فيه شئ حتى الرخام والقيشاني قلعوه من الأرض والحيطان ، ثم إنهم كسروهم أيضاً إلى بيت محمد أغا متفرقة ، فلما رأت الينشرية ، العزبَ ظافرين عليهم حرقوا بيتاً بيتاً بينهم ، فطارت النار في السقف والدكاكين والبيوت في ذلك النهار ، ونهبت البيوت بقوصون وانحرقت ، [ونهبت] النساء والأطفال والرجال والأمتعة والحوانيت وانهدمت ، وتهتكت الحرائر ، وانكشفت السرائر ، وأيست الناس من الحياة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وانحرق في ذلك اليوم بيت المرحوم محمد كتخدا بيرقدار[2] والربع المجاور له//

(١) بالأصل : وكذالك .
(٢) بالأصل : بارقدار ، والبيرقدار ، كلمة فارسية مركبة من لفظين الأول : بيرق ، وهو الراية أو العلم . و « دار » ، ومعناه ، صاحب . فالمعنى ، صاحب الراية أو العلم ، أى حامل الراية والعلم . (المعجم فى اللغة الفارسية) .

وبيوت كثيرة ، وحوانيت شهيرة ، فاستمر الحرق ليلاً ونهاراً عشرة أيام ٣٣
لايقدرون على إطفاء النار ، من كثرة الرصاص النازل على تلك الديار .
ثم إن الفريقين تترسوا بمتاريس ، ورموا بعضهم بعضاً بالبندقيات ، وذلك حظ إبليس . ثم توجهت فرقة إلى العسكر الذى في جامع سودون زاده فرموا عليهم بالنار ، فلم يقر لهم قرار ، ولم يبق لهم آثار ، فانفتحت الطريق ، وجاء الفرج بعد الضيق[١] ، ولله در من قال :

إذا جار الزمان عليك فاصبر ... فإن الصبر أحسن ما يكون

وإن اليسر يأتي بعد عسر ... وما من شدة إلا تهون

ثم إن الينشرية لما رأوا أنفسهم طردوا من هذين المحلين ، أيسوا من الحياة وأيقنوا بوقوع الحَيْن . ثم إنهم كانوا — أى الينشرية — أخذوا أيضاً جامع قجماس[٢] ، فانزعجت منهم سائر الناس ، وكان رئيسهم الأمير عمر أغا جراكسة ، فحطم عليهم العزب حطمة أسوده ، فشتتوا عسكره وجنوده//
وأيضاً أخذوا جامع المؤيد بباب زويله ، وأخذوا جامع اسكندر بباب الخرق[٣] ٣٤
فتضايقت منهم سائر الخلق وكان رئيسهم كتخدا الجاويشية ، فأصبحت الناس منهم في دهشة وبلية ، وركبوا المدافع على تلك المساجد ، وامتنع منها الراكع والساجد ، ومنعوا الناس من المرور ، وكل ذلك من الجور والفجور ، فدكست العزب عليهم دكسة ، فشتتوا من تلك المحلات ، وانفتحت السكك والطرقات ، وجلسوا في المساجد محافظين لتلك الطرق الموصلة[٤] للسلطان حسن وباب العزب ، فباعت الناس واشترت ، ومشت الخلق إلى بولاق ، وأتت بالمياه العذبة ، لأنهم منعوا من الدخول والخروج ، ووصل ثمن الجرة من الماء العذبة نصف فضة ؛ ولقد أحسن من قال :

وكم ليلة بت في كربة ... يكاد الرضيع لها أن يشيب

فما أصبح الصبح حتى أتي ... نصر من الله وفتح قريب

---

(١) بالأصل : المضيق .

(٢) بالأصل : قسماس . والتصويب من الجبرتى ، جـ ١ ص ٤٠ ؛ الخطط التوفيقية ، جـ ٢ ص ٦٩

(٣) باب الخرق : هو الحى المعروف اليوم بباب الخلق .

(٤) بالأصل : الموسلة .

٣٥ فاستمروا على ذلك الحال ، والنمامون يمشون // بالقيل والقال ، فاجتمع الأمراء وتشاوروا كيف السبيل إلى دفع هذا الفساد ، ورفع هذه الفتنة التى أضرت بالعباد ، فاتفق رأيهم أنهم يولون رجلا باشا على الأوضا باشية غير إفرنج أحمد أوضا باشا وعبد الله أوضاباشا ويجعلون الإثنين جربجية أو ينفونهما من مصر المحمية ، لعل الله أن يرفع هذه البلية ، فأرسلوا مكاتبة إلى الأمير أيوب بيك ، مضمونها بعد التعظيم والتبجيل اللائق به : إرحم أولادك وعيالك وسائر الرعية ، وكن معنا على إطفاء هذه النار ، بنفى الرجلين المذكورين من هذه الديار ، والثمانية المنفيون يكونون على حالهم مفرقين في الأجاقات ، ونضمن لهم سائر التعلقات . فلما وصل إليه الكتاب ، وفهم مضمون الخطاب ، بادر بالجواب ، وقال : لابد من نفى الثمانية وقتل وقتل الأمير[1] ، وإفرنج أحمد [أوضا] باشا على حاله وأخذنا بذلك خطأً من الوزير ، غير هذا لانقول ، ولا نحول عنه ولا نزول . فشاع الخبر //
٣٦ بذلك الكلام ، بين الأمراء وعلماء الإسلام ، فاشتد الخصام بين الفئتين ، وزادت الفتنة بين الفريقين .

ثم إن الأمير إيواز بيك جمع الأمراء والعلماء والأعلام ، وأرباب الدولة والأقلام ، وقال لهم : ما تقولون في هذه الفتنة ، والبلية والمحنة ، فقصدنا [أن] تكونوا[2] معنا في رفع هذا الفساد ، الذى أضر العباد والبلاد ؛ وما تقولون في شأن هذا الوزير ، الذى ليس عنده رأى ولا تدبير ، بميله مع طائفة وترك الأخرى ، ويظن أن ذلك هو الأحرى ؛ وما تقولون في شأن الأمير محمد بيك الذى هو متعلق بالغلال[3] ، فترك ذلك وجاء للقتال ، وصحب معه الأتراك والعربان ، وأتي لخراب بلاد السلطان ، وظلم العباد والبلاد ، وقصدنا ومرادنا رفع العناد ؟ فاتفق رأى الأمراء والعلماء في أمر الوزير على العزل ، ولم يصر له عندهم عقد ولا حل ، ومحاربة محمد

---

(١) المقصود به الأمير حسن حاكم اخميم المتقدم ذكره .

(٢) بالأصل ا تكونونا .

(٣) اى المسئول عن ارسال غلال الصعيد الى القاهرة بحكم وظيفته حاكما على الصعيد .

بيك أمير الصعيد ، فقالوا كلهم هذا رأى سديد // فعقدوا عقد المبايعة على ٣٧
تولية الأمير قانصوه بيك ، وأن يكون قائمقام الوزير ، وأن يكون له الأمر والتدبير ، وولوا لكل بلك أغا ، وعزلوا الأغاوات المتوليين ، واتفقوا أن يكونوا رجلاً واحداً على قتال محمد بيك ومن معه من الجيوش والعربان .

ولقد كان هؤلاء الأمراء من العز في غايه ، ومن التنعم والتنزه والتفكه في في نهاية ، والتلذذ بأنواع المآكل الفاخرة ، والملابس الباهرة ، والخيول المسومة ، والجوارى المنعمة ، والمياه الجارية ، والجنائن والبساتين الحاوية ، لسائر الأزهار ، والفواكه والأثمار ، وكثرة الخدم والحشم ، فلم يراعوا هذه النعم ، وقالوا إن الأمير إيواز بيك لم [يكن] يعرف عدد مماليكه ولا أسماءهم إلا المقرب عنده ، [كانوا] يفوقون عساكر الدنيا ، وليس لهم نظير في الملابس والرؤية ، شأنهم إطعام الطعام ، وبيوتهم مفتحة للخاص والعام ، فصادفتهم العين ، ووقع الخلف بينهم وصاروا فرقتين ، وغرتهم
الدنيا فأوقعتهم في الذل والهوان // والمتاعب والخسران ، وشأنها ودأبها هذه ٣٨
الفعال ، ولقد أحسن وأجاد من قال :

سألت عن الدنيا الدنية قيل لى
هى الدار فيها الدائرات تدور
إن أضحكت أبكت وإن أحسنت أساءت(١)
وإن عدلت يوماً فسوف تجور

ولما كان يوم الاثنين خامس عشر ربيع الثاني من السنة المذكورة ، خرج الكبير إيوازبيك أمير الحاج الشريف ، بعد [أن] جمع عساكر وجنود وأعطاهم الأموال ، وصار يعطى لكل شخص ما بين عشرة ذهب إلى خمسة كل أحد وما يناسبه ، فانقادت له الجيوش والأبطال ، والفرسان والرجال ، لا تعد ولا تحصى ، من جراكسة ، وتفكشية ، وجملية ، وجاويشية ، ومتفرقة ، ويلضاشات(٢) وأنفار وغير ذلك ، إلى ملاقات

(١) بالأصل : است .

(٢) يلضاشات : جمع يلضاش . وهو لفظ تركى صحة كتابته ، يولداش ، وهو التابع أو الجندى من الانكشارية . (شفيق غربال ، ص ٢١ حاشية ٢) .

الأمير محمد بيك وقتاله ؛ وكذلك الأمير محمد بيك خرج لقتال الأمير إيواز بيك ومن معه ، وكل من الأميرين صحب المدافع والجللل العظام ، والبندقيات والأخشات[١] التى من الفولاذ ، فصحب الأمير إيواز بيك ،
٣٩ الأمير ابراهيم بيك // أبو شنب ، والأمير قيطاس بيك ، والأمير عثمان بيك ، والأمير قانصوه بيك قائم مقام ، والأمير ابراهيم بيك الوالى ، والأمير محمد بيك تابع الأمير قيطاس بيك ، والأمير مصطفى أغا جراكسة — الذى ولاه الأمير إيواز بيك — وكذلك الأمير صالح أغا كومليان ، وكثير من اسباهية وجربجية ومن تبعهم من مماليك ، وقواصة ، وسياس وغير ذلك .

وتبع الأمير محمد بيك [أمير الصعيد] الأمير أيوب بيك وجميع هوارة والأمير رضوان أغا كومليان ، والأمير أحمد أغا تفكجيان ، والأمير عمر أغا جراكسة ، والأمير محمد أغا متفرقة ، لله دره من فارس ، بطل من الأبطال ليس له نظير في رمى الجريد والنشاب ، رمى بقوسه نبلاً فوضعوا محل الوقوع علامة وصار الرماة المشهورة ترمى فلم يصل نبلهم تلك العلامة ، والأمير سليمان كتخدا الجاويشية ، وخلائق لا تعد ولا تحصى من مماليكهم
٤٠ وخدمهم ، وخرجوا[٢] كالجراد المنتشر بالبيارق[٣] // والأعلام ، فخرج الأمير إيواز بيك من جهة بولاق ، والأمير محمد بيك [أمير الصعيد] من جهة الأثر[٤] ، وسار العسكر إلى أن بانت البيارق والأعلام ، فضربوا المدافع

---

(١) الأخشات : جمع خشت . نوع من السلاح . فالخشت باللغة التركية ، هو المزراق أو الحربة . (قاموس رفيق عثمانى) وبالفارسية : هراوة ذات أربعة جوانب . (المعجم فى اللغة الفارسية) .

(٢) بالأصل : وخرجا .

(٣) فى هامش صفحة المخطوط عبارات أواخرها ناقصة بسبب تشذيب صفحات المخطوط بعد تجليده ، وهى عبارات معظمها يعسر اثباتها لصعوبة قراءتها ، والمقروء منها : « سيذكر فيه » ، « وهو منسوب » ، « دلر الله عنه لبز » ، « توقى بنا الأيام » ، « ولا تبع فلهن يعو » ، « ولا تخوفه يد او » ، « وقربك السلطان » ، « ثلاث وخمس ثم ثا » ، « ومن بعدها ياصا » ، والحادى والعشرون » ، « والرابع والعشرين » ، « رايناه من بحر العلم » ، « عن ابن عم » ، « انتقل هذا الكتاب » ، « فدان الى يد احمد » . وهذه العبارات مكتوبة بحبر وخط يخالفان حبر وخط المتن .

(٤) اى المنطقة المعروفة ب « أثر النبى » . وفى « تاريخ وقائع مصر » (ص ١٣٨) . ان المعركة كانت فى « الرملة » بين قصر العينى والروضة .

والبندقيات حتى أظلمت الأرض من الدخان ، والجلل تعيط في الهواء مثل الرعد القاصف ، وكان يوماً شديد الحر ، وقبض الله الريح ذلك النهار ، وتزلزلت الأرض من ضرب المدافع .

ثم إنهم نزلوا في حومة الميدان ، وزعقت الفرسان على الفرسان ، بالقول أين الشجعان أين الفرسان ؟ ، ودكسوا على بعضهم بعضاً دكسة فأطيحت منهم الرقاب ، ووقعت منهم الشباب ، وتعفرت الوجوه الحسان بالتراب ، وصار هذا ملقى على وجهه ، وهذا على ظهره ، وهذا على جنبه ،وهذا تطؤه(١) الخيل والرجال ، فازداد الجو بالغبار والدخان ، وزعقت الفرسان ، وحملت على بعضهم بعضاً ، فشخصت الأحداق ، وتطاولت الأعناق ، وضاق الخناق ، وكلت//السيوف والرجال ، والخيل من الركض في الرمال . ٤٠

ثم إن الأمير الكبير إيواز بيك زعق على الفرسان ، وحثهم على النزول في حومة الميدان ، وقال لهم : الشجاعة صبر ساعة ، ومن ثبت[ظفر](٢) ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ولكل أجل كتاب ، ومن مات منكم مات شهيداً ، لأنكم تقاتلون هؤلاء العربان الذين أفسدوا البر والبحر ، وجاءوا لنهب مصر ، فنزل الأمير محمد بيك تابع الأمير قيطاس بيك ، وكذلك الأمير عثمان بيك ، والأمير يوسف كاشف الجزار في حومة الميدان ، وقاتلوا قتال الجبابرة .

وكذلك الأمير محمد بيك أمير الصعيد ، قاتل فيهم قتال الأكاسرة .

ثم إن الأمير إيواز بيك ، رأى من بعض عسكره بروداً عن القتال ، فجرد سيفه ، وأطلق عنان جواده ، ونزل في حومة الميدان ليراه العسكر المذكورون فتقوى قلوبهم على القتال ، فلما رأى الأمير يوسف كاشف الجزار تابع الأمير الكبير // إيواز بيك وجميع الأمراء المتقدم ذكرهم هذا ٤١
الأمير نزل للحرب والقتال ، قبلوا أياديه الكرام ، وقالوا له : نحن نفديك

(١) بالأصل : تطاؤه .
(٢) مكان اللفظ فى الأصل مطموس ، ولعله « ظفر » وبه يستقيم المعنى .

بالأرواح فلا تقاتل أنت ، ونطلب منك أن تمدنا بالنفس ، وها نحن بين يديك نقاتل حتى نقتل عن آخرنا ، فشكرهم على ذلك وتأخر عن القتال ، فنزل الشجعان لحومة الميدان ، ودكس الأمير يوسف والأمير محمد بيك والأمير عثمان بيك دكسة أدهشت العقول ؛ وكذلك الأمير محمد بيك قاتل قتالاً شديداً حتى حير الناظرين، وهو لابس زرخين[1] وخوذة وذراعين ، وقيل إنه كان لابساً جلد تمساح ، ودكس عليهم دكسة فكسرهم وتقهقروا إلى وراء ، فلما رأى الأمير إيواز بيك انهزام جماعته ساءه ذلك واغتم غماً شديداً .

وأما الأمير محمد بيك كمن كموناً بالسرعة والعجلة في الأماكن الخربة والجنائن ، كل كمين[2] نحو خمسمائة ، وقال لهم : متى تنظروا جماعة
٤٣ الأمير إيواز بيك//نزلوا في حومة الميدان فتأخذونهم من خلف وأنا ومن معى من أمام فنأخذهم مواسطة ، فتفرقوا في أسرع وقت ، وكمنوا في أماكنهم .

ثم إن الأمير إيواز بيك زعق على الرجال ، ونادى بالحرب والقتال ، فنزل الشجعان والفرسان قاصدين الأمير محمد بيك ومن تبعه من الأغاوات والعربان ، فأراهم الهزيمة — وذلك مكر وخديعة — فطردوهم إلى قريب المقياس[3] ، فلما رأى الأمير إيواز بيك انهزام الأمير محمد بيك ومن تبعه ، أخذته[4] حرارة الحرب والنزول إلى حومة الميدان ، فنزل هو ومن معه من المماليك إلى مساعدة هؤلاء الأبطال ، ولم يعلم أن المنية قد أذنت للرحيل ، ولم يبق من عمره إلا القليل ، فانساق إليه طوعاً ، ولم يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فلما جاوز كميناً من الكمون ، خرجوا عليه من روضة المقياس ، وأحاطوا به من كل جانب ، وحملوا عليه حملة واحدة ، ولم يكن//
٤٤ معه سوى القليل .

(١) زرخين : مثنى زرخ . لفظ تركى بمعنى الدرع أو الزردية (قاموس رفيق عثمانى) . والزردية قميص من الزرد يلبسه المحارب أثناء القتال .

(٢) بالأصل : كمن .

(٣) اى مقياس الروضة .

(٤) بالأصل : اخذه .

وأما الأمراء المذكورون ، فإنهم مشغولون بالحرب ، فقاتل فيهم قتال الجبابرة ، وقطع منهم الرءوس ، وزهق منهم النفوس ، فضربه بعضهم ببندقية وبعضهم بخشت فولاذ ، فوقع من على جواده مغشياً عليه ، فهجم عليه رجل لا نعرف اسمه(١) وضربه بالسيف فأطاح رأسه ، وزهق روحه وأنفاسه ، وقطع إصبعه بالخاتم وكر هارباً ، وقتلوا جميع من معه من المماليك والخدم ، وكانوا نحو الخمسين(٢) . ولقد أحسن من قال :

إذا ما حمام المرء كان ببلدة
دعته إليها حاجة فيطير

وقال بعضهم :

مشينا في خطى(٣) كتبت علينا
ومن كتبت عليه خطى مشاها
وأرزاق لنا متفرقات
فمن لم يأته منا أتاها
ومن كانت منيته بأرض
فليس يموت في أرض سواها

وهذا من العجب العجاب ، أن الأسد تصيده الكلاب ، ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، وكل ذلك كان في الكتاب مسطورا .

ثم إنهم أخذوا // الرأس وتوجهوا بها إلى الأمير أيوب بيك ، فلما رآها ٤٥
وعاينها فلم يلتفت إليها وأعرض عنها ، فقالوا له : هذه رأس الأمير إيواز

---

(١) فى « تاريخ وقائع مصر » (ص ١٣٩) ، أن الذى ضرب ايواز بك ، هو عمر بن عبدالقادر الذى جاء من الصعيد مع محمد بك .

(٢) فى « تاريخ وقائع مصر » (ص ١٤٠) ، أن عدد القتلى فى هذه المعركة (خلاف مماليك ايواز بك) تجاوز السبعمائة رجل . وفى الجبرتى (جـ ١ ص ٤٣) ، أنه قتل من الجند خاصة زيادة عن الاربعمائة نفر من الفريقين خلاف العربان وهوارة وغيرهم . ونشير هنا الى أن كلا من صاحب « تاريخ وقائع مصر » والجبرتى ، لم يصفا هذه المعركة كما وصفها الشاذلى ، لا من حيث التكتيك الحربى ، ولا من حيث عنف القتال .

(٣) بالأصل : خطا .

بيك فلم يُصدق هذا المقال ، لأنه كان بطلاً من الأبطال ، فلما تحقق ذلك أزعجه وهاله ، وأيقن بالهلاك لا محالة ، وصار من الهم والغم في حالة العدم ، وتندم حيث لا ينفعه الندم(١) ؛ وقيل إنه أمر بغسلها من التراب والدم ، ووبخ من قتله وذمه غاية الذم ، ثم إنه طيبها ولفها في منديل ، وأرسلها إلى الباشا خليل ، فأعلموه بما جرى وما كان ، فقال كل من عليها فان ، وفرح بذلك غاية الفرح ، وزال عنه الهموم والترح ، وقال هذا هو المراد ، وفي غد نحل عنه البلاد(٢) .

وقيل إن هذا الأسد ، إلتزم بمائة وثمانين بلد ، ولما نظر الوزير إليها ، بادر بالبصاق عليها ، وقذفها بالسب والشم ، ولم يعلم أنه أتاه الغم ، ثم إنه//
٤٦ أمر بإرسالها إلى باب الينشرية ، فلما رأوها صاروا في دهشة وبلية ، فبعضهم سر غاية السرور ، وقال : قد ظفرنا وزالت الشرور ، وتيقن أنه منصور بلا ريب ، ولم يعلم ما جنى له في الغيب ؛ وبعضهم تأسف وبكى(٣) ، وتضرع إلى الله وشكا ؛ ثم إن الوزير أمر بإقامتها على خشت في وسط الديوان ، وكذلك من تبعها من رءوس الغلمان ؛ وكان ذلك اليوم آخر أيامه ، وحكم عليه الدهر بصروفه وأحكامه ، وخلت منه الديار المصرية ، وهيهات أن يأتي مثله في الدولة العثمانية ، ولله در من قال :

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يازمان فكفر

---

(١) فى « تاريخ وقائع مصر » (ص ١٣٩) ، أنه لما جاء عمر بن عبد القادذ براس ايواز بك الى محمدبك وأيوب بك ، بكى أيوب بك وقال : « والله لم عادت لنا عيشة بمصر بعدك يا مصلح رحمة الله عليك . فقال له محمد بك : هؤلاء صاروا غنم بلا راع دا الوقت يطلبوا الصلح » . وفى الجبرتى (جـ ١ ص ٤٣) ، أن أيوب بك بكى وقال : « حرم علينا عيش مصر . فقال له محمد بيك : هذا رأس قليدهم وراحت عليهم . فقال له أيوب بيك : انت ربيت فين ؟ أما تعلم أن ايواظ بيك وراءه رجال وأولاد ومال ، وهذه الدعوى ليس للقاسمية فيها جناية ، والآن جرى الدم فيطلبون ثأرهم ويصرفون مالا ، ولا يكون الا ما يريده الله » . وقد تحققت مخاوف أيوب بك ، فقد قام القاسميون اتباع ايواز بك يثأرون لمقتل زعيمهم وسيدهم — كما سيأتى — وبذلك أضيف سبب آخر لاستمرار القتال واشتداده .

(٢) أى يستخلص منه البلاد التى كان يلتزم بهاايواز بك .

(٣) بالأصل : بكا .

فلله دره من أمير ، شابه في دولته السلطان والوزير ، كتب الله بين عينيه السعادة والنصر ، وطلعة وجهه تزيل عمن رآها الحصر ، جعل الله رأيه سديداً ، وعزمه في كل نائبة شديداً . والدليل على شدة عزمه ، وكثرة جنوده وقومه // أن ابن وافي[1] زاد في جوره وغدره ، وسلط عربانه على البلاد، ٤٧
وأفسدوا غاية الفساد ، فأرسلوا له التجاريد ، فأتعبهم التعب الشديد ، ولم يقدر أحد [أن] يصل إليه ، ولم يجسر بالقدوم عليه ، لكثرة قومه وعربانه ، وشجاعته وقوته وطغيانه ، فرجعوا عنه وأخلوا سبيله ، وقالوا ليس لنا معه حيلة ، فبرز إليه هذا الأمير ، فلم يبق منهم صغير ولا كبير ، وأراح الله البلاد منهم ، ورجع راحلاً عنهم ؛ وتولى على بندر جدة ، وأظهر فيها الشجاعة والشدة ، وأقام فيها خمسة من السنين ، وأخلى منها جميع المفسدين .

ولنرجع إلى ما نحن بصدده ، من قتال عبيده وجنده ، فإنهم ما داموا يقاتلون ، وبقتل هذا الأمير لا يدرون ؛ فلما تولى النهار ، قصدوا الرجوع إلى الديار ، وهم في غاية الفرح والسرور ، ولم يعلموا عاقبة الأمور ، فتوجهوا نحو مكانه ،جميع أحبابه وإخوانه ، فلم يجدوا له أثر// ، ولا وقفوا ٤٨
له على خبر ، فبعضهم يقول إنه توجه إلى البيت ، وبعضهم يقول نزل في هذا الغيط ؛ وبعضهم يقول نزل خلف العربان ، ولا نعلم به فى أى مكان؛ وبعضهم يقول انحدر بجواده وعدى ، ومن إقليم الجيزة ما تعدى ؛ وخبطت الناس في الكلام ، ولم يعلموا أنه ذاق الحمام ؛ فتوجه الأمير يوسف كاشف الجزار ، إلى بيوت الأمراء فلم يقع له على أخبار ، فخرج هائماً على وجهه ، وصحبه جميع عبيده وجنده ، يدورون عليه في البر ، فلم يقعوا له على خبر ، فصاروا في أمره متحيرين ، وفي حاله متعجبين ، فخرج عليهم رجل من الغيطان ، وقال : قتلوا الأمير في هذا المكان ، فدهشت عقولهم،

---

(١) كان عبد الله بن وافى شيخ عربان المغاربة فى الصعيد يفسد هو وعربانه ويظلم الفلاحين ، فأرسل المسئولون فى القاهرة تجريدة عسكرية بقيادة بعض الأمراء فى سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٩ م) لمحاربتهم فانتصر ابن وافى عليهم . وفى سنة ١١١٠ هـ (١٦٩٨ م) أرسل الوالى العثمانى ، ايواز بك على راس تجريدة لمحاربة ابن وافى وعربانه بسبب افسادهم أيضا ، فانتصر عليه ايواز بك وفر الى الوجه البحرى . (الجبرتى ، ج ١ ص ٢٤ ، ص ٩٤ ـ ٩٨ ترجمة ايواز بك) .

وتحيرت نفوسهم ، فبادروا يقلبون القتلى ، وهم يقولون لا حول ولا ، فوجدوه مقتولاً كما قال ، ودمه سائل فوق الرمال ، ووجدوا رأسه قد قطعت ، وجميع ثيابه قد أخذت ، فاشتاع الخبر أنهم وجدوه مقتولاً ،
٤٩ فقالوا هذا // الكلام ليس مقبولاً ، وصار الناس بين مكذب ومصدق ، ومحقق منهم وغير محقق ، فلما تحقق الحال ، صار الناس في اشتغال ، وألقى الله على مصر الهم والنكد ، وصار كل أحد كأنه فقد المال والولد ، فحملوه وأتوا به إلى دياره ، وصرخت جميع نسائه وجواره ، وبكى عليه سائر الرجال حتى النساء والأطفال .

ولما أصبح الله الصباح ، وأضاء بنوره ولاح ، أرسلوا يطلبون الرأس من أيوب ، وهم في غاية الهموم والكروب ، فأرسل يطلبها من الوزير وقال له : إرسل لنا رأس الأمير ، فبادر الوزير إلى سلخ الجلدة ، وصبرها وطيبها وشالها عنده ، لأجل إرسالها إلى السلطان ، وإخباره بجميع ما جرى وكان ، وأرسل القرعة إليهم ، وكان يوماً مشئوماً عليهم ، فشرعوا في غسله وتجهيزه ، وتكفينه وتنجيزه ، وقبره بالأزبكية عند سيده أبي الشوارب[١] فالله يرحمه ما طلعت[٢] الكواكب ، ولقد رثاه بعضهم بقوله : //

٥٠ بمصر عزيز قد مات قهراً وعنوة   وقتلته زادت بها كل حسرة
أمير اللوا سلطان أهل زمانه   ويحكم بالشرع القويم وسنة
وفيه من المولى أتتنا بشارة   لتاريخه إيواز أدخل جنتي

فلما رجعوا من الجنازة اجتمعوا ، وقالوا لبعضهم تنبهوا واسمعوا ، إن مولانا قد فارق الدنيا وانتقل إلى الأخرى ، وكل أحد لابد له من ذلك اليوم ، وما يكون رأيكم في أمر هؤلاء القوم ، فإنهم تعدوا علينا ، وبالقتل وصلوا إلينا ، وجاروا على النساء والرجال ، بحرق البيوت ونهبهم الأموال ، ولا بد من أخذ ثأر سيدنا ، ولو نموت جميعاً لآخرنا ، فقالوا جميع الأمراء

---

(١) هو رضوان بك ابى الشوارب . (الجبرتى ، جـ ١ ص ٩٤ — ٩٨ . ترجمة ايواظ بك) .
(٢) بالأصل : طلع .

نحن معكم ، ولا نتخلف ساعة عنكم ، فاختاروا أن يكون الأمير يوسف أمير اللوا ، وأمير حاج مكان سيده متصرفاً في كل ما حوى ، وسلموا له الأمور في جميع الكلام ، لأنه بطل شجاع همام .

فمكث الأمراء إلى يوم الأحد ، وخرجوا ولم يتخلف منهم أحد ،
فملأوا الصحارى والرمال ، طالبين الحرب والقتال ، وكذلك // الأمير محمد ٥١
بيك أمير الصعيد ، خرج بجميع الأحرار والعبيد ، وصحب معه المدافع
والبندقيات ، والمزاريق والأخشات ، فلما عاين بعضهم بعضاً ، ركضت
الخيل في الميدان ركضاً ، فنزل الفريقان ، في حومة الميدان ، ودكست
الرجال بالأسياف ، ضرباً على الأعناق والأكتاف ، وضربت المدافع
والبندقيات ، والزربطانات والجمقمقيات [1]، فأظلمت الأرض من
الدخان ، واشتد الحر من الشمس والنيران ، وصاروا لايعرفون بعضهم
بعضا ، ويموجون بخيلهم طولاً وعرضا .

ثم إن الأمير محمد بيك [أمير الصعيد] زعق على الرجال والعربان ، وحرضهم على النزول في حومة الميدان ، فدكسوا على جماعة العزب ، فقتل من قتل وهرب من هرب ، وكانت الكسرة عليهم ؛ وفي رجوعهم جردوا القتلى وأخذوا ما لديهم .

ثم إن الأمير أيوب بيك أرسل إلى شيخ العرب حبيب[2] // مكاتبة ٥٢
مضمونها : تأتي إلينا بعربانك سريعاً ، وتكون لقولنا سامعاً مطيعاً ، لأجل

(١) الجمقمقيات : جمع ، جمق . وهولفظ فارسى معناه : دبوس له راس ضخم مذهب ، كان فى عصر السلاطين المماليك يحمله رجل جميل الصورة ، طويل القامة ، قوى البنية فى موكب السلطان أو فى مجلسه ، وعيناه دائما الى عينى السلطان ، ولا يفارقه حتى ينفض الموكب أو المجلس (صبح الأعشى ، جـ ص) وقد استعمل الدبوس فيما بعد أداة للقتال .

(٢) يتفق « تاريخ وقائع مصر » (ص ١٢٧ ، ١٢٨) مع مخطوطنا فى ان أيوب بك استدعى حبيبا (الدجوى) بعد مقتل ايواز بك . اما الجبرتى (جـ ١ ص ٤٢) فانه يذكر أن أيوب بك استدعى حبيبا قبل مقتل ايواز بك . ولم يترجم الجبرتى حبيبا ترجمة خاصة ، وانما ذكره فى ترجمته لابنه سويلم بن حبيب المتوفى سنة ١١٨٣ هـ (١٧٦٩ م) ، فقال : ان حبيبا ، هو حبيب بن أحمد ، وكان كبير قبيلة نصف سعد ، ومن اكابر =

قتال العسكر والأجناد ، الذين ظلمونا وسائر العباد ، فأنت تجئ من خلف ونحن من أمام ، ونهجم عليهم فلا تقصر والسلام .

فلما وصل إليه الكتاب ، وفهم مضمون الخطاب ، أمر بجمع الرجال والعربان ، فاجتمعوا في أسرع مدة وزمان ، وخرجوا ينهبون المال والغلال ، وهم قاصدون الحرب والقتال ، إلى أن وصلوا إلى شبرا ، فالله يلحقهم بداره الأخرى .

فشاع الخبر بقدومهم ، وكثرة رجالهم وخيولهم ، فتحيرت جماعة العزب أشد الحيرة ، وأرسلوا مكتوباً إلى عرب السلالمة والبحيرة ، مضمونه : «إلينا وبالحضور لاتمهلوا علينا » .

فلما وصل إليهم الكتاب بادر الشيوخ والشباب ، وخرجوا للقتال
٥٣ والحرب // وقصدهم النهب والسلب ، وصاروا يقطعون البرارى والقفار ، حتى وصلوا إلى الأمراء ويوسف الجزار ، فاتفقوا بعدالسلام والإكرام ، والتبجيل بهم جميعاً والأنعام ، أن العرب تقاتل العرب ، واليىنشرية تقاتل العزب ، فتجهزت الأمراء والعربان ، وخرجوا إلى حومة الميدان ، وصحبتهم المدافع العظام .

وكذلك الأمير محمد بيك [أمير الصعيد] خرج بعسكره وجنوده ، وعربانه وأحراره وعبيده ، وركب المدافع على السواقي مع القصر ، لضربهم من أتاهم من البر والبحر ، فركبت العربان على العربان ، ونزلوا في حومة الميدان ، وكذلك العسكر على العسكر ، ومن صلى على سيدنا محمد يربح ولا يخسر .

ثم إنهم حطموا على بعضهم بعضاً بالسيوف والمزاريق ، فتضايق الفريقان
٥٤ غاية الضيق ، وصار لايعرف أحد أحدا من الغبار ، وضرب // المدافع وحر الشمس والنار ، فلا يرى إلا رءوس طائرة ، ورجال وشجعان نافرة ، فهم في هذه الحالة والشدة ، إلا وعبد الله أوضا باشا أتته جنده ، وكانوا نحو مائتين بارودية ، فتقوت جماعة العزب على الينشرية ، فتقهقروا إلى ورا ،

= عظماء مشايخ العرب بالقليوبية ومسكنهم « دجوة » . وحبيب أصله من قرية « شطب » من قرى أسيوط ، « واشتهر حبيب بالفروسية ، وعظم أمره ، وطار صيته ، وكثرت جنوده وفرسانه وخيوله ... وصار له خفارة البرين الشرقي والغربى من ابتداء بولاق الى رشيد ودمياط ، وكان هو وفرسه مقوما على انفراده بألف خيال » . (ج ١ ص ٣٤٥) .

فأعلموا الأمير أيوب بيك بما جرى ، فخرج وحض الرجال ، على النزول للحرب والقتال ، وزعق على الفرسان ، ونزل في حومة الميدان ، فتبعه الأمير محمد بيك بسائر العربان ، وكذلك الأمير رضوان أغا كومليان ، وأحمد أغاة التفكشية ، وعمر أغاة الجركسية ، وقاتلوا قتال الجبابرة ، وقدموا الدنيا على الآخرة ، وضربوا المدافع فأدوت الأرض ، فخرجت الجلل من أفواها بالعرض ، وحاصروا الأمير محمد بيك الصغير وجماعة من
العربان ، وأحاطوا بهم من كل جهة ومكان ، فما شعروا إلا بجماعة// من ٥٥
العزب أتتهم من اليسار ، فخلصوه منهم وسائر الأنفار ، فرجع الأمراء سالمين ، وكذلك الأمراء الآخرون ، ووقع خلق كثير من الفريقين .

ولما أصبح الله الصباح ، وأضاء بنوره ولاح ، طلع كل منهما بالعساكر[1] وهم كالأسودة الكواسر ، فزعق الجزار على الرجال ، وقال : الحرب يا أبطال ، وكذلك الأمير أيوب والأمير محمد بيك أمير الصعيد ، زعقا على الأحرار والعبيد ، فتلاقت الشجعان والفرسان ، ونزلوا في حومة الميدان ، وضربوا المدافع والبندقيات ، والزربطانات والجمقمقيات ، فدكست العزب على الينشرية ، وطردوهم عن العينية ، وأيضاً عن سواقي القلعة ، فخرجوا عنها دفعة دفعه ، وأخذوا منهم المدافع ، وطلعوا فوق تلك المواضع .

فلما رأى الأمير أيوب بيك هذا الحال ، دخل في غيط يريح نفسه من القتال ، وصحبته من الغلمان نحو الخمسين ، ولم يعلموا أنهم من الهالكين//
فأخبر العزب أنهم في الغيط المجاور للقصر ، فركبوا عليهم وحاصروهم ٥٦
غاية الحصر ، فما ساعه إلا الهروب من الغيط ، وركب جواده وقصد البيت . وأما غلمانه فلم يمكنهم الهروب ، وصاروا في أشد المتاعب والكروب ، ونزل بعضهم في الساقية ، وقالوا لعل أن تكون واقية ، فهجموا عليهم

---

(١) فى « تاريخ وقائع مصر » (ص ١٤٣ ، ١٤٤) ، أن الموقعة كانت عند القصر العينى . وأن محمد بك « ركب بطائفة من هوارة من قدم (أثر النبى) وجرٌ قداموا (أمامه) مدفعين بأربعة خيل الى قصر العينى وقدام المدافع امراة صعيدية وبيدها جريدة خضرة تنقوّل عليهم (تحمسهم) » . ثم ضرب أحد الخصوم المراة بالسيف « لم علّم فيها ، واذا بقواس بيده نبوت شوم من غير جلبة ضربها فى جدر رقبتها مطّها وقعت ميتة واخذوا من على صدرها حجاب » .

جماعة العزب ، وأتعبوهم غاية التعب ، وقتلوا من نزل في الساقية ، وبعضهم توارى في الحواصل ، فقطعوا رؤوسهم وخلت منهم المنازل ، ووجدوا أربعة من المماليك الصغار ، فأخذوهم ورجعوا قاصدين الديار .

وكان مع الأمير محمد بيك [أمير الصعيد] امرأة فاجرة ، أتت من الصعيد وقيل [إنها] ساحرة ، فبادر إليها رجل من الشجعان ، وقطع رأسها في حومة الميدان(١) .

فلما رآهم الأمير قيطاس بيك – لما رأى الأولاد الصغار – شكرهم على قتلهم ، وقال لهم : من سيدكم ؟ فقالوا : الأمير أيوب بيك . فكساهم//
٥٧ الجوخ النفيس والشاشات(٢) والقفاطين التى تليق بهم ، وأعطى لكل واحد دينارين وركبهم الخيول وأرسلهم إليه ؛ وكان الأمير أيوب بيك سبق له مثل ذلك ، فإنه صنع بغلمان الأمير قيطاس بيك كذلك ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وكما تدين تدان .

وأما الأمير يوسف بيك والأمير محمد بيك [الصغير] والأمير عثمان بيك توجهوا إلى بيوتهم ، ومعهم الرءوس المذكورة على أخشات وجريد إلى أن وصلوا إلى بيوت الأمراء وكان يوماً مشتهراً ؛ وقيل إنه وقع من الفريقين أكثر من مائتين ، وصار القتلى على بعضهم بعض ، وقد رممت منهم الأرض .

ثم إن الأمراء باتوا تلك الليلة ، يدبرون ويقولون كيف الحيلة ، وكيف الوصول إلى أخذ ثأر سيدنا ، فلا نرجع حتى نموت عن آخرنا ، فتعاهدوا على هذه المكائد ، وكانوا على قلب رجل واحد ، حتى الأمير قيطاس بيك
٥٨ شم من خاصة أتباعه أنه ملاحياً(٣) عليه ، وكان أميراً عظيماً ذا أموال//كثيرة وخيول وخدم ، فأمر بإحضاره وقطع رأسه وأمر بنهب داره ، وأخذ جميع عبيده وجواره ؛ ولقد أحسن من قال :

تحذر من صديقك كل يوم ... وبالأسرار لا تركن إليه
سلمت من العدو فما دهاني ... سوى من كان معتمدى عليه

---

(١) انظر الحاشية السابقة .
(٢) الشاشات : جمع « الشاش » . والشاش طاقية صغيرة غالبها من الصوف وعليها عمامة صغيرة . (الخطط التوفيقية ، جـ ١٢ ص ٢٦) .
(٣) بالأصل : ملاخيا . والملاحاة المنازعة ، والمقصود هنا المخالفة .

فلما عاين النمامون ذلك [علموا] أن من تلاحى[١] كان هالك .

وأما الأمير أيوب بيك ، اجتمع عليه الأمير محمد بيك [أمير الصعيد] وقال له : [لقد] طال المطال ، ونحن على هذا الحال ، وقتل منا ومنهم خلق كثير ، وهذا من شؤم الرأى والتدبير ، فاتفقا على إرسال مكاتبة إلى أمراء العزب ، مضمونها : نرفع الخصام والغضب ، بنفى الثمانية وقتل الأمير[٢] ، وإبقاء أحمد أوضا باشا وعزل الوزير . فلما وصل إليه ذلك الكلام[٣] ، تيقن بعدم رفع هذا الخصام ، فلما أصبح بادر إلى الحرب والقتال ، بجميع العربان والأبطال ، وأرسل إلى حبيب وبقية العربان ، إنكم تكمنون في الجنائن// والغيطان ، إلى أن تخرج علينا العساكر ، فتخرجون ٥٩
عليهم خرجة الكواسر ، وأنتم من وراء ونحن من أمام ، ولا تقصروا في ذلك والسلام .

فلما وصل إليهم الكتاب ، خرج من شبرا وصحبته الشباب ، فجاء الخبر إلى الأمير يوسف الجزار ، أن حبيبا[٤] أتي إلينا وسار ، فأمر بقفل أبواب مصر ، باب الفتوح وباب النصر ، فبعد ساعة أقبلت العربان ، وأحاطوا بمصر من كل مكان ، فتحيرت الناس من ذلك ، وتيقن كل شخص إنه هالك ، فخرج الجزار والأمراء من أمام ، وجماعة من وراء ، وجماعة نحو العساكر تقف تجاههم وتحاصر ، وصحب معه المدافع وآلات الحرب ، وقصد نحو حبيب وبقية العرب ، فضربوا عليهم طلقاً من المدافع والبندقيات ، فلما رأوا ذلك لم يقدروا على ثبات ، وشتتوهم من تلك الأماكن والجهات ، وقتلوا من عربانه كثير ، وصاروا غذاء للوحوش// والطير ، ٦٠
فرجع إلى بلاده وولى[٥] ، وخاف من الجزار لأنه على بلاده تولى[٦] .

(١) بالأصل : تلاخى .
(٢) المقصود به الأمير حسن حاكم اخميم (انظر ما سبق) .
(٣) يبدو أن هنا سقطا حدث سهوا من المؤلف ، والسقط هو رد العزب على أيوب بك برفض اقتراحه ، فلما وصله الرفض استانف القتال . ولم يذكر « تاريخ وقائع مصر » ولا الجبرتى هذا الخبر .
(٤) فى الأصل : حبيب .
(٥) بالأصل : وولاً .
(٦) بالأصل : تولاً .

ثم إن الينشرية دكسوا على العزب وأخذوا قصر العينى وتعالوا عليهم وصاروا يرمونهم بالنار ، والرصاص والأحجار ، فتقهقرت العزب إلى وراء ، فلما رآهم الأمير يوسف الجزار ، قال لهم : ما سبب انهزامكم ؟ فقالوا : تعالوا علينا فوق القصر ، وحاصرونا أشد الحصر. فقال : ما يكون إلا خير ، ويزول عنا وعنكم الضير ، فبادروا إلى الركوب ، وقست منهم القلوب ، وساروا جهة القصر ، وكان وقتهم قبيل العصر . فلما رأوهم الينشرية من بعيد ، ضربوا المدافع بالحلل والجديد[1] ، فدكست العزب على القصر وأطلقوا النار في أخشابه ، فهاجت النار في السقف ، فولوا هاربين منه ، وجلس العزب أمام القصر ينظرون إلى النار ولهيبها ، ثم إنهم رجعوا إلى بيوتهم ، ولم يقع في ذلك النهار من الرءوس أحد[2] ، ولم يقع إلا الأنفار والخدم . //

٦١ ثم إنهم باتوا تلك الليلة ، وكل من الفريقين متحير ما يصنع ، فإن السيوف كلّت ، والرجال قلّت ، والأموال نفدت ، والخيول تعبت ، واتفقوا[3] على حرق الجنينة التى أنشأها أحمد أوضا باشا في طريق بولاق وهدمها وأخذ ما فيها . وتلك الجنينة ذات أشجار وأزهار ، وغرف وقصور ، وحوت جميع الطيور ، وجعل فيها واسعاً لأجل الدجاج ، والخراف والنعاج ، وفيها الحواصل مملوءة من القمح والفول ، والشعير والتبن والأرز وسائر البقول . ولما أصبح الله الصباح ، وأضاء بنوره ولاح ، توجهوا إليها وأرموا النار عليها ، ونهبوا جميع ما ذكر .

فلما وصل الخبر إلى أحمد أوضا باشا تنكد غاية النكد ، ولكنه أظهر الصبر والجلد ، وكذلك بقية أمراء الينشرية ، أصبحوا في حيرة وبلية ، واتفقوا على حرق بيوتهم[4] الكائنة في مصر القديمة المعدة للنزه والسرور ،

---

(١) لعل المؤلف يعنى « الفلوس الجدد » التى ذكرها الجبرتى (جـ ١ ص ٤٤) حيث يقول ان العزب أعدوا « مدفعين ملآنين بالرش والفلوس الجدد » والفلوس الجدد عملة من النحاس ، استعملها العزب ذخيرة للمدافع.

(٢) يقصد المؤلف انه لم يقتل أحد من الأمراء أو غيرهم من القواد .

(٣) المقصود بهم خصوم افرنج أحمد .

(٤) اى بيوت خصومهم .

ودفع الهموم والشرور ، وتلك البيوت على شاطئ // النيل السعيد تجاه الروضة ٦٢
والمقياس ، وفيها الأشجار المثمرة بأنواع الفواكه ، فبادروا إلى بيت الأمير
حسن كتخدا فنهبوا جميع ما فيه ، وهدموا بنيانه ، وحطموا أركانه ،
وحطموا أركانه ، وحرقوا الأخشاب ، وأخذوا الشبابيك والأبواب ،
وقالوا واحدة بواحدة جزاء ؛ ثم توجهوا إلى بيت محمد أفندى جاويشان ،
فنهبوا جميع ما فيه في أسرع زمان ، وكل ذلك بالقضاء والقدر ، وسبب
وقوعه التجبر والتكبر والبطر ؛ ولله در من قال :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر — على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه[1] — إلى طبقات الجو وهو وضيع

هذا ما كان من أمر هؤلاء .

وأما ما كان من أمراء العزب ، فإنهم ضاقت نفوسهم ، وتعبت قلوبهم ،
وقالوا هذا الأمر قد فزّع الناس[2] ، وصار جميع الناس في وسواس ،
ونخاف من تطرقه من حارة إلى حارة ، فتصير الخلائق في دهشة وغارة ،
ويتولد من هذا ضرر كبير ، ويتأذى // منه الغنى والفقير ، فكفوا عن هذه[3] ٦٣
الفعال ، وبادروا للحرب والقتال ، [وقالوا] فلا نبرح ، حتى نفرح أو
نترح ؛ فاتفقوا جميعاً على ذلك ، وخرجوا من جميع المسالك ، وصاروا
كالجراد المنتشر حتى ملأوا البرارى والقفار ، ومعهم الأسلحة وآلات النار ،
فلما رآهم الأمير محمد بيك نادى على الرجال ، وقال لايبرز أحد منكم
للحرب والقتال ، فإني أخاف في هذا اليوم ، على هلاك الرجال والقوم ،
لكن قفوا مكانكم ولا تظهروا الهزيمة ، لعل أن تكون العاقبة سليمة ؛ فلم
يبرز أحد منهم للضرب ، ولم يقع في هذا اليوم حرب ، فانقضى نصف
النهار ، وثار عليهم الغبار ، واشتد الحرب وهاج ، وصاروا كبحر متلاطم

---

(١) بالأصل : يعلوا .

(٢) يسجل المؤلف هنا ضيق القاهريين بهذه الحرب فأخذوا يتذمرون ، الأمر الذى أقلق المتنازعين ، فقرر خصوم افرنج أحمد على الاجتهاد فى القضاء عليه فى أسرع وقت قبل أن يثور القاهريون عليهم .

(٣) بالأصل : هذا .

الأمواج ، فاتفق رأيهم[١] أن يتوجهوا إلى بيت الأمير أيوب بيك ويهجموا عليه ، بضرب المدافع والبندقيات ، ويخلوا السكك والطرقات .

وكان الأمير أيوب بيك قد حصن بيته بالعساكر والجنود من كل جهة ،
٦٤ وركّب على أسواره المدافع ، وعلى الباب//من جهة الشارع ، ومن جهة زين العابدين وجميع الأماكن[٢]المجاورين، ومن جهة بيت الأمير إبراهيم بيك أبو شنب ، وكل ذلك خوفاً من هجمة العزب ، ومن قلعة الكبش وجامع ابن طولون ، وأمر المغاربة القاطنين ، أن يكونوا لبيته محافظين ، وصار العساكر من قناطر السباع إلى الصليبة ، فأضحت الرعية منهم في مصيبة ، وبجواره بيت عمر أغا جراكسة ، ملأه رجالاً بالدروع لابسة ، وكذلك بيت محمد بيك أمير الصعيد ، وضع فيه كل بطل وصنديد ، وبيت أحمد أغا تفكجيان ، فيه الرجال والغلمان ، وبيت سليمان أغا كتخدا الجاويشية ، وبيت رضوان أغاة الجملية ، وبيت الأمير إسماعيل بيك كذلك ، وضاقت الطرق والسكك ، وكل هذه المواضع ركبوا فيها المدافع ، وكذلك الكيمان والجنائن المحيطة بتلك الأماكن .

وبيت الأمير أيوب ، قد خلت منه العيوب ، قد حوى كل المحاسن//
٦٥ وفاق على كل الأماكن ، بالجنينة الحاوية لسائر الأشجار ، وكل الفواكه والمشموم والأزهار ، وخلفها بركة من ماء النيل ، على حافاتها الأشجار والنخيل ، وفي وسطها قصر متين ، يشرح القلب الحزين ، يسمع منه أصوات الطيور ، من بلبل وشحرور ، وقمرى وكيروان ، يسبح الرحيم الرحمن ، لهم هدير وغدير ، والرياح لها صفير ، قد حوى كل الفنون ، وهو نزهة للعيون ، والأمير أيوب بيك من العز في غاية ، والترفه والتنزه في نهاية ، شاع ذكره في جميع البلدان ، وهابه جميع العربان ، وتولى على الحاج من السنين عشرا ، وكانت توليته على الناس خضرا ، وانتهت له الرياسة في مصر ، وله السيادة في البر والبحر ، شابه السلطان في الكلمة المسموعة ، والرتبة المرفوعة ،

---

(١) المقصود بهم خصوم افرنج أحمد وأيوب بك .
(٢) بالأصل : الأماكين .

لكنه سعى في ذلك بالنقض ، ولله ميراث السموات والأرض ، يورثها من يشاء من عباده ، لا دافع لقضائه ومراده ، ولقد // أحسن من قال : ٦٦

إن أقبل(١) السعد قم قائماً — واقبس من السعد إن شئت نارا
وإذا(٢) رقد السعد فارقد له — فما جرى في العكس إلا خسارا

وقال آخر :

إذا تم شيء بدأ نقصه — ترقب زوالا إذا قيل تم

ثم إن العساكر لما هاج عليهم الحر ، أيقنوا بالهلاك من القهر ، وقالوا لا نرجع عن أخذ هذا البيت ، ولو صار منا كل حي ميت ؛ فأرسلوا طائفة ينظرون الطريق ، وهل يمكنهم الوصول والتطبيق ، فسار الرجال والشجعان ، وليس الخبر كالعيان ، وولى الجيش ورجع ، فأخبروا الأمراء بما وقع ، فتوجهت الأمراء إلى بيوتهم متحيرين ، وعلى عدم أخذ البيت منكدين ، فتعبت الأبدان ، وقتلت الغلمان ، وزهقت نفوسهم ، وتفرقت جموعهم ، واشتد الكرب ، وطال الحرب ؛ ولقد شبهت وصولهم إلى أخذ هذا //البيت ٦٧ بقول القائل :

كيف الوصول إلى سعاد ودونها — قلل الجبال ودونهن حتوف
والرِّجْلُ حافية ولالى مركب — واليد صفرا والطريق مخوف

وقد أيست الناس من الخلاص من هذه الفتنة ، والنازلة والبلية والمحنة ، وانقطع عن الناس معاليم الوظائف والجوامك(٣) والأرزاق ، وتعطلت الأسباب في الأسواق ، فالأمر لله الواحد الخلاق .

ثم إن الأمراء مكثوا ثلاثة أيام ، وهم جالسون في بيت قائم مقام(٤) ، فدبروا أنهم يرسلوا منادياً ينادى : كل من له جامكية ، من عزب وينشرية ،

---

(١) بالأصل : اقبلت .
(٢) بالأصل : واذ .
(٣) الجوامك : مفردها ، جامكية ، وهى الرواتب عامة (السلوك : جـ ١ ص ٥٢ حاشية ٢) .
(٤) فى الجبرتى (جـ ١ ص ٤٥) أن الأمراء خصوم أيوب بك وافرنج أحمد ، اجتمعوا فى اليوم الثانى من شهر جمادى الأولى سنة ١١٢٣ ، وتنازعوا بسبب تطاول الحرب وامتداد أيامها ، ثم اتفقوا على اصدار البيان المذكور فى النص .

وجراكسة وتفكشية ، ومتفرقة وجملية ، فليحضر إلى بابه[١] ، ويلازم على أعتابه ، ومن لم يحضر بعد ثلاثة أيام ، ليس له عندنا إلا الحسام . فنادى المنادى في الأزقة والأسواق ،لتسمعه أصحاب الجوامك والأرزاق ، وأيضاً كتبوا إلى الكواخى الذين عند أحمد أوضاباشا والأنفار : إن من لم ينزل إلى
٦٨ دياره ، أخذنا جميع ماله وعبيده//وجواره ، ومن نزل وأتي إلينا، يصير من المحسوبين علينا . فلما وصلت إليهم التذاكر ، وصار علمها عند كل غائب وحاضر ، فلم يقدروا على رد الجواب ، وغاب عن رأيهم الصواب .

وأما أحمد أوضا باشا فإنه قطع التذكرة ، وقال : هذا ليس لهم عليه مقدرة .

[وأما الأنفار] فبعضهم ربط نفسه في السَّلَب ، ونزل من السور وهرب[٢] ، واجتمع بهم وأخذ الأمان ، وحفظ النفس والأوطان .

وأما أرباب المناصب والجوامك والأرزاق ، خافوا من النهب والسلب والإحراق ، فاجتمع عليهم خلق كثير من الينشرية وانضموا إليهم ، وقالوا : نحن وأنتم جميعاً عليهم ، فولوا كتخدا للينشرية ، وعلى أغا جاويشية ، وصار بيتهم بيت الوالى ، كل ذلك وأحمد أوضاباشا لا يبالى ، ويضرب في الليل والنهار المدافع ، على باب العزب وجميع المواضع ، وكذلك العزب يضربون من [جامع] السلطان حسن ، وكل ما ذكرت من الجهات والمساكن والوطن ؛
٦٩ فمكثوا ثلاثة أيام // بعد المنادية والناس تأتيهم وأكثرهم ينشرية .

ثم لما كان يوم الأحد المبارك ، السادس من شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة ، رتبوا الجيوش والعساكر المشهورة ، وفرقوهم من كل الجهات، ووصتهم الأمراء بالثبات ، فخرج عبد الله أوضا باشا بالغلمان ، والعساكر الشجعان ، وناداهم فقالوا الكل لبيك ، وأمرهم بالدخول من بيت الأمير إبراهيم بيك ، فنقبوا منه إلى بيت الأمير عمر أغا ، وقالوا إنه تجبر علينا

---

(١) اى الى أوجاقه . والمراد من العبارة ، أن على كل جندى مشترك فى هذه الحرب الى جانب افرنج أحمد وأيوب بك أن يترك القتال ويلتحق بأوجاقه فورا ، وذلك لاضعاف افرنج أحمد وأيوب بك .

(٢) المقصود بالهاربين ، رجال افرنج أحمد وأيوب بك ، ملبين النداء خوفا من اخراجهم من أوجاقاتهم وقطع رواتبهم .

وطغى ، فلما دخلوا نادوا جميعاً ، الله الله ، فهرب من فيه سريعاً ، ولم يثبتوا للحرب ، والقتال والضرب ، فاشتغل سائر الرجال ، بنهب الذخائر والأموال ، فزعق عبد الله أوضا باشا عليهم ، وخاف أن تأتي الرجال إليهم ، وقال : ضعوا جميع المتاع ، في وسط الحوش بلا نزاع ، ولما نتمكن خذوه جميعاً .

ثم إنهم نقبوا ذلك البيت ، فوصلوا إلى الربع المجاور لبيت الأمير أيوب
بيك ، ونقبوا بيوته//سريعاً ، فلما وصلوا إلى القصر المطل على الباب طردوا ٧٠
من فيه وهربوا إلى المقعد ، فتعالوا عليهم بطلوعهم على الأسوار وضربوا البندقيات عليهم ، وقتل منهم خلق كثير .

فلما رأى عسكر الأمير أيوب بيك أنهم ظفروا بادروا إلى الهروب ، فزعق عليهم الأمير أيوب ، وجرد سيفه على الرجال ، وحرضهم على القتال ، فلم يقدر على رجوع واحد ، وصار في أشد الشدائد ، ولم يبق عنده سوى الغلمان ، وهربت منه جميع الشجعان ، فزاد عليهم العزب بالضرب ، وشدوا نفوسهم للحرب ، فبرزوا غلمانه إليهم ، وضربوا النار عليهم ، فمنعوهم عن الوصول إلى المقعد والحريم .

فلما رأى أيوب بيك زيادة الحال ، عرف أنه هالك لا محال ، فأمر بعض غلمانه بأخذ ما يحتاج إليه وكل شيء قدروا عليه ، ونودى الخروج منه ، والتوجه والذهاب عنه ، فشد الرجال الرحال(١) ، وحملوا ما قدروا
من الأمتعة // والمال وبرزوا إلى الخلا ، وهو يقول لا حول ولا ، وأخرجوا ٧١
من الخيل قليلاً ، وصار هذا العزيز ذليلاً ، وقد تحير في أمره ، وحار في فكره ، وعزم أن لا يبرح من مكانه ، ولا يفارق جميع أهله وأوطانه ، وعبيده وأجناده ، ونسائه وأولاده ، وقال : دعوهم يقتلوني ومن الدنيا يريحوني ، فأخرجه الغلمان غصباً من البيت ، وطلعوا به وراء الغيط ، فوقف على الكوم ينظر إلى بيته ويتحسر ، وبالوصول إليه لم يجسر ، وزادت به الهموم والغبون(٢) ، فسبحان من يقول للشيء كن فيكون ؛ طالما تمت له

(١) بالأصل : والرحال .
(٢) الغبن : ضعف الرأى .

النعمة بأوصافها ، وطابت له السعادة بإسعافها ، فغرت به الأيام والليالى ، ولقد أحسن وأجاد من قال :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها
وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ثم إن الطائفة الأخرى فتحت الباب ، ودخلت الناس بلا حساب ، وأخذوا جميع الذخائر والنتائج ، والفرش والأمتعة والحوائج ، وبعد ذا //
٧٢ أضرموا النار فيه ، وكل من عمل شيئاً فهو ملاقيه ؛ وأيضاً أوقدوا النار في بيت الأمير عمر أغا ، وسر بذلك الخلى ومن بغى[1] .

وأما بقية الأمرا ، لما علموا بما جرى ، خرجوا من بيوتهم إليه ، وصاروا جميعاً لديه ، وهم : الأمير رضوان أغا كومليان ، والأمير سليمان أغا جاويشان ، والأمير محمد أغا متفرقة ، وقلوب الجميع ممزقة ، وصحبتهم قليل من الغلمان ، وتركوا الديار والأوطان ، فلما عاينوا إلى بيته قد انملك ، فقالوا لبعضهم كل من رجع إلى بيته هلك ، وأرسل كل منهم بعض غلمانه ، إلى جواره ونسوانه ، ليخرجوهن من البيوت والمجالس ، ويأخذن ما يقدرن عليه من الملابس ، فذهب الغلمان إليهن ، قبل دخول الرجال عليهن ، وأخرجوهن من تلك القصور ، إلى بيوت بعيدة عن الشرور ، وأخذن ما قدرن عليه من الملابس الغالية ، وتركن الديار بما فيها من الذخائر خالية .

وأما الأمير عمر أغا ، فإنه أرسل حريمه وبعضاً من المال إلى بيت أبيها
٧٣ الأمير إسماعيل // بيك ، قبل ذلك الحال .

وكذلك الأمير أيوب بيك أرسل جميع جواره ونسوانه قبل ذلك إلى بيوت إخوانه .

وأما الأمير محمد بيك أمير الصعيد [لما] رأى لهيب النار من بعيد ، فهيأ الرجال والمراكب ، وشد الرجال الرحال على النجائب ، وطاب لهم

---

(١) بالأصل : بغا .

الريح وحلوا القلاع ، وطلبوا الصعيد وخافوا الضياع ، وسار في البر على النجائب وبعض قومه على المراكب .

وأما الأمير أيوب بيك وجميع الأمرا ، ركبوا الخيول وساروا إلى طرا ، فنزلوا وأكلوا ما تيسر ، وكل منهم يبكي ويتحسر ، على فراق أهله وأولاده ، وبيته وغلمانه وأجناده ، وطلعوا من الجبل قاصدين الديار الرومية[١] ، يشكون أهل مصر المحمية ، وخرجوا هائمين على وجوههم[٢] ، ولم يتبعهم إلا القليل من أتباعهم وجنودهم ، ولقد أجاد من قال :

دعوى الإخاء مع الرخاء كثيرة عند الشدائد تعرف الإخوان

وأما الأمير عمر أغا جراكسة أخذ بعض أمتعته وملابسه ولحق بباب
٧٤ الينشرية ، وصار في دهوة //وبلية ، وأخبرهم بما جرى ، فطلعوا على الأسوار ، فنظروا إلى لهيب النار ، فأيست الينشرية من الحياة ، وصاروا يقولون : وامصيبتاه .

ثم إن أمراء العزب توجهوا مع طائفة إلى بيوت هؤلاء الأمراء ، فكسروا العساكر الذين في قلعة الكبش والحدرة ، فولوا الجميع هاربين ، وصاروا الكل مهزومين ، ودكسوا على تلك البيوت ، ودخلها كل صعلوك وهلفوت ، ونهبت الفرش والوسائد من الخزنات والمقاعد وسائر الأمتعة والملابس والصناديق المملوءة بالنفائس ، وأوقدوا النار في الأبواب والسقف وسائر

---

(١) الديار الرومية : أى اسلامبول عاصمة السلطنة العثمانية . والديار الرومية وبلاد الروم ، اسم أطلقه المسلمون القدامى على منطقة آسيا الصغرى التى كانت تحكمها الامبراطورية الرومية أو البيزنطية قبل أن يستولى عليها المسلمون ، ولذلك كان المسلمون يطلقون على السلطان العثمانى « سلطان الروم » ، انظر أيضا ما سبق ص ٣٥٨ حاشية ٣

(٢) فى « تاريخ وقائع مصر » (ص ١٦٠) أن أيوب بك بعد أن فر من بيته — وقبل أن يخرج من مصر — ، « أخذ رضوان أغا » وطلع للباشا والقاضى ، وقال له الباشا : مالك وجهك متغير ؟ فأجابه : سلامتك يا سلطانم ، ولت علينا ، وأنتم لم يجرى (كذا) عليكم شيء خلاف نزولكم (يعنى عزله) وأما نحن يقتلونا لم يبقوا منا أحد (كذا) اكتبوا لنا مكاتيب للدولة (أى للحكومة العثمانية) ونأخذ الفتوى معنا بالوصية واننا كنا متمسكين بالحاكم والشرع الشريف قويوا علينا وأخرجونا من ديارنا ، واذا الباشا والقاضى كتبوا لهم مكاتيب على مرادهم ، أخذهم أيوب بك فى يده ».

الأخشاب ، وانفتحت الطريق إلى الصليبة ، وكان يوماً شديد الصعوبة ، وهدمت جميع المتاريس ، وزال الحرب والتعكيس ، ومشت الناس إلى الرميلة في هذا اليوم يتعجبون ويتفرجون في صنيع القوم ، وكيف قدروا على أخذ تلك المحلات ، وفتح تلك السكك والطرقات(١) ؛ ولقد أحسن من قال : //

(٢) . . . .)

٧٥ وعاين الضيق ، أيس من الحياة ، وطلب النزول والأمان(٣) ، وكذلك جميع الكواخي وأحمد أوضا باشا نادوا بالأمان ، ونصبوا الراية البيضاء الدالة على عدم المحاربة والقتال ، وفتحوا باب الجبل .

---

(١) ذكر على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية (جـ ١ ص ٥٨) الأحياء التى خربت فى القتال ، وهى أحياء : الدرب الأحمر ، والمحجر ، وثمن قوصون ، وسوق السلاح ، وخط الداوودية ، والصليبة ، والسيوفية ، والخليفة ، والعمارات التى كانت جهة قصر العينى ، وبركة الناصرية وما جاور ذلك الى مصر العتيقة ، وخط السيدة زينب .

(٢) يقع هنا النقص الثانى فى المخطوط . وفى ذيل ص ٧٤ من المخطوط لفظ « ضاقت » للاشارة على أن الصفحة التى بعدها تبدأ بهذا اللفظ ، ولعل اللفظ هوبداية البيت المعروف : ضاقت فلما استحكمت حلقاتها . . . . . .

(٣) المقصود به الوالى العثمانى خليل باشا ، حيث يذكر صاحب « تاريخ وقائع مصر » (ص ١٦٥) والجبرتى (جـ ١ ص ٤٦) ، أنه بعد خروج أيوب بك من مصر ، أرسل الأمراء ــ خصوم أيوب بك ــ طائفة من الجند الى جبل الجيوشى ، فركبوا مدافع على محل الباشا ومدافع على القلعة ، وأحاطوا بالقلعة من أسفل ، وضربوا ستةمدافع على الباشا فنصب خليل باشا بيرقا ابيض يطلب الأمان . ويذكر الجبرتى (نفس الجزء والصفحة) المفاوضات التى دارت بين الباشا وبين الأمراء المحاصرين له ، فقال : « فأرسل الباشا القاضى ونقيب الأشراف يأخذان له أمانا من الصناجق والعسكر فتلقوهما وأكرموهما ، وسألوهما عن قصدهما ، فقالا لهم : ان الباشا يقرئكم السلام ويقول لكم : انا كنا اغتررنا بهؤلاء الشياطين وقد فروا ، والمراد أن تعلمونا بمطلوبكم فلا نخالفكم . فقالوا لهما : أعلموه أن الصناجق والأمراء والأغوات والعسكر قد اتفقوا على عزله ، وأن قانصوه بيك قائممقام ، وأما الباشا فانه ينزل ويسكن فى المدينة الى أن نعرض الأمر على الدولة ويأتينا جوابهم ، فأرسل القاضى نائبه الى الباشا يعرفه ذلك ، فأجابه بالطاعة واستأمنهم على نفسه وماله وأتباعه ، وركب من ساعته فى خواصه يقدمه قائممقام وأغات مستحفظان عن يمينه وأغات المتفرقة عن شماله ، واختيارية الوجاقات من خلفه وأمامه ، ونزل من باب الميدان ، وشق من الرميلة على الصليبة ،والعامة قد اصطفت يشافهونه بالسب واللعن ، الى أن دخل بيت على أغا الخازندار » .

وأما بقية الأمراء خرجوا بجميع الأنفار إلى الرميلة كعادتهم عند نزول الوزراء ، وأرسلوا إلى الوزير : إنك تنزل من القلعة أنت ومن عندك بالسرعة والعجلة ؛ وكان عنده قاضي قضاة الإسلام ، ونقيب السادة الأشراف الكرام ؛ فلما وصل إليهم الكلام ، بادروا إلى القيام ، وقالوا بشرط إعطائنا(1) الأمان . فأخبروا الأمراء بذلك ، فقالوا جميعاً : لهم ذلك . فنزلوا من باب الجبل ، فأحاطت العساكر بهم من كل جهة ؛ فلما وصلوا إلى الرميلة ، بادرتهم بقية الأمراء وقابلوهم أحسن القبول ، وتوجهوا بالوزير إلى بيت الأمير سليمان بيك ورسموا عليه(2) ، وكذلك القاضي ونقيب الأشراف توجها إلى بيوتهما ومعهما(3) العساكر والجنود يحفظونهما // من ٧٦
السفهاء ، فسبحان المعز المذل .

وأما الأمير على حسن كتخدا [فقد] بادر بالخروج من باب الجبل صحبة الوزير ، فعرفه بعض الأمراء ، فأخذ السيف وقطع رأسه .

وأما الأمير عثمان كتخدا ، فإنه نزل من البدرم واستجار بالعزب فأجاروه ؛ وكذلك إبراهيم أفندى ، وعمر كتخدا وغيرهم نزلوا إلى بيوتهم سالمين .

وأما بقية الكواخى وأحمد أوضا باشا سلّموا وأرادوا النزول من المحجر ففتحوا الأبواب وأرسلوا إسماعيل أفندى إلى الأمير ناصف كتخدا وبقية الأنفار : إنكم ترسلوا لنا الأمان ونحن ننزل من غير مخالفة ، فلما وصل إلى الباب رأى العساكر لاتعد ولا تحصى وهم ساحبون السلاح ، فخرج إليهم ، وقبّل أياديهم ، وقال لهم : إن الكواخى وأحمد أوضا باشا يطلبون الأمان ؛ فقالوا : لهم ذلك . فأرسلوا إليهم المصحف ، فطلع به إليهم ، فقالوا له : قل للأمير ناصف كتخدا وبقية الأنفار ، إنهم يضمنونا وكل أمير يضمن أميرا ، فنزل // إليهم وأخبرهم بذلك ، فبادر إليه رجل وقال له : ٧٧

---

(1) بالأصل : اعطاء .

(2) رسموا عليه : أى اعتقلوه وتحفظوا عليه .

(3) بالأصل : ومعهم .

أنت الآن صرت رسولاً لهم ! وضربه بجقمقية[١] في بطنه فوقع على الأرض وقال : الأمان الأمان ، وذكر الشهادة مراراً ، وضربه آخر[٢] ببندقية ، وضربه آخر بسيف على أكتافه ، وآخر على أفخاذه ، وآخر وضع رجله على صدره ومسك ذقنه وقطع رأسه .

وأما الأمير عمر أغا ، فإنه كان مطلوق القياد يتوجه إلى أى بلدة أراد ، فلما صار عند الينشرية ، حبس نفسه وصار في بلية ، ولم يمكنه التوجه مع الأمير أيوب بيك ولا مع الأمير محمد بيك ، فبادر وقد غير ثيابه ، ونزل بالحبال إلى حارة الحطابة حتى وصل إلى ميضأة النظامية ، فأرمى نفسه إلى المقابر المنسية ، فشاع الخبر أن الأمير عمر أغا هرب ، ونزل من السور بالحبال والسلب ، فخرجوا إليه كالكواسر ، فرأوه يجرى حافياً وسط المقابر ، فبادروا عليه برمى الرصاص ، فأيقن بالموت وعدم الخلاص ، وزاد به التعب // ، والشدائد والكرب ، ووقع على قبر فأين المفر ، ولسان ٧٨
الحال قال هنا المقر ، فلحقه رجل وبادره بالشتم ، وضربه ببلطة على رأسه فسال منها الدم ، وأحاطوا عليه جميع الرجال ، وصار منهم في أسوإ حال ؛ وأيضاً خرج عبد الله أوضا باشا إليه ، فوضع يده على رقبته وقبض عليه ، ومسكت الرجال أطواقه ، وضيقوا أنفاسه وأخلاقه ، وساروا به إلى باب العزب ، فلما رأوه الأمراء عاتبوه أشد العتب ، وصار واقفاً أمامهم ذليلاً ، بعد أن كان في عزه جليلاً ، فأرسلوا الخبر إلى الأمراء وقائم مقام : إنا قبضنا عليه فما نصنع فيه ؟ فأرسل لهم بيردى على القتل ؛ فلما وصل إليهم البيردى بادروا إليه وجردوا ثيابه ، وضربه الجلاد قطع رأسه وأزهق روحه وأنفاسه ، ووضعوه في تابوت وأرسلوه إلى بيت الأمير حسن آغا رحمه الله رحمة واسعة . وكان هذا الأمير وجيهاً ، كريماً ، شجاعاً ، صاحب مال وغلال كثيرة ، وبلاد وخدم وحشم ، ومع ذلك كله لم يتيسر له الكفن ،

---

(١) جقمقية : بندقية طويلة يبلغ طولها ستة أشبار (تاريخ وقائع مصر ص ١٤٧) .

(٢) بالأصل : الآخر .

وجهزه الأمير مصطفى أغا جراكسة تابع المرحوم حسن أغا ، ولقد أحسن // من قال[١] : ٧٩

قولوا لمن ملك الدنيا بأجمعها   ما راح منها سوى بالقطن والكفن

وأما أحمد أوضا باشا وبقية الكواخى ، فلم يرجع إليهم اسماعيل أفندى، ولم يدروا بقتله ، فقالوا : لعله توجه إلى بيته ، فنزلوا ووقفوا على الباب ، ونزل رجب كتخدا،وأويس كتخدا ، وأوضاباشية وأنفار ، فلم يتعرض لهم أحد،وبقى أحمد كتخدا شهرى أغلان ، وأحمد كتخدا برمقسيز ، وعمر كتخدا متولى الوقت[٢] ، وأحمد أوضا باشا ومن تبعهم لم ينزلوا وخافوا من القتل ، فقالوا لبعضهم : إلى متى [ننتظر] نتوكل على الله وننزل ، وبادروا إلى الخروج من الباب ، وقالوا : السلام عليكم ، أنتم أرسلتم لنا الأمان ، فإن أردتم القتل فاقتلونا ، وإن عفوتم عنا فخلوا سبيلنا . فقالوا لابأس عليكم ، وخرجوا فأحاطوا بهم العساكر ، فبادر ناصف كتخدا وأتباعه إلى أحمد كتخدا وأحمد أوضا باشا وأدخلهما القهوة المواجهة للباب وأجلسهما بجانبه ، وصار يعاتبهما على ما فعلا[٣] ، فبعد لحظة نزل كشك[٤] أحمد أوضا باشا تابع أحمد أوضا باشا فبادره الرجال بالسيوف
على ظهره وأكتافه // وضربه رجل بسيف وأطاح رأسه ، فلما رآهم أحمد ٨٠
أوضا باشا خاف على نفسه وانفلت[٥] من عندهم كالطير وخرج هارباً إلى الحطابة ، فقام العسكر قومة واحدة وخرجوا خلفه ، فلما جاوز الطاحون انكب على وجهه ، فأدركه الرجال والقوم وضربوه بالسيوف وقطعوا رأسه على الكوم،ومسكه الأولاد من رجليه وجروه إلى الرميلة،فسبحان المعز المذل الذى لايفنى ولا يزول ، مالك الملك لا إله إلاهو كل يوم هو في شأن .

---

(١) هذان اللفظان ساقطان من ص ٧٩ من المخطوط ، ولكنهما مثبوتان فى ذيل ص ٧٨

(٢) متولى الوقت : هو والى القاهرة .

(٣) بالأصل : فعلوا .

(٤) فى الجبرتى (جـ ١ ص ٤٦) كجك أحمد . وكجك لفظ تركى ، معناه : القصير .

(٥) بالأصل : انفلت .

وأما الأمير أحمد كتخدا شهرى أغلان ، أخذه ناصف كتخدا ، ولم يمكنوه من التوجه إلى بيته ، وخافوا الهجوم عليه .

وأما عمر كتخدا ، وأحمد كتخدا ومن تبعهم شاغلوا الغسكر وخرجوا من النقوب إلى بيوتهم سالمين .

ثم إن الأنفار ملكوا الباب ودخلوا يقولون الله الله ، ويضجون ويصيحون ويفتشون الأماكن والأبراج ، فلم يجدوا أحداً .

وباتت القاهرة ليلة الثلاثاء في أمن وأمان ، وزال الخوف وخمدت
٨١ النيران ، ولم ينطلق في تلك الليلة مدفع ولا بندقية ، وزالت// الشدة عن الناس والبلية .

ورجع الثمانية على ما كانوا عليه وجميع من خرج إليهم ، وصارت الكلمة لهم وولوا غبد الله أوضا باشا عليهم .

ولما أصبح الله الصباح ، وأضاء بنوره ولاح ، ركب الأمراء إلى بيت قائم مقام ، فاتفقوا على ركوب الأمير يوسف الجزار والأمير محمد بيك [تابع الأمير قيطاس بيك](١) والأمير عثمان بيك ومعهم العساكر والعدد يطوفون في المدينة والبلد ، وينادون بالأمن والأمان ، في كل محلة وسكة ومكان ، فطاف الأمراء المذكورون ، والمنادى ينادى أمامهم بالأمن وفتح الدكاكين ، وعدم المعارضة للفقراء والمساكين ، وكل من حمل سلاح من عسكرى وفلاح لا يلومن إلا نفسه .

فلله درُهُم من فرسان وغلمان وشجعان ، لايخافون من الحرب والقتل والضرب ، شبهتهم بالأسود(٢) الكاسرة ، وهم كالملوك الأكاسرة ، طردوا العربان عن القاهرة ، وألحقوهم بالدار الآخرة ، وقاتلوهم قتال الجبابرة ، فيالهم من رجال وفرسان وأبطال ، كفاهم الله شر العين ، ونسأله
٨٢ إصلاح ذات البين ، ونسأل الله // حفظ عسكرنا علينا ، ودوامهم لدينا ،

---

(١) أضفنا مابين الحاصرتين للتمييز بينه وبين محمد بك أمير الصعيد .
(٢) بالأصل : بالأسود بالاسودة . (وقد حذفنا اللفظ الثانى لأنه زائد) .

لأنهم أحسن موجود ، من سائر الأمراء والجنود ، والنصر لمولانا السلطان وحفظ النفس والإيمان ، وهلاك أهل الكفر والطغيان ، والظلم والبغى والفساد ، ومن أراد ضرر مصر المحروسة ، فاجعل اللهم أيامه منحوسة ، واهلكه واقطع دابره ، والحقه بسرعة ياربنا بالآخرة ، واحفظ اللهم من حمى حماها ، ومن السوء والمكروه قد وقاها ، وسائر البلاد والقرى الإسلامية بجاه المصطفى خير البرية .

ولنرجع إلى تمام ما وقع : إن الأمير على أغا لما طلع إلى القلعة ، اجتمع عليه الأمرا ، واتفقوا على طوافه لينظر ويرى ، ويقمع المفسدين[١] الذين ظهروا على الناس وبجورهم فجروا ؛ فأجاب إلى ذلك وطاف ، فهابه كل صنديد وخاف ، ولم يقدر يقف أمامه من القتل والضرب والغرامة . ثم إن الشيخ محمد بن عاشور ، طلع إليه ليسلم ويزور ، وهو شيخ طائفة القطب الحقيقى ، سيدى // ابراهيم الدسوقي ، قدس الله سره ، ونور ضريحه وقبره ٨٣
فلما تمثل بين يديه ، أمر بالقبض عليه ، وضربه بنبوت على دماغه ، (فطار يحنى على متاعه)[٢] ، وأمر بإلقائه من السور ، فألقوه وصار العظم مكسور ، فوقع على الأرض وليس فيه روح ، وصار جلده مشطباً مجروح .

وأما الأمير أحمد كتخدا برمقسيز ، فقد مكث في بيته إلى يوم الأربعاء ، وظن أنه لم يصر له منازعاً ، فأرسل إليه جاويشاً لأجل الحضور ، فلما رآه صار خائفاً مذعور ؛[٣] فقال إن الأغا وجميع الاختيارية ، قد اجتمعوا في في باب الينشرية ، وقصدهم بأن تكون عندهم ، ليصلحوا جيشهم وجندهم ، فقال بسم الله لاخلاف ، ولكنه ارتعد منهم وخاف ، فودع أهله وعياله ، ولكنه علق بالحياة آماله ، وركب صحبة الجاويش إلى أن طلع ، ودخل على الاختيارية جميعاً واجتمع ، ودخل على الأغا وسلم عليه ، فأمر الرجال

---

(١) بالأصل : المفصدين .
(٢) هكذا بالأصل . والعبارة غامضة المعنى .
(٣) هكذا بالأصل ، وصحتها مذعورا . وقد ابقينا على اللفظ كما هو بالأصل تمشيا مع السجع .

٨٤ بالقبض عليه ، وخنقه بسرعة[1] في الحال ، من غير إبطاء // ولا [إمهال][2] فخنقوه ووضعوه في تابوت ، فسبحان الحي الذى لايموت .

وفي ذلك اليوم طاف [على أغا] كعادته في الناس ، فلقيه الحاج أبو بكر التراس[3] ، خادم العنبر الشريف ، فوقف بين يديه كالوصيف ، وناداه فقال لبيك ، فقال : أنت صديق محمد بيك ، وتعطى له غلال الشون ، وهو عندك في الحفظ والصون ؛ فقال : أخذه من عندنا بالغصب ، والسلب من حواصلنا والنهب ، فلم يقبل له عند ذلك عذراً ، وأمر برمى عنقه في الحال قهراً ، فضربه الجلاد أطاح رأسه ، وزهق روحه وأنفاسه .

وأما الأمير أحمد أغا كتخدا ، فإنه مكث في بيت ناصف كتخدا [يومى] الثلاثاء والأربعا ، ثم توجه إلى بيته شاكياً متوجعاً ، إلى صبيحة يوم الجمعة أرسل له [عمر أغا] الجاويش [في] عجلة وسرعة ، وقد كان أخذ بيردياً على قتله ، وتشتيت[4] جمعه وشمله ، وباتفاق بعض الأمرا ، ولكن لم يكن مقدرا . فلما صار ذلك الجاويش عنده ، أظهر الشجاعة والناموس والشدة ،

٨٥ وقال [له الجاويش] إطلع بنا إليهم ، ولا تبطئ بنا // عليهم . فقال : دعنى أصلى ركعتين ، وأطلع وإياك من غير مين. فشرع يصلى وأم الصلاة ، ورفع اليدين وسأل الإله ، تفريج تلك النوائب ، ورفع الشدائد والمصائب ، فببركة الدعاء أتاه الفرج ، وزال عنه الضيق والحرج ، بدخول [قرا[5]] محمد كتخدا عزبان عليه ، فرأى الجاويش جالساً لديه ، فقال : ما الخبر وماذا تريد ؟ فقال : طلوع هذا ورأيك سديد ؛ فقال : لاسبيل إلى الطلوع ، ولو تفرقت منا الجموع ، ولم يطلع أحمد كتخدا إليهم ، ولم يجتمع أبداً عليهم ، وخاف يفعلون به كمن سبق ، وصار في شدة وحدة وعرق ، وقال اركب بنا إلى باب

---

(١) بالأصل : سرعة .

(٢) اللفظ بالأصل صعب القراءة بسبب طمسه ، والقراءة اجتهادية.

(٣) فى « تاريخ وقائع مصر » (ص ١٣٧) : ابوبكر الطراس ، وانه كان يدير طاحونا ، وقد احترقت الطاحون اثناء القتال ، حرقها خصوم افرنج أحمد وأيوب بك .

(٤) بالأصل : وتشتت .

(٥) اللفظ صعب القراءة بالأصل بسبب طمسه ، والقراءة اجتهادية.

العزب ، لنستريح من المتاعب والكرب ، فركب الإثنان حتى وصلا وهما يقولان: توكلنا على الله ، وأخبرا الاختيارية بما جرى ، فقالوا: تخبر الأغاوات والأمرا . وأما الجاويش خرج منكدا فأخبرهم ، وقال : لم أقدر عليه أبدا ، وقد لحق بباب العزب مع نسيبه ، وهكذا يفعل الحبيب مع حبيبه، فلما لم
يتمكنوا من قتله // اتفقوا جميعاً على نفيه ، فأخبروا الأمراء بذلك ، وأخذوا ٨٦
بيرديا على ذلك ، ونزلوه قبيل الغروب إلى مصر العتيقة ، وضمنوه جماعة العزب وكتبوا وثيقة ، فبات ليلته ببيت التكلى ، وهو يتوسل بكل نبي وولى، وعنده العساكر والجنود لحفظه من الأعادى والحسود أن يهجموا عليه ليلاً ، ويصولوا عليه صولاً .

ولما أصبح الله الصباح ، وأضاء بنوره ولاح ، أتوا إليه بالمراكب ، وودعه الإخوان والحبايب ، وسار إلى بلاده مع العيوم[١] ، متوكلاً على الإله الحق القيوم .

ثم إن الأمراء وأغاوات البلكات اتفقوا جميعاً، على من كان سبباً لهذه الفتنة وإخراجه سريعاً ، فنفى كل أغا جماعة من بلكه،وأخرجه من أسامه[٢] وملكه ، لتسكين الفتن وأمن السبيل ، وتسليك القرى ووعظ النبيل[٣] .

وأيضاً اتفقوا على نفى من أفتى من أهل العلم والتدريس والإفتاء ، وأخذوا بيرديا وأرسلوا المنادى [إلى] الجامع الأزهر فنادى : إن من أفتى لطائفة الينشرية بغير الشرع ينفى ، ومن تمادى إلى ثلاثة أيام ليس له إلا الحسام

فمن انتفى // من السادة الحنفية : الشيخ أحمد أفندى شيخ الطائفة ٨٧
الرومية[٤] ؛ والشيخ أحمد المرشدى ؛ والشيخ أحمد الوسيمى .

ومن السادة المالكية : الشيخ أحمد الشرفي شيخ المغاربة ، والشيخ عبد الباقي القلينى ؛ ولم يخرج من مكانه واختفى في بيته أياماً فمرض في تلك المدة ، وتوفي إلى رحمة الله يوم الثلاثاء ثامن عشر رجب من السنة المذكورة .

---

(١) هكذا بالأصل : واللفظ غامض المعنى .
(٢) أى أخرجه من أوجاقه .
(٣) هكذا بالأصل ، والعبارة غامضة المعنى .
(٤) شيخ الطائفة الرومية ، أى شيخ طائفة الاتراك العثمانيين .

ومن السادة الشافعية : الشيخ العلامة الشيخ عبده الديوى ؛ والشيخ العلامة الشيخ عبد الوهاب الشنواني[١] ، والشيخ الإمام الشيخ على أبو الصفا ، والشيخ العلامة الشيخ يونس الدمرداشى ، والشيخ العلامة الشيخ عبد المعطى السملاوى ، والشيخ ابن عاشور الشامى .

ومن السادة الحنبلية : الشيخ العلامة أحمد المقدسى . ومن أتباع المشايخ كثير ، وخلا الجلا من دروسهم من برجسة شقيهم ومعكوسهم وصار كربع خلا من الحبايب ، وذلك من أعظم المصايب .

هذا وأرجى[٢] الله في ردهم علينا ، وحفظ علمائنا علينا ، الحافظين للكتاب والسنن ، العارفين بالقبيح// والحسن ، لا زالت الأيام بحياتهم منورة ، ٨٨
وأغصان العلوم بدروسهم مثمرة ، ومن نفاهم وفعل بهم ما وقع ، فالله يجزيه بما صنع .

وأيضاً نادى الأمير على أغا على ترك ركوب البغال ، فصار من يركبهم في هموم واشتغال ، وكان إذذاك يركبون غالب العلما ، ويعدونها من الله نعما ، فامتنع البعض من الركوب ، فالله يكشف هذه الكروب .

ونادى على تبييض المساجد والمنارات والأسبلة والمكاتب والزوايات[٣] وقطع أرض السكك والطرقات[٤] ، فامتثل الناس جميع ذلك ، خوفاً من الوقوع في المهالك .

وأما الأمير محمد بيك أمير الصعيد ، لما رأى لهيب النار من بعيد وخاف الضياع ، نزل إلى المنية[٥] ومنفلوط ، فجمع الرجال وسار بهم إلى أسيوط ،

---

(١) بالأصل : السوانى . والتصويب من الجبرتى (جـ ١ ص ١٦٦) .
(٢) بالأصل : وارجوا .
(٣) هكذا بالأصل ، وصحتها :الزوايا ، جمع زاوية ، وقد استعمل المؤلف لفظه تمشيا مع السجع .
(٤) يقصد المؤلف رفع المتاريس والانقاض من الشوارع . فقد ذكر الجبرتى (جـ ١ ص ٤٦) أنه بعد أن قبض الأمراء على الباشا « ركب على أغا وأمامه الملازمون بالبيرشان ، فطاف البلد وأمر بتنظيف الأتربة وأحجار المتاريس وبناء النقوب » .
(٥) هى المدينة المعروفة بالوجه القبلى ، وتكتب حديثا « المنيا » .

وأقام بهم وهيأ آلات الحرب ، وشد نفسه للقتال والضرب وتحصن غاية التحصين ، وتمكن من البلاد غاية التمكين ، وصحبته يوسف أبو حمد شيخ هوارة ، وخلائق كثيرة من عربان وأمارة ، وجلس // جماعة في محل على ٨٩ البحر ، يمنعون المراكب الحادرة إلى مصر ، وأمر بتحويل الغلال ، إلى مطامير كانت في الجبال ، وأرسل مكتوباً إلى الأمراء : إنكم تسامحون [في] ما قد جرى وترسلوا التقرير والقفطان[١] ،وتبقوا ما كان على ما كان ، ونحن نرسل لكم غلال الشون ، وهى عندنا في الحرز والصون[٢] .

فلما سمع الأمراء ذلك الكلام ، فبعضهم استصوبه وترك الخصام ، وبعضهم قال : لابد من إرسال التجاريد ، وإخراجه وطرده من الصعيد ، فاتفقوا جميعاً على قتاله ، وإخراجه من دياره وأمواله ، وولوا الأمير محمد بيك[٣] إمارة الصعيد ، وأرسلوا معه كل بطل وصنديد ؛ وأيضاً معه الأمير حسن[٤] ، لأجل عمارة المساكن والوطن ، فخرج إليه بخمسمائة بطل ، ومعهم المدافع والجلل ، فلما علم[٥] أنهم جردوا عليه ، خرج سريعاً مبادراً إليه ، وصحبته ما يزيد عن عشرة ألف خيال ، وجلسوا على رءوس الجبال ، وأرسلوا[٦] مكتوباً إليه ، إن أتيت بالسلطان حسن فأنت غالب ، وإلاّ فارجع بعسكرك//ولا تحارب . فلما وصل إليه الكتاب، فلم يرد له جواب ، ٩٠ وسار بعسكره إليه ، حتى قارب الدخول عليه ، فلما صار بينهما قدر أربعة أميال ، دبر كل منهما أمر الحرب والقتال ، فلما تم لهما ذلك ، خرجا من جميع المسالك ، وضربوا المدافع والبندقيات ، حتى أظلمت الأرض والطرقات

(١) أى تقرير بتجديد ولايته على جرجا ، وأما القفطان فهو من مظاهر اتمام الولاية .

(٢) من هذه المعلومات ، تتبين قوة حاكم الصعيد وخطورة منصبه ، ففى استطاعته ــ اذا اختلف مع الحكام فى القاهرة ــ أن يمنع الغلال عن القاهرة ويهددها بالمجاعة .

(٣) هو الأمير محمد بك تابع الأمير قيطاس بك .

(٤) هو الأمير حسن حاكم اخميم .

(٥) اى محمد بك أمير الصعيد .

(٦) المراد ان الأمير محمد بك تابع الأمير قيطاس بك والأمير حسن أرسلا الى محمد بك أمير الصعيد خطابا .

ثم إن الأمير محمد بيك الصغير ، اتفق رأيه على إرسال الأمير[١] ، بجماعة في المراكب إليه ، فنزلوا سريعاً وهجموا عليه ، فاشتغل بهم غاية الاشتغال ، وصار منهم في أسوإ حال ، وأخذوا مدافعه جميعاً ، وأطلقوها[٢] عليه سريعاً ، فتشتت[٣] تلك الجموع ، وهربت جميع النجوع ، فما ساعه إلاّ الخروج إلى الواحات ، وخرج هائماً في البر والساحات ، ولم يدر أحد أين ذهب[٤] ، ولم يتبعه إلاّ الأمير يوسف والقليل من العرب ، ورجعوا الكل إلى الأمير وأخذوا الأمان ، فأمنهم على الأولاد والأوطان ، ودخل الأمير
٩١ محمد بيك الصغير إلى أسيوط وتمكن ، وكذلك الأمير// حسن إلى بلاده وتوطن[٥] ، وأرسل مكتوباً بأخذ الغلال ، وكانت ليلة وصوله تعدبلىيال ، من الفرج الذى حل بالفقرا ، وجميع الأغاوات والأمرا .

ثم جاءت لنا المكاتيب بالأخبار ، بتولية الوزير على الديار[٦] ، وهو

---

(١) المقصود به الأمير حسن حاكم اخميم .

(٢) بالأصل : واطلقوه .

(٣) بالأصل : فشتت .

(٤) فى الجبرتى (ج ١ ص ٤٧) أن محمد بك لما راى الهزيمة هرب الى حلب ومنها الى اسلامبول ، واتصل بالأمير أيوب بك ومن معه ، وقابل الوزير العثمانى ، فخلع عليه الوزير وولاه منصبا . وفى « تاريخ وقائع مصر » (ص ١٧٥ ، ١٧٦) أن الوزير خلع عليه قفطان الباشوية « واقام يأكل عيشه فى مناصب بلاد الروم » .

(٥) أى الى اخميم التى كان حاكما عليها قبل الفتنة .

(٦) عزل خليل باشا وخرج من مصر فى ١٨ جمادى الأولى سنة ١١٢٤ هـ (١٧١٢ م) . (الجبرتى ، ج ١ ص ٤٧) . وقد هجاه الشاعر الشيخ حسن البدرى الحجازى بقوله :

خليل باشا خاب مصرنا أتى	ماكر سوء حائق بنفسه
أثار فى عسكرنا نائرة	تاريخها أضرها بطمسه
أعنى على أفكارهم القى عمى	كل غدا منه رهين عكسه
... فليتهم تفطنوا لمكره	وقطعوه قبل سكنى رمسه
واتبعوه لعنة وافرة	عدة طاهر الورى ورجسه
. . . .	. . . .
لا تنكرن من ذلك الباشا الردى	خبيث فعله وسوء حدسه
لأنه أعور قليط كذا	أعرج نكر شائع فى جنسه
فربنا من مصر لا يخرجه	الا قتيلا ذاهبا كأمسه

(الجبرتى ج ١ ص ٩٦) .

الوزير ولى باشا(١) ، أعطاه الإله ماشا(٢) ، لأن جميع الأمراء كتبوا عرضاً إلى السلطان الأعظم ، والخاقان الأفخم الأكرم ، الملك الغازى المؤيد ، مولانا السلطان أحمد(٣) ، ليعلمه بما جرى وما كان ، وكتب عليه جميع مشايخ الإسلام ، وأهل المناصب والأقلام ، فتنكد السلطان غاية النكد ، ولكنه أظهر الصبر والجلد ، وكان إذ ذاك مشغولاً بأمر الغزاة(٤) ، فرفع اليدين وسأل الإله ، بالإصلاح بين المسلمين ، والنصر على القوم الكافرين ، فاستجاب الله دعاءه سريعاً ، ونصره الله نصراً عزيزاً منيعاً ، حتى قيل لم يحصل لأحد من السلاطين مثل هذا النصر ، ولم يسمح الزمان بظفر مثل هذا الظفر ، جعل الله أيامه سعيدة ، وأحكامه نافذة سديدة ، وألهمه العدل والحلم// والإنصاف ، وجنبه الظلم والجور والإجحاف . ٩٢

وليكن هذا آخر ما أردنا ، وإتمام ما قصدنا ، من ذكر ما وقع بين عسكر المحروسة القاهرة ، جعلها الله آمنة وعامرة ، وعلقت ذلك لمن يكون عنده شمم وفخرة ، ويتفكر في هؤلاء الأمرا ، كيف أصبحوا في القبور فقرا ، قال ذلك بلسانه الحقير في عيون القرا ، الفقير على الشاذلى الفرا ، غفر الله له ولوالديه ، ولمن أحسن إليهما وإليه ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين آمين .

---

(١) ولى باشا : ذكره الجبرتى (جـ ١ ص ٤٧) والى باشا ، وانه وصل الى القاهرة وطلع القلعة فى أواخر رجب سنة ١١٢٣ هـ (أغسطس ١٧١١ م) .

(٢) ماشا : هكذا بالأصل ، وأصل اللفظ ما شاء ، وقد حذف المؤلف الهمزة تمشيا مع السجع .

(٣) هو السلطان أحمد الثالث بن السلطان محمد الرابع . وقد ولى السلطنة بعد أخيه مصطفى خان الثانى فى شهر ربيع الثانى سنة ١١١٥ هـ (أغسطس ١٧٠٣ م) . (التوفيقات الالهامية ، ص ٥٥٨) .

(٤) كان السلطان أحمد مشغولا بالحرب مع روسيا . (التوفيقات الالهامية ، ص ٥٦٢) .

المراجـــــع

١ ـ أحمد عزت عبد الكريم (الدكتور)

حوادث دمشق اليومية (القاهرة ١٩٥٩) .

٢ ـ أمين خورى :

قاموس رفيق عثماني . (بيروت : مطبعة الآداب) .

٣ ـ الجبرتي : عبد الرحمن بن حسن .

عجائب الآثار في التراجم والأخبار . (طبعة بولاق) .

٤ ـ ابن الجوزى : عبد الرحمن بن على بن محمد :

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (طبعة الهند سنة ١٣٥٨ هـ) .

٥ ـ الشرقاوى : الشيخ عبد الله .

تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين . (مطبوع بهامش الجزء الأول من كتاب فتوح الشام للواقدى . طبعة المطبعة العثمانية بالقاهرة ، سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م) .

٦ ـ على مبارك باشا :

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة (مطبعة بولاق سنة ١٣٠٦ هـ) .

غربال : محمد شفيق .

مقال بعنوان : « مصر عند مفترق الطرق » منشور بمجلة كلية الآداب (الجامعة المصرية) . المجلد الرابع : الجزء الأول : مايو ١٩٣٦

٧ ـ القلقشندى : أبو العباس أحمد .

صبح الأعشى في صناعة الإنشا (المطبعة الأميرية سنة ١٩١٣ ـ ١٩١٥ القاهرة) .

٨ ــ محمد مختار باشا :

كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية (المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣١١ هجرية) .

٩ ــ محمد موسى هنداوى : (الدكتور)

المعجم في اللغة الفارسية (مطبعة مصر) .

١٠ ــ محمود فهمى المهندس :

البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر (الطبعة الأولى . المطبعة الأميرية ببولاق ، سنة ١٣١٢ هـ) .

١١ ــ مصطفى بن الحاج إبراهيم :

تاريخ وقائع مصر من سنة ١١٠٠ إلى ١١٥٢ هـ (مخطوط بالخزانة التيمورية ، رقم : ١٤٠٢ تاريخ) .

١٢ ــ المقريزى : تقى الدين أحمد بن على .

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة . مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة ١٩٣٤) .

مؤتمر التاريخ المعاصر لحوض المتوسط

دكتور صلاح العقاد

انعقد في مدينة نيس بفرنسا مؤتمر « تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٣٩ » ، وذلك في المدة من ٢٨ إلى ٣١ مارس سنة ١٩٦٨ ، واشترك فيه لفيف من أساتذة التاريخ المعاصر من جامعات فرنسا وإيطاليا وأسبانيا واليونان وبريطانيا وألمانيا . وحضرت هذا المؤتمر ممثلاً لجامعة عين شمس ، ولم يأت المؤتمر من الجامعات العربية الآخرى سوى السيد / محفوظ قداش رئيس قسم التاريخ في جامعة الجزائر ، إلا أنه لم يقدم بحثاً في الندوة .

وقد ألقى في المؤتمر أربعة عشر بحثاً خصص ست منها لتاريخ المغرب في الفترة المذكورة ، وأتت أسبانيا في الدرجة الثانية من الأهمية إذ تناولت ثلاث أبحاث موضوعات متصلة بتاريخ أسبانيا المعاصر دار بعضها حول الحرب الأهلية التى أدت بفرانكو إلى السلطة ، وخصص أحد الأبحاث للحركة الوطنية في اليونان ودور الكنيسة الأرثوذكسية فيها . وتناولت الأبحاث الأخرى موضوعات عامة مثل السياسة الإنجليزية في حوض البحر المتوسط حوالى سنة ١٩٣٠ ، ودور سكان كورسيكا في حركة التوسع الفرنسى فيما وراء البحار ، وعوامل تقلص السكان في ساحل الإدرياتيك .

وتدل نسبة الأبحاث المخصصة للمغرب على استمرار اهتمام فرنسا بهذا الموضوع حتى بعد استقلال أقطار شمال إفريقيا الثلاث . وفي الماضى كان يظن أن الإهتمام بالدراسات المغربية يهدف فقط إلى خدمة الإستعمار . الذى حدث هو أن هذه الدراسات انتعشت على عكس ما كان متوقعاً بعد إنتهاء الإستعمار وصارت أكثر موضوعية . وفي سنة ١٩٦٤ تأسس مركز لدراسة الدول الإفريقية الواقعة في حوض البحر المتوسط .

Centre Des Études de l'Afrique Mediterranienne

الذى ألحق بجامعة إكس آن بروفانس . ويهم القارىء العربي أن يعرف أن وثائق تاريخ الجزائر الحديث نقلت بأجمعها إلى هذا المركز قبيل انسحاب فرنسا سنة ١٩٦٢ وأثار هذا الموضوع خلافات مع الحكومة الجزائرية . وعندما تحدثنا في هذا الشأن مع روجيه ليتورنو ، مدير المركز ، ذكر لنا كيف أن وجود الوثائق تحت إشراف باحثين متخصصين يخدم تاريخ الجزائر بصورة أفضل . وقد أجبنا على ذلك بأنه يوجد بين المؤرخين العرب عديد من الأساتذة ممن يعرفون تبويب الوثائق والإستفادة منها ، فأقر على كل حال بأن الحكومة الفرنسية قبلت إعادة الوثائق المتعلقة بالعهد السابق على الإحتلال أى قبل سنة ١٨٣٠ ، أما الوثائق المتعلقة بعهد الحكم الفرنسى فقد اعتبرتها جزءاً من التراث الوطنى وأسمتها وثائق عهد السيادة . كذلك علمنا بأن المركز صور جميع الوثائق المتعلقة بالعصر العثماني قبل إعادتها إلى الحكومة الجزائرية .

تناولت الأبحاث الخاصة بالمغرب الموضوعات الآتية : الفكرة العربية لدى الحركات الوطنية — الحزب الشيوعى الجزائرى ، صدى الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر في الرأى العام الفرنسى ، شئون المغرب في الصحف البولندية وقد ألقاه مستشرق بولندى ، أثر استعمار ليبيا في الحركة الفاشستية ، جهود الطليان في التنقيب عن النفط قبل ١٩٣٩ .

أثار الموضوع الأول الذى ألقيناه في المؤتمر مناقشات كثيرة . وقد عرضنا فيه لعوامل الاجتذاب الثلاث التى وجهت الحركات الوطنية في تونس والجزائر والمغرب الأقصى في فترة ما بين الحربين ، وهذه العوامل هى التضامن العربي ، التضامن الإسلامى ، وفكرة الوحدة المغربية . وبينا كيف أن فكرة التضامن الإسلامى كانت هى السائدة في فترة ما بين الحربين ، غير أن الفكرة العربية أخذت تنمو بعد ذلك . وتسير فكرة المغرب الكبير جنباً إلى جنب مع الفكرة العربية باعتبار أن الفكرة العربية ليست هدفاً نهائياً ، بل مجرد مرحلة نحو الوحدة العربية . وخلصنا إلى أن هذه الأقطار كانت تغرى الوطنيين أثناء عهد النضال ضد الاستعمار ، أما بعد الاستقلال فقد

سادت النزعة الإقليمية لإنها تخدم المصالح الشخصية لهؤلاء الذين تسلموا السلطة .

لاحظنا أثناءالمناقشة أن المختصين الفرنسيين يميلون إلى الاعتقاد بأن العنصر الإسلامى مازال هو الأقوى في المفاهيم الوطنية لدى المغاربة ، واستشهدوا على ذلك بتصريح بن بيلا عند دخول تونس بُعيد استقلال الجزائر إذ قال «نحن مسلمون » وكررها ثلاث مرات وصحح المندوب الجزائرى هذه الواقعة قائلاً بأن العبارة التي كررها بن بيلا ثلاث مرات هى « نحن عرب » .

كان البحث الثاني الذى أثار الاهتمام هو ذلك الذى ألقته مدام آني راى وهى مناضلة شيوعية سابقة انفصلت عن الحزب سنة ١٩٥٩ احتجاجاً على تخاذله من الثورة الجزائرية ، وكان الاتجاه السائد عند مناقشه البحث هو أن الحزب الشيوعى أفاد الحركة الوطنية . في مرحلة نشأتها وذلك في المدة ما بين سنة ١٩٢٤ ، سنة ١٩٣٦ ، وترجع هذه الإفادة إلى إفساح المجال أمام الشبابِ من عمال ومثقفين لكى يتدربوا على العمل الحزبي المنظم وعلى أعمال الخلايا السرية . غير أن الحزب عارض الأفكار الوطنية التى تؤكد على شخصية الجزائر العربية الإسلامية وأيد فكرة الأندماج قائلا بأنه يجب على الطبقة العاملة الجزائرية أن تتعاون مع الطبقة العاملة الفرنسية لإسقاط النظام الاستعمارى الرأسمالى فحسب ، وليس حق السيادة الفرنسية .

وكان بين الجزائريين المثقفين من يتصور إمكان الاندماج في مجتمع فرنسى تقدمى ، ولكن حتى هذا العدد المحدود من المثقفين الجزائريين غير رأيه بعد تولى حكومة الجبهة الشعبية الحكم في فرنسا سنة ١٩٣٦ وقد انكشف على إثرها حقيقة موقف الحزب الشيوعى الفرنسى . ومن المعروف أن الحزب الشيوعى الجزائرى كان مجرد فرع من الحزب الأول . لذلك قرر مصالى الحاج ، وهو زعيم نقابي ، أن يؤسس حزباً جزائرياً محضاً ، وهو حزب الشعب الجزائرى الذى امتص الشيوعيين الجزائريين وأبعدهم بذلك عن التنظيم الدولى ونتج عن هذا الوضع أن اصطدم الحزب الشيوعى الفرنسى والفرع الجزائرى منه اصطداماً عنيفاً مع أهم عنصر وطنى في ذلك العهد وهو

حزب الشعب الجزائرى . ومن الأبحاث القيمة ذلك الذى ألقاه الأستاذ مارتل ، أستاذ التاريخ المعاصر بجامعة مونبلييه ، وبالمناسبة نشير إلى أن الوفد الفرنسى ، وهو أكبر الوفود من حيث العدد والمميزات العلمية ، أتى معظمه من جامعات الجنوب : نيس ومارسيليا وتولوز ومونبلييه . وتعتبر جنوب فرنسا ملجأ المستوطنين الذين غادروا المغرب بعد الاستقلال . وكثير من الأساتذة الذين عملوا في السابق في جامعات الجزائر وتونس والرباط نقلوا إلى الجامعات المذكورة . وقد كشف مارتل عن حقيقة جديدة وهى أن القواد الإيطاليين في ليبيا أثناء الحكم الفاشستى كانوا ممن يعطفون على الملكية ، وأنهم لذلك لم يبذلوا جهوداً مخلصة في الحرب العالمية الثانية ضد الانجليز . وقد صار هؤلاء القواد بعد سنة ١٩٤٣ عُمد الحكومة الملكية الإيطالية التى انضمت إلى الحلفاء وحاربت ضد الفاشستيين ، ونظراً لاهتماماتنا السابقة بموضوع الحرب العالمية الثانية فقد انتهزت الفرصة لأتعرف على مصير الوثائق الإيطالية الخاصة بالحرب ، إذ سبق لنا أن اشتغلنا في الوثائق الألمانية التى استولى عليها الحلفاء ونشروها فيما بعد في عدة أجزاء ، والتى تعتبر من أهم مصادر التاريخ المعاصر . وقد أجابنى الأستاذ مارتل بأنه كان مكلفاً بالفعل ضمن لجنة من الخبراء اختارتها الحكومة الأمريكية لتدريس وثائق العهد الفاشستى التى استولى عليها بعد الحرب والتى نقلت إلى الولايات المتحدة ، ومن المنتظر أن تنشر قريباً وهى على خلاف الوثائق الألمانية تتضمن معلومات هامة عن العالم العربي .

كان من المتوقع أن تثار قضية فلسطين نظراً لوجود الملحق الثقافي الإسرائيلى في المؤتمر ، غير أنه لم يشترك في أعماله ، ومع ذلك فقد لمس الأستاذ بيل من جامعة ليفربول هذا الموضوع في ثنايا بحثه عن السياسة الانجليزية في حوض المتوسط ، فذكر أن الانتداب على فلسطين أضر بمصالح بريطانيا الاستراتيجية والاقتصادية لأنه كلفها أعباء مالية كثيرة ووجه جزءاً من قواتها للمحافظة على الأمن بعد أن اتسعت الاشتباكات بين اليهود والعرب خاصة في الثلاثينات . فبادر بطرح هذا السؤال : كيف قبلت بريطانيا الانتداب إذا كان ذلك يضر بمصالحها ؟

وأجاب الأستاذ بيل بأن كثيرين من الخبراء نصحوا لويد جورج بعدم قبول الانتداب ، غير أنه كان ضعيف الشخصية فرضخ لوزير الخارجية السابق بلفور الذى كان يعلن دون مواربة أنه صهيوني مقتنع . واستطعنا بعد مناقشات طويلة أن نخرج بحقيقة هامة وهى أن الصهيونية تتعارض مع مصالح كل من بريطانيا وفرنسا القومية وذكّرت ببعض الكتب التى خصصت لهذا الموضوع مثل الكتاب الفرنسى المشهور الذى وضعه دريموند عن سيطرة اليهود في المجتمعات الأنجلوسكسونية .

وفي ختام المؤتمر حاول الأستاذ أندريه نوشي ، وهو أستاذ التاريخ الحديث بجامعة نيس وصاحب فكرة المؤتمر والداعى له ، حاول أن يستخلص صورة عامة تدلل على وجود روابط بين شعوب البحر الأبيض المتوسط : القسم العربي منه والأوربي . فقال : كما أن الفكرة الإسلامية كانت دافعاً للحركة الوطنية في المغرب فقد بين لنا بحث المندوب اليوناني دور الكنيسة الأرثوذكسية أيضاً في الحركة الوطنية مما يدل على أهمية العامل الدينى لدى شعوب البحر المتوسط كذلك أشار إلى البحث الذى تناول طرق الرى في أسبانيا ، وكيف أن الجزائر ، التى تعيش في ظروف مناخية وجغرافية مشابهة ، استفادت من تطور هذه الوسائل . ثم أشار إلى ذلك الاهتمام الخاص الذى توليه جامعات جنوب فرنسا بقضايا البحر المتوسط مما يذكرنا بالعهود القديمة حينما كان هناك تراث حضارى مشترك للشعوب التى تسكن على سواحل هذا البحر وكان الناس يتحدثون عن حضارات متوسطية ، وحتى الحروب التى نشبت بين شعوب المتوسط في العصور الوسطى كانت إحدى الوسائل لتبادل المعرفة وألوان الحضارة المختلفة تماماً كما كانت التجارة وسيلة لهذا التبادل في عهود السلام .

تقرير عن

المؤتمر التاريخي «ليبيا عبر العصور»

للدكتورين مصطفى كمال عبد العليم وجمال زكريا قاسم

انعقد هذا المؤتمر في الفترة من ١٦ إلى ٢٣ مارس ١٩٦٨ بالقاعة الكبرى للجامعة الليبية ببنغازى وهو أول مؤتمر تاريخى تنظمه كلية الآداب والتربية وشملت جلساته إحدى عشر دورة تمت على مرحلتين مرحلة صباحية وأخرى مسائية إلى جانب الدورة الافتتاحية والدورة الختامية للمؤتمر .

وقد اشترك في هذا المؤتمر كثير من الجامعات العربية والأوربية والأفريقية وفيما يلى بيان بالجامعات التى اشتركت في المؤتمر

أولاً : الجامعات العربية

- الجمهورية العربية المتحدة — جامعة عين شمس والجامعة الأمريكية بالقاهرة
- المملكة الليبية — الجامعة الليبية

ثانياً : الجامعات الأوربية

المملكة المتحدة — جامعات كمبردج ولندن ونيوكاسل وأكسفورد

الجمهورية الفرنسية — جامعة السربون

مالطة — الجامعة الملكية بمالطة

إيطاليا — جامعة روما وجامعة بيروجيا

ثالثاً : الجامعات الأفريقية

جامعة إيبادان في نيجيريا .

ولم يقتصر المؤتمر على الجامعات وإنما مثل إلى جانبها الكثير من الهيئات العلمية والأكاديمية كان من أبرزها معهد الآثار البريطاني والأكاديمية الوطنية بروما والجمعية الجغرافية الملكية بلندن ومعهد الآثار لشرق إفريقية والمعهد البالثنولوجى بفلورنسا إلى جانب الهيئات الأثرية في المملكة الليبية في كل من برقة وطرابلس .

كذلك اشترك في هذا المؤتمر بصفته الشخصيه السير دنكان كنج الذى كان يعمل حاكماً لولاية برقة بعد تطبيق الإدارة البريطانية على هذه الولاية عقب طرد القوات الإيطالية منها في عام ١٩٤٢ .

وقد قدم إلى المؤتمر ما يقرب من سبعة وثلاثين(*) بحثاً شملت معظمها تاريخ ليبيا في عصور ما قبل التاريخ وفي العصر اليوناني والروماني بينما لم يكن نصيب العصور الإسلامية والبيزنطية والحديثة إلا عدداً قليلاً من الأبحاث. وربما يعزى ذلك إلى كثرة عدد الباحثين الذين وجهت إليهم الدعوة لحضور ذلك المؤتمر ومعظمهم من الذين توافروا على دراسة الآثار اليونانية والرومانية في ليبيا أو الذين كتبوا عن تاريخ ليبيا القديم .

وفيما يلي بيان بالأبحاث التى قدمت في التاريخ القديم .

- ليبيا فيما قبل التاريخ للأستاذ ماكبيرني — جامعة كمبردج
- الصور الصخرية لما قبل التاريخ في فزان للأستاذ ف. مورى جامعة روما.
- عصور ما قبل التاريخ في ليبيا وعلاقتها بأصول الحضارات القديمة للأستاذ طه باقر مستشار مصلحة الآثار بطرابلس
- مسائل في مصادر التاريخ الليبي قبل هيرودوت للدكتور فوزى جاد الله — الجامعة الليبية
- نقش يوبوليموس للأستاذ شامو بجامعة السربون
- أركسلاوس الثالث للدكتور ابراهيم نصحى — الجامعة الليبية
- تأملات في تجارة الفخار مع توكره للأستاذ بوردمان — جامعة أكسفورد
- عناصر سابقة للعمارة الرومانية في طرابلس للدكتور بيركنز
- ليبيون وإغريق في البردى البطلمى للدكتور مصطفى كمال عبد العليم جامعة عين شمس
- الاستيطان الأغريقى في برقة مع لمحة إلى الفخار الذى اكتشف فيها للأستاذ عوض السعداوية — مراقب آثار برقة .

(*) راجع حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس العدد الحادى عشر (تحت الطبع) لعرض وتحليل أبحاث التاريخ القديم والحديث التى قدمت الى المؤتمر .

– الإقامة الأولى والثانية على هامش الصحراء بطرابلس لليدى الوين بروجان – جامعة كمبردج
– مكانة ليبيا في آثارشمال أفريقيا للأستاذ رومانللى بالأكاديمية الوطنية بروما.
– تأملات في نحت لبدة للأستاذ اسكاروا تشيابينو
– الطرق الرومانية في ليبيا وعلاقاتها للأستاذ جوتشايلد – جامعة لندن
– المدن الطرابلسية – أضرحة صبراته للأستاذ دى فيتا جامعة بيروجيا
– نقوش من برقة – تقرير تفصيلي للدكتورة ج رينولندز بجامعة كمبردج
– تاريخ العمارة في برقة في العصر الإغريقى للأستاذ ستوكى جامعة روما
– ليبيا في العصر السويرى للسيد قديده – مصلحة الآثار بطرابلس
– الفينيقيون في ليبيا للسيد م . أبوحامد مصلحة الآثار بطرابلس
– حملة كورنيليوس بالبوس للأستاذ م . س أيوب مراقب آثار فزان
– البعثات الرومانية إلى أعالى النيل وإقليم تشاد ودارفور للأستاذ ل. ب كيروان .
– جرامنت فزان للأستاذ م . دانليس جامعة نيوكاسل
– الرسوم الصخرية بفزان للأستاذ كرازيوزى
– جرمة في عصر ازدهارها للأستاذ م . س أيوب

أما الأبحاث التى قدمت في التاريخ البيزنطى فهى

– الدفاع عن الحدود في ليبيا البيزنطية للأستاذ جونز
– الكنتناريا في طرابلس وسوابقها للدكتور د . ج سميث

أما الأبحاث التى قدمت في تاريخ ليبيا الإسلامى فشملت ثلاثة أبحاث أحدها للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيره عن الرباطات الإسلامية في ليبيا في العصر الإسلامى والثاني للدكتور همدان من الجامعة الأمريكية بالقاهرة عن ليبيا في العصر الفاطمى والثالث للدكتور عبد القادر طليمات عن سكان ليبيا عند اليعقوبي .

أما الأبحاث التى قدمت في التاريخ الحديث فشملت سبعة أبحاث هى

– ليبيا بين الحسن الوزان ومارمول للدكتور نيقولا زيادة – من الجامعة الأمريكية ببيروت

– علاقة طريقة مالطة بطرابلس للدكتور فيلا من الجامعة الملكية بمالطة

– حالة ليبيا كما ذكرها الحاج أبو سالم العياشي في رحلته للأستاذ عوض السعداوية .

– بعض ملامح تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر
للأستاذ مصطفى بعيو

– الظروف التى أدت إلى احتلال على الجزائرلى لمدينة طرابلس
للأستاذ عمر بن اسماعيل من الجامعة الليبية .

– السنوسية في الحرب العظمى الأولى
للسير دنكان كمنج .

– موقف مصر من الحرب الليبية الإيطالية ١٩١١ – ١٩١٤
للدكتور جمال زكريا قاسم من جامعة عين شمس .

وقد طبعت الأبحاث ووزعت على أعضاء المؤتمر باستثناء بحث الد كتور نيقولا زيادة الذى وعد بإعداد صياغته وإرساله لسكرتارية المؤتمر في المستقبل وانقسمت الأبحاث إلى أبحاث ألقيت في جلسات المؤتمر وأبحاث مكتوبة نتيجة تغيب أصحابها أو عدم التأكد من وصولهم .

وتبع جلسات المؤتمر رحلة علمية لأعضاء المؤتمر إلى المناطق الأثرية في الجبل الأخضر في كل من قورين (شحات) وسوسه وتوكرة وطلميثه وغيرها من المناطق الأثرية .

ولاشك أن الجامعة الليبية يمكن أن تخرج بعمل ضخم بتجميعها لهذه الأبحاث في مجلد أو مجلدين تعكف منذ الآن على إعداده خاصة وأن هذه الأبحاث ساهمت في إمداد التاريخ الليبي بإضافات جديدة فضلاً عن تأكيد التعاون العلمى الوثيق بين الجامعة الليبية الناشئة وبين الجامعات العربية والأفريقية والأوربية . وإن كنا نرى أن يكون هناك زيادة في تمثيل الجامعات العربية والأفريقية أكثر مما كان في ذلك المؤتمر ومن ناحية أخرى كان من الضرورى موزانة الأبحاث حسب طبيعتها وبحيث لاينفرد عصر بمزيد من الأبحاث

ويفتقر عصر آخر . وربما يرجع ذلك إلى تغلب الدعاوى الشخصية على الدعاوى العامة وكما ذكرنا أن الدعوات الشخصية وجهت في معظمها إلى المشتغلين بدراسة الآثار والتاريخ القديم .

وأخيراً فإننا ندعو جامعاتنا وهيئاتنا العلمية ألا تترك فرصة إلا وانتهزتها للاشتراك في هذه المؤتمرات لما تتيحه من احتكاك ثقافي وتفاعل بناء بينها وبين الجامعات والهيئات العلمية سواء في المحيط العربي أو في المحيط العالمي كما لمسناه بأنفسنا .

كتب حديثة فى تاريخ العراق

نقدم في هذا العدد من مجلة الجمعيةالمصرية للدراسات التاريخية خمسة كتب في تاريخ العراق كتبت كلها بأقلام متخصصين عرب بجامعتى بغداد وعين شمس . وأول هذه الكتب عن العراق في العصر السلجوقي ، والثاني عن العراق في عهد المغول الأيلخانيين والثالث عن المصالح البريطانية في أنهار العراق ، والرابع عن مشكلة الموصل والخامس عن تاريخ الحزب الديموقراطى .

المؤلف : **دكتور حسين أمين**

الكتاب : **تاريخ العراق فى العصر السلجوقى**

تعليق : **دكتور عبد العزيز سليمان نوار**

مطبعة الرشاد ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م .

هذا الكتاب كان في الأصل رسالة أعدها المؤلف تحت إشراف المؤرخ الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال رحمه الله ، وحصل المؤلف بها على درجة الدكتوراه . وهو يعمل الآن أستاذاً مساعداً للتاريخ الإسلامى في كلية التربية بجامعة بغداد . وله عدة دراسات أخرى في مجال العراق السلجوقي ، فقد ألف كتاباً عن المدرسة المستنصرية وآخر عن الغزالى .

وقد عنى المؤلف في كتاب « تاريخ العراق في العصر السلجوقي » بالمظاهر الحضارية على قدم المساواة مع العرض التاريخى . وحيث أن الحركة الفلسفية والمدرسية — التى وضع أسسها فيلسوف السلاجقة نظام الملك — كانت ذات أهمية كبرى في عهد السلاجقة فقد أحيطت تلك الحركة بعناية المؤلف ، معتمدا في دراسته على المراجع الأصلية المخطوطة والمطبوعة العربية والفارسية وأورد في نهاية كتابه مجموعة من الملاحق عن الخلفاء والسلاطين والوزراء

وكبار رجال الدولة ورسومهم والمنشآت العامة والأحداث الكبرى مما يعين على فهم العصر.

وتعرض المؤلف في كتابه هذا إلى الظروف التى أدت إلى سقوط الدولة البويهية الديلمية الشيعية على يد الأتراك السلاجقة السنة . وعرض بالتفصيل نظم الحكم والإدارة والتراث الثقافي والتعليمى والفلسفى للعراق في عهد السلاجقة الذين كان عهدهم عهد نمو للحركات الثقافية والعليمية والفاسفية حيث أنه بدأ بصدام عقائدى عنيف فضلاً عن أنه كان يوجد في عهد السلاجقة ثلاثة خلفاء : الخليفة العباسى في بغداد ، والفاطمى في القاهرة وخليفة ثالث أموى في الأندلس ، ناهيك عما كان بين الشافعية والأشاعرة والحنفية والسنة والشيعة من خلافات وأزمات.

لقد كان العصر عصر حركات دينية كبرى فلقد زحف الفاطميون من تونس إلى مصر واستولوا على الشام والحجاز ، وقام ثائر عنيد — هو البساسيرى — في العراق كاد أن يضع العراق في يد الفاطميين . كما كان عصر التوغل الإسلامى القوى في الهند ، ومن ناحية أخرى كان على يد السلاجقة أنفسهم هزيمة إمبراطور الروم وأسره في معركة مانزكرت التى كانت ممهداً للحروب الصليبية ومع هذا لا نجد للسلاجقة دور يذكر في صد العدوان الصليبي وذلك بسبب الصراعات الأسرية وانشغالهم بخطر جديد في الشرق هو الدولة الخوارزمية ، وفي مثل هذه الظروف تستعر الفتن الطائفية ، فكانت من عوامل ضعف السلاجقة ، ولعب الإسماعيلية دوراً رهيباً بسبب قيامهم باغتيالات سياسية منظمة لرجالات الأتراك السلاجقة . وفي الوقت نفســه كانت الدولة السلجوقية تعيش بين دول ناشئة قوية إلى الشرق منها وإلى الغرب منها أيضاً ، فبينما كانت الدولة الخوارزمية تزداد قوة يوماً بعد يوم كانت دولة نور الدين محمود وصلاح الدين قد تسلمت قيادة العالم الإسلامى في الكفاح ضد الصليبيين وعمل الخليفة العباسى على الإفادة من أوضاع السلاجقة المتدهورة فاستنجد بالدولة الخوارزمية ضدهم وكان أن سقطت دولة السلاجقة واستعاد الخليفة العباسى الكثير من سلطانه ، ولكنها كانت كصحوة الموت بالنسبة للخلافة

حيث لم يمض سوى وقت قصير حتى دهم المغول الدولة الخوارزمية ، ومن بعدها بغداد ١٢٥٨ م .

ولم يغض المؤلف الطرف وسط تلك الأحداث الكبرى عن بعض المظاهر الطريفة في العهد السلجوقي مثل حركة العياريين الذين كانوا أشبه بالشطار ، وكان هؤلاء العياريون من مختلف الطوائف ولهم مثلهم الخاصة بهم . واعتقد أنهم يحتاجون إلى دراسة خاصة بهم تكشف عن حقيقة تاريخهم .

المؤلف : دكتور جعفر خصباك

الكتاب : العراق فى عهد المغول الإيلخانيين ١٢٥٨–١٣٣٥م

الفتح . الإدارة . الأحوال الإقتصادية . الأحوال الإجتماعية .

مطبعة العاني . بغداد — ١٩٦٨

تعليق : دكتور عبد العزيز سليمان نوار

بينما كان العراق قلب العالم الإسلامى خلال الدولة العباسية نجده قد أصبح مجرد ولاية في إمبراطورية الخان الأعظم ، ومن هنا لن تصدر عن العراق سياسات كبرى أو توجيهات عالمية في عهد الإيلخانيين ، ولهذا كان كتاب الدكتور جعفر خصباك دراسة مفصلة للأحوال الداخلية في عهد الإيلخانيين من حيث الإدارة ، والإقتصاد بكافة جوانبه (الزراعة . الصناعة . التجارة . الضرائب . ملكية الأرض) . وكذلك الأوضاع الإجتماعية بكافة شعبها (السكان والمدن ، القبائل العربية ، الطوائف الدينية الإسلامية وغير الإسلامية) .

تتبع المؤلف الظروف التى أدت إلى سقوط بغداد في يد المغول وأهمها انشغال خلافة بغداد وسلطنة خوارزم في اقتسام تركة السلاجقة ، دون تركيز الجهود ضد المغول الذين كانوا قد شرعوا في دق أبواب البلاد الإسلامية بعنف ، حتى أن هناك من يتهم الخليفة العباسى نفسه بأنه كاتب المغول ليتعاونوا معه ضد سلطان خوارزم .

وأفرد المؤلف فصلاً خاصاً بشأن اتهام الوزير مؤيد الدين بن العلقمى بخيانة الخليفة والتمهيد لسقوط بغداد في يد المغول ، وأخذ يفند الحجج التى قيلت في هذا الصدد وخرج من مناقشاته بأنه ليست هناك دلائل تدين ابن العلقمى بالخيانة .

وأجاب المؤلف عن أسئلة هامة كانت لا تجد إجابة شافية لدى المشتغلين بتاريخ العراق في العهد المغولى . هل استكان العراق للإحتلال المغولى ؟ وماذا حدث لبغداد — مقر الخلافة — بعد أن أصبحت تحت حكم وثنى ؟ .

بين لنا المؤلف أن المقاومة ضد المغول استمرت بعض الوقت خاصة في إقليم البطائح الوعر ، إلا أن هذه المقاومة لم تكن بقادرة على تحرير العراق من المغول .

أما من حيث الحكم والإدارة فقد أبقى المغول الحكم في يد عدد من أهل العراق منهم مؤيد الدين بن العلقمى ، وفوض إليهم أمر إعادة تنظيم البلاد . وبالتدريج الغيت الدواوين العديدة التى كانت في بغداد واقتصرت على ديوان واحد ، وكان صاحب الديوان ذا مكانة كبيرة في البلاد ، وكان يعيِنه كاتب السلة وهو أشبه ما يكون بسكرتير مجلس الوزراء الآن ، أما الوظائف الأخرى الرئيسية فكانت :

١ — المشرف وهو المسئول المالى .

٢ — قاضى القضاة .

٣ — المحتسب .

ومما لا شك فيه أن أشق الدراسات هى التى تتعرض للمؤسسات الداخلية وللنظم الإدارية والأوضاع الإقتصادية والإجتماعية ، وهذه الأمور هى التى حظيت بعناية المؤلف أكثر من غيرها .

والجديد في هذه الدراسة أنه فند الأقوال التى رددها كثير من الكتاب بشأن مسئولية المغول في تدمير مشروعات الرى في العراق والقضاء على اقتصاديات البلاد . ويبدو فعلاً أن المغول حاولوا أن يعيدوا النشاط الإقتصادى إلى البلاد .

المؤلف : دكتور عبد العزيز سليمان نوار

الكتاب : المصالح البريطانية فى العراق ١٦٠٠/ ١٩١٤

مطبعة الأنجلو المصرية ١٩٦٨

تعليق : الدكتور جمال زكريا قاسم

توفر الدكتور عبد العزيز نوار على دراسة تاريخ العراق الحديث منذ سنوات كثيرة . وهو في هذا الكتاب يدعو إلى ضرورة توجيه الإهتمام إلى دراسة الأوضاع والتطورات الداخلية عند التعرض بالكتابة لأحد جوانب تاريخ العرب بصفة عامة وتاريخ العراق بصفة خاصة ، كما يعلن عن كسر احتكار المؤرخين الأوربيين لكتابة تاريخ العرب وأن الوقت قد حان لكى يكتب هذا التاريخ بأيدى عربية أمينة وإن كان لابد من نقل الوثائق التى تعين على ذلك من دور الوثائق الأوربية إلى جانب تنظيم الوثائق المكدسة في دور الوثائق العربية والتركية وتيسير سبل الإطلاع عليها .

والكتاب دراسة وثائقية ربما تفيد المتخصص أكثر من إفادتها للقارىء العادى . وتعتمد أساساً على الوثائق الموجودة في سجلات وزارة الخارجية البريطانية ووزارة الهند وقد اهتم المؤلف بهذه الوثائق اهتماماً بالغاً إذ عكف على جمعها وتنسيقها وترتيبها وأخرج منها دراسته هذه كما أفرد لها قسماً كبيراً ألحقه بالكتاب ليمكن أن يستفيد منه الباحث المتخصص .

وقد بدأ المؤلف كتابه بتوضيح المعالم الرئيسية لتاريخ العراق حتى يسهل على القارىء — كما يقول — الإلمام بموضوعات الكتاب التى تعرض فيها لنمو المصالح البريطانية في أنهار العراق خلال السنوات الممتدة من ١٦٠٠ إلى ١٩١٤ وإن كانت الدراسة تنصب في معظمها على القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وقد يكون ذلك راجعاً بالدرجة الأولى إلى اتضاح المصالح البريطانية منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر أكثر مما كانت عليه

قبل هذه الفترة . ويرتبط ذلك بالمخططات التى وضعتها بريطانيا لتجعل من العراق قاعدة بحرية ضد الأطماع النابليونية في الشرق الأدني ١٧٩٨–١٨٠١، ثم ضد التوسع المصرى خلال الفترة من ١٨٣١ إلى ١٨٤١ الذى أخذ يطرق أبواب العراق وما ترتب على ذلك من ظهور قوة محلية كبرى قد تستطيع أن توحد منطقة الشرق العربي وبالتالى تقف حجر عثرة في وجه الأهداف الإستعمارية البريطانية . ولذلك اتجهت بريطانيا لبذل محاولتها لاستخدام الملاحة التجارية في أنهار العراق والحصول على امتيازات ملاحية في نهر الفرات واعتباره يشكل حداً فاصلاً بين ولايات الحكومة المصرية وولايات السلطان الشرقية . فضلاً عما يحققه لها استخدام خطوط الملاحة التجارية عبر الشرق الأدني لربط الشرق بالغرب من أهداف سياسية واستراتيجية فضلاً عن الأهداف الإقتصادية . والدليل على ذلك أنه على الرغم من انتهاء موجة التوسع المصرى عقب تسوية لندن ١٨٤٠ – ١٨٤١ فقد ظل الإنجليز يعملون على تصعيد مصالحهم في العراق ظهر ذلك في تأسيس بيت لينش للملاحة البخارية ونمو مصالحهم المتزايدة مما عرضهم لصراعات ومشاحنات شديدة مع الباب العالى خاصة حينما عمل الإنجليز على معارضة المحاولات التى بذلتها الدولة العثمانية لاستخدام بواخر عثمانية في المياه العراقية والتخلص من الضرائب التى كانت تفرضها الدولة العثمانية على السفن المستخدمة للملاحة بين بغداد والبصرة.

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية كانت تتساهل في إعطاء الإمتيازات الملاحية للإنجليز إلا أنها لم تلبث أن أدركت خطورة النتائج التى يمكن أن تظهر فيما بعد . ويرتبط ذلك بالأسلوب الذى اتبعته الدولة العثمانية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهو الأسلوب الذى يتجه إلى محاولتها تقوية قبضة يدها على الولايات الخاضعة لها . ويسجل عام ١٨٨٣ تنبه الدوائر العثمانية إلى أن الإمتيازات التى أعطيت للإنجليز في المياه العراقية أصبحت تشكل خطراً شديداً يهدد مستقبل البلاد في وقت كانت فيه فرنسا قد استولت على تونس ١٨٨١ وانجلترا قد احتلت مصر ١٨٨٢ . ولذلك عزمت الحكومة العثمانية على مواجهة الموقف فأوقفت بواخر شركة لينش عن العمل وبدأت تستعيض عن بواخر الشركة الإنجليزية ببواخر عثمانية وكان من الطبيعى أن

يؤدى هذا الموقف الذى اتخذته الدولة العثمانية إلى مساجلات بين الإنجليز والعثمانيين أوردها المؤلف في كتابه وسجل في جانب منها استخفاف الإنجليز بالدبلوماسية العثمانية حينما أكدوا بوجود اتفاقية سبق أن عقدوها مع الباب العالى في عام ١٨٤٦ تبيح لهم التمتع بامتيازات الملاحة في أنهار العراق بينما يؤكد المؤلف أن هذه الإتفاقية لا وجود لها أصلاً .

وكان من الطبيعى إزاء القوة البريطانية العسكرية والسياسية أن تعجز الحكومة العثمانية عن منع بواخر شركة لينش عن العمل بل أن الشركة في السنوات التالية من أواخر القرن التاسع وبداية القرن العشرين تابعت نشاطها بقوة أكثر مما كانت عليه من قبل إذ تمكنت من الحصول على امتيازات جديدة يشجعها في ذلك الضعف الذى أخذت تتردى فيه الدولة العثمانية بل أنها استطاعت أن تدمج إليها البواخر العثمانية التى كان قد قصد بها أصلاً كسر احتكار الشركة الإنجليزية للملاحة في العراق وقد تأكد لها ذلك بصدور فرمان عثماني في عام ١٩٠٨ عقب الإنقلاب الدستورى نص رسمياً على دمج البواخر العثمانية بشركة لينش مع إعطاء الشركة الجديدة حق احتكار الملاحة في نهر دجلة إلى جانب نهر الفرات .

ويرى المؤلف أن احتكار شركة لينش للملاحة كان له نتائج بالغة الخطورة إذ أبعد القوى الوطنية عن مجال المواصلات الخارجية التى تعتبر ركناً أساسياً من أركان التطور المادى . ولذلك كان لأزمة لينش تأثيرها في نفوس العرب ضد سياسة الإتحاديين التى أدركوا أنها سياسة تقوم بها الحكومة التركية وتهدف بها إلى التضحية بمصالح العرب على مذبح الإمبراطورية العثمانية الأمر الذى أسرع إلى تكتيل نواب العرب لمواجهة هذه السياسة التى اعتبروها تهاوناً في المصالح العربية .

وهكذا استطاع المؤلف في عرضه أن يتدرج مع الخطوات التى بذلتها بريطانيا لكى تجعل بيتاً تجارياً بسيطاً يتحول إلى مؤسسة سياسية اقتصادية كبرى أصبح لها دور كبير ليس في سياسة العراق فحسب بل وفي السياسة الدولية بصفة عامة وهذا أمر ما كان ليتحقق لو لم تكن بريطانيا من القوة والنفوذ

بحيث استطاعت في مناسبات كثيرة أن تفرض رأيها على الدولة العثمانية وتحصل منها على امتيازات سياسية واقتصادية بعيدة المدى .

ولا شك أن الكتاب ساهم في إضافة جديدة للمكتبة العربية كما وضع لبنة قوية في إعادة كتابة تاريخ العراق الحديث الأمر الذى جعل من جامعة بغداد — التى عمل فيها المؤلف بضع سنوات — تساهم بإمكانياتها المادية والمعنوية لنشر هذه الدراسة .

المؤلف : دكتور فاضل حسين

الكتاب : تاريخ الحزب الوطني الدمقراطي ١٩٤٦ – ١٩٥٨

مطبعة الشعب بغداد ١٩٦٣ .

تعليق : دكتور عبد العزيز سليمان نوار

كان العراق بصفة عامة من أول البلاد العربية التي ظهرت بها اتجاهات يسارية في وقت مبكر . ويعتبر الحزب الوطني الدمقراطي واحداً من هذه الأحزاب اليسارية المعتدلة وقد ظهر هذا الحزب في ١٩٤٢ واستمر حتى ١٩٥٤ . وبعد هذا التاريخ كان له نشاط غير رسمى .

ولا شك أن الكتابة عن الأحزاب اليسارية في الوطن العربي شاقة ومثيرة لكثير من المشاكل ، ولكن المؤلف يكتب معتمداً على وثائق تحت يده وعلى معلوماته الشخصية التي كونها خلال مشاركته في أعمال هذا الحزب . فقدم لنا بذلك مادة لم يسبق نشرها .

وحين تعرض المؤلف لتاريخ الحزب الوطني الدمقراطي عنى بشرح نظمه الداخلية الخاصة بالحرية الإنتخابية عند اختيار قادة الحزب . وكانت الحرية الإنتخابية سواء في تشكيل الحزب أو كسياسة له هي الهدف الأكبر للحزب . وإلى جانب ذلك كان الحزب يدعو إلى تخليص البلاد من المعاهدة العراقية البريطانية (١٩٣٠) ، وبتقوية جامعة الدول العربية بما يكفل قيام اتحاد فيدرالى بين البلاد العربية وتحرير فلسطين ، وفي المجال الدولى دعا الحزب إلى اتباع سياسة الحياد على اعتبار أن هذه السياسة كفيلة بتحقيق الأهداف المرجوة من وراء الضمان الجماعي العربي . ومن حيث الإصلاح الإجتماعى والإقتصادى ، فقد كان الحزب أول من دعا إلى تطبيق الإصلاح الزراعي وبإشراف حكومة البلاد على الثروة النفطية وتوزيع أرباحه على على مختلف المواطنين بالعدل .

وكان لرئيس الحزب في العراق ، شأنه شأن أحزاب الوطن العربي أثر كبير في توجيه سياسته وتقوية جانبه . وكانت الأحزاب العراقية في حاجة إلى رئيس قادر على التصدى لنورى السعيد الذى سهر في المناورات السياسية . وكان كامل الجارجى وحسين جميل ومحمد حديد من أبرز زعماء الحزب جمعوا بين السياسة والقدرة على توجيه أمور الحزب ولكن كانت الاتجاهات اليمينيه واضحة لدى كامل الجارجى ومعظم أعضاء الهيئة المؤسسه الأمر الذى جعل عدداً من المثقفين - من بينهم مؤلف الكتاب - يعملون على تكوين جناح يسارى يقاوم تلك الاتجاهات اليمينية . وبينما كانت روح المحافظة هذه قوية في الهيئة المؤسسة واللجنة الإدارية المركزية للحزب ومكتب الرئاسة كان الجناح اليسارى قادراً على أن يحفظ للحزب اتجاهاته التقدمية . وهكذا كانت الحركة التقدمية تجد عقبات شديدة في داخل الحزب نفسه فضلاً عن قوة خصوم الحزب من الأحزاب اليمينية وعلى رأسها نورى السعيد. ولقد جاءت فترة اشترك فيها بعض زعماء الحزب في وزارة نورى السعيد إلا أن ذلك لم يغير من استمرار الجناج اليسارى في الحزب من متابعة نشاطه .

كان من أبرز أوجه نشاط الحزب الدمقراطى معارضته الشديدة لمعاهدة بورتسموث ، وتشكيل الجبهة الوطنية بالتعاون مع حزب الاستقلال وبعض القوى الشيوعية من أجل خوض انتخابات ١٩٦٤ وللحصول على أكبر عدد من المقاعد في البرلمان لليسار العراقي . وفعلاً نجح عدد من زعماء اليسار في الانتخابات . ورغم قلة عددهم إلا أن ذلك كان كافياً لكى تشحذ القوى اليمينية أسلحتها لحل مجلس النواب حتى لاتُعطى فرصة لليساريين لمخاطبة الأمة من على منبر البرلمان . وفعلاً لايكاد المجلس الجديد يجتمع في ٢٦ يوليو ١٩٥٤ حتى حله نورى السعيد في ٣ أغسطس ١٩٥٤ ، ثم سحبت الحكومة إجازة الحزب الوطنى في ٢ سبتمبر ١٩٥٤ . ولا شك أن تلك الضربات التى وجهها اليمين إلى اليسار العراقي كانت هى المهدد الضرورى لعقد حلف بغداد ١٨٥٥ ، ولكن أدت تلك السياسة في نفس الوقت إلى ثورة تموز ١٩٥٨ .

وفي الفترة الواقعة بين ١٩٥٤ – ١٩٥٨ كانت للحزب بعض أوجه نشاط غير رسمى سواء في داخل العراق أو خارجه الأمر الذى أدى إلى القبض على زعماء الحزب في ديسمبر ١٩٥٦ في وقت كانت فيه البلاد ساخطة على الحكومة العراقية بسبب موقفها المتخاذل من العدوان الثلاثي على مصر . ويقول المؤلف .

« عملت حوادث السويس وحوادث العراق في تكوين جبهة الاتحاد الوطنى الدمقراطى والشيوعى وحزب البعث وحزب الاستقلال والمستقلين »

وقد حددت هذه الجهة في أهدافها التالية :

١ – تنحية نورى السعيد وحل مجلس النواب الذى صنعه نورى السعيد

٢ – خروج العراق من حلف بغداد .

٣ – انتهاج سياسة عربية مستقلة أساسها الحياد الإيجابي .

٤ – إطلاق الحريات الديمقراطية الدستورية .

ثم حدث أن انفجرت الحرب الأهلية في لبنان ووقفت حكومة العراق مؤيدة لكل من بريطانيا وأمريكا وتركيا وهنا أصدرت جبهة الاتحاد الوطنى بياناً للشعب العربي جاء فيه :

« . . . كنا نود أن يستجيب الحاكمون إلى مطالب الشعب حقناً للدماء الزكية ولوضع حد لتحدى إرادة الشعب والتنكر لمفاهيم الحرية والدستور مما هدد لبنان واستقلاله . . . . وانكى من ذلك كله استعداء مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة من قبل بعض الدول العربية على البعض الآخر . »

ولا شك أنه كان للنشاط الذى قامت به هذه الجبهة أثره في نشوب ثورة تموز ١٩٥٨

المؤلف : دكتور فاضل حسين

الكتاب : **مشكلة الموصل** (دراسة في الدبلوماسية العراقية — الانجليزية التركية وفي الرأى العام) . الطبعة الثانية مطبعة أسعد . بغداد ١٩٦٧

تعليق : دكتور عبد العزيز سليمان نوار

تعتبر الموصل مفتاح العراق الشمالى ، وهى المسئولة عن تموين وسط العراق وبغداد بكثير من الضروريات الغذائية . وخلال القرون الأربعة التى عاشها العراق تحت الحكم العثماني ، كانت الموصل ولاية من ولايات العراق وكان وجهها قد اتجه نحو بغداد بقوة خلال العهد العثماني . وعندما خاضت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ، كان العراق جبهة كفاح مرير بين العثمانيين والانجليز حتى انهارت الجبهات العثمانية في المشرق العربي واستولى الانجليز على بغداد وعندما وقعت هدنة مد روس في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ كانت القوات الانجليزية على بعد ١٢ ميلاً جنوبي الموصل التى أصبحت محط أنظار الدول الكبرى الأوربية بسبب اكتشاف البترول بوفرة بالقرب منها .

ومع أن الموصل بمقتضى اتفاقية سايكس بيكو كانت داخل منطقة النفوذ الفرنسية إلا أن الحكومة البريطانية شرعت منذ توقيع هدنة مدروس على تقويض اتفاقية سايكس بيكو لمصلحتها . ومن مظاهر ذلك العناية الكبرى التى أولتها للموصل عقب توقيع الهدنة حيث صممت أن تضع يدها عليها لنفطها ولموقعها ولاستخدامها سلاحاً ترغم به حكومة العراق على السير وفق التوجيهات البريطانية وإلا سلخت الموصل عن العراق . وقد تعرض المؤلف بالتفصيل للخطوات التى اتبعتها بريطانيا للوصول إلى غرضها هذا ، وأول خطوة هى إيجاد مبرر لقيام القوات البريطانية بمتابعة الزحف بعد توقيع الهدنة لاحتلال الموصل . والخطوة الثانية هى رفع يد فرنسا عنها ، ولقد

نجحت بريطانيا في إقناع فرنسا بالاكتفاء بنصيب في شركة بترول العراق في مقابل التنازل عن حقها في الموصل ، وفي نفس الوقت سعت بريطانيا إلى الوصول إلى تفاهم نهائي سلمى بشأن الموصل مع الحكومة التركية ، ولكن المشكلة أصبحت معقدة لأن تركيا اعتبرت الموصل من الأراضى التركية السليبة ، فأصبحت الموصل بذلك هدفاً قومياً من أهداف حكومة مصطفى كمال (أتاتورك) ، كما أصبحت هدفاً قومياً تستميت في الدفاع عنه حكومة العراق الناشئة التى كانت ترى عن حق أن فقدانها الموصل سيقضى على مستقبل العراق.

لم تكن مشكلة الموصل بقاصرة على العراق وبريطانيا وتركيا بل كذلك أصبحت مشكلة دولية تحاول عصبة الأمم أن تثبت من خلالها أنها قادرة على حلها حلاً سلمياً يرفع من قدرها كأداة لنشر السلام وتوطيده . وكان هذا من أعز أماني بريطانيا حيث أن الحلول السلمية عن طريق عصبة الأمم كانت في صالح بريطانيا

واستطاعت بريطانيا أن تنقل المشكلة إلى عصبة الأمم التى كلفت لجنة للتحقيق في المشكلة من كافة جوانبها الجغرافية والسكانية والاقتصادية والعسكرية والتاريخية . وتمثل دراسة المؤلف للظروف التى عملت فيها تلك اللجنة ، وأسلوبها في العمل وفي جمع المعلومات ، ومدى صحتها وقيمتها الجانب الرئيسى من الكتاب ولقد كان الكثير من هذه المعلومات يتضارب بعضه مع بعض ، ثم إن هذه اللجنة كانت تعمل في جو مشحون بالتوتر والانفعال . فقد وقعت ثورة كردية في تركيا ووقعت حوادث حدود عرضت الموقف للتدهور . وبعد جهد كبير توصلت اللجنة إلى توصيات محددة رفعتها إلى عصبة الأمم التى أوصت بالإبقاء على الموصل في الدولة العراقية الناشئة بشرط عقد معاهدة مع بريطانيا .

بعد أن تعرض المؤلف بالتفصيل لتلك التطورات انتقل إلى الشطر الثاني من بحثه وهو دراسته للرأى العام إزاء مشكلة الموصل ، فعرض بإسهاب عن الرأى العام العراقي وما دار من مناقشات حول الموضوع في المجلس التأسيسى العراقي وفي دوائر الأحزاب العراقية ، كذلك شرح موقف الرأى العام البريطاني وما دار في البرلمان وفي الصحافة من جدل حول الموضوع . كذلك تعرض للرأى العام التركى والفرنسى والأمريكى .

وبينما كانت تركيا تبذل أكبر جهودها من أجل الحصول على الموصل كان أملها ينهار بسرعة بسبب قوة الحجج الحقيقية التى تدعو إلى بقاء الموصل في الدولة العراقية ، ويرى المؤلف عن حق أن البترول كان عاملاً حاسماً في الإبقاء على الموصل ضمن العراق فيقول في ختام بحثه مبلوراً المشكلة :
« إن النفط أهم عامل أثر في سير الحوادث . . . . . . إن بريطانيا العظمى لم تقاتل من أجل الموصل لأن التسوية السلمية أقل نفقة ، ولأنها أرادت أن تجعل مشكلة الموصل تهديداً متواصلاً للعراق لكى تضطره على الارتماء في أحضانها وتسليم النفط إليها و . . . حاولت بريطانيا مصالحة تركيا لكى تبعدها عن روسيا السوفيتيه .. (وحاولت) عبثاً التخلص من منافسة الولايات المتحدة ».

ولقد كشف لنا المؤلف في خاتمة بحثه كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية سببت تأخير تسوية مشكلة الموصل لصالح بريطانيا في مؤتمر لوزان وذلك عن طريق التأييد السرى لتركيا ، وكيف أن الولايات المتحدة كانت تنادى بسياسة الباب المفتوح لكى تحصل على نصيب في نفط الموصل ، فلما نجحت المساومات البريطانية الأمريكية وحصلت الولايات المتحدة الأمريكية على ٢٥ ٪ من أسهم شركة النفط أغلقت الباب المفتوح ، وفي ١٩٢٨ كانت التسوية النهائية لتوزيع أسهم شركة نفط العراق على النحو التالى :

- شركة النفط الانجليزية الفارسية ——— ٢٣,٧٥
- شركة النفط الانجليزية السكسونية (وتمثل رويال دج وشل) ——— ٢٣,٧٥
- شركة النفط الفرنسية ——— ٢٣,٧٥
- شركة استثمار الشرق الأدنى (وتمثل الجماعات الأمريكية) ——— ٢٣,٧٥
- شركة التعاون والاستثمار المحدودة (وتمثل كلبنكيان) ——— ٥

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب كان في الأصل الرسالة التى حصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة إنديانا في الولايات المتحدة الأمريكية .

كتب حديثة عن الخليج العربى

المؤلف : جمال زكريا قاسم

الكتاب : دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقية (١٧٤١-١٨٦١)

مكتبة القاهرة الحديثة

تعليق : دكتور عبد العزيز سليمان نوار

كانت المراجع الأوربية هي المعتمدة منذ وقت قريب فيما يتعلق بتاريخ الخليج العربي الحديث . وكانت كتابة تاريخه بأقلام عربية أمنيه عزيزة لدى المشتغلين بالتاريخ والعلوم السياسية . ولقد قدم لنا الدكتور جمال زكريا قاسم دراستين متخصصتين في تاريخ الإمارات العربية في الخليج العربي هما :

١ ــ دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقية (١٧٤١ ــ ١٨٦١) . وهى رسالته التى حصل بها على درجة الماجستير في التاريخ .

٢ ــ الخليج العربي . دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠ ــ ١٩١٤) وهى دراسته التى حصل بها على درجة الدكتوراه ودراسة دولة البوسعيد لها قيمة هامة في التاريخ الحديث لأنه في الوقت الذى كانت فيه هذه الدولة قد بلغت ذروة قوتها في كل من عمان وشرق إفريقية وأصبحت أكبر قوة محلية عربية بحرية ، كانت هناك حركات كبرى في العالم العربي تعمل على إنهاضه من تخلفه فدولة البوسعيد نشأت ونمت بالقرب منها في نجد الحركة الوهابية ، تلك الحركة التى اصطدمت بعنف مع مصر الفتية أيام محمد على وأدى ذلك إلى وصول النفوذ المصرى بقوة إلى عمان والبحرين والكويت كذلك عاصرت دولة البوسعيد أحداثاً عالمية كبرى كالحملة الفرنسية على مصر وفترة الحروب النابليونية .

قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أبواب عالج في الأول تاريخ دولة البوسعيد منذ استلامها السلطة من يد اليعاربة حتى تولى السيد سعيد مقاليد البلاد فى ١٨٠٦ .

والباب الثاني درس فيه الظروف التى مهدت لتولى السيد سعيد الحكم والأوضاع الداخلية التى واجهها والمجهودات الكبيرة التى بذلها في الخليج العربي من أجل السيطرة عليه . وفي الباب الثالث استعراض لشرق إفريقية تحت حكم السيد سعيد حتى تقسيم دولة البوسعيد إلى دولة مسقط وعمان وأخرى في زنجبار .

ولاشك أن انتقال مسقط وعمان من المجال الملاحى في المحيط الهندى والبحر العربي حتى شرق إفريقية كان نتيجة جهود كبيرة بذلها عرب عمان منذ أن تولوا مهمة ملأ الفراغ الذى تخلف عن تدهور القوة الفارسية في الخليج العربي بعد نادر شاه . ولا تكاد أسرة البوسعيد تحرز بعض التقدم في هذه النواحى حتى وجدت نفسها معرضة لضغط عسكرى مباشر من الدولة السعودية الوهابية ، فكان أن وقع صراع متطاول بين الدولتين .

ولقد وقعت تلك الأزمات في وقت كانت فيه فرنسا قد تحولت من التطلع إلى الشرق العربي إلى استعماره ، فبعثت بحملة نابليون بونابرت ، وكان من الأهداف الهامة التى سعى إليها نابليون بونابرت - سواء أثناء وجود الحملة الفرنسية أو خلال سنوات حكمه في باريس - التعاون مع سلطان مسقط . وردت شركة الهند الشرقية البريطانية على ذلك بأن عقدت معاهدة ١٧٩٨ م مع سلطان مسقط لتقطع الطريق على الفرنسيين . حقيقة استمرت الاتصالات بين مسقط وفرنسا بعد ذلك ولكن دون أن تحرز فرنسا تفوقاً على انجلترا وذلك بسبب الوجود العسكرى الانجليزى في الخليج ممثلاً في أسطول شركة الهند الشرقية البريطانية في الوقت الذى لم تكن للفرنسيين قوة بحرية تذكر في الخليج العربي .

وفي عهد السيد سعيد (١٨٠٦ — ١٨٥٦) تعاظم النفوذ الانجليزى في دولة البوسعيد والخليج العربي ، ومما أعان الانجليز على ذلك أن السيد سعيد كان قد ربط نفسه بالسياسة البريطانية وتعاون معهم إلى أبعد الحدود . ولقد قدم له الانجليز بعض الخدمات فأعانوه ضد ثورة البوعلى عليه وضد الوهابيين وضد التوسع المصرى ولكن كشفت دراسة المؤلف لهذا الموضوع أن الانجليز أفادوا كثيراً من صداقتهم للسيد سعيد وبالعكس كان ما أفاده السيد سعيد

من صداقتهم قليلاً بل أدى إلى تدمير الدولة التى بناها . فلقد تعاون السيد سعيد مع الانجليز في توجيه ضربة حاسمة إلى إمارات الساحل المهادن أدت إلى ربط هذه الإمارات بعجلة الإمبريالية البريطانية وفي نفس الوقت رفض الانجليز رفضاً باتاً أن يمد السيد سعيد سلطته إلى البحرين . ولقد خرجت بريطانيا من تعاونها مع السيد سعيد بالانفراد بمقدرات الخليج وهو الهدف الذى كانت تسعى إليه .

أما في شرق أفريقية فإن نشاط السيد سعيد كان أكثر فبعد أن وطد حكمه في زنجبار والساحل نشر زراعة القرنفل والقصب وجمع ثروة كبيرة من تجارة الرقيق وفتح قلب إفريقية لقوافل التجار الذين حملوا معهم إلى تلك المجاهل الحضارة الإسلامية .

وكان أن ارتفعت قيمة شرق إفريقية لدى السيد سعيد حتى أنه نقل عاصمته إلى زنجبار في ١٨٣٢ ولقد بذل السيد سعيد جهداً كبيراً في توطيد حكمه في وجه ثورات عنيفة في ممبسه وغيرها حتى أنه سعى إلى الزواج من ملكه مدغشقر لعله يكسب تعاونها معه في القضاء على ثورة ممبسة ولعله كان يهدف أيضاً بتوسيع ممتلكاته في شرق إفريقيا بضم جزيرة مدغشقر إليه كذلك كان من أسباب عقده معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية ١٨٣٣ أنه أراد أن يحصل على معونة هذه الدولة ضد ثوار ممبسه . ورغم كل تلك الجهود الكبرى إلا أن دولة السيد سعيد كان تحتوى على قوى هدم خطيرة جداً : وعلى رأسها أن البوسعيد لم يتجهوا إلى إقامة جيش وطني وإنما اعتمدوا على المرتزقة ، واعتمدوا على تموين بمباى لأسطولهم فوضعوا مقدراتهم في يد الإمبريالية البريطانية ، وأعانت دولة البوسعيد على ظهور عدة مراكز قوى متنافرة في المشرق العربي .

- المماليك ثم العثمانيون في العراق
- السعوديون في نجد والأحساء .

هذا إلى جانب الإمارات العربية التى وقعت تحت السيطرة البريطانية . بل إلى جانب ذلك كان يقدم هدايا غير معقولة إلى بريطانيا ، منها التنازل

عن جزر كوريا موريا ، وإهداء بعض قطع أسطوله القوية إلى الملكة فيكتوريا وفتح الباب أمام مصراعيه للانجليز ليقوموا بمقاومة تجارة الرقيق حقيقة كان هذا الهدف هدفاً إنسانياً عظيماً ولكن بريطانيا التى حاربت تجارة الرق في المشرق العربي وإفريقية كانت في نفس الوقت تفرض بقوة السلاح والحرب تجارة الأفيون على الصين . إن بريطانيا لم تتحمس لوقف تجارة الرقيق إلا لأنها كانت قد استنفدت أغراضها من تلك النتيجة ومن ناحية أخرى كان القيام بهذا العمل الإنساني يفتح لها مجالات واسعة للسيطرة على الشعوب .

المؤلف : جمال زكريا قاسم

الكتاب : **الخليج العربى: دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ – ١٩١٤**

مطبعة جامعة عين شمس . القاهرة ١٩٦٦ .

تعليق : دكتور عبد العزيز سليمان نوار

إن التخصص الدقيق في عصرنا هذا أمر أصبح ملحاً كل الإلحاح ، وقد اتجهت مدرسة التاريخ الحديث إلى إعداد عدد من المتخصصين في فروع معينة من التاريخ ولهذا نجد من هذه المدرسة من ركز أبحاثه في اليمن الحديث، ومن ركز أبحاثه في العراق الحديث ، وقد تخصص الدكتور جمال زكريا قاسم في الخليج العربي في العصر الحديث وإلى جانب ذلك عنى بشرق إفريقية عناية خاصة لارتباطها الوثيق بتاريخ عمان .

وكتابه الذى نحن بصدده دراسة مفصلة وثائقية لتاريخ الخليج العربي بعد انسحاب المصريين من شبه الجزيرة العربية حتى نشوب الحرب العالمية الأولى .

وعرض لنا في الباب الأول من كتابه الأوضاع السياسية في الخليج بعد انسحاب القوات المصرية حتى قيام الحرب العالمية الأولى وهى فترة دقيقة أصبحت خلالها القوى الوطنية هناك في مواجهة الإمبريالية البريطانية التى أثبتت قدرتها على منع أية قوة غيرها من الظهور في المنطقة عندما أرغمت شيخ البحرين على التنكر للاتفاقية التى عقدها مع المصريين ، وعندما أرغموا المصريين على الانسحاب من المنطقة . وكانت القوة السعودية وسلطنة مسقط هما القوتان المحليتان المسئولتان عن المحافظة على كيان المنطقه من العدوان البريطاني ، ولكن الدولة السعودية الثانية كانت ضعيفة غير قادرة على التصدى للانجليز ، ودولة البوسعيد كانت تحتضر ، أما الدولتان الإسلاميتان الكبيرتان المشرفتان على الخليج العربي وهما فارس والدولة العثمانية فكانتا تضعان مصالحهما الذاتية فوق مصالح الخليج والوحدة الإسلامية . ورغم هذا

الضعف والتفكك في القوى المحلية المناهضة للوجود البريطاني في الخليج العربي فإنها بذلت مجهودات كبيرة لوقف الزحف الإمبريالي . ولقد عني المؤلف عناية كبيرة بهذه المجهودات فقدم لنا في الباب الأول دراسة لإمارة نجد (١٨٤٢ — ١٨٦٥) وعلاقاتها ببريطانيا التى كانت تستخدم القوة كلما حاولت إمارة نجد مد يدها إلى البحرين أو إلى الساحل المهادن أو إلى عمان وكلها كانت تحت السيطرة البريطانية . وكذلك درس سلطنة مسقط من الانقسام حتى الحماية (١٨٥٦ — ١٨٩١) ، فبين دور مستر كاننج السياسى البريطاني المشهور في تقسيم دولة البوسعيد إلى عمان وزنجبار وما تبع ذلك من تدهور في سلطنة مسقط بسبب تحفز فارس من ناحية والسعوديون من ناحية أخرى للسيطرة عليها بينما وقفت بريطانيا ضد فارس والسعوديين فبدأت وكأنها هى المدافعة عن مسقط والحقيقة هى أن الأمر انتهى بتلك السلطنة التى كانت تمتلك أكبر أسطول بحرى في سواحل المحيط الهندى وتسيطر على ممتلكات واسعة على الساحل الشرقي لأفريقية . . . إلى تفكك مقاطعاتها الداخلية ثم وقوعها تحت السيطرة البريطانية

ونتيجة مشابهة نطالعها في علاقة بريطانيا بمشيخات الساحل المهادن ، فقد كانت هذه المشيخات جزءاً من الدولة السعودية ، ثم فرضت عليها بريطانيا معاهدة ١٨٢٠ وفصلتها عن الدوله السعودية ، وظهرت إمارات مكروسكوبية متقاتلة لا حول لها ولا قوة أمام السفن البريطانية ، أو أمام المعاهدات العديدة التى فرضت عليها ، وأصبحت هذه الإمارات بعيدة عن متناول يد القوى المحلية الراغبة في إنقاذ الخليج من بريطانيا . وخاصة الدولة العثمانية . فلقد حاول مدحت باشا إنقاذ المنطقة من بريطانيا وبعث بحملة كبيرة استولت على الأحساء ولكن تصدت بريطانيا لتلك الحملة ١٨٧١ فأوقفت تقدمها عند حدود قطر ، ومنعتها من مد يدها إلى البحرين ، ولم تستطع تخليص الساحل المهادن ولا عمان من الإمبريالية البريطانية .

ومن ناحية أخرى كانت الدولة العثمانية في كفاحها ضد الوجود العدواني البريطاني في الخليج العربي تجد نفسها مضطرة إلى الاصطدام بجارتها الدول

الإسلامية الكبرى في إيران التي كانت تدعى السيطرة على البحرين ، ولقد كانت بريطانيا صلبة في رفض مطالب كل من الشاه الفارسى والسلطان العثماني وظلت بريطانيا ترفض بشده أى ادعاءات فارسية في البحرين حتى سنوات قليلة عندما اشتد تيار القومية العربية ففتحت باب الهجرة الإيرانية إلى إمارات الساحل المهادن بالذات ، وكادت أن تخلق مشكلة خطيرة للمنطقة لولا المقاومة العنيفة الصادرة عن الجمهورية العربية المتحدة ضد تلك السياسات البريطانية الخطرة على مستقبل البلاد . حقيقة اقتصرت اقتصرت دراسة المؤلف بسبب طبيعة بحثه ـ على الأطماع الفارسية في البحرين (١٨٤٢ — ١٨٧١) ، ولكنه في نفس الوقت أعطانا صورة واضحة للمناورات الدبلوماسية والأساليب البريطانية التى كانت تتبع حينذاك لانفراد بريطانيا بالمنطقة .

وفي الباب الثاني دراسة مفصلة للمحاولة الكبيرة العثمانية للتوسع في الخليج العربي ومد خط حديد بغداد إلى الكويت وما ترتب عن ذلك من استغلال بريطانيا للنزاعات الأسرية في الكويت وعقد معاهدة ١٨٩٩ التى أغلقت منفذ خط حديد بغداد . كذلك درس في هذا الباب ظهور الدولة السعودية الثالثة على يد عبد العزيز بن سعود وتطلعاته القوية إلى الخليج العربي ولكن القيود التى فرضتها بريطانيا على السواحل ، وضغط الدولة العثمانية عليه كادت أن تجعله هو الآخر مجرد أمير تحت الحماية البريطانية . وكانت محاولته الجزئية التى أدت إلى الاستيلاء على الأحساء ١٩١٣ من يد العثمانيين أكبر عملية قام بها قبل الحرب العالمية الأولى فأنقذ بذلك الأحساء من الانجليز ولم يكن يدرى حينذاك بأن الأحساء تسبح على بحيرة من البترول .

وفي نهاية الباب الثاني أوضح المؤلف الجهد الذى بذلته الحكومة العثمانية لتصفية مشاكلها في الخليج العربي بعقد تسوية ١٩١٣ مع بريطانيا التى تركت لبريطانيا منطقة نفوذ تمتد من قطر إلى عمان وتركت الأحساء للدولة العثمانية ولكن لم تبرم الاتفاقية بسبب وقوع الحرب العالميه الأولى .

وفي الباب الثالث دراسة للتنافس الانجليزى الفرنسى الروسى الألماني فلقد أصبح الخليج منطقة احتكاك كبرى بين الدول الكبرى وكانت مشكلة خط حديد بغداد محور ذلك التنافس ومع أن الدول الكبرى استطاعت أن تتفاهم على تسوية عامة للمشكلة إلا أن وقوع الحرب العالمية الأولى أدى إلى سيطرة بريطانية على كل من الخليج العربي والعراق فانفردت بالمنطقة ولم تخرج منها إلا على يد الحركات التحررية في العراق والخليج والجمهورية العربية المتحدة .

كتب حديثة عن العالم العربى

لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب

تحقيق : الدكتور أحمد مصطفى أبو حاكمة

تعليق : الدكتور عبد الرحمن زكى

دار الثقافة ببيروت ١٩٦٧

صدر في العامين الأخيرين للدكتور أحمد مصطفى أبو حاكمة أستاذ التاريخ الإسلامى بالجامعة الأردنية ، أربعة كتب قيمة[١] تناول فيها تاريخ شرقي شبه الجزيرة العربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وهى فترة لم يُعنى المؤرخون المحدثون العرب بها إلا منذ سنوات قليلة ، وربما كان يرجع ذلك إلى قلة المراجع العربية الأصيلة التى تعين المؤرخ على التأليف ، ومعظم هذه المراجع ليست في متناوله . بيد أن ذلك لم يثن عزيمة الدكتور أحمد أبو حاكمة ، فلقد أقدم على البحث في دور المحفوظات التاريخية حتى توافرت لديه طائفة منها في المتحف البريطاني وجامعة لندن .

بحث مؤرخنا الجليل تلك المخطوطات العربية النادرة المتصلة بدراسة الحقبة التى ذكرناها ، فوضع يده على مخطوط لكتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب الذى عرف سبيله إلى المتحف البريطاني سنة ١٨٦٠ عندما اشتراه المتحف من أرملة المستر تيلور المقيم البريطاني ببغداد . والكتاب

(١) Ahmad Abu Hakima : History of Eastern Arabia. The Rise and development of Bahrain and Kuwait. Beirut 1965.

وثانيها تحقيق كتاب « لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب » ، بيروت ١٩٦٧

وثالثها « محاضرات فى تاريخ شرقى الجزيرة العربية فى العصور الحديثة » . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٨

ورابعها « تاريخ الكويت » ، القسم الأول من الجزء الأول . الكويت سنة ١٩٦٧

مجهول مؤلفه ، وقد نسب خطأ إلى محمد بن عبد الوهاب في فهارس المتحف البريطاني نظراً لأنه جلد معه كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب . ولم يعرف محتوياته سوى قليل من المؤرخين بالرغم من أهميته لدراسة تاريخ شرقي الجزيرة العربية . فأقدم المؤرخ على تحقيقه تحقيقاً علمياً ممتازاً يستحق عليه الثناء .

يعالج لمع الشهاب الحركة الوهابية المباركة منذ بدايتها وإلى عام ١٢٣٣ هـ — ١٨١٧ م ويقع في خمسة فصول وخاتمة . ففى الفصل الأول يتناول سيرة محمد بن عبد الوهاب وبداية دعوته ، وفي الثاني يبين المؤلف كيف قبل محمد بن سعود دعوة الشيخ وكيف تم الإتفاق فيما بينهما على نشر الدعوة ، وثالث الفصول جاء في نسب محمد بن سعود وحسبه ، ورابعها فيه تفصيل لحكم آل سعود في الجزيرة إبتداء من محمد بن سعود وحتى عبد الله بن سعود ، أى أنه يعالج التوسع السعودى منذ البداية في نجد والإحساء والعراق وعمان وسورية وغيرها . وخامس الفصول يبين توسع الوهابيين وكفاحهم في الحجاز غرباً ، وبيان حدود بلاد نجد والحجاز وتهامة واليمن وأرض بنى خالد وقطر وعمان وأسماء شعوب بنى خالد ، وما كانوا فيه من الرياسة قبل ظهور محمد بن سعود . أما الخاتمة ففيها شرح مستفيض لتعاليم الوهابية كما نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ثم كيف علق بعض علماء المسلمين على دعاواه .

ومنهج صاحب لمع الشهاب يختلف عن منهج سواه ممن سجلوا الأحداث دون أن يعلقوا عليها . فهو يورد الحقيقة التاريخية ثم يأخذ في علاج أسبابها ثم نتائجها وفي ذلك نراه حريصاً على أن يصل إلى الحقيقة ، فهو يمضى إلى الزبير والكويت ليسأل أهل العلم عنها دون أن ينحاز إلى جانب دون آخر . شأنه في ذلك شأن المؤرخ المنصف النزيه .

ويكاد يكون صاحب لمع الشهاب المؤرخ العربي الفريد الذى نستطيع أن نستمد من مؤلفه معلومات متصلة عن تعاقب شيوخ بنى خالد ، ، كما أنه عالج أسباب زوال الملك عنهم وكان في مقدورهم أن يصدوا الزحف الوهابي

لولا تفرق كلمتهم وتنازعهم على السلطان ، وسبب ذلك في رأى المؤلف راجع إلى الدسائس والمؤامرات التى كان يدبرها الوهابيون لهم (ص ٦٧ — ٧٦ (. ولصاحب لمع الشهاب رأى في مسلك الوهابيين تجاه القرصنة في البحار المجاورة ، فإنه يرى أن تلك الأعمال التى كان يقوم بها القواسم من أهل رأس الخيمة هى واجب دينى ، كما أنه يدعى أن الوهابيين قد اتخذوا من القواسم أداة للقرصنة وهم محرضوهم على ذلك (١٣٩ — ١٤١) .

ولقد دعت الأمانة العلمية صاحب لمع الشهاب أن يعيد النظر في بعض ما دونه من أخبار بعد أن فرغ من تدوين كتابه ، وكانت هذه الإعادة عام ١٢٣٣ هـ — ١٨١٧ م بعد عام من فراغه من تدوينه .

ولما كان المؤلف قد أورد كثيراً من الحوادث دون أن يذكر تاريخ وقوعها ، فقد كان لزاماً على صديقنا المؤرخ أن يحددها باستعانته بالمصادر المعاصرة الأخرى لتلك الحقبة ، وهى مصادر عربية وأجنبية كثيرة ، فبذل جهداً يذكر له بالثناء . وفي طليعة تلك المصادر :

١ — المراسلات المخطوطة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية المحفوظة في مكتبة وزارة شؤون الكومنولث (**Commonwealth Relation Office**)[1] التى كانت تعرف قديماً بمكتبة وزارة شؤون الهند بلندن . وهذه المراسلات أو الوثائق تمثل قدراً هائلاً من مكاتبات وكلاء الشركة ، وهى الخطابات المتبادلة بين وكلاء الشركة المقيمين في وكالاتها ببلدان الخليج العربي وبين مجلسى مديرى الشركة بلندن .

٢ — وهناك الوثائق المطبوعة من هذه المراسلات . وينحصر أهمها في مختارات من سجلات حكومة بومباى (**No. XXIV New Series**) والتى طبعت سنة ١٨٥٦ في مدينة بومباى .

٣ — ورجع المؤرخ الفاضل إلى مصادر هامة أخرى تتمثل في كتابات الرحالة الأوروبيين ومنهم موظفو شركة الهند الشرقية ، وفيما كتبه الرحالة

---

(١) اندمجت وزارة شؤون الكومنولث فى وزارة الخارجية البريطانية فى مارس ١٩٦٨

الدنماركي نيبور (Niebuhr) (١٧٣٣ — ١٨١٥) ، وتعتبر رحلته خير مرجع أوروبي عن الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر ، وكذلك الخريطة التي رسمها الرحالة للخليج العربي . كما أنه رجع إلى ما كتبه عدد من الرحالة الأوروبيين ، من أمثال سيتزن الألماني ، وبوركهاردت السويسرى ، وبكنجهام ، وشتوكويلر ، وويلستد وغيرهم .

٤ — ومن مصادر المؤرخ الهامة ، ما كتبه سير هارفورد جونز بريدج عن الوهابية وملاحظاته عن البدو والوهابيين وبعض حكام الكويت ، وعن حملة على باشا كيخيا بغداد على الإحساء عام ١٧٩٨ — ١٧٩٩ ، هذا بالإضافة إلى المراجع التاريخية الكثيرة من عربية وأجنبية ذكرها المؤرخ أبو حاكمة في ذيل تحقيقه (ص ١٩٧ — ٢٠٦) وتعتبر وحدها قائمة شاملة تدعم قائمة المستشرق البريطاني جمال الدين هيورث — دن التى صدرت في عام ١٩٥٢[١] .

والكتاب غنى بالتعليقات التاريخية التى تفيض بها صفحات « لمع الشهاب » عقب كل فصل . وهى دليل واضح للجهد المثمر الذى بذله المؤرخ أحمد أبو حاكمه ، فشكراً له .

---

(١) Bibliography and Reading Guide to Arabia (No. 1, the Muslim World Series). The Renaissance Bookshop, Cairo.

المؤلف : Al Bert Hourani

الكتاب : Arabic Thought in the Liberal Age

London 1964

تعليق : الدكتور جمال زكريا قاسم

تأثرت الإتجاهات السياسية والفكرية في أوربا بحدثين كبيرين كان لهما أثر كبير في نمو المذاهب الليبرالية التى يدعو أصحابها إلى الحرية السياسية والإقتصادية ونعنى بهذين الحدثين الثورة الصناعية والثورة الفرنسية وقد تأثر العالم العربي بتلك الإتجاهات الفكرية التى أخذت تسود أوربا منذ أواخر القرن الثامن عشر ومن هنا كان تحديد المؤلف عام ١٧٩٨ بداية لهذا التأثر باعتبار أن الحملة الفرنسية على مصر كانت تمثل أول احتكاك قوى بين أوربا والشرق كان له أثره في تحديد المعالم الرئيسية التى اتجه إليها المفكرون العرب على أن أهم ما يلاحظ أن تلك الإحتكاكات الفكرية حدثت في وقت كان تفوق الغرب فيه ملحوظاً وعلى ذلك لم يكن التقدم الفكرى الذى استمده الشرق من الغرب خالصاً في حد ذاته وإنما كان يحمل في طواياه غوائل التدخل والنفوذ الأجنبي ولعل ذلك ما جعل المؤلف يقف عند عام ١٩٣٩ باعتباره تاريخ التحول الخطير الذى حدث في أعقاب الحرب العالمية الثانية حيث استقلت كثير من الدول العربية وظهرت قوى جديدة أصبح لها اعتبارها في الميزان الدولى تتمثل في مجموعة الدول الأسيوية والإفريقية واتجاه تلك القوى الجديدة إلى التقدم في العلوم التكنولوجية والتطبيقية التى كان لها أثرها الواضح في ترجيح كفة الغرب على كفة الشرق . وإذا كانت الأوضاع السياسية قد تغيرت فإن المؤلف يدعو إلى أن يتعامل الشرق مع الغرب تعاملاً فكرياً خالصاً على ألا يعترف للغرب بأى نفوذ أو مصالح قد تؤثر على ذلك .

ويبدأ حوراني دراسته بتركيزه على الإصلاح في المجتمع الإسلامى ويعزوه إلى أنه كان رد فعل إيجابي للأخطار التى واجهت هذا المجتمع من

قبل أوربا تلك الأخطار التى أخذت تزداد في شدتها منذ أوائل القرن التاسع عشر . والمجتمع الإسلامى في ذلك الوقت كانت تمثله الدولة العثمانية التى كانت تسير في طريق التدهور نتيجة للضعف العام الذى ألم بها منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الأمر الذى أدى إلى تدفق الثروة على دول غرب أوربا وحرمان الشرق الإسلامى من مصدر هام من مصادر تلك الثروة . وقد نتج عن حالة الضعف هذه محاولات للإصلاح من قبل الدولة العثمانية خاصة حينما أخذت الإحتكاكات الأوربية الفكرية تغزو العالم العربي إبتداء من منشور بونابرت ثم التأثيرات الفكرية التى أوجدها السان سيمونيون في مصر في عهد محمد على ثم كان للإرساليات التبشيرية التى اتخذت من بلاد الشام مسرحاً لها الفضل الأكبر في إتاحة الفرصة للعرب للتزود بالثقافة الغربية ومن هنا كان الإتجاه إلى أن الإصلاح لا يمكن أن ينجح إلا بالعدول التام عن الأفكار الإصلاحية التقليدية وضرورة اقتباس الأنظمة الأوربية الحديثة وإدخالها إلى المجتمع الإسلامى .

ولكن المشكلة التى يبرزها المؤلف هى أن المفكرين الذين تلقوا ثقافاتهم على أيدى البعثات التبشيرية في سوريا ولبنان ومعظمهم من المسيحيين لم يكن في استطاعتهم أن يضطلعوا بدور فعلى في الحكومات التى استمرت إسلامية المنحى ولكن تأثيرهم بدأ يظهر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر عن طريق الكتابة والصحافة .

ويتضح منهج حوراني في وضعه هذا الكتاب في تركيزه على اتجاهين سار فيهما الفكر العربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الإتجاه الأول ويدور حول أهمية العودة إلى المبادىء الأساسية للإسلام بشرط تكييفها بالشكل الذى يتفق وروح العصر ويرتبط هذا الإتجاه بالمفكرين من أمثال جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ورشيد رضا .

أما الإتجاه الثاني فقد كان يدعو إلى قيام مجتمع قومى علماني وفصل الدين عن الحكم .

وقد حاول حوراني من خلال عرضه للمفكرين بل والترجمة لهم في فصول مختلفة من كتابه دراسة الإتجاهات التى سار فيها أولئك المفكرون من

اتجاه نحو الفكرة الإسلامية بمعناها الواسع أو الفكرة العربية أو الفكرة الإقليمية ومدى تأثر ذلك بالفكر الأوربي خلال الفترة التى حددها لدراسته .

ويقرر المؤلف أنه على الرغم من أن الإتجاه الغالب عموماً لدى معظم مفكرى القرن التاسع عشر كانت الرغبة في إصلاح المجتمع الإسلامى ككل فقد ظهر في مصر اتجاه جديد يؤمن بالأمة المصرية باعتبارها جزءاً متميزاً من المجتمع الإسلامى . وقد حمل لواء هذا الإتجاه الشيخ رفاعة بدوى رافع الطهطاوى ويظهر ذلك في كتاباته من التركيز على الوطن والوطنية ويعتقد حوراني أن رفاعة لم يكن يذهب إلى أبعد من مفهوم الوطنية المصرية على الرغم من وجود بعض الملامح عن فكرة العروبة فهو يقدر في أحيان كثيرة الدور الذى قام به العرب في الفتوحات الإسلامية ولكن ذلك يمكن اعتباره نزعة إسلامية أكثر منه نزعة عربية . على أن الخطير في رفاعة أن أفكاره عن المجتمع والدولة لم تكن تلك الآراء التقليدية التى كانت سائدة في عهده كما أنها لم تكن مجرد إنعكاسات سطحية لما تأثر به أو شاهده في باريس وإنما الطريقة التى صيغت بها آراؤه وإن كانت في مجموعها تقليدية المنحى إلا أنه يعطيها على الرغم من ذلك حداثة وتجديداً ذا معنى .

وإذا كان رفاعة يمثل الفكرة الوطنية فإن خير الدين باشا التونسى يمثل اتجاهاً آخر يغلب عليه إصلاح المجتمع الإسلامى ككل ومع ذلك لم يستطع خير الدين أن ينفذ برامجه الإصلاحية المحلية في تونس نتيجة للتدخل الأجنبي كذلك فشل في تنفيذ برامجه الإصلاحية على مستوى المجتمع الإسلامى حين تولى منصب الصدارة العظمى نتيجة لاستبداد السلطان عبد الحميد الثاني من ناحية وللضغط المتزايد من الدول الأوربية على الدولة العثمانية من ناحية ثانية . وقد عبر خير الدين عن منهجه الإصلاحى في كتابه المعروف أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك وقد نشر هذا الكتاب في عام ١٨٦٧ ووضعت ترجمة فرنسية لمقدمته بعنوان « الإصلاحات الضرورية للدول الإسلامية » وقد ذكر خير الدين أن ما دفعه إلى وضع هذا الكتاب أمران . الأول : توضيح الطريق لما هو صالح للمجتمع الإسلامى والثاني : التأكيد بأن الإصلاح يتمشى مع روح الشريعة الإسلامية وليس منافياً لها . وأن المجتمع

الإسلامي لن يستعيد مكانته إلا إذا اتخذ الأساليب التي سارت عليها أوربا ولذلك نجده يحاول التقريب بين الأنظمة الأوربية وبين الأنظمة الإسلامية فالوزير المسئول في النظم الأوربية الحديثة هو ما كان يعرفه المجتمع الإسلامي بالوزير الصالح والبرلمان والصحافة في المجتمعات الأوربية هى نفسها الشورى في الإسلام والإجماع هو الرأى العام وهكذا .

ومع ذلك فإن المشكلة التي يركز عليها حوراني هى كيفية نقل النظريات الأوربية إلى المجتمع الإسلامي دون أن يحدث لذلك رد فعل لدى المحافظين المتمسكين بحرفية الدين وعلى ذلك يرى المؤلف أن المفكرين المسيحيين لم يواجهوا حرجاً في نقل الأفكار الأوربية الحديثة إلى العالم العربي خاصة في اتجاههم إلى الدعوة لقيام مجتمع قومى علماني . وعلى الرغم مما حاول حوراني تأكيده من تأثر المسيحيين بالأفكار القومية ، وعلى الرغم من أننا لانستطيع أن ننكر تأثرهم بذلك إلا أن اتجاه تلك العناصر المسيحية إلى الفكرة القومية العلمانية كان في نفس الوقت حفاظاً على كيانها باعتبارها أقلية تعيش في مجموعة إسلامية كبيرة العدد ومن ثم كانت الدعوة لقيام مجتمع قومى علماني خير ضمان لها خاصة في الوقت الذى غلب فيه الإتجاه نحو الجامعة الإسلامية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ثم تابع المفكرون المسلمون المفكرين المسيحيين في مناهضتهم للإستبداد الذى كان يختفى وراء الخلافة الإسلامية فعبد الرحمن الكواكبي يبشر بالعروبة في كتابه أم القرى ويقاوم الحكم المطلق في كتابه طبائع الإستبداد أما جمال الدين الأفغاني فيمثل اتجاهاً جديداً نحو صد التدخل الأوربي والدعوة إلى الجامعة الإسلامية باعتبارها الطريق الوحيد لمقاومة أخطار أوربا وتعتبر صحيفة العروة الوثقى التي أنشأها في باريس بالإشتراك مع الشيخ محمد عبده توضيحاً لتلك الفكرة وبياناً للضعف الذى تردى فيه العالم الإسلامي . وعلى الرغم من الحماسة التي سارت فيها حركة الجامعة الإسلامية فإنها لم تحقق ما كان يعلق عليها من آمال ويعزو ذلك إلى موجة المد الإمبريالى التي وصلت في نهاية القرن التاسع عشر إلى أقصى مدى لها هذا فضلاً عن أن النزعات القومية التي أخذت تتلمس طريقها إلى الظهور كان لها هى الأخرى الأثر

الكبير في انحلال فكرة الجامعة الإسلامية، وإذا كانت هذه الفكرة قد ووجهت في البداية بمعارضة المفكرين المسيحيين فإنها أخذت في مرحلتها الأخيرة تتعرض لمناوءة المفكرين المسلمين أنفسهم الذين أدركوا ما يكمن وراءها من استبداد وأنها ليست في مصلحة الدين بقدر ما هى في مصلحة الحكام المستبدين فبالإضافة إلى الكواكبي عارض تلاميذ محمد عبده فكرة الجامعة الإسلامية وبرز منهم أحمد لطفى السيد الذى اعتبرها مؤامرة لإثارة الشعور الأوربي ضد الحركة الوطنية في مصر ومن هنا كانت معارضته لمصطفى كامل في دعوته إليها كذلك نفى الشيخ على عبد الرازق في كتابه الإسلام وأصول الحكم الذى صدر بعد إلغاء أتاتورك للخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ أن يكون هناك ثمة ضرورة لاعتبار الخلافة أساساً من أسس الحكم في الإسلام .

وأخيراً يثير حوراني ظهور الإتجاهات الدينية بعد ذلك في كتابات طه حسين وحسين هيكل والعقاد ولكنه يؤكد أن ذلك لا يعنى بعثاً للفكرة الإسلامية التقليدية وإنما يؤكد أن اتجاه أولئك الكتاب كان أكثر وضوحاً إلى ضرورة الأخذ بالحضارة الأوربية الحديثة .

من المؤلفات الأجنبية الهامة التي صدرت منذ وقت قريب كتابي مارلو القومية العربية والإمبريالية البريطانية وكذلك كتاب البرت حوراني : الفكر الفكر العربي في العصر اللبرالى . وفيما يلي عرض لهما :

المؤلف : **John Marlowe**

الكتاب : **Arab Nationalism & British Imperialism. London 1962.**

تعليق : الدكتور جمال زكريا قاسم

القضية التي يطرحها جون مارلو في كتابه تقوم على أساس أن القومية عنصر هام من عناصر الوحدة السياسية وإن كان يقرر أنه على الرغم من توافر الشعور القومى في أحيان كثيرة فإن الوحدة السياسية لا تتحقق إلا بوجود قوة منفذة لها . وفي بعض الأحيان لاتتوافر الظروف لقيام الوحدة السياسية فالعالم العربي لم يصل إلى تحقيق وحدته السياسية على الرغم من توافر العناصر الأساسية من لغة وتراث وتقاليد مشتركة .

ويبدأ المؤلف دراسته للقومية العربية بالتأكيد أن العرب عاشوا قرابة أربعة قرون في وحدة تكاد تكون متكاملة في نطاق تبعيتهم للدولة العثمانية. ونجح العرب في الاحتفاظ بشخصيتهم في إطار هذه التبعية ساعدهم على ذلك أسلوب الحكم العثماني من ناحية ومن ناحية أخرى أن السياسة الأوربية كانت حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر تميل إلى المحافظة على التكامل السياسى للدولة العثمانية .

ولكن العرب بدأوا يتعرضون منذ نهاية القرن التاسع عشر لموجة إمبريالية من ناحية ولسياسة مركزية شديدة الوطأة سارت عليها الدولة العثمانية خاصة منذ وصول جماعة الاتحاد والترقي إلى الحكم في عام ١٩٠٨ من ناحية أخرى . وقد أثر هذان العاملان بطريقة غير مباشرة في صهر القومية العربية

ظهر ذلك في المؤتمر الذى عقده العرب بباريس عام ١٩١٣ وفي أعقاب ذلك المؤتمر تحول وضع القومية العربية من مجال المناقشة النظرية إلى مجال التطبيق العملى السياسى ، وقابل ذلك رد فعل من قبل بريطانيا التى عملت خلال الحرب العالمية الأولى على تركيز نفوذها في المنطقة العربية واتخاذ مصر قاعدة لذلك النفوذ خاصة بعد انهيار الدولة العثمانية . على أن بريطانيا لم تكن تتصرف بمفردها في وراثة الدولة العثمانية إذ كان أمامها فرنسا التى أصرت على أن يكون نصيبها في تركها الدولة العثمانية موازناً لنصيب بريطانيا وقد وضعت مطالبة على سوريا ولبنان بصفة خاصة بالنظر إلى مصالحها التقليدية في هذين الإقليمين . ولذلك يرى المؤلف أن الصهيونية لم تكن لتحظى برعاية بريطانيا ما لم تُواجه بريطانيا بمطالبة فرنسا بجميع سوريا بما فيها فلسطين . وإن كنا نرى أن تعاطف بريطانيا مع الصهيونية يرجع إلى عوامل أخرى بالإضافة إلى ذلك العامل وعلى الرغم من أن بريطانيا وفرنسا استطاعتا في الفترة فيما بين الحربين إحلال الأماني الإقليمية محل القومية العربية فقد تميزت هذه الفترة مع ذلك بأنها كانت مرحلة هامة من مراحل تطور القومية العربية إذ نتج عن المطامع الصهيونية في فلسطين أن أصبحت القضية الفلسطينية بمثابة البؤرة المجمعة لحركة القومية العربية . ثم يعرض المؤلف لمرحلتين هامتين مرت بهما العلاقة بين العرب وبين بريطانيا وغيرها من الدول الإمبريالية : المرحلة الأولى : وتتميز باتجاه هذه الدول إلى ضم البلاد العربية إلى مناطق نفوذها في فترة ما بين الحربين والمرحلة الثانية : وتتميز باستقلال البلاد العربية في أعقاب الحرب العالمية الثانية ومحاولة الدول الغربية ربط الدول العربية المستقلة في المحالفات العسكرية . ومن الطبيعى أن تتعرض المرحلة الثانية — وهذا ما يركز عليه المؤلف — لمعارضة شديدة من قبل القوى الوطنية التى استعانت في نضالها ضد الدول العربية بالقومية العربية وعلى هذا الأساس يمكن القول أن القومية العربية نمت كرد فعل للضغط الإمبريالى على العالم العربي وساعد على اطراد نموها أنها كانت نابعة من شعور العرب بأهمية تحقيق الوحدة العربية باعتبارها السبيل لمقاومة النفوذ الغربي .

وعلى الرغم مما أكدته الحرب العالمية الثانية من أهمية العالم العربي ، وإدراك زعماء العرب بأنفسهم مزايا تلك الأهمية فقد كان من المفروض أن يركزوا سياستهم بهدف استغلال هذه الأهمية المتزايدة للعالم العربي بدلاً من أن يستغلوا بسببها ولكن عرقل ذلك استمرار التشاحن بين زعماء العرب ولا شك أن بريطانيا وغيرها من الدول الغربية صاحبة المصالح في المنطقة العربية كانت تقف وراء هذه المنازعات وتعمل على تعميقها . فالملك عبد الله ملك الأردن نظر إلى الوحدة العربية في مملكة هاشمية تضم سوريا الكبرى ، أما نورى السعيد فقد نظر إلى الوحدة العربية في دولة عراقية كبيرة يبعد عنها مصر والسعودية . أما السعودية فقد رفضت زيادة نفوذ الأسرة الهاشمية وفي لبنان كان المسيحيون يخشون من وحدة عربية قد تعرضهم لسيطرة الأغلبية العظمى من المسلمين . وكانت هذه الخلافات هى التى استفادت منها إسرائيل في الإستيلاء على فلسطين وهذا يسجل نقطة تحول بالغة في سير الحركة العربية . وتميزت السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية أيضاً بنمو المعسكر الإشتراكى واتجاهه لتأييد الحركات الإستقلالية في العالم العربي لمقاومة النفوذ الإمبريالى . وكان لذلك تأثير بالغ في الأحزاب السياسية التى ظهرت في بعض الدول العربية في أعقاب الحرب العالمية الثانية وتميزت باتجاهها اليسارى ولكن هذه الأحزاب كانت تفتقر إلى التأثير الفعلى نتيجة عدم الإعتراف بها فضلاً عن قلة عدد ممثليها في المجالس النيابية . ولذلك وقع على الجيش عبء الصراع ضد الإمبريالية وشهد العالم العربي بالفعل حركات قام بها الجيش في كل من سوريا ومصر والعراق . ويقرر المؤلف دخول القومية العربية في طور جديد بقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر وما ترتب على قيام هذه الثورة من انقسام العالم العربي بين قوى تقدمية وطنية وبين قوى تعتمد على تأييد المعسكر الغربي لها وقد برز ذلك بصفة خاصة في عام ١٩٥٥ بقيام حلف بغداد ، واتجاه بريطانيا إلى ذلك الحلف يؤرخ لمرحلة هامة لأن بريطانيا كانت إلى ما قبل تكوينها لحلف بغداد تعتمد على قاعدة قناة السويس فلما فقدت القناة بدأت هذا الإتجاه الجديد . ومن الطبيعى أن تواجه سياسة مصر بتكتل غربي لمحاولة إقصائها وعزلها عن العالم العربي خاصة لما قد يترتب على نجاح سياستها

من عرقلة النفوذ الغربي الداعى إلى عقد المحالفات العسكرية ومن هنا تركزت دعاية الدول الإمبريالية بأن اتجاه مصر ليس إلى القومية العربية بقدر ما هو اتجاه إلى سياسة المجال الحيوى باعتبار العالم العربي متنفساً إقتصادياً لمصر في وقت يزداد فيه سكانها وتحتاج إلى عملية تهجير واسعة لفلاحيها . وقابلت مصر ذلك بتأكيدها على الوحدة العربية والحياد الإيجابي وانتهاج سياسة ضد الإمبريالية . ووجدت مصر من الدول العربية من كان على استعداد لأن يتمشى مع سياستها في مقاومة المعسكر الإمبريالى وبرزت السعودية في عام ١٩٥٥ وكان ذلك على أثر توتر العلاقات بينها وبين بريطانيا نتيجة الإعتداء البريطاني على واحة البوريمى . كما تسجل الفترة السابقة لحرب السويس تصاعداً للمد القومى العربي برفض الأردن الإنضمام إلى بغداد وإلغائه المعاهدة التى تربطه ببريطانيا ودخول الجيش الأردني مع الجيش المصرى والسورى في قيادة عربية مشتركة . وفي عام ١٩٥٦ صدر دستور الجمهورية المصرية الذى أعلن أن مصر جزءاً من الأمة العربية . ولا شك أن بريطانيا استاءت من فقدها النفوذ في الأردن بالإضافة إلى تأثير زحف تيار القومية العربية على مناطق نفوذها في الخليج والجنوب العربي — كذلك استاءت إسرائيل التى كانت تدرك أن بقاءها وسلامتها يعتمدان على فرقة العرب وأن وجود قوة دفاع عربية مشتركة يؤدى إلى إحاطتها بدول عربية قوية . كذلك نظرت فرنسا إلى مساندة مصر للثوار الجزائريين خلال حرب التحرير الجزائرية بفزع بالغ أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد أعلنت استياءها من سياسة الحياد الإيجابي وعدم الإنحياز.

وترتب على ذلك تكتل غربي انتهى بوقوع العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦ . وعلى الرغم من أن مصر استطاعت تحويل هذا العدوان إلى نصر كبير فقد استمرت التحديات الإمبريالية قائمة بإعلان مبدأ أيزنهاور ١٩٥٧ الذى قصدت به الولايات المتحدة الأمريكية تحقيق ما فشلت فيه بريطانيا وكان من نتيجة انجذاب كل من لبنان والسعودية والأردن إلى دائرة المعسكر الغربي ولم يكد ينتصف عام ١٩٥٧ حتى وضح أن مشروع أيزنهاور قد نجح في تخفيف العزلة التى فرضت على العراق نتيجة انضمامه إلى حلف بغداد .

وبعد ذلك تأتي مرحلة أخرى بإعلان الجمهورية العربية المتحدة ثم قيام ثورة العراق سنة ١٩٥٨ تتلوها مرحلة مضادة تتميز بانحراف الثورة العراقية ووقوع الإنفصال بين مصر وسوريا في عام ١٩٦١ وهذا ما يقف عنده المؤلف وإن كان يرى تحول السياسة العربية إلى اتجاه جديد نحو تصفية الخلافات القائمة بين ملوك العرب ورؤسائهم الأمر الذى يظهر في مؤتمرات القمة العربية التى بدأت تنعقد منذ ذلك الحين .